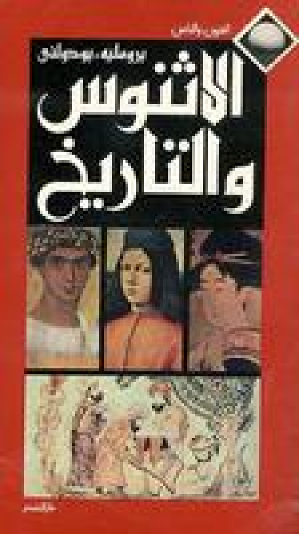

الاثنوس
والتاريخ

ترجمة طارق معصراني

Ю. Бромлей, Р. Подольный
ЭТНОС И ИСТОРИЯ
На арабском языке

БРОМЛЕЙ Юлиан Владимирович
ПОДОЛЬНЫЙ Роман Григорьевич
ЭТНОС И ИСТОРИЯ
На арабском языке

Редактор русского текста *О. Ф. Тихомиров*
Контрольный редактор *С. З. Налич*
Художник *В. Новиков*
Художественный редактор *И. Чернышева*
Технический редактор *С. Л. Рябинина*

ИБ № 16184
Сдано в набор 25.09.87. Подписано в печать 29.06.88. Формат $84 \times 100^1/_{32}$. Бумага Вишера № 1—70 г. Гарнитура каирская. Печать высокая. Условн. печ. л. 15,6. Усл. кр.-отт. 16,23. Уч.-изд. л. 22,33. Тираж 8185 экз. Заказ № 531. Цена 1 р. 60 к. Изд. № 43447. Ордена Трудового Красного Знамени издательство «Прогресс» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 119841, ГСП, Москва, Г-21, Зубовский бульвар, 17. Ордена Трудового Красного Знамени Московская типография № 7 «Искра революции» «Совэкспорткнига» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. Москва, 121019, пер. Аксакова, 13.

دار التقدم ، ١٩٨٨
طبع فى الاتحاد السوفييتى

Б $\frac{0506000000—537}{014(01)—88}$ 225—88

ISBN 5-01-000747-9

المقدمة . الشعوب تكون البشرية

البشرية كبيرة ، ومجتمعاتها متنوعة : كل انسان ينتمى الى فئة اجتماعية معينة ، الى طبقة ، وهو فرد فى اسرته وساكن بلدة او قرية او مدينة ، ومواطن لهذه الدولة او تلك .

وكل منا يمثل شعبه واثنوسه ، ويحمل فى ذاته ثقافة سلالية . لقد وجدت الاثنوسات قبل وجود الدول والمدن . . كانت البشرية ، باختصار ، مقسمة الى شعوب واثنوسات منذ البداية . ويبدو ان كل ما فى هذه العبارة صحيح ، ولكن الافضل القول على نحو آخر : البشرية تتكون من شعوب . او بتعبير ادق : البشرية هى الشعوب . الروس والعرب . لانكليز والزولو ، الاستراليون والمجريون ، الغجر والكيتشوا . اننا كثر بحيث لا نستطيع بعد تحديد العدد الدقيق للشعوب القاطنة فى الارض : الامم والاقوام والقبائل . من المعروف انها تبلغ الالوف : منها الكبيرة والصغيرة ، منها ما يعد بالملايين ومنها ما يعد بمئات الاشخاص فقط . الشعوب مختلفة ، ولكنها متساوية تاريخيا : ان تطورها ، مع كل تبايناتها التاريخية ، يخضع لقوانين تاريخية واحدة .

تضطلع العمليات السلالية بدور جبار فى حياة المجتمع . والدراسة النظرية لهذه العمليات المرتبطة ارتباطا وثيقا بالعوامل الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية امر فى غاية

الاهمية ، ولا سيما اذا اخذ فى الاعتبار ان العمليات السلالية نفسها تمارس ، بدورها ، تأثيرا كبيرا الى حد بعيد فـــى المجالات الاخرى من الحياة الاجتماعية . .

وبهذا ينطوى البحث فيها سواء على مغزى نظرى ، او على مغزى عملى ملح ، مع العلم انه لا يكفى لتحقيق هذين الغرضين البحث فى حالة الشعوب الراهنة وعلاقاتها وتاثيرها المتبادل فى الوقت الحاضر فقط ، اذ لا يمكن فهم ما هو حيوى بدون دراسة الماضى ، كما لا يمكن بدون هذه الدراسة القاء نظرة على مستقبل الشعب المحتمل .

ومهمة هذا الكتاب ، كما يراها المؤلفان ، اعطاء تصور لكيفية نظر العلم المعاصر الى سنن تطور الاثنوسات والروابط السلالية الاخرى ولخارطة العالم السلالية المعاصرة ، واظهار مختلف طرق تكون الشعوب وانماط اهم العمليات السلالية ، وقد سعينا الى اخضاع كل هذا لهدف عام ، وهو تعيين مكان الاثنوسات فى التاريخ ، بما فى ذلك تاريخ ايامنا .

وبناء على فكرة المؤلفين تتعاقب المواضيع النظريـــة العامة هنا مع المواضيع المكرسة لتوزع الاثنوسات فـــى المعمورة وتاريخ تكون الشعوب على حدة ، مع العلم ان كـل موضوع اختير ليعرض ، كما نفترض ، مثالا نموذجيا بما فيه الكفاية ، مع كل خصائصه ، لنمط تطور الروابط السلالية .

وبودنا الا يقتصر هذا الكتاب على اثارة انتباه زملائنا – الاختصاصيين والاختصاصيـــين المقبلين – من مؤرخيـــن والاثنوغرافيين فحسب ، بل ان يثير ايضا انتباه كل من يهتم «مجرد» اهتمام جدى وعميق بتاريخ شعبه والشعوب الاخرى التى تكون بمجموعها البشرية .

القسم الاول

علم الشعوب

تعالج علوم كثيرة قضية تكون الشعوب وتطورها . انها الفلسفة والتاريخ ، علم الاثار وفقه اللغة ، السوسيولوجيا والجغرافيا . وطبيعى ان يشغل حيزا خاصا بينها العلم الذى يعتبر دراسة الملامح المميزة لشعوب العالم مهمته الرئيسية . وهذا العلم تطلق عليه تسميات مختلفة فى شتى البلدان . فهو يسمى اثنولوجيا وعلم منشأ الشعوب ، واحيانـــا انتروبولوجيا . وهـــذا العلم يسمى فى بلادنا تقليديـــا بالاثنوغرافيا (تعنى «الاثنوغرافيا» حرفيا باللغة اليونانيـــة القديمة «وصف الشعوب») . والاثنوغرافيا مادة تاريخية ، وهى تدخل الى جانب المواد المماثلة الاخرى فى دائرة واسعة من العلوم التى تدرس المجتمع فى تطوره ، وتهتم عـــلى نحو خاص بمنشأ الشعوب وتغيراتها فى الزمان . وفى غضون ذلك تشغل مركز الصدارة من دراستها دراسة الثقافة المادية والروحية للشعوب الاثنوسات . ويعار اشد اهتمام فى ثقافة الاثنوسات لجوانبها التى تتجلى فيها باوضح ما يكون الملامح الاكثر تمييزا لنمط حياة الشعب .

لا يمكن فى كتاب واحد ، طبعا ، ان ينعكس الا جـــزء صغير من العمل الذى انجزه العلماء الذين يقومون بدراسة الشعوب .

ستجدون هنا عرضا لمواقع انطلاق المؤلفين الاساسية فى صدد جملة من المسائل الرئيسية للموضوع الذى اختاراه ، وستعثرون على امثلة لدى توضيح ما يجرى للشعـــوب –

الاثنوسات فى تطورها التاريخى ، وستقراون كيف تحل فى الابحاث الاثنوغرافية قضايا المنشأ السلالى والتاريخ السلالى ، بما فى ذلك التاريخ المعاصر . نبدأ بوصف الكيفية التى يرى فيها الاثنوغرافيون السوفييت علمهم ودائرة المواضيع الملموسة لدراسته .

تتجلى خاصية الاثنوغرافيا باسطع ما يكون فى ان هذا العلم لا يهتم فى المواضيع التى يبحث فيها بما هو عام لدى مختلف الشعوب فحسب ، بل يهتم كذلك وقبل كل شىء بما هو خاص ومميز وملازم لكل اثنوس . ومن هذه الناحية تختلف مادتنا كل الاختلاف عن السوسيولوجيا التى ربما كانت اقرب العلوم الى علمنا . ان السوسيولوجيين ، اذ يدرسون البنى والاحداث الاجتماعية ، يبحثون عن تجليات القوانين العامة التى تسير حركة التاريخ ، ولهذا تجذب العمليات النموذجية اهتمامهم قبل كل شىء . اما الاثنوغرافيون فيهتمون بالدرجة الاولى لدى دراسة مواضيعهم بما هو خاص ، متميز ، فريد ، وبقسط هذا الفريد فى العام . السوسيولوجى يلاحظ ويسجل ما هو عام وملازم للناس كلهم او لتشكيلات اجتماعية واسعة : على هذا النحو تقريبا ينظر السوسيولوجى الى المجتمع الذى يدرسه . اما اهتمام الاثنوغرافى فينصب على الملامح والخصائص غير العادية ، ولكن للشعب ، لا للفرد .

اذا اطلقنا العنان للتشبيه نستطيع القول ان السوسيولوجيا تعالج مواضيعها وكانها ساكن من سكان المريخ قدم الى الارض ، اما الاثنوغرافى فيتصرف وكانه محقق يقوم بدراسة ملابسات جريمة جنائية . من شان ساكن المريخ ، ولا شك ، ان يهتم بعدد عيون الانسان اكثر من اهتمامه بلونها ، وان يعد اصابع اليد ، ولكن من المستبعد ان يهتم ببصمات هذه الاصابع . ومن شأنه ان يعير اهتمامه وانتباهه لما هو مميز للناس جميعا او لمجموعات كبيرة جدا على الاقل . وهكذا ينظر السوسيولوجى تقريبا الى خلية المجتمع التى يبحث فيها .

اما المحقق فانه ، على العكس ، يهتم بتفاصيل المظهر

الخارجى التى تميز شخصا معينا عن الناس الاخرين . يلزمه هنا لون العينين ونوع بصمات الاصابع وامور كثيرة اخرى ، ولكنه لن يهتم بعدد العينين الا اذا . . اكتشف ان الانسان فاقد لاحدى عينيه ، مما يشكل عنده علامة فارقة . وكذلك تشغل اهتمام الاثنوغرافى ، شأن المحقق الذى تخيلناه ، العلامات الفارقة الخارقة ولكن لشعب كامل ، لا لشخص واحد .

لا توجد ، طبعا ، مقارنة تخلو من الهنات . فليس من النادر ان يتصرف السوسيولوجى كاثنوغرافى ، وان يمارس الاثنوغرافى قضايا يمكن ان تعزى الى السوسيولوجيا . وكلاهما يبرز من حيث الجوهر كباحث فى العام وكباحث فى الخاص فى آن واحد ، والامر ينحصر فى الصفة الغالبة على كل من المادتين ، وفى الحقيقة الكامنة فى لب دراستها .

ناخذ ، على سبيل المثال ، كتابين صدرا مؤخرا فى بلادنا ، وكل منهما مكرس لبلدة كولخوزية سوفييتية . احدهما لبلدة مولدافية واسمه «كوبانكا بعد ٢٥ سنة» ، والآخر لبلدة روسية ، واسمه «بلدة فيرياتينو فى الماضى والحاضر» . الاول محصلة لبحث سوسيولوجى ، والثانى لبحث اثنوغرافى . تحدث السوسيولوجيون فى كتابهم قبل كل شىء عن ملامح لحياة ومعيشة البلدة الكولخوزية المولدافية ليست مميزة لهذه البلدة فحسب ، ولا حتى للكولخوزيين المولدافيين فقط ، بل لكل الفلاحين السوفييت . اما الاثنوغرافيون فدرسوا وابرزوا فى فيرياتينو خصائص للثقافة والمعيشة تلازم معيشة وثقافة الشعب الروسى باسره وتميزهما عن معيشة وثقافة الشعوب الاخرى ، وكذلك بعض الدقائق الخاصة التى تميز اهل فيرياتينو عن سكان المناطق الاخرى فى البلاد ، ومن بينهم سكان البلدات المجاورة .

احيانا يعرب عن راى مفاده ان اختلافات الاثنوسات عن بعضها البعض مسألة ثانوية بالنسبة الى استيضاح جوهرها . ولكن يغيب عن الانظار فى غضون ذلك ان وحدة الخصائص المميزة الخارجية للروابط السلالية تشكل بحد ذاتها تعبيرا

عن صلات داخلية معينة فيها . والخاصية المميزة للروابط السلالية تكمن على وجه التحديد فى كون اختلافها المتبادل يشكل خاصيتها الاكيدة التى تنطوى على مغزى تصنيفى هام .

ولعله يمكن القول ان الاثنوغرافيا استطاعت ان تحافظ بدرجة من الدرجات على تناول موضوعها بالشكل الذى كان ملازما لرحالة عصر الاكتشافات الجغرافية العظيمة . لقد ادهشتهم فى الازمنة الغابرة الاختلافات بين الشعوب التى اكتشفوها وتلك التى يعرفونها ، بحيث ان هؤلاء الباحثين الجريئين لم يلاحظوا تقريبا ما هو عام بين الناس المنتمين الى هذه الشعوب وبين مواطنيهم ، وحينما لاحظوه عجبوا للتشابه اكثر من عجبهم للاختلافات .

يعرف الاثنوغرافيون اليوم ان الملامح المشتركة بين اناس العالم باسره اكثر من الاختلافات بما لا يقارن ، ولكنهم يدرسون بشكل خاص هذه الاخيرة بالذات . ولهذا فان الاثنوغرافيا تكتنفها الى الان هالة من السحر ، مع انها لا تقتصر ابدا على دراسة الشعوب البعيدة ، واهتمام الاثنوغرافيين بالروس والعرب والايطاليين لا يقل عن اهتمامهم باليابانيين . وليس ثمة ما يدعو الى العجب فى كون هذا العلم قد احتفظ بالقدرة التى ورثها عن طفولته ، القدرة على ان يدهش ويندهش ، وهى قدرة مميزة ، فى نهاية المطاف ، لكل علم حقيقى ، حى . وسوف نتذكر ايضا انه حتى ولو بدا للكثيرين اليوم ان الفيزياء والرياضيات هما اعقد العلوم ، فان العلوم التى تدرس الانسان ليست فى الواقع اقل تعقيدا ابدا ، والقضايا التى تواجهنا ليست ، بالطبع ، اقل جدية ابدا . ان اكتشافات علم التاريخ اجمالا ، والاثنوغرافيا جزء هام منه يتمتع بكامل الحقوق ، تمارس فى حياة البشرية تاثيرا جبارا لا يقل ابدا عن اكتشافات العلوم الدقيقة .

ومعروف منذ زمن بعيد انه بدون دراسة الخاص يستحيل فهم العام والمبدئى . واذ يدرس علمنا الخاصية السلالية لهذا الشعب او ذاك ، يؤدى قسطه الذى لا يستغنى عنه فى معرفة الانسان والبشرية والتاريخ .

الاثنوس كرابطة

يعود الى شيروكوغوروف اول وصف مسهب للاثنوس فى مراجعنا الروسية . وبناء على تعريفه ، فان «الاثنوس هو مجموعة من الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة ويعترفون باصلهم الواحد ويملكون جملة من العادات ونمط حياة تحفظه وتكرسه التقاليد التى تميز هذه المجموعة عن المجموعات الاخرى المماثلة» . لقد اقترن فهم الاثنوس عند شيروكوغورف بادراج الظواهر البيولوجية فى هذه الرابطة . وينبغى القول ان هذا التصور استمر فترة مديدة .

هذا ويمكن العثور فى الادبيات السوفييتية ، مثلا ، على راى مفاده تقريبا ان الاثنوسات تمثل ارتقاء للوحدات البيولوجية ، اى السكان ، او انظمة تظهر نتيجة تغير فجائى . ولكن بين اختصاصيينا اجمالا يسود بوضوح تصور الاثنوس بمثابة ظاهرة اجتماعية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة . والى جانب ذلك يوجد فى اطار التناول العام لفهم طبيعة الاثنوس غير قليل من الاختلافات فى تعريفاته الملموسة . فبعض المؤلفين ، مثلا ، يعتبرون رابطة اللغة والثقافة سمة الاثنوس الرئيسية ، ويضيف بعضهم الى هذا رابطة الارض والوعى السلالى ، ويشير بعضهم ، علاوة على ذلك ، الى خصائص التكوين النفسى ، وينوه احيانا فى اطار التصنيف نفسه بالخصائص الانتروبولوجية ، وتضاف ايضا الى عداد السمات السلالية رابطة الاصل ، وكذلك الجنسية . ويعرب عن راى مفاده ان اية سمة من سمات الاثنوس لا تعتبر حتمية . ومع ذلك يشار الى ان الاثنوسات هى انظمة متكاملة ترتبط ارتباطا لا ينفصم بالعوامل الاقتصادية – الاجتماعية .

ما هو سبب الاختلافات فى وصف الحقائق السلالية فى المراجع العلمية ؟ فى راينا ، ان الجواب عن هذا السؤال ينبغى البحث عنه قبل كل شىء فى تعقد مادتنا وتعدد جوانبها . فى بعض الحالات يقصد المؤلفون الروابط البيولوجية (السلالية) على وجه الحصر او بصورة غالبة ، وفى حالات

غيرها يقصدون ايضا الروابط البيولوجية والاجتماعية ، وفى حالات اخرى الروابط الاجتماعية . فى بعض الحالات يقصدون شعوب العالم كلها ، وفى حالات اخرى لا يقصدون سوى تلك التى فى درجة بدائية من التطور او الجماعات المنعزلة التى تشكل شعوبا . اما فى الحالات التى تؤخذ فيها مواد متجانسة نسبيا لاظهار الخصائص المميزة للوحدات السلالية ، فان التباين فى تعريف هذه الخصائص ناجم الى درجة كبيرة عن تعقد هذه المواد نفسها . وتؤثر ايضا الاختلافات فى تناول كيفية حل مهمة اظهار خصائص مواد البحث ، ولا سيما تلك التى يمكن اعتبارها نموذجية الى الحد الاقصى .

فما هى روابط الناس التى يمكن عزوها الى الاثنوسات – الشعوب ؟ وما هى صفاتها المميزة ؟ ان احدى هذه الصفات ، والتى ربما كانت اكثرها وضوحا ، هى ما يلى : كل من الاثنوسات – الشعوب يملك سمة جلية واكيدة هى التسمية التى يطلقها على نفسه وما يرافقها من اسم خاص به ، الاثنونيم . ننوه – التسمية الذاتية على وجه التحديد . وذلك لان الاسماء التى تطلقها الشعوب الاخرى على الاثنوس لا يندر ان تختلف الى حد بعيد لا عن الاثنونيم – التسمية الذاتية فحسب ، بل عن بعضها البعض ايضا . اذ ان الاثنوس ذى الاثنونيم الداخلى «دويتش» ، مثلا ، يسمى بالروسية «نيمتسى» ، وبالفرنسية «المان» ، وبالانكليزية «جيرمان» ، وبالايطالية «تيديسكو» وبالفنلندية «سكسالاينين» وبالصربية «شفاب» الخ .

والى جانب ذلك يجب ان يؤخذ فى الاعتبار ان كلمة «الشعب» يمكن ان تطلق على مجموعة الناس ذات التسمية الذاتية حتى وان كان توزعها لا يتطابق بهذه الدرجة او تلك مع حدود الدولة الواحدة ، حيث تتجاوز اطارها او تعيش فى جزء منها فقط . وثمة هنا احتمالان اساسيان : آ) حينما تعود التسمية الذاتية للمجموعة الى اسم الارض التى تعيش فيها ، اى حينما تكون طوبونيما : ب) حينما تعكس التسمية الذاتية للمجموعة الطابع السلالى ، اى حينما تكون اثنونيما .

فكيف نميز بين الاثنونيمات والطوبونيمات والبوليتونيمات ؟ يبدو ان رسوخ التسمية الذاتية يشكل فى هذه الحالة احد المؤشرات الاساسية . اذ ان لشعوب العالم ، كما هو معروف ، روابط راسخة للغاية تحمل التسمية الخاصة ذاتها على امتداد اجيال عديدة . ولعله من المميز بشكل خاص فى غضون ذلك تلك الحالات ، حينما يعيش بعض اجزاء هذه الرابطة لامد طويل بعيدا نسبيا عن نطاق اقامته الاولى لهذا السبب او ذاك . اذا كانت هذه المجموعة من الناس تحافظ على تسميتها الذاتية بثبات ومن جيل الى جيل ، تكون هذه التسمية الذاتية اثنونيما على الارجح ، وتكون المجموعة المعنية اثنوسا .

والى جانب ذلك ، فان جوهر الاثنوسات لا يقتصر ، طبعا ، على تسميتها الذاتية مهما كانت راسخة . ولهذا يجب لفرزها من بين الروابط البشرية الاخرى معرفة ما الذى يوحد اناس الاثنونيم المعنى الى جانب هذه السمة الخارجية البحت . ان توفر اسم ذاتي – اثنونيم واحد يفترض وعيا ذاتيا لدى كل من الروابط التى نبحث فيها .

وبالفعل ، فحتى فى تلك الحالة اذا كانت ، مثلا ، جماعات من الاسبان او الصينيين او الفرنسيين تعيش فى بلدان مختلفة ، فان كلا من هذه الجماعات تعى رابطتها المعينة . وممثلو كل من هذه الجماعات يميزون انفسهم عن افراد كل الروابط المماثلة الاخرى ، وهم يتسمون فى هذا الخصوص بتصور التعارض بين «نحن» و«هم» (بما فى ذلك التصور المبتذل ، العادى) .

لا تصعب ملاحظة اننا لا نزال نتحدث عن التجليات الذاتية لخصائص الاثنوس . وقد يتكون انطباع ان امامنا معايير متداعية له ، ولا سيما اذا راعينا فى غضون ذلك الطابع الكيفى بدرجة من الدرجات لتحديد الناس انتماءهم الى هذا الاثنوس او ذاك . احيانا نجد الشخص ذاته يعزو نفسه الى هذا الاثنوس مرة والى ذاك مرة اخرى ، كأن يعزو نفسه الى الليتوانيين مرة والى البيلوروسيين مرة ثانية . بيد ان

هذا «الطابع الكيفي» مردّه فى هذا المثال الى ان ذلك الشخص يملك بهذه الدرجة او تلك خصائص كلا الاثنوسين اللذين يعزو نفسه اليهما ؛ ومن المميز ان هذا الانسان لا يضع نفسه ابدا فى عداد اى اثنوس ثالث .

ان تصورنا للامر هو ان الوعى السلالى ، شأنه شأن اى شكل آخر للوعى ، ظاهرة ثانوية ناجمة عن عوامل موضوعية . ومن الخطأ جعل جوهر الاثنوسات يقتصر على الوعى بصورة غالبة او على وجه الحصر ، فنترك جانبا او لا نراعى كما يجب الوجود الفعلى لهذه الروابط الذى يعكسه . لا تظهر الاثنوسات وفقا لارادة الناس ، بل نتيجة التطور الموضوعى للعملية التاريخية . وهى تشمل اجيالا عديدة من الناس ، اى ان رسوخ جذور الاثنوس هو من اكثر صفاته تميزا .

ان الاثنوسات مقولة تقوم على المقارنة ، وتكمن فى اساس هذه المقارنة خصائص الاثنوسات – الشعوب الموضوعية التى توجد بصورة مستقلة عن رغبات افرادها الذاتية .

واذ ننتقل الى ايضاح هذه الخصائص الموضوعية نفسها للاثنوسات ، نبدأ باحدى اكثر المسائل تعقيدا : ما مدى حتمية رابطة الارض كوسط طبيعى للحياة بالنسبة الى معيشة الاثنوسات ؟ ينبغى لدى حلها التحديد الواضح لوحدة الارض كشرط لظهور الاثنوس وكعامل وجوده ، اى من الناحية التاريخية . واذ تبرز وحدة الارض بمثابة اهم شرط لتكون الاثنوس ، لا تعود فى تطوره التاريخى اللاحق عاملا حتميا لا مفر منه لتجديد خصائصه المميزة .

وليس من النادر ان نرى اصحاب الاثنونيم الواحد ، حتى وان كانوا يعيشون متباعدين ، يحتفظون من جيل الى جيل بانتمائهم السلالى (مثل الارمن فى الاتحاد السوفييتى وسورية والولايات المتحدة الامريكية الخ . ، والاوكرانيين فى الاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا وكندا الخ .) .

على الخارطة المفصلة للتقسيمات الادارية فى الاتحاد السوفييتى ترون ، ضمن اراضى اذربيجان السوفييتية ، مقاطعة ناغورنى كاراباخ ذات الحكم الذاتى التى يشكل فيها الارمن اغلب السكان . اما فى جمهورية نوخيتشيفان ذات الحكم الذاتى فيشكل الاذربيجانيون اغلب السكان ، رغم ان اراضى ارمينيا تفصلها عن الجزء الاساسى من اذربيجان . وضمن روسيا الاتحادية تقع الجمهورية الاوسيتينية الشمالية ذات الحكم الذاتى ، وضمن جورجيا السوفييتية تقع المقاطعة الاوسيتينية الجنوبية ذات الحكم الذاتى . لقد اصبح الشعب الاوسيتينى تاريخيا منقسما الى جزئين استقرا على جانبى سلسلة القفقاس الجبلية الكبرى . وشعبا مياو وياو مشتتان فى جنوب الصين ، وفى فيتنام ، وفى لاوس ، وهما يعيشان فى هذه البلدان كلها على شكل جزر وسط محيط السكان الاساسيين .

وقد يغير الشعب ارضه على امتداد تاريخه كله . فالكالميكيون كانوا منذ اربعة قرون فقط يعيشون فى وسط آسيا ، اما الان فيعيشون فى منطقة مجرى الفولغا الاسفل . وغير الاثنوس المجري فى خلال الالف وخمسمئة سنة الاخيرة اراضى اقامته اربع ، وربما خمس ، مرات .

قد يبدو للوهلة الاولى انه تاتى ضمن الصفات الخاصة للاثنوسات الخصائص المميزة الخارجية لنمط الناس الجسدى ، اى السمات العرقية (الانتروبولوجية) . وليس من النادر ان تشكل هذه السمات الواضحة والثابتة والمميزة فى الممارسة الحياتية نقطة انطلاق ومؤشرا اوليا لدى تقرير مسألة الانتماء السلالى لهذا الشخص او ذاك ولهذه المجموعة من الناس او تلك .

اما فى خصوص التفسير العلمى لهذه القضية فيلفت النظر الظرف التالى الذى لا يخلو من تناقض معين . ففى مؤلفات بعض العلماء ، مثلا ، يشار احيانا الى ان اغلبية شعوب العالم تملك فى داخلها بنية عرقية متجانسة فى الاغلب . وتنوه جملة من المؤلفات الاخرى بأن النمط الجسدى ، العرقى لعدد من الروابط السلالية ليس متجانسا كقاعدة عامة ، وبالتالى تتحدث عن ضرورة التفريق الصارم بين

الاجناس والاثنوسات . والمقصود فى الحالة الاولى هو الاجناس الكبرى بصورة رئيسية .

وبالنسبة الى الخصائص الجسدية الخارجية التى تتسم بها الاجناس الكبرى ، فانها ، كقاعدة عامة ، لا تبرز بمثابة سمات مميزة بشدة للاثنوسات المجاورة . لا توجد حدود انتروبولوجية دقيقة بين الشعوب – الاثنوسات المتجاورة المنتمية الى احد الاجناس الكبرى . ان كلا من الاجناس الكبرى يملك مناطق شاسعة جدا تشمل عادة عددا كبيرا من الاثنوسات ذات القربى من وجهة نظر جذورها التاريخية . وهكذا فان ٥٨٪ من مجموع الناس المتحدرين من الشعوب الهندية الاوربية ينتمون الى الجنس الاوربى .

ولوحظ بعض التنوع فى الانماط العرقية الاساسية بين شعوب الاسرتين اللغويتين السامية – الحامية (الافريقية الاسيوية) والالطائية ، ولكن هاتين الاسرتين لا تشكلان سوى نسبة تربو قليلا على ٣٪ من البشرية جمعاء . وينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار كذلك ان قرابة ٣٠٪ من سكان العالم ينتمون الى مجموعات مختلطة وانتقالية من الناحية العرقية ، وهذا ما يصعّب للغاية وبصورة موضوعية تماما صياغة المعايير الانتروبولوجية بمثابة سمات سلالية مميزة . واخيرا ، لا بد من التذكير بان عددا من الاثنوسات مكون من اناس ينتمون الى اجناس مختلفة (اغلبية شعوب اميركا اللاتينية مثلا ، وفى البرازيل يعيش الى جانب الناس ذوى الدم الاوربى – الهندى – الافريقى اوربيون نموذجيون وزنوج صرف) . ان استحالة النظر الى الاختلافات العرقية كاختلافات سلالية امر واضح فى هذه الحالات .

وفى الوقت نفسه نجد ، على العكس ، ان الاختلافات الخارجية الحادة بين اناس شعب واحد ليست ابدا بالامر النادر . ويكفى ان نتذكر الزنوج الاميركيين الذين يشكلون ، فى رأى اغلبية العلماء ، جزءا لا يتجزّأ من الامة الاميركية شأن اخلاف الانكليز والايرلنديين والفرنسيين والايطاليين والسويديين المقيمين فى الولايات المتحدة الامريكية .

فالساكن المتوسط فى جنوب المانيا – بافاريا – هو اقتم لونا واعرض وجها واقصر قواما من الشمالي . ونسبة الشقر بين الالمان الشماليين اعلى بكثير مما فى بافاريا . والصينى من المناطق الشمالية الغربية فى البلاد يميز بسهولة عن صينى ساحل بحر الصين الجنوبى بملامح وجهه فقط .

فى اراضى صغيرة من افريقيا الوسطى تعيش بصورة متداخلة ثلاثة مجموعات من الناس تتكلم بلغة واحدة ، لغة الاورونيا رواندا ، وهى ، فى رأى بعض العلماء ، على وشك الاندماج فى قوم واحد ، مع انها مجموعات لاناس مختلفين اشد الاختلاف من حيث المظهر : انهم اقزام باتفا الاقويا، البنية القصار القامة والباتوتسى ذوو القامة الطويلة الى درجة خارقة والوجوه الطويلة واناس قبيلة الباخوتو الذين لا يتسمون أبدا بطول القامة على الخلفية العامة للبشرية . وما الطول ، طبعا الا احدى الخصائص الكثيرة التى تميز بين هذه المجموعات الثلاث .

لدى تطور الاثنوس يزول بالتدريج ، فى الاغلب ، الاختلافات العرقية الحادة فى داخله .

اليكم ما يقوله العالمان السوفييتيان تشيبوكساروف فى كتابهما «الشعوب ، الاجناس ، الثقافات» : «ان الاختلافات والفروق بين «البيض» والهنود والزنوج والهجناء والخلاسيين تنمحى بصورة متزايدة باطراد فى الكثير من بلدان اميركا اللاتينية . وعلى مرأى العين يتكون ، مثلا ، النمط البرازيلى . ولا مجال للشك فى ان البرازيليين لن يكونوا بعد عدة اجيال اقل تجانسا من الانكليز او السكانديناڤيين من الناحية العرقية» .

السبب مفهوم . فالناس ، الذين يشكلون الشعب ، يتزوجون بعضهم البعض اكثر مما يفعل ممثلو الاثنوسات المختلفة . ومن العوامل الهامة التى تفعل فعلها فى اثناء ظهور الشعوب وتطورها ما يسمى بالاندوغامية ، اى التزاوج داخل الاثنوس الواحد .

وهكذا ، فان لا توجد اسس كافية ، كما يبدو من وجهة

النظر العلمية ، لادخال المعايير الانتروبولوجية فى عداد اهم صفات الاثنوس المبدئية . ومن الواضح ان لهذا اهمية لدى تناول المسألة من الناحية التاريخية اذ ان التشكيلات العرقية سبقت الروابط السلالية نفسها .

سيتجلى الموضوع الذى ننظر فيه على نحو مغاير بالمرة ، حينما نتوجه الى خصائص الثقافة او ، بصورة اوسع ، الى ما يمكن تسميته بالملامح السلالية لنمط حياة الشعب .

اين يكمن هذا النمط الخاص ، المتفرد لحياة كل شعب – اثنوس ، وكيف تتبدى الخاصية السلالية فى الثقافة بالمعنى الواسع لهذا المصطلح ؟ واين تتجلى ؟ انها تتجلى فى الكثير جدا ، وفى الثقافة المادية بصورة رئيسية ، ولا سيما فى كيفية عمل الناس ونوعية الادوات التى يستخدمونها فى غضون ذلك .

ليس معقدا «تصميم» المحراث ، احدى اقدم ادوات الفلاحة التى كان فلاحو اوربا الشرقية يزرعون بها الارض على امتداد قرون طويلة . ولكن توجد العشرات من انواع هذه المحاريث . والفرق فى انماط الاداة الواحدة مردّه الى الاختلافات فى ظروف العمل نفسها . لقد كان صانعو المحراث يكيفونه ، مثلا ، مع خصائص التربة المميزة لمنطقتهم . واذ ياخذ الاثنوغرافى هذا فى الاعتبار ، ينظر الى نتائج هذا التكييف كعلامات خاصة جوهرية مبدئيا للشعب ، لان اسلوب انتاج الخيرات المادية يكمن فى اساس حياة الشعب .

ان المساكن التقليدية المتميزة لدى مختلف شعوب العالم اهم عنصر للثقافة المادية . هنـــا نجد بيوتا على الاوتاد (مثلا ، عند عدد من الملانيزيين والميكرونيزيين) ، ومساكن عائمة (مثلا ، عند الاورانغ لاوتيين وبعض الشعوب الاخرى فى جنوب شرقى آسيا) ، ومساكن متنقلـــة – يورتات ، تشومات ، تابى (عند رحل آسيا الوسطى وشعوب الشمال وهنود البريرى) ، وبيوتا ابراجا (عند شعوب القفقاس وعدد من الشعوب العربية وبعض شعوب افغانستان) ، ومساكن من الثلج – ايغلو (عند «اسكيمو القطب») وما شابه ذلك .

سنقوم بجولة عبر التاريخ ضرورية لمادتنـــا . فى السابق كان الفلاحون الروس فى كل الظروف تقريبا يبنون تقليديا بيوتا من الخشب ، حتى ولو انتقلوا الى مناطق تخلو من الغابات . فى التوندرا القطبية كانـــوا يبنون البيوت من جذوع الاشجار العائمـــة قرب الضفة . اما النازحـــون من وسط روسيا الى جنوب كازاخستان واوزبكستان وكوبان ، فغالبا ما كانوا يعيشون طويلا فى مساكن محفورة فى الارض ، مدخرين النقود باصرار لبناء مسكن من خشب . وفى جنوب اوكرانيا لم ينتقل الفلاحون الروس النازحون الا بالتدريج وفى بعض الاماكن فقط الى مادة بناء جديدة بالنسبة اليهم ، وهى اللبن ، وذلك تحت تأثير السكان المحليين القدماء .

وفى القفقاس كان البلقاريون يبنون بيوتا حجريـــة من طابق واحد ، الاوسيتينيون والشاشان والانغوش بيوتا من طابقين او ثلاثة ، وذلك رغم الظروف الطبيعية المتشابهة .

تمس الاختلافات بين الشعوب بنية الطعام المستهلـــك واساليب طهوه . وهكذا ، فان منتجات الزراعة تشكل اساس الطعام عند بعض الشعوب ، واللحم عند بعضها الاخر ، وهناك شعوب اختيوفاغية ، اى تستهلك فى غذائها السمك بصورة رئيسية . وانه لمعروف جيدا وجود محرمات عند الكثير من الشعوب تمنعها من تناول بعض اصناف الطعام . مثلا ، لا تأكل غالبية شعوب الهند لحم العجل ، ولا تأكل الشعوب التى تعتنق الاسلام واليهودية لحم الخنزير ، وبعض الشعوب لا تتناول تقريبا الحليب فى طعامها ، مثل المونخميريين .

ان الاشكال القومية للغذاء التقليدى ثابتة للغاية . وحتى الاتجاهات المعاصرة للتقريب بين الاطعمة تتطور فى اطار نماذجها القومية بصورة رئيسية . والتقاليد المتكونة باقية على نحو راسخ بشكل خاص فى غذاء سكان الريف ، ولكن غذاء سكان المدن ، على الرغم من التحولات الملحوظة فيه تماما لا يزال تقليديا بصورة عامة .

وليس من النادر حتى فى المدن الكبيرة ان يؤكل الخبز التقليدى بالنسبة الى منطقة معينة ، فالارمن والاذربيجانيون

يحبون كالسابق الخبز المشروح والرقيق كالورق ، وفى آسيا الوسطى ياكلون الارغفة المألوفة . . .

هذه التقاليد فى الطعام ذات «صبغة» سلالية وصفة تاريخية فى الوقت نفسه .

عرفت البطاطا فى بيلوروسيا منذ حوالى مئة وخمسين سنة ، ولكن هنا بالذات تحضر من البطاطا اصناف متنوعة كثيرة بشكل خاص ، وبيلوروسيا هى المكان الوحيد فى كل كوكبنا الذى يعرف فيه شىء اسمه عصيدة البطاطا . لم يبدأ الشاى والقهوة بالتسرب فى اوربا الا فى اواخر القرن السابع عشر ، وموقف سكان مختلف البلدان الاوربية منهما ينطوى بوضوح على خصائص قومية . فى فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ، مثلا ، لا يشربون الشاى تقريبا . وفى لاتفيا وليتوانيا واستونيا وارمينيا تستهلك القهوة «مقابل» الفرد من السكان اكثر بكثير مما فى المناطق الاخرى الواقعة فى الجزء الاوربى من الاتحاد السوفييتى . والانكليز يشربون الشاى دائما تقريبا مع الحليب .

ان الملابس عنصر هام للثقافة المادية . فبالطاقية وحدها كان يمكن عند الاوزبكيين ان يحدد المرء بلا خطأ المكان الذى نشأ فيه الشخص . والى الآن يمكن عند بعض شعوب الهند الصينية ان يعرف عن طريق ملابس المرأة المكان الذى اتت منه الى المدينة الكبيرة . ولا تزال بعض قرى بامير الجبلية تحتفظ بالملابس المميزة لها وحدها .

تغدو الان ملابس مختلف الشعوب متشابهة اكثر واكثر وتفقد طابعها السلالى . فالاحذية الروسية تدخل ازياء فرنسا ثم تاتى الى الاتحاد السوفييتى كزى فرنسى جديد . ويقوم بجولة منتصرة ناجحة فى العالم الجاكيت والبنطال عند الرجال ، والتنورة والثوب والبدلة ذات البنطال عند النساء . اما الملابس القومية فتغدو فى حالات كثيرة ، كما فى منطقة البلطيق او العراق مثلا ، مجرد ملابس للاعياد .

وكذلك تختلف بشكل جوهرى عند شعوب العالم المعيشة العائلية وعادات وطقوس الزواج . فالى جانب الاسر المونوغامية

(وحدانية الزوجين) المنتشرة حاليا لدى السواد الاعظم من البشرية ، لا يزال يوجد الى الان لدى بعض الشعوب سواء البوليغامية (تعدد الزوجات) او البوليانديرية (تعدد الازواج) .

ان مراسيم الزواج متنوعة للغاية . عند بعض الشعوب (مثلا ، عند قبيلة البوناتيين فى جزيرة كاليمانتان) يكفى لعقد الزواج ان يعلن العريس والعروس بحضور شيخ العشيرة اتفاقهما المتبادل على الزواج ، ولدى بعض الشعوب (مثل قبيلة كوشى فى افغانستان) قد تستمر مراسيم العرس يومين ، وعند شعوب اخرى (بعض شعوب الهند) تستمر ثمانية ايام . والى جانب الاعراس المميزة لاغلبية الشعوب الاوربية والتى لا يحضرها الا اقرب الاقرباء والمعارف ، فان بعض الاثنوسات (كما هو الامر عند عدد من شعوب القفقاس) تدعو الى العرس ، حسب التقليد ، مئات الضيوف .

وتختلف مراسيم الطلاق ايضا : عند الشعوب ذات الديانة الكاثوليكية الزواج لا ينفصم ، وعند الشعوب التى تعتنق الاسلام يكفى للطلاق ان يعلن الزوج هذا لزوجته .

فى مجال الثقافة الروحية تعتبر اللغة ، بدون براهين خاصة ، طبعا ، اهم سمة مميزة للاثنوس . انها تشكل الوسيلة الاساسية للاختلاط بين افراد الاثنوس ، وفى الوقت نفسه تفصلهم عادة عن ممثلى كل الاثنوسات الاخرى او اغلبيتها على الاقل .

بيد ان الانكليز والاستراليين ، مثلا ، يتكلمون بلغة واحدة ، هى الانكليزية . ويتكلم بها ايضا سكان الولايات المتحدة الاميركية والعدد الاكبر من الكنديين وسكان جزيرة جامايكا فى اميركا الوسطى والنيوزيلانديون والسواد الاعظم من الايرلنديين .

ومع ذلك فهم جميعا شعوب مختلفة .

لقد جرى فى النروج امر اثار الدهشة . فهناك ثلاث لغات نروجية ، وان لم تكن والحق يقال تختلف بشدة عن

بعضها البعض . ويستحيل القول ايتها نروجية «اكثر» وايتها «اقل» .

وفى الاتحاد السوفييتى تتكلم الآن مجموعات الشعب الموردوفى المختلفة بثلاث لغات من حيث الجوهر : بعضهم باللغة الموكشانية والبعض الاخر بلغة الارزيا ، والاخرون ، مع بقائهم موردوفيين ، يقيمون ثقافتهم القومية الخاصة ، مستخدمين اللغة الروسية التى اصبحت بالنسبة اليهم اللغة الام والوحيدة . والكثير من الكاريليين ايضا يتكلمون ويكتبون بالروسية فقط .

وتحدث حالات اكثر مدعاة للدهشة . ان الايرلنديين الحاليين يتكلمون الانكليزية باغلبهم ، والقلائل منهم فقط ما زالوايستخدمون اللغة التى كان يتكلم بها كل الايرلنديين منذ حوالى ثلاثمئة سنة . ومع ذلك فهم شعب واحد .

ان وجهة النظر ، التى لا تراعى الا الدور «الداخلى» لرابطة اللغة كسمة سلالية ، لا تلائم الحالات التى يتكلم فيها ممثلو شعب واحد بلغات مختلفة . ويحاولون عادة ازالة التناقض الذى يظهر فى غضون ذلك بالتذرع بندرة هذه الحالات . ولكنها فى الواقع ليست ، كما رأينا لتونا ، نادرة الى هذه الدرجة . ونشير لتكتمل الصورة الى البشكيريين والايفينكيين الذين يعتبر عدد كبير منهم اللغة الروسية لغتهم الام . و«رابطة» اللغة بالمعنى الكامل للكلمة تنعدم لدى الاوكرانيين السوفييت ، حيث يتكلم ثمْنهم باللغة الروسية . ولا يجوز ان نسقط من الحساب تلك الحالات ايضا ، حينما يتكلم اجزاء الشعب الواحد بلهجات متباينة جدا . وهذا ما ينطبق ، مثلا ، على الالمان ، وبشكل خاص على الصينيين الذين لا تفهم مجموعاتهم الشمالية والشرقية والجنوبية بعضها البعض .

ليس من النادر ان يتقن الجزء الاساسى من الاثنوس اللغة التقليدية بالنسبة اليه ، فى حين ان مجموعة سلالية انفصلت عنه وتعيش فى وسط قومى مغاير تنتقل الى لغة هذا الوسط .

وباختصار ، اذا انطلقنا من فكرة «رابطة اللغة» كسمة

سلالية الزامية ، فان الكثير من الشعوب «يفقد حقه» فى هذه التسمية تلقائيا .

ومع ذلك فان اللغة تشغل ، فى رأى الاغلبية العظمى من الاختصاصيين ، اهم مكان بين سمات الشعب الاساسية ، ويستحيل الاعتراض على هذا رغم كل الاستثناءات . وفى الحالة التى تتكلم فيها عدة اثنوسات بلغة واحدة (الانكليزية ، الاسبانية ، البرتغالية ، الصربية الكرواتية الخ .) ، فان كل اثنوس ، كقاعدة عامة ، يدخل خاصيته فى هذه اللغة . وقد تتلخص فى ابجدية او قواعد كتابة مغايرة ، فى الخصائص الفونيتيكية ، فى المفردات ، فى العبارات الخاصة والاقوال المأثورة ، ولكنها موجودة عادة فى هذا الشكل او ذاك . وتتسم الاسبانية الارجنتينية والبرتغالية البرازيلية بخاصية واضحة وبتفرد واضح وهما تشجعان بدرجة معينة .

ترتبط الوحدة الثقافية لافراد الاثنوس ارتباطا وثيقا ببعض خصائص نفسيتهم ، ولاسيما بتلاوين واسلوب تجلى الخصائص الانسانية العامة لنفسيتهم . وهذه الخصال المميزة تشكل فى وحدتها ما يسمى بالطابع السلالى (القومى) .

وفى ميدان الثقافة يعتبر اغلب الاثنوغرافيين المعتقدات الدينية سمات سلالية ذات شأن . وبالفعل ، توجد حالات تضطلع فيها الاختلافات الدينية بدور واضح لا شك فيه . مثلا ، يتكلم الكرواتيون والصربيون والبوسنيون فى يوغسلافيا بلغة واحدة ، ولكن الكرواتيين كاثوليك ، والصربيين ارثوذكس ، والبوسنيين مسلمون ، فينظر الى الكرواتيين والصربيين والبوسنيين كثلاثة شعوب مختلفة . يبدو ان الامر مقنع جدا . بيد انه توجد فى يوغسلافيا ، على اى حال ، مجموعات صغيرة من الصربيين الكاثوليك والكرواتيين الارثوذكس .

اما العرب اللبنانيون فجزؤهم مسلمون وجزؤهم الاخر مسيحيون ، بالاضافة الى انهم من مختلف الطوائف . بيد ان هذا لم يجعلهم ينقسمون الى شعوب مختلفة .

وفى الاختلاط بين الناس يتجلى التفرد السلالى فى كل

خطوة تقريبا . ومن الامثلة النموذجية البلغار الذين ، خلافا للاغلبية الساحقة من شعوب العالم ، يعنى عندهم هز الراس من الاعلى الى الاسفل النفى ، ومن اليسار الى اليمين الايجاب . انها خاصيتهم السلالية .

الاوربيون يصفقون علامة للسرور او الاعجاب ، اما الصينيون فيصفقون علامة للحزن وخيبة الامل .

ان الروسى يهين محدثه اذا قبض راحة يده وجعل الابهام يبرز من بين السبابة والوسطى . اما عند اليابانيين فتعنى الحركة نفسها اقتراحا بذيئا .

يبدو ان التكسى لم تظهر منذ امد بعيد ، ولكن الناس فى الولايات المتحدة يوقفونها برفع الابهام ، وفى الجزء الاكبر من روسيا يوقفونها برفع اليد من الكتف الى الاعلى ، وفى جورجيا يرفعون اليد الى مستوى الكتف ثم يسقطونها على الفور .

ان الفرس ، اذ رأوا الاوربيين يدخلون غرفة السكن براس مكشوف وبحذاء الطريق ، قالوا يوما : الرأس فى الحمام والقدمان فى الطريق .

ان رحالة اوربيا متنكرا ، كان يظن انه يعرف عادات الشرق على نحو ممتاز ، انكشف فى القرن الماضى بين حشد من الحجاج المسلمين لسبب واحد ، وهو انه كان يتابع ايقاع الموسيقى بقدمه ، ووشى برحالة اوربى آخر فى حالة مماثلة واقع انه لم يبدأ خطوته الاولى فى الصباح بالرجل نفسها التى يبدأ بها الآخرون خطوتهم هذه .

هذه الامثلة كلها قديمة تعود الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بالاضافة الى نكهتها غير المألوفة . ولكن اليكم هذا الحديث من رواية بقلم كاتب امريكى تعود الى الستينات :

«قال فجاة : اعذرونى ، من فضلكم ، ولكن لا بد من ان اطرح عليكم سؤالا . انه يعذبنى منذ بداية الرحلة . اخبرونى ، لماذا يغسل الاميركيون ايديهم بالماء القذر دائما ؟ لا استطيع ابدا ان افهم هذا» .

هذا ما يقوله فى رواية ميتشيل ولسون «لقاء فى ارجاء بعيدة» الفيزيائى الروسى غونتشاروف الذى قدم لاول مرة الى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر علمى . ويقول هذا لفيزيائى اميركى . فيجيب الاخير : «ولكننا لا نغسل ايدينا بالماء القذر» . «المعذرة ، بل تغسلون ! النظافة تعنى عندنا الغسل بماء جار . بلاليع مغاسلنا لا تغلق ابدا . اما عندكم فكل البلاليع مزودة بسدادات ، وما ان تبدأ بالغسل حتى تصبح المياه اقذر واقذر . ولما كانت عندكم حنفيات منفصلة للماء البارد واخرى للماء الساخن ، لا يتسنى ابدا التوصل الى حرارة ممتعة ، واذا اردت ان تغسل بالماء النقى عليك ان تتنقل باستمرار من الغليان الى الجليد . او ان الماء فى اميركا كان شحيحا على الدوام ؟ كلا ، لا استطيع ان اصدق ان مثل هذا البلد المتطور ، المتحضر يعانى نقصا فى المياه» .

وباختصار ، تتغلغل فى معيشة كل بلد خصائص سلالية بالذات ، وليس من النادر الا يستطيع ملاحظتها وفهم مغزاها الا انسان غريب .

ينبغى التنويه بان خصائص سلالية معينة بوسعها ، اذ تميز الاثنوس عن بعض الشعوب ، ان تكون مشتركة مع اثنوسات اخرى او وحدات سلالية اصغر .

انها لكبيرة شحنة الخصائص السلالية فى الفن الشعبى . وبعض انواع الفن لا وجود لها عموما الا عند شعوب قليلة . اذ ان سكان الشمال السوفييتى ، الخانتيين والمانسى ، مثلا ، يضغطون باسنانهم على لحاء البتولا فتنطبع زخارف جميلة جدا . وتعتز بعض المتاحف بهذه المناذج للحاء ، فى حين لا وجود لهذه الانواع من الفن التشكيلى عند الشعوبالاخرى .

ولكن حتى فى انواع الفن المنتشرة بين الجميع تتجلى الفوارق السلالية على نطاق واسع جدا . فالموسيقى الصينية والكازاخية والهندية الجنوبية والاسترالية تختلف بشدة عن بعضها البعض ، وتختلف عن الموسيقى الاوربية بحيث يحتاج المرء الى اعتياد طويل او اعداد خاص ليتذوق الموسيقى الغريبة كفن فعلا ، لا كواقع طريف . ولكن حتى حينما يكون الفن

سهل الفهم بالنسبة للجميع بدون اعداد خاص ، ليس من النادر ان تكون ملامحه السلالية بادية للعيان .

يستمع الفرنسيون بحماسة الى الاغانى الشعبية الروسية والاوكرانية . ويحب الناس فى بلادنا الشانسونيه المشهورين من ضفاف السين ولوار – ولكن اليس واضحا الطابع القومى للاغانى الروسية والاوكرانية والفرنسية ؟ وبالمناسبة ، لعلنا ، اذ نتحدث عن الشانسونيه الحاليين ، نقتحم ميدان فن محترف وان حافظ من نواح كثيرة على الاخلاص للتقاليد الشعبية .

ان التفرد السلالى يتجلى فى الفن المحترف ايضا . وعلاوة على ذلك ، اخذ دور الفن المحترف كميدان لتجلى الخصائص السلالية ينمو بشدة فى القرن التاسع عشر ، وفى القرن العشرين بشكل خاص .

يبدأون عادة عرض الخصائص السلالية من الانتاج ، ومن ادوات العمل . ولكن مع تطور العلم والتكنيك تفقد وسائل الانتاج فى عدد متزايد من البلدان صبغتها القومية . وخلافا للمحراث يستحيل القول عن التراكتور والحصادة انهما بولنديان او روسيان . والآن لايتضمن التفريز والغزل والثقب خصائص بارزة بوضوح يمكن تفسيرها بالخصائص القومية للناس الذين يصنعون هذه الالات . والامر نفسه ينطبق على افران مارتان والمناشير الكهربائية والاشياء الكثيرة الاخرى التى لم يعد للاثنوغرافى شأن بها .

ويجرى الامر نفسه ، وان كان ببطء اشد ، مع مواد الاستهلاك ، وتكفى الاشارة الى الملابس التى سبق وتحدثنا عنها . اما الفن فيبقى قوميا ، ونظرا لتقلص الخاصية السلالية فى الثقافة يضطلع بدور متزايد الاهمية بالنسبة الى الوعى الذاتى القومى .

لقد لوحظ منذ امد بعيد ان ايا من عناصر الثقافة لا يشكل سمة سلالية مميزة حتمية . فى بعض الحالات يعود الدور الرئيسى فى هذا الخصوص الى اللغة ، وفى حالات اخرى الى الدين ، وفى حالات ثالثة الى ملامح السلوك المميزة الخ .

وليس مصادفة ان كل المحاولات لابراز سمة سلالية مميزة اساسية واحدة الزامية لكل الحالات قد منيت بالاخفاق . وهذا ما يشكل احيانا مسوغا لتجاهل الثقافة اجمالا كحاملة للخصائص السلالية . فى حين ان هذا فى الواقع مجرد شهادة على ان الاثنوس ليس عنصرا للثقافة على حدة ، بل هو ، كقاعدة عامة شىء متكامل معين يكشف الكثير من عناصره المكونة ، بهذه الدرجة او تلك ، عن ملامح خاصة راسخة . وهذا بالذات ما يميز الاثنوس عن روابط الناس الراسخة الاقرب اليه من حيث طابعها مثل الرابطتين اللغوية والدينية . واذا كانت اللغة والاثنوس ، التقسيم اللغوى والتقسيم السلالى ، مثلا ، تتطابق دائما لفقد ، على ما يبدو ، تمييز هذه المفاهيم مغزاه ، والامر نفسه ينطبق على العلاقة بين الاثنوس والدين .

من بين الادوار العديدة التى تؤديها الثقافة يبدو من الصواب ابراز وظيفتها السلالية بشكل خاص .

ان نقل معلومات الثقافة السلالية ، شأن المعلومات الاخرى فى المجتمع البشرى يجرى باشكال مختلفة : من خلال نتاج الثقافة المادية والروحية ، وعن طريق الايماءات وما شابه ذلك . ولكن الشكل الرئيسى لهذا النقل هو اللغة – الاعلام الكلامى (الشفوى او الكتابى – الادبى) . ويجرى تبادل المعلومات ذات الطابع الثقافى السلالى سواء على اساس الاتصالات المباشرة (الشخصية) او على اساس الاتصالات غير المباشرة (غير الشخصية) . ورغم انه مع تطور وسائل المواصلات العامة تتقلص باطراد نسبة الاتصالات المباشرة فى نقل الاعلام الثقافى السلالى ، فان تلك الاتصالات تبقى على اى حال اكثر الاتصالات فعالية من هذه الناحية . والانواع الرئيسية للاتصالات التى ينقل فيها الاعلام الثقافى السلالى هى الانواع المعيشية والانتاجية والدراسية . واهم خلية اجتماعية تجرى فى اطارها اداء مهمة النقل هذه هى عادة الاسرة فى المجتمع الطبقى ، ومختلف اشكال المشاعيات فى المجتمع ما قبل الطبقى .

يجرى استيعاب الاعلام الثقافى السلالى سواء عن غير قصد (بدون وعى) او بشكل مقصود (عن وعى) . والطريقة الاولى هى الاقدم ، لانها تقوم على قدرات التقليد لدى الانسان ، ولا تزال الطريقة الرئيسية الى الآن . وهذا ناجم الى درجة كبيرة عن ان الانسان يستوعب فى سن مبكرة الكمية الاساسية من الاعلام الثقافى السلالى (ولاسيما المرتبط باللغة) .

والاثنوسات بمعنى معين عبارة عن «تخثر» محدود مكانيا لاعلام ثقافى خاص ، اما الاتصالات بين الاثنوسات فعبارة عن تبادل لهذا الاعلام .

وكل منا يحمل ، كممثل لشعبه ، مجموعة ضخمة من خصائصه السلالية . وهى ، طبعا ، لا تنتقل بالوراثة (خلافا لتفاصيل المظهر الخارجى) . ونحن نستوعب اغلبها منذ الطفولة ، من الابوين والبالغين الآخرين ، ومن الاتراب .

وانتماء الانسان الى هذا الشعب او ذاك تحدده فى نهاية المطاف التربية والتعليم اللذان يتشبع الانسان فى خلالهما بملامح الوسط الذى وجد فيه .

انه لكبير جدا دور الطفولة فى «تعلم» المرء ان يكون روسيا او سويديا ، برازيليا او صينيا . وقد تبين للسوسيولوجيين الاميركيين ان البروفسور الانكليزى ، مثلا ، (وهو شخص يتكلم بلغة الاميركيين نفسها) يمكنه ان يعيش فى الولايات المتحدة ٥-١٠ سنوات وربما اكثر ، ولكنه لا يتأقلم الى النهاية مع الكثير من تفاصيل الحياة المحلية ، ولا يغدو اميركيا . هذا فى حين ان ابنا شبه امى لمهاجرين ايطاليين يتكلم احيانا بلكنة صقلية شديدة يفلح كقاعدة عامة الى حين بلوغه العاشرة من العمر ان «يتعلم ان يكون اميركيا» . البروفسور لا يزال يتصرف فى الولايات المتحدة كانكليزى ، والصبى كاميركى .

من الاهمية بمكان الاشارة الى ان تفرد الشعب - الاثنوس لا ينجم عن عنصر منعزل له ، بل عن خصائصه الموضوعية جميعا . ليس الاثنوس مجرّد مجموع سمات ، بل هو تشكيلة

واحدة ورابطة واحدة يمكن ان تضطلع بالدور المنظم فيها عناصر مختلفة تكمن بدورها فى اساسها البنية الاقتصادية - الاجتماعية لهذه الروابط .

هنا ، فى مستهل عرضنا من المهم جدا ان نشير بشكل خاص الى ان الثقافة التقليدية لم تكن تنطوى ابدا على مغزى واحد فى مختلف مراحل التطور التاريخى . وعلاوة على ذلك ، فان التقاليد نفسها متباينة تاريخيا : هى فى بعض الحالات تقاليد عتيقة باغلبها ، وهى فى حالات اخرى تقاليد جديدة وفى طور النشوء .

الانواع والانماط الاساسية للروابط السلالية

من المتعارف عليه فى العلم الاثنوغرافى السوفييتى ان الاثنوس (الرابطة السلالية) هو نمط ظهر تاريخيا لمجموعة اجتماعية ثابتة من اناس يمثلهم الشعب (القبيلة ، القوم ، الامة) .

يقصد بالقبيلة نمط للرابطة السلالية والتنظيم الاجتماعى لعصر نظام المشاعية البدائى ، وهى تتسم بصلة الدم بين افرادها ، وبرابطة الارض وبعض عناصر الاقتصاد والوعى والتسمية الذاتية والعادات والعبادات ، وتتسم ، فى طور لاحق ، بالادارة الذاتية . وقد بقيت مخلفات التنظيم القبلى الى مراحل من التطور التاريخى اكثر تأخرا .

والقوم رابطة اقليمية واقتصادية وثقافية ولغوية من الناس تكونت تاريخيا تأتى بعد القبيلة وتسبق الامة . وقد ظهر القوم فى عصر نشوء الحضارات القديمة والمجتمع الطبقى .

والامة رابطة تاريخية من الناس تتكون فى عملية تشكل رابطة صلاتهم الاقليمية والاقتصادية واللغة الادبية والخصائص السلالية للثقافة والطبع . تظهر الامم فى فترة تذليل التجزئة الاقطاعية على اساس قيام الصلات الاقتصادية

الراسمالية وتكون السوق الداخلية ، وتتشكل الامم من مختلف القبائل والاقوام . والامة فى ظروف الراسمالية تنقسم الى طبقات اجتماعية ذات مصالح اقتصادية اجتماعية وايديولوجيات متعارضة . وفى ظل الاشتراكية ، التى تصفى التناحرات الاجتماعية والقومية ، تتشكل الامم الاشتراكية .

ينبغى القول انه لدى الاسهاب والتدقيق فى تعريف الشعوب – الاثنوسات يعرب فى ادبياتنا عن آراء مختلفة .

وهكذا ، فان برومليه ، احد مؤلفى هذا الكتاب ، اقترح وعلل الفهم التالى للاثنوسات : يمكن تعريف الاثنوس بالمعنى الضيق كمجموعة تكونت تاريخيا من اناس يتمتعون بخصائص ثابتة نسبيا للثقافة (بما فى ذلك اللغة) وللنفسية ، وكذلك بادراك وحدتهم وتميزهم عن التشكيلات المماثلة الاخرى ، اى بالوعى الذاتى . ان هذه الرابطة تبرز كنتيجة لممارسة تاريخية مشتركة لعدة اجيال من الناس تتجسد فى الصفات المادية والروحية الخاصة لهذه الرابطة وتترسخ فى وعى افرادها ، والمقصود فى غضون ذلك جملة الخصائص السلالية التى تبقى حتى عند انتقال مجموعة اناس من هذا الشعب او ذاك الى اراض جديدة .

ولابراز هذا النوع من الاثنوسات من بين الروابط الاخرى ذات الطابع السلالى اقترح برومليه مصطلح «الاثنيكوس» . والاثنيكوس يعنى باليونانية القديمة «الشعبى» ، «الملازم للشعب» . ان الحالات التى يوجد فيها اناس ذوو ملامح مشتركة للثقافة والنفسية فى دول مختلفة ، اى لا يتمتعون برابطة اقتصادية – اجتماعية ولا اقليمية – سياسية ، منتشرة على نطاق واسع . ومما يشهد على مقاييس هذه الظاهرة المعطيات التالية لاواخر السبعينات ومستهل الثمانينات : يعيش ٦٥,٩٪ من الالبانيين فى البانيا و٣٠,٥٪ فى يوغسلافيا ، ويعيش ٤٣,٠٪ من الاكراد فى تركيا و٢١,٦٪ فى ايران و٢٠,٠٪ فى العراق ، ويعيش ١٧,٧٪ من النروجيين خارج النروج ، و١١,٩٪ من الانكليز خارج بريطانيا و٩,٩٪ من السلوفاك خارج تشيكوسلوفاكيا .

لا يوجد الاثنيكوس خارج البنى الاجتماعية التى تنظمها . ان الاثنوس والروابط الاجتماعية – من الاسرة الى الدولة – توجد وكانما فى حالة تعايش .

تشغل حيزا خاصا بين التشكيلات السلالية المتراصة تلك التى تقترن بروابط اقليمية – سياسية تشكل وحدات مستقلة للتطور الاجتماعى (وهى ، فى العالم المعاصر ، الدول بالدرجة الاولى) . والتشكيلات الخاصة التى تظهر فى غضون ذلك تتمتع باستقلال كبير ، وهذه الروابط تضمن عادة انسب الظروف لرسوخ الاثنوس وتجدده . وهذه التشكيلات «المركبة» التى تعتبر من اهم تجليات وجود الاثنوس ، يمكن تعريفها ، فى رأينا بمثابة «كيانات سلالية اجتماعية» . والتشكيلات من هذا النوع تتمتع ، الى جانب الرابطة الثقافية ، بروابط اقليمية واقتصادية واجتماعية وسياسية (انها ، كما يقال ، الشكل الاعلى للاثنوس) .

ان البنى الاقتصادية الاجتماعية اكثر تحركا من الاثنوسات . وامكان بقاء الاثنوس ذاته من حيث المؤشرات الاساسية على امتداد عدة تشكيلات اقتصادية اجتماعية ناجم بالذات عن صفته المحافظة نسبيا ، وكذلك الاستقلال المعين لخصائصه . لقد وجد الاثنيكوس البولندى ، مثلا ، سواء فى عهد الاقطاعية او فى عهد الراسمالية ، وهو موجود فى ظل الاشتراكية ايضا (ولهذا بالذات نتحدث عن البولنديين سواء لدى التطرق الى العهد الاقطاعى او العهد الراسمالى او العهد الاشتراكى) .

اما الكيان السلالى الاجتماعى فامر آخر . اذ ان الانتماء الى هذه التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية او تلك لا بد وان يسبغ عليه طابعا خاصا . ويمكن تمييز كيانات سلالية اجتماعية ما قبل طبقية (مشاعية بدائية) ، وقديمة (عبودية) وكيانات تعود الى القرون الوسطى (اقطاعية) ، وكيانات راسمالية واشتراكية . ونذكر بانه يستخدم للنمطين الاخيرين فى الادبيات السوفييتية مصطلح «الامة» (مع تقسيمه الى امم برجوازية واخرى اشتراكية) . ومن الهام التنويه

بهذا ، لان مصطلح «الامة» لا يستخدم بمدلول واحد في مختلف اللغات .

قد يدخل الاثنيكوس الواحد في عدة كيانات سلالية اجتماعية . يمكن الاشارة الى اوكرانيي الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وكندا ، او الى الاثنيكوس الالماني الذي يمثله الان كيانان سلاليان اجتماعيان ينتميان الى تشكيلتين اجتماعيتين مختلفتين : اشتراكية ورأسمالية .

لقد ادخل العالمان السوفييتيان تشيبوكساروف واروتيونوف هذا التشبيه الموفق ، في رأينا : ان نسبة الامم والاقوام والقبائل الى الاثنوس كنسبة المادة الى العناصر التي تتكون منها هذه المادة . فالكربون ، مثلا ، يوجد في الارض ، مع بقائه كربونا ، على شكل هباب ، او على شكل غرافيت ، او على شكل الماس ،ولكن دائما في احد هذه الاشكال بالذات . وهكذا فان الاثنوسات على حدة مثلا الاثنوسات الهنغاري (المجري) والجورجي والارمني ، وجدت في ازمنة مختلفة وفي اراضي متباينة جوهريا على شكل قبائل اول الامر ، ومن ثم على شكل اقوام في القرون الوسطى ، وبعد ذلك على شكل امم برجوازية ، والآن توجد على شكل امم اشتراكية ، وكذلك على شكل مجموعات قومية منفصلة في اراضي التوزع الاساسي لشعوب اخرى .

ان البنية السلالية للبشرية معقدة للغاية . ويتجلى هذا التعقد سواء في وفرة اشكال وجود الاثنوسات ، او في تدرجها . ولكن للاشارة الى كل هذا التنوع التصنيفي تستخدم ذخيرة محدودة جدا من المصطلحات . وليس من النادر بالنتيجة ان يستخدم مختلف الباحثين المصطلح نفسه للاشارة الى ظواهر سلالية متباينة تصنيفيا . هذا بالاضافة الى ان التصنيفات القائمة للروابط السلالية تقتصر عادة على الاشارة الى انماط الاثنوس الاساسية المتعاقبة بانتظام ، تاركة في الظل ، كقاعدة عامة ، مسألة تنوع اشكاله المتزامنة .

وهكذا ، تغدو واضحة الضرورة الملحة سواء لتحديد

المصطلحات الموجودة بمزيد من الدقة ، او لادخال مطلحات جديدة .

يبدو من المجدي قبل كل شيء تحديد مصطلحات مختلف مستويات التدرج السلالي . ولهذا الهدف يقترح المؤلفان ادراج المفاهيم التالية : آ) «الاقسام السلالية الاساسية (الاثنوسات)» — مجموعات من الناس تتمتع باقوى الخصائص السلالية وضوحا وتبرز بمثابة وحدات مستقلة للتطور الاجتماعي ؛ ب) «الوحدات السلالية الاولية» ، وهي اصغر الاجزاء المكونة للقسم السلالي الاساسي التي تشكل الحد النهائي لتقسيم هذا الاخير ، ج) «الاقسام السلالية الفرعية» — روابط تتجلى فيها الخصائص السلالية المميزة بشدة اقل مما في الوحدات السلالية الاساسية ، وتعتبر اجزاء مكونة لها ؛ د) «الروابط السلالية الشاملة» — تشكيلات تشمل عدة اقسام سلالية اساسية ، ولكنها تتمتع بخصائص سلالية اقل قوة مما لدى كل من هذه الاقسام .

لما كان الحد الاقصى لتقسيم الاثنوس ، الذي يبقى على خصائصه من حيث الاساس ، هو الانسان على حدة ، فمن الواضح انه يشكل مكرووحدة سلالية . ثمة اقتراح (وهو ، والحق يقال ، لم يترسخ بعد في العلم على نحو كاف) بتسمية الانسان كحامل للخصائص السلالية والمعلومات السلالية اي «اثنوفور» . ومن الواضح تماما ان خاصية الاثنوفور في التدرج السلالي تتلخص قبل كل شيء في كونه لا يستطيع ، خلافا لاقسامه الاخرى جميعا ، ان يضمن بصورة مستقلة تجدد الخصائص السلالية .

وينبغي ان تعزى الى الوحدات السلالية الاجتماعية الصغرى كذلك تلك الخلية الاجتماعية الاولية ، اي الاسرة التي يعود اليها دور لا يستهان به في تجدد الاثنوس ونقل الخصائص السلالية عبر الاجيال .

تشغل «الاثنوسات الفرعية» وضعا وسطا بين الوحدات المكروسلالية والاثنوسات . وهذه المجموعات ليست ذات منشأ واحد . ويمكن ابراز اثنوسات فرعية ذات منشأ

بهذا ، لان مصطلح «الامة» لا يستخدم بمدلول واحد فى مختلف اللغات .

قد يدخل الاثنيكوس الواحد فى عدة كيانات سلالية اجتماعية . يمكن الاشارة الى اوكرانيى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وكندا ، او الى الاثنيكوس الالمانى الذى يمثله الان كيانان سلاليان اجتماعيان ينتميان الى تشكيلتين اجتماعيتين مختلفتين : اشتراكية ورأسمالية .

لقد ادخل العالمان السوفييتيان تشيبوكساروف واروتيونوف هذا التشبيه الموفق ، فى رأينا : ان نسبة الامم والاقوام والقبائل الى الاثنوس كنسبة المادة الى العناصر التى تتكون منها هذه المادة . فالكربون ، مثلا ، يوجد فى الارض ، مع بقائه كربونا ، على شكل هباب ، او على شكل غرافيت ، او على شكل الماس ،ولكن دائما فى احد هذه الاشكال بالذات .

وهكذا فان الاثنوسات على حدة مثلا الاثنوسات الهنغارى (المجرى) والجورجى والارمنى ، وجدت فى ازمنة مختلفة وفى اراضى متباينة جوهريا على شكل قبائل اول الامر ، ومن ثم على شكل اقوام فى القرون الوسطى ، وبعد ذلك على شكل امم برجوازية ، والآن توجد على شكل امم اشتراكية ، وكذلك على شكل مجموعات قومية منفصلة فى اراضى التوزع الاساسى لشعوب اخرى .

ان البنية السلالية للبشرية معقدة للغاية . ويتجلى هذا التعقد سواء فى وفرة اشكال وجود الاثنوسات ، او فى تدرجها . ولكن للاشارة الى كل هذا التنوع التصنيفى تستخدم ذخيرة محدودة جدا من المصطلحات . وليس من النادر بالنتيجة ان يستخدم مختلف الباحثين المصطلح نفسه للاشارة الى ظواهر سلالية متباينة تصنيفيا . هذا بالاضافة الى ان التصنيفات القائمة للروابط السلالية تقتصر عادة على الاشارة الى انماط الاثنوس الاساسية المتعاقبة بانتظام ، تاركة فى الظل ، كقاعدة عامة ، مسألة تنوع اشكاله المتزامنة .

وهكذا ، تغدو واضحة الضرورة الملحة سواء لتحديد

المصطلحات الموجودة بمزيد من الدقة ، او لادخال مطلحات جديدة .

يبدو من المجدى قبل كل شىء تحديد مصطلحات مختلف مستويات التدرج السلالى . ولهذا الهدف يقترح المؤلفان ادراج المفاهيم التالية : آ) «الاقسام السلالية الاساسية (الاثنوسات)» – مجموعات من الناس تتمتع باقوى الخصائص السلالية وضوحا وتبرز بمثابة وحدات مستقلة للتطور الاجتماعى ؛ ب) «الوحدات السلالية الاولية» ، وهى اصغر الاجزاء المكونة للقسم السلالى الاساسى التى تشكل الحد النهائى لتقسيم هذا الاخير ، ج) «الاقسام السلالية الفرعية» – روابط تتجلى فيها الخصائص السلالية المميزة بشدة اقل مما فى الوحدات السلالية الاساسية ، وتعتبر اجزاء مكونة لها ؛ د) «الروابط السلالية الشاملة» – تشكيلات تشمل عدة اقسام سلالية اساسية ، ولكنها تتمتع بخصائص سلالية اقل قوة مما لدى كل من هذه الاقسام .

لما كان الحد الاقصى لتقسيم الاثنوس ، الذى يبقى على خصائصه من حيث الاساس ، هو الانسان على حدة ، فمن الواضح انه يشكل مكرووحدة سلالية . ثمة اقتراح (وهو ، والحق يقال ، لم يترسخ بعد فى العلم على نحو كاف) بتسمية الانسان كحامل للخصائص السلالية والمعلومات السلالية اى «اثنوفور» . ومن الواضح تماما ان خاصية الاثنوفور فى التدرج السلالى تتلخص قبل كل شىء فى كونه لا يستطيع ، خلافا لاقسامه الاخرى جميعا ، ان يضمن بصورة مستقلة تجدد الخصائص السلالية .

وينبغى ان تعزى الى الوحدات السلالية الاجتماعية الصغرى كذلك تلك الخلية الاجتماعية الاولية ، اى الاسرة التى يعود اليها دور لا يستهان به فى تجدد الاثنوس ونقل الخصائص السلالية عبر الاجيال .

تشغل «الاثنوسات الفرعية» وضعا وسطا بين الوحدات المكروسلالية والاثنوسات . وهذه المجموعات ليست ذات منشأ واحد . ويمكن ابراز اثنوسات فرعية ذات منشأ

اقتصادى – ثقافى ولغوى وادارى – اقليمى . ويعود مكان خاص بين الاثنوسات الفرعية الى تلك التى ظهرت على اساس المجموعات العرقية . فمن الواضح ، مثلا ، انه يمكن النظر الى زنوج الولايات المتحدة بمثابة اثنوس فرعى للامة الاميركية (كيـــان سلالى اجتماعى) . ويتســم افراد الاثنوس الفرعى بادراك الفوارق الثقافية التى تفصل هذه المجموعة عن الاثنوس الذى تندرج فيه .

وهكذا ، يمكن لشخص بعينه ان يدخل فى آن واحد فى عدة روابط سلالية من مختلف المستويات . يمكن ، مثلا ، ان يعتبر نفسه روسيا (القسم السلالى الاساسى) ومن قوزاق الدون (الاثنوس الفرعى) وسلافيا (الرابطة السلالية الشاملة) .

ينبغى تمييز الروابط السلاليــة عن تلك التى تسمى بالروابط الاثنوغرافية . فالروابط من هذا النوع تبرز فى شكلين اساسيين : «المجموعات الاثنوغرافيــة» و«الروابط التاريخية الاثنوغرافيــة» . ومن المتعارف عليه ان يقصد بالمجموعات الاثنوغرافيــة تلك الاقسام الداخلية لشعب – اثنوس واحد التى تتميز ببعض العناصر المشتركة الخاصة للثقافة . وفى غضون ذلك يقصد بالمجموعات الاثنوغرافية ، خلافا للاثنوسات الفرعية ، اقسام الاثنوس المحلية فقط التى لا تتمتع بوعى ذاتى . وعلى هذا النحو لا تتمتــع الروابط التاريخية الاثنوغرافية ايضا بوعى ذاتى واحد . ويقصد بهذا المفهوم الروابط التى تشمل عدة اثنوسات فى اراض واحدة ، منفردة جغرافيا تكونت لدى سكانها ملامح ثقافية عامة متشابهة بحكم رابطة التطور الاقتصادى – الاجتماعى والصلات المديدة والتأثير المتبادل . وهذه الملامح تتجلى سواء فى الثقافــة المادية ، او فى الثقافة الروحية ، ولا سيما فى عناصرها التى تحمل شحنة جمالية .

تكمــن احدى الخصائص المميــزة لمنشــأ الروابط التاريخية – الاثنوغرافية فى كونها جميعا تتشكل على امتداد فترات طويلة من الزمن فى خلال التداخل الثقافى للشعوب المتجاورة . وتتسم هذه التشكيلات ببقاء الملامح الاساسية

للثقافة على امتداد اجيال عديدة . ولهذا ، لعله من الافضل فى راينا ، تسميتها بالروابط «الثقافية – التقليدية» . ان للروابط التاريخية – الاثنوغرافيــة (الثقافية – التقليدية) مستويات تصنيفية تنظيمية مختلفة . وبالتالى يمكن ان نبرز من بينها اضخم الوحدات ، «الولايات» ، التى تشمل مجموعات كبيرة من البلدان المتجاورة ، ووحدات اصغر ، «المقاطعات» ، التى تنقسم بدورهــا الى مناطق تاريخية – ثقافية صغيرة . نورد مثال ولاية سيبيريــا التاريخية الاثنوغرافية التى نجد فيها مقاطعات مثل يامال – تايمير وسيبيريا الغربية والطاى – سايانى وسيبيريا الشرقية وكامتشاتكا – تشوكوتسكايــا وامور – ساخالين . وبالمناسبة ، فان تعيين المعايير لتحديد مستويات الروابط التاريخيــة – الاثنوغرافية مهمة فى غاية التعقيد . وهذا ناجم عن تنوع منشأ وبنية هذه التشكيلات وانطماس معالم حدودها .

الى جانب الروابط «المتعددة العوامل» من هذا النــوع يمكن ابراز تشكيلات تاريخية – ثقافيــة «وحيدة العامل» . ويعود الدور المنظم فيها الى بعض عناصر الثقافة ، بيد ان هذه العناصر تخلف اثرها بهذا الشكل او ذاك على المجالات التقليدية المعيشية ايضا . وفى الحالات التى تبرز فيها اللغة بمثابة عامل منظم اصطلح على تسمية هذه المناطق بالمناطق اللغوية الاثنوغرافية ، وحينما يبرز الدين تسمى بالمناطق الطائفية – الاثنوغرافية .

وعلى غــرار الاثنوسات بالذات ، «تتقاطــع» الروابط التاريخية – الاثنوغرافيــة مع كيانات اقتصادية – اجتماعية معينة (سواء مع كيانات اجتماعية على حدة ، او مع مجموعات كاملة من الكيانات الاجتماعية العائدة الى تشكيلة اقتصادية اجتماعية واحدة) . مثلا ، ان الولاية التاريخية الاثنوغرافية الاستوائية الافريقية ، التى تضم جزء القارة الواقع جنوب الصحراء الكبرى ، كانت فى الماضى القريب تتكون من بلدان متخلفة من حيث تطورها الاقتصادى ، وكانت الاغلبية الساحقة من هذه البلدان مستعمرات للدول الاوربية . ونتيجة اتحاد

الروابط التاريخية – الاثنوغرافية والاقتصادية – الاجتماعية تتكون تشكيلات يمكن الاصطلاح على تسميتها «مناطق اجتماعية ثقافية» .

وفى كل لحظة معينة يشكل التقاطع المتبادل لعدد ضخم من الروابط السلالية والاثنوغرافية من مختلف الانماط بنية معقدة ، وكانما تشكل بناء مجسما للثقافة البشرية باسرها .

ينبغى التنويه بان الروابط التاريخية – الثقافة جميعها ، هى ، على الرغم من رسوخها ، تشكيلات دينامية تتعرض لتغيرات فى الزمان . وليس من النادر ان تقترن هذه التغيرات بتحول نمط هذه الروابط الى آخر . وهكذا ، قد يظهر لدى مجموعة اثنوغرافية وعى للرابطة وادراك للذات ، واذ يفقد الاثنوس الفرعى بدوره مثل هذا الادراك للذات ، يمكن ان يتحول الى مجموعة اثنوغرافية . ومثل هذه التحولات قد تجرى كذلك بين الروابط السلالية الشاملة واصناف المكروروابط التاريخية – الثقافية التى لا تتمتع بوعى سلالى . وقد تجرى كذلك تحولات ذات اتجاه آخر . ان تاريخ البشرية السلالى يعرف غير قليل من هذه التحولات .

القسم الثانى

الاثنوس والطبيعة

لا يخفى على احد ان من التبسيط الجلى لدى دراسة الروابط السلالية تجاهل العوامل غير السلالية لنشوئها وتطورها .

ومن بين هذه الاخيرة تنبغى الاشارة بالدرجة الاولى ، كما هو واضح ، الى الوسط الجغرافى . انه شرط اكيد لظهور الاثنوس وحياته ، وتمارس تغيراته تاثيرا جوهريا فى العمليات السلالية الصرف . والوسط الجغرافى هو «الحلبة» التى تجرى فيها هذه العمليات .

تشهد على مغزى الوسط الجغرافى بالنسبة الى تكون الاثنوس وحياته تاثيراته المباشرة وغير المباشرة التى يمكن اكتشافها فى مختلف ميادين الثقافة السلالية ، ابتداء بادوات العمل وانتهاء بتسميات الشعوب نفسها . وهكذا ، فان المناخ يحدد كثيرا خصائص الملبس والمسكن وتشكيلة المحاصيل الزراعية ووسائل النقل فى مختلف فصول السنة الخ . هذا وتضطلع التخوم الطبيعية (السلاسل الجبلية ، الانهار وما شابه ذلك) فى حالات كثيرة جدا بدور حدود سلالية ، ولا سيما فى الدرجات الاولى من تطور المجتمع .

ان بنية النباتات المحلية تحدد الى درجة كبيرة مادة المسكن واشكاله ، وهى تؤثر مع صفات عالم الحيوان فى خاصية الحياة اليومية وحتى التطور الثقافى – الاقتصادى لهذه الشعوب او تلك (يمكن هنا ان نتذكر ، على سبيل المثال ، كيف تباطأ من بعض النواحى تطور حضارات السكان الاصليين فى امريكا بسبب غياب الحيوانات التى يمكن ، بعد تدجينها ،

ان تصبح ماشية تستخدم فى العمل ، وكيف غير ظهور الخيل فى امير كا تغييرا شديدا معيشة واقتصاد الكثير من القبائل الهندية) .

تمارس الخصائص المميزة للوسط الجغرافى تاثيرا غير مباشر فى ثقافة الاثنوس الروحية وتكوينه النفسى . وهذا ما يجد تعبيره فى الملكات والعادات والشعائر الخاصة . ان اثنوسات المنطقة الاستوائية ، مثلا ، لا تعرف الكثير من العادات والشعائر المميزة لشعوب المنطقة المعتدلة .

ويجد الوسط الجغرافى تعبيره ايضا فى الوعى السلالى . وفى هذا الصدد لا يسعنا الا التذكير بان منظر الاراضى السلالية ينطبع فى وعى القاطنين فيها على شكل تصور «للارض الام» . وتغدو بعض عناصر المنظر الطبيعى على شكل صور حسية (شجرة الحور عند الاوكرانيين ، والساكورا عند اليابانيين وما شابه ذلك) رموزا للانتماء السلالى من نوع خاص . وغالبا ما تشهد التسميات الذاتية للاثنوسات على تاثير الوسط الجغرافى فى الوعى السلالى . ان تشوكتشيى الساحل ، مثلا يسمون انفسهم «آن كالين» ، اى «سكان البحر» ، وتسمى احدى مجموعات السيلكوبيين ، وهم شعب شمالى صغير آخر ، نفسها «شيشينكوم» ، اى «اناس التايغا» .

يمارس الوسط الجغرافى اكبر تاثير فى الاثنوس فى فترة تكونه ، حينما يتهيا ويتكيف «لوكره» الطبيعى . بيد انه لا ينبغى تعميم هذا العامل المعروف للجميع ، ان عملية تفاعل الانسان مع الطبيعة فى خلال العمل امر متواصل . وينبغى فى غضون ذلك ان يؤخذ فى الاعتبار ان الوسط الجغرافى يمارس التاثير فى الاثنوس ، كما فى الروابط الاجتماعية الاخرى ، بصورة غير مباشرة من حيث الاساس ، اى عبر تطور القوى المنتجة . والآلية المعقدة لهذا التاثير ترتبط ، بين امور اخرى ، بكون تطور القوى المنتجة ، اذ يجذب الى مجال الانتاج عناصر جديدة للطبيعة ، لم تستخدم سابقا (مثل مكونات الطبيعة والموارد المائية وما شابه

ذلك) ، يصبح نفسه آخر الامر فى تبعية معينة لمصادرها الكامنة ، وهذه ، بالتالى ، قد تحثه وقد تكبحه .

وهكذا ، لدى النظر الى تاثير الوسط الجغرافى فى تطور العمليات السلالية لا تجوز «العدمية الجغرافية» ولا المبالغة فى هذا التاثير . من المعروف ان الاثنوس لدى تغيير المنطقة لا يزول ، بل يحتفظ بملامحه الى درجة كبيرة . ويشهد ايضا على انعدام الترابط «الحتمى» فى نظام «الاثنوس – البيئة» واقع ان الاثنوسات المختلفة لا تستخدم بصورة واحدة ابدا الامكانات التى تمنحها تضاريس جغرافية واحدة .

ان انتقاء هذه الامكانات من هذا النوع او تلك يتوقف قبل كل شيء على مستوى التطور الاقتصادى الاجتماعى للمجتمع . وليس من قبيل المصادفة انه لم يكن من النادر ان تنشا فى مختلف ارجاء العالم لدى الشعوب ، ذات المستوى الواحد تقريبا للتطور الاقتصادى الاجتماعى ، انظمة متماثلة لاستخدام المصادر الطبيعية ، اى ما يسمى بالانماط الاقتصادية الثقافية . ومن الجهة الاخرى ، كما نوه بحق عالم الجغرافيا والثورى الروسى من القرن التاسع عشر ميتشنيكوف ، فان «قيمة هذه البيئة الجغرافية او تلك ، حتى ولو افترضنا انها تبقى من الناحية الطبيعية ثابتة فى كل الظروف ، هى على اى حال متباينة فى مختلف العصور التاريخية» . ان الثورة الصناعية ، التى يرتبط بها انتصار الاسلوب الراسمالى للانتاج ، قد وسعت بشكل خاص امكانات استخدام المصادر الطبيعية . فى فترة ما قبل الراسمالية كانت اراض شاسعة ذات ظروف طبيعية جغرافية استثنائية لا تتهيا لها مقدمات مواتية كافية للتقدم فى ميدان الاقتصاد . تذكر هنا المنطقة الاستوائية الرطبة ، والمناطق الجبلية العالية جزئيا ، ومنطقة القطب بشكل خاص . وقد كشفت الثورة الصناعية مكامن الكثير من المصادر الطبيعية ، بما فى ذلك فى الظروف الاستثنائية . ان امكانات الانسان فى استخدام الوسط الجغرافى تنمو على نحو عاصف فى ظروف الثورة العلمية التكنيكية المعاصرة .

ولكن مع كل اهمية مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادى للجماعات البشرية من حيث استفادتها من مصادر مختلف المناطق الطبيعية ، فان تنوع النشاط الاقتصادى فى اطار هذه المناطق لا يمكن ان يعزى الى هذا العامل وحده . فالتاريخ يعرف غير قليل من الحالات التى كانت فيها الشعوب القائمة على مستوى واحد تقريبا من التطور الاقتصادى الاجتماعى وفى ظل ظروف طبيعية متشابهة لا تقيم انماطا اقتصادية ثقافية واحدة ، وتستخدم المصادر الطبيعية المتشابهة على نحو متباين جدا . وكانت الاختلافات من هذا النوع ناجمة بالدرجة الاولى عن التقاليد الثقافية الخاصة لكل من الروابط السلالية .

يعرف التاريخ امثلة كثيرة على الطبيعة المحافظة للغاية لدى مختلف عناصر الثقافة المادية ، ومن بينها احد عناصرها المهمة جدا ، اى الخبرات الانتاجية . ومن المميز فى هذا الخصوص ، على سبيل المثال ، مصير قبيلة مارابى (تايلاند) . فعلى الرغم من الاتصالات المنتظمة والمتزايدة دوما بالجيران الاكثر تطورا من مختلف الشعوب التايلاندية (انتقلت بعض مجموعات المارابى الى اللغة التايلاندية) ، فانهم لا يعرفون مبادئ الزراعة الى الآن . ويقتصر نشاطهم الاقتصادى ، كما فى الازمنة الغابرة ، على جمع النباتات والقنص . ولا تزال شعوب جنوب الهند تمارس جمع النباتات ، حيث يمضون كالسابق جزءا كبيرا من السنة فى مسيرات طويلة او قصيرة سعيا وراء ما تنتجه الغابة . لقد اصبحت مهمات الجمع مغايرة ، طبعا ، ولم تعد حاجات الجامعين انفسهم هى التى تملى بنية ما يجمع فى الغابة ، بل تمليها ايضا مقتضيات المقايضة . ولا يهتم جامع النباتات الان بجذور الاشجار الصالحة للاكل بقدر ما يهتم بالمواد التى تحظى باكبر اقبال فى السوق : الزنجبيل ، الهال ، العسل ، الخشب الثمين الخ . بيد ان خبراتهم الانتاجية كجامعين بقيت على حالها من حيث المبدأ .

اما فى خصوص الشعوب التى تمارس تربية الماشية ، فان رسوخ تقاليدها الاقتصادية معروف للجميع . ومما يشهد

على هذا بوضوح تاريخ غزوات الرحل المتعددة على سكان اوراسيا الحضر فى القرون الوسطى التى كانت تقترن عادة بتحويل جزء كبير من الاراضى الزراعية الى مراع فى ظروف طبيعية مغايرة تماما .

ويشهد تاريخ الزراعة ايضا على التقاليد الاقتصادية الراسخة للغاية لدى الكثير من الشعوب . ومما له دلالته الى حد بعيد فى هذا الخصوص مثال المستوطنين الروس فى سيبيريا فى الفترة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر الذين بذلوا جهودا جبارة لتكييف الاساليب التقليدية لزراعة الحبوب مع ظروف الاراضى الزراعية الجديدة . وتلاحظ الصلة الراسخة بين انظمة الزراعة والاثنوس فى زمننا ايضا ، ولا سيما فى تلك المناطق من العالم ، حيث العلاقات الرأسمالية لم تتغلغل بعد فى الزراعة ، او ان هذا التغلغل لا يزال ضعيفا نسبيا ، كما فى جنوب شرقى اسيا ، مثلا . وفى هذا الصدد يمكن التنويه بالماليزيين والبورميين الذين يمارسون الزراعة المروية التقليدية ، او بالعديد من شعوب المناطق الجبلية التى تمارس الزراعة فى الاراضى التى تفرغ من الغابات عن طريق قطعها او حرقها . ان انظمة الزراعة هذه لا تراعى كل تنوع الظروف المحلية للتربة والمناخ .

ويتجلى التمايز السلالى للتقاليد الاقتصادية التى تمس وسائل كسب الرزق فى بلادنا ايضا . ويمكن ان نورد كشهادة على ذلك بقاء تقاليد متخصصة زراعية معينة (وبصورة متداخلة فى احيان كثيرة) لدى الشعوب القاطنة فى ما وراء بايكال : البورياتيين والروس والايفينكيين . واذا كانت الزراعة قد بقيت الفرع الرئيسى للاقتصاد الريفى عند الروس ، فان تربية الماشية تحافظ على اهميتها الاساسية عند البورياتيين على الرغم من ان الزراعة حظيت عندهم بانتشار ملحوظ تحت تأثير الروس . اما بالنسبة الى الايفينكيين فان اقتصادهم يتسم حتى الان باقتران ثلاثة فروع : القنص وتربية الايائل وصيد السمك .

ان التخصص الاقتصادى لكل اثنوس تقتضيه تاريخيا

كقاعدة عامة العلاقة بين عاملين فى لحظة ظهور هذا التخصص : خصائص النظام الاقتصادى الاجتماعى وطابع بيئة المعيشة . وعليهما بالذات يتوقف قبل كل شىء اختيار الاثنوس لهذا الاسلوب او ذاك فى استخدام الوسائل الطبيعية للحياة . ومدى ترسخ هذا النظام الاقتصادى فيه يحدده كذلك بصورة غالبة الاستقرار او التغير اللاحقان سواء لحياته الاقتصادية الاجتماعية او لوسطه الطبيعى . وفى حالة استقرارهما المطرد يتحول النظام المتكون للاقتصاد الى تقاليد وطيدة ويكتسب قوة الاستمرار .

وهذه بعض البراهين الدامغة ، حسب تصورنا ، على تاثير استقرار الظروف الطبيعية او تغيراتها على حد سواء ضمن مناطق متباينة الاتساع فى مسيرة التاريخ السلالى .

يرى الكثير من الاختصاصيين ان اسباب فتوحات العرب الشهيرة ، التى غيرت الخارطة السلالية لجزء شاسع من العالم ، لم تكن مرتبطة بالتطور الاجتماعى للقبائل العربية فحسب ، بل وبخصائص وطنهم الجغرافية ، وبالتغيرات المناخية وغيرها التى جرت فى اراضى شبه جزيرة العرب . وحينما سكن الانسان شبه جزيرة العرب لاول مرة كان جزء كبير منه عبارة عن غابات وسهوب يانعة . اما اليوم فان الحدائق الغناء والاراضى الخصبة اصبحت ، كما نعلم ، وقفا على اجزاء صغيرة فقط من اراضى شبه الجزيرة الشاسعة المترامية الاطراف . لقد بدأ منذ الوف السنين ولا يزال فى شبه الجزيرة هجوم جبار للصحراء ، فاودت الرمال بالانهر والاقنية تدريجيا واضطر عدد متزايد من السكان الى الاستعاضة عن الزراعة المالوفة لهم بتربية الماشية المتنقلة .

هذا الوضع التاريخى يمكن وصفه بايجاز على النحو التالى . ان الارض – وثمة راى كهذا فى الادبيات الاثنوغرافية – شحت فلم تعد تستطيع اطعام قطعان الرحل المتزايدين باستمرار . وحينما كانت تحدث جوائح طبيعية تسبب القحط ، كان شبه جزيرة العرب يبدو على الفور اراضى غاصة حتى الامتلاء ، فكان السكان الزائدون الذين يدركون بشكل عفوى

انهم اصبحوا اناسا فائضين فى وطنهم غير المضياف يغادرونه . ربما على هذا النحو بالذات جرت عملية استيطان ما بين النهرين وفلسطين التى ادت فيها بعد الى قيام بابل واشور واوغاريت واسرائيل القديمة . اما الصحراء فكانت تتابع هجومها . وفى غضون ذلك ظهرت على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة بمساهمة القادمين منه دول قوية ، كثيفة السكان ، فعرقلت المخرج السابق من الازمة الايكولوجية الذى كان يتم عن طريق الهجرة المتتابعة . وبالنتيجة اصبح شبه جزيرة العرب فى مستهل القرن السابع يشبه مرجلا عملاقا تجاوز ضغطه الداخلى منذ امد بعيد حدود الممكن ... وانفجار هذا المرجل وضع نصف العالم تحت اقدام البدو السابقين .

واليكم مثال آخر . كتب المؤرخ الروسى الشهير كلوتشيفسكى فى حينه : «ثمة خاصيتان جغرافيتان تميزان اوربا عن قارات العالم الاخرى ، وعن اسيا بشكل خاص . وهما ، اولا ، تنوع اشكال تضاريس الارض ، وثانيا ، الخطوط المتعرجة بشكل خارق للشواطىء البحرية . ومن المعروف اى تاثير قوى ومتنوع تمارسه هاتان الخاصيتان فى حياة البلاد . وتعود الى اوربا الاولوية فى قوة تاثير هذين الظرفين . لا يوجد اى مكان تتعاقب فيه السلاسل الجبلية والهضاب والسهول بمثل هذا التكرار الشديد فى ارجاء صغيرة نسبيا كما تتعاقب فى اوربا . ومن الجهة الاخرى ، فان الخلجان العميقة واشباه الجزر البارزة بعيدا والرؤوس كانما تشكل دانتيلا ساحلية لاوربا الغربية والجنوبية . هنا يوجد مقابل كل ٣٠ ميلا مربعا من المجال القارى ميل واحد من شاطىء البحر ، فى حين يوجد مقابل كل ميل واحد من شاطىء البحر فى آسيا ١٠٠ ميل مربع من المجال القارى» . ان الظرفين الجغرافيين اللذين ابرزهما كلوتشيفسكى قد اضطلعا ، ولا شك ، بدورهما الذى اشار اليه ماركس فى تطور الراسمالية العاصف بصلاتها الايكولوجية العديدة فى هذه القارة ، وبالتالى فى تطور الشعوب-الاثنوسات .

بيد ان مادة بحثنا التاريخى – الاثنوغرافى فى هذا الكتاب

لا تتيح لنا الاقتصار على هذه الاستنتاجات حتى وان كانت فى غاية الاهمية . ان تاريخ البشرية يعطينا شهادات عديدة اخرى . فلنتوجه الى تاريخ الاثنوس اليونانى .

حينما يجرى الحديث عن اليونان القديمة غالبا ما يعجز العلماء عن ايجاد الكلمات للاعراب عن كل اعجابهم بدورها فى تاريخ الثقافة . وليس عبثا ان يسمى الشاعر الروسى العبقرى اليكساندر بوشكين اليونان القدماء بابطال وآلهة .

هل كانت الظروف الطبيعية لليونان القديمة ، للظاهرة التى نسميها بالاثنوس اليونانى القديم ، تنطوى على مغزى بالنسبة الى دورها التاريخى الجبار ؟ من المعروف ان اليونان تتصف من الناحية الجغرافية بتعرج شواطئها وتقطعها الخارقين ، وبتضاريسها الجبلية ، الوعرة للغاية . وتشغل اليونان المرتبة الاولى فى العالم من حيث تجزؤ شواطئها ، فاذا اخذنا كل ما فيها من جزر واشباه جزر فى مساحة واحدة مستديرة الشكل نجد ان نسبة طول شواطئ هذه الكتلة غير المجزأة الى طول الشواطئ الفعلية لليونان تعادل ١ على ٣,٥ ، فى حين ان هذه النسبة اذا طبقت على شواطئ ايطاليا ، مثلا ، لا تعادل حتى ١ على ٢ . ومناخ اليونان متنوع للغاية ايضا . ان اثينا من حيث عدد الايام الحارة الخالية من الغيوم تضاهى القاهرة والسويس ، اما جبال شبه جزيرة بيلوبونيز فيغطيها الثلج حتى تسعة اشهر فى السنة مع انها غير عالية ، ولا يذوب الا مع حلول تموز (يوليو) . وهناك مناطق يهطل فيها المطر فى الشتاء غالبا ، ومناطق اخرى يهطل فيها فى الصيف من حيث الاساس . وتنبت فى اراضى اليونان كل اصناف النباتات الموجودة فى اوربا تقريبا . وباختصار ، جمعت اليونان فى ذاتها كل التنوع الجغرافى الذى يكفى قارة كاملة .

يصعب الحكم على درجة «مسؤولية» هذا الوضع عن ظهور تلك الحضارة العظيمة هنا ، ولكن من الواضح تماما انه لا يجوز عدم اخذه فى الاعتبار . ان الشواطئ المتعرجة والخلجان والجزر واشباه الجزر التى لا حصر لها قد ساعدت فى الاقل

على تطوير صيد السمك اول الامر ، ومن ثم الملاحة .

وفى الوقت نفسه نحن نعرف ان الظروف الطبيعية لليونان بقيت على حالها . هذا فى حين ان اليونان المعاصرة ليست الان اكثر بلدان العالم تطورا .

لعلنا فى هذه الحالة بالذات امام برهان واضح بشكل خاص على قانون التطور الاجتماعى القائل بان اسلوب الانتاج ، لا الوسط الجغرافى ، هو الذى يمارس التأثير الحاسم فى ارتقاء التقدم التاريخى ، بما فى ذلك فى تاريخ الاثنوسات : ان الظروف الجغرافية تؤدى دور عامل حث او ابطاء للتطور التاريخى ، بقدر ما يمكنها من هذا تطوير اسلوب الانتاج .

لقد عمل علماؤنا كثيرا لتبيان التأثير الذى مارسته الظروف الطبيعية لروسيا فى جوانب معينة من تاريخها ، وفى تكون الاثنوس الروسى القديم ، ومن ثم الشعوب السلافية الشرقية المعاصرة . وينبغى القول انه غالبا ما كان يبالغ فى هذا التأثير سابقا .

يبدأ سولوفيوف ، اكبر مؤرخ روسى فى القرن التاسع عشر ، مؤلفه المتعدد المجلدات حول تاريخ روسيا بفصل عنوانه «طبيعة منطقة الدولة الروسية وتأثيرها فى التاريخ». يقول سولوفيوف : «امامنا سهل شاسع ؛ ان الرحالة لا يقابل على مسافات بعيدة من البحر الابيض الى البحر الاسود ومن بحر البلطيق الى بحر قزوين اية مرتفعات تذكر ، ولا يلحظ تغيرات حادة فى اى شيء . ان تماثل الاشكال الطبيعية ينفى التعلق بالمنطقة ويجعل السكان يمارسون اعمالا متماثلة رتيبة ، وتماثل الاعمال يخلق تماثلا فى العادات والاخلاق والمعتقدات ، وتماثل الاخلاق والعادات والمعتقدات ينفى الاصطدامات الناجمة عن العداوة ، والمتطلبات الواحدة تشير الى وسائل واحدة لتلبيتها ؛ والسهل مهما كان شاسعا ومهما تعددت قبائل سكانه فى البداية سيغدو عاجلا او آجلا منطقة لدولة واحدة . . .» .

من الواضح انه عرض هنا رأى حول الصلة المباشرة بين الطبيعة والتاريخ . ان المؤرخين السوفييت ، مع كل

احترامهم للعالم الروسى الشهير سولوفيوف ، لا يميلون الى استخلاص استنتاجات قاطعة كهذه . ينبغى الا ننسى ان سهول اوربا الشرقية لم تكن تشكل دولة واحدة على امتداد الوف السنين . كان ذلك سواء فى الالف الاول قبل الميلاد وحتى اواخر الالف الاول بعد الميلاد تقريبا ، فاوربا الشرقية تكشف عن لوحة لقبائل واتحادات قبلية لا حصر لها تتكلم بلغات مختلفة وتفرقها على الصعيد السياسى العداوة فى اغلب الحالات او عدم المبالاة المتبادل على الاقل . ولا شك فى ان رتابة طبيعة اوربا الشرقية سهلت الانتشار اللاحق للسلافيين فى هذه الاراضى الشاسعة : لم يكن ينبغى فى كل مكان جديد تحويل المجمع الاقتصادى الثقافى وتكييفه مع ظروف جديدة للحياة ، فهذه الظروف بقيت على حالها . قال فلاديمير لينين عن دور الحدود الجغرافية فى فترة التاريخ المبكرة : «فى ذلك العهد كان المجتمع والدولة اصغر جدا من حالهما اليوم ، وكانا يتصرفان بجهاز للمواصلات اضعف بما لا يقاس من جهاز اليوم ، فوسائط المواصلات المعروفة اليوم لم تكن موجودة فى ذلك الحين . وكانت الجبال والانهار والبحار عقبات اكبر بما لا يقاس مما هى عليه حاليا ، فيجرى تشكيل الدولة فى اطار حدود جغرافية اضيق بكثير» (لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٩ ، ص ٩١ ، باللغة العربية) .

فى اطار الحدود الجغرافية بالذات ، اى الحدود التى عينتها الطبيعة لتلك الفترة التاريخية ، ظهرت اول دولة روسية عامة ، روسيا كييف . اما غياب «العقبات الاكبر بما لا يقاس» فادى الى ان تمتد الحدود الجغرافية لروسيا كييف ، وبالتالى حدودها السياسية ، على نطاق واسع نسبيا . ولكن حينما سببت قوانين التطور الاقتصادى-الاجتماعى فيما بعد التجزئة الاقطاعية للبلاد ، كانت مميزة لروسيا بدرجة لا تقل عن البلدان التى لها تضاريس جغرافية متنوعة اكثر نسبيا ، كفرنسا او المانيا مثلا .

اننا ، وقد نوهنا بالاولوية الهامة مبدئيا بالنسبة الى

علمى التاريخ والاثنوغرافيا التى تنطوى عليها العوامل الاقتصادية الاجتماعية فى عملية التفاعل بين الاثنوس والوسط الجغرافى ، نتوجه الى الامثلة الخاصة نسبيا لتفاعلهما الديالكتيكى .

لقد نوه سولوفيوف ، شأن متمم عمله كلوتشيفسكى ، بدور شبكة الانهار بالنسبة الى روسيا (من الطريف ان الانهار الجبارة كانت اشد ما اعجب هيرودوت فى بلاد الاسقوثيين) . كانت الانهار شرايين التجارة ، فعليها بالذات كان يمر الطريق الشهير من «الفارياغ الى الاغريق» ، اى من سكاندينافيا الى بيزنطة . وكان من المربح اقامة المستوطنات على ضفاف الانهار لا لاعتبارات تجارية فحسب ، بل لان النهر كان يحمى المدينة او البلدة من الاعداء ، ويمنح الماء والسمك الخ . واصبحت شبكة انهار سهل اوربا الشرقية الاساس لانتشار القبائل السلافية الشرقية فيه ، وفيما بعد ارتبطت الامارات الاقطاعية الروسية المتطورة فى القرون الوسطى باحواض الانهار اوثق ارتباط .

وفى الوقت نفسه ، كما نوه كلوتشيفسكى ، فان «القرب المتبادل لاحواض انهار السهل الرئيسية الى جانب الشكل الرتيب لتضاريس الارض كان يمنع انعزال اجزاء السكان المقيمة فيه عن بعضها البعض والانغلاق فى خلايا جغرافية مائية منعزلة ، وابقى الاختلاط فيما بينها ، واعد وحدة الشعب وساعد على توحيد البلاد فى دولة» .

ويكتب كلوتشيفسكى عن النهر انه «مرب من نوع خاص على الشعور بالنظام والروح الاجتماعية فى الشعب . . . لقد ربى روح المبادرة وعادة العمل المشترك ، التعاونى ، وكان يرغم على التفكير والحذاقة ويقرب اجزاء السكان المشتتة ويعلم الانسان ان يشعر بانه فرد فى المجتمع ، وان يخالط الغرباء ويراقب اخلاقهم واهتماماتهم ، ويتبادل البضاعة والتجربة ويعرف المعاملة . بمثل هذا التنوع كانت الخدمة التاريخية للنهر الروسى» .

ويكتب كلوتشيفسكى فى تعابير رائعة ايضا عن مغزى

الغابة فى التاريخ الروسى : «الغابة . . . كانت متاع الحياة الروسية على امتداد قرون عديدة : فقبل النصف الثانى من القرن الثامن عشر جرت حياة السواد الاعظم من الشعب الروسى فى منطقة الغابات من سهلنا . . . لقد قدمت الغابة الى الانسان الروسى خدمات متنوعة ومنها خدمات اقتصادية وسياسية وحتى اخلاقية : بنت له بيتا من خشب الصنوبر والبلوط ، دفأته بالبتولا والحور ، اضاءت بيته بجذوة البتولا ، حذته نعلا ، زودته بالاوانى المنزلية والليف ، غذت الاقتصاد الوطنى بالحيوانات ذات الفراء وبعسل نحل الغابة . وكانت الغابة آمن ملجأ من الاعداء الخارجيين ، فاستخدمها الانسان الروسى عوضا عن الجبال والحصون» . والغابة ، فى رأى كلوتشيفسكى ، حمت دولة موسكو من السهب المعادى الذى كان يأتى منه الغزاة الرحل . بيد ان الغابة والانهار لم تضطلع بهذا الدور البارز الا فى مرحلة معينة من تطور الاثنوس الروسى .

يمكن التحدث كثيرا عن كيفية انعكاس الطبيعة والموقع الجغرافى فى ترابطهما مع العامل الاقتصادى الاجتماعى على مصير فرنسا او الجزائر او المكسيك او اى كيان سلالى اجتماعى آخر .

لعل الموقع الجزيرى قد مارس تأثيرا واضحا جليا بشكل خاص فى المصير التاريخى للشعوب القاطنة فى اقصى غرب واقصى شرق اوراسيا . ان انكلترا واليابان هما اقصى غرب اوراسيا واقصى شرقها . وكأنما التاريخ قد اوجد عمدا اثنوسى الجزر هذين ليبين تأثير الموقع الجزيرى فى مصير الشعوب.

اولا ، ان الموقع الجزيرى اذا كانت شواطىء الجزر متعرجة يحفز تطور صيد السمك والملاحة . بيد ان الحكومة الاقطاعية فى اليابان اتخذت فى القرون الوسطى اجراءات نشيطة لمكافحة التجارة البحرية البعيدة وبناء السفن . هذا الاجراء مهد فيما بعد لتخلف البلاد . ولكن ما ان تغير الوضع الاقتصادى الاجتماعى فى اواسط القرن التاسع عشر حتى اخذت اليابان تعوض عما فات . وفى انكلترا ، على العكس ،

شجع بناء السفن فى القرون الوسطى ، وكان هذا من الاسباب التى جعلت الانكليز يشغلون مكانة متقدمة فى التجارة البحرية الدولية ، مما حفز بدوره تطور الرأسمالية فى البلاد وجعل انكلترا فيما بعد دولة استعمارية جبارة .

لم تكن انكلترا واليابان على امتداد قرون طويلة بمنأى عن اقتحام شعوب القارة لاراضيهما وحتى النزوح اليها بشكل جماعى . وهكذا فمنذ الفى سنة ونيف نزح الى اليابان التى كانت مأهولة منذ الازمنة الغابرة اهل الياماتو الذين صهروا او ازاحوا الى الشمال سكان البلاد الاصليين ، الاينيين . وفى انكلترا التى كانت ايضا مأهولة منذ زمن بعيد تغلغل الكيلتيون البريتيون فى اواسط الالف الاول قبل الميلاد ، والرومان فى اواخر القرن الاول قبل الميلاد ، وقبائل الانكليين والسكسون ، واليوتيين الجرمانية فى اواسط الالف الاول بعد الميلاد . واحتل قادمون من ايرلندا جزء الجزيرة الشمالى ، سكوتلندا حاليا . وسيطر الدانمركيون طويلا على جزء كبير من انكلترا . وفى القرن الحادى عشر جرى آخر غزو اجنبى لانكلترا ، وكان على يد الدوق النورماندى هيوم «المنجد» . ان كل الشعوب المذكورة اضطلعت بدورها فى المنشأ السلالى للانكليز المعاصرين . وفيما بعد لم تكلل بالنجاح محاولات الغزو العديدة التى قام بها الملوك الفرنسيون والاسبان فى الغرب والحكام الصينيون والمغول فى الشرق . وهكذا نرى ان البحر لم يكن عائقا فى وجه الاجانب الى ان بلغ المجتمع فى انكلترا واليابان مستوى عاليا نسبيا من التطور .

ثمة صفحات بارزة فى تاريخ ايرلندا القديم تستحق الحديث عنها ، لانها مميزة بالنسبة الى الماضى السلالى للكثير من البلدان الجزيرية الموقع . ولم يكن من النادر ان تصبح هذه البلدان ملجأ للثقافة المتضررة زمن الاحداث العاصفة التى تجتاح القارة المجاورة . ففى اوائل العصور الوسطى زمن الحروب الدامية بين الدول الاقطاعية الفتية التى نشأت على انقاض الامبراطورية الرومانية المنهارة ، كانت

ايرلندا احد اكبر المراكز الثقافية فى ذلك الحين . وقد حمل الهاربون من القارة معهم العديد من الروائع القديمة فى ميدان الثقافة المكتوبة والعلم والفن . ان المبشرين الايرلنديين قد «نوروا» فى الفترة من القرن السادس الى القرن الثامن حكام وسكان الكثير من دول اوربا الغربية . وفيما بعد ، حينما تباطأ تطور ايرلندا الاقتصادى الاجتماعى احتلتها انكلترا المجاورة التى انهت مرحلة التجزئة الاقطاعية قبلها .

ان الرأى القائل بتأثير الوسط الجغرافى على ما يسمى الطابع السلالى او القومى يجد دعما له سواء فى الحياة العادية او بين الكثير من علماء الاجتماع .

ان الاختلافات فى اسلوب سلوك الجنوبيين والشماليين قد لوحظت منذ اقدم الازمنة . وبالفعل ، فان حدة وحمية سكان القفقاس تلفتان النظر لدى المقارنة بين الابخازى والكاريلى ، مثلا .

واغلب الجبليين فى حياتهم العادية ، حسب الرأى السائد ، اكثر انطواء وصمتا من سكان السهول . وهذا مفهوم : فى الجبال يضطر الناس عادة الى العيش فى مجموعات مغلقة صغيرة ، وامكان الاختلاط فيما بينهم اقل .

يصعب دائما تعيين ذلك الشىء فى سلوك الانسان ، فى طبعه المرتبط بنمط الحياة التقليدى ، الذى تحدده الظروف الاجتماعية بصورة حاسمة ، والشىء الناجم عن الظروف الجغرافية .

ان كل واحد منا يرى العالم من خلال ارضه الام . انها تملأ انظار كل منا اما بالعشب اليانع او بالثلج المندوف او بسعف النخيل المرتفعة عاليا فوق الارض . ان منظر سرب الغرانيق فى الخريف يرتبط فى ذهن الشمالى بشعور من الانقباض والحزن ويراه حافلا بالشاعرية . فهل ينظر سكان افريقيا الشمالية على هذا النحو الى تحليق الغرانيق الى الشمال فى الربيع ؟

لعل خصائص الطبع الشعبى وارتباطه بالارض الام يتجليان بوضوح خاص لدى المراقب الغريب . وهذا ما يكتبه

عن كرز ساكورا اليابانى الصحافى السوفييتى اوفتشينيكوف فى كتابه «وجه فودزى الاول بعد المئة» : «لفهم روح اليابان تنبغى رؤيتها فى الربيع ، حينما يزهر الكرز ، لان اوراق زهر الساكورا هى التجسيد المجازى الشاعرى للطبع القومى اليابانى . . . لا يكفى تكرار هذه العبارة المفضلة للنشرات السياحية . ينبغى شرح السبب الذى يجعل اليابانيين يحبون ويجلون هذه الاعذاق الوردية بالذات .

ان الربيع لا يحمل الى الجزر اليابانية ذلك الجيشان للطبيعة ، حينما تحطم الانهار قيود الجليد وتحول مياه الذوبان السهول الى بحار بلا شطآن . والفترة المنشودة لاستيقاظ الطبيعة فى البلاد تبدأ بتفتح زهور الكرز فجاة وبغزارة . . وتفتح زهور الساكورا يثير العجب قبل كل شىء بوفرته الغزيرة واندفاعه وسخائه اللامحدود .

وهذه الزهور تبعث على تهييج الشعور ايضا – ربما بدرجة اكبر – لكونها لا تذبل ، خلافا لغيرها . واوراق زهور الساكورا تطير الى الارض ، متراقصة بمرح ، حتى لاخف نسمة من الهواء . انها تفضل السقوط نضرة على التخلى مثقال ذرة عن جمالها . . .» .

من لم يسمع بالابتسامة اليابانية الشهيرة التى ينبغى المحافظة عليها حتى لدى الاعلام بامور لا تبعث على السرور ؟ يفترض ان قدرة اليابانيين التقليدية على ان يتمالكوا انفسهم مهما كانت الظروف ربما كان مردها ، بين امور اخرى ، الى التهديد الدائم بوقوع كارثة طبيعية . واليابانيون ، حتى مقارنة بالشعوب القريبة اليهم ، يستخدمون فى حياتهم اليومية كمية قليلة من الاشياء ، وهذا ايضا رد فعل على تقلب الظروف الطبيعية .

ان الحياة الصارمة ، الحافلة بالاخطار الدائمة ساعدت على ان تتطور فى اليابان فى القرون الوسطى تعاليم فلسفية اخلاقية على غرار الرواقية . فطرحت القيم الروحية فى المقام الاول ، ودعى الانسان الى العيش بانسجام مع قوانين الطبيعة والاقتناع بالقليل وتوجيه الاهتمام الى «الروح» وحدها . واذا

كانت قد ظهرت باستمرار فى اليونان واوربا الغربية ، وفى الصين والهند ، بصورة موازية الى التيارات الرواقية والتنسكية فى الفلسفة ، مدارس ذات اتجاه ابيقورى ، ان صح القول ، تدعو الى التمتع بخيرات الدنيا ، فان هذه المدارس فى اليابان اضطلعت بدور اقل شأنا بكثير فى الفلسفة القديمة وفلسفة القرون الوسطى .

كان الثورى الديمقراطى الروسى العظيم ، العالم والكاتب تشيرنيشيفسكى محقا ، اذ امتعض من الرأى السائد الذى يزعم ان الشعوب الجنوبية كسلانة ، وان المناخ الحار يضعف طاقتها . واكد ان النواقص والفضائل ليست حكرا على هذه المنطقة من الارض او تلك . وبالفعل ، هل يمكن التحدث عن كسل سكان الجنوب اذا كانت الزراعة والحضارة اجمالا قد ظهرتا فى البلدان الجنوبية بالذات ؟

فى عام ١٩٧٢ كتب الجغرافى السوفييتى البارز انوتشين ، ونحن نشاطره هذا الرأى : «لا تتكون الامة الا فى ظل الاختلاط المنتظم نتيجة النشاط الاقتصادى المشترك الطويل ، الامر الذى يفترض قبل كل شئ رابطة الارض مع ظروف معينة تخلف من خلال الانتاج طابعها على الامة الناشئة ، مسبغة عليها خصائص معينة تسمى بالطبع القومى» .

الاجناس

الاجناس ، او بتعبير ادق ، الاجناس الكبيرة ، ثلاثة . وهى تسمى فى التداول اليومى بالاجناس الابيض والاسود والاصفر ، وتسمى فى العلم بالاجناس الاوربى والزنجى والمغولى ، وتسمى ايضا بالاجناس الهندى - الاوربى والاسترالى - الافريقى والاسيوى .

تتباين الاجناس خارجيا : بلون البشرة والعينين ، بشكل الشعر والشفتين ، بطول الرأس واتساع الوجه ، بشكل الانف . ونقول فورا وبكل تحديد ان الاجناس متساوية فى

الامر الرئيسى والجوهرى ، فى الشعور والافكار ، وفى القدرات والامكانات .

يعيش الزنوج فى النصف الشرقى من الكرة الارضية ، افريقيا ، وفى قسمها الغربى ، ملانيزيا وجزر المحيط الهادى . ويعزى اليهم ايضا الاستراليون السود عادة .

لا يقطن الجنس الاوربى فى اوربا وحدها ، كما تفترض تسميته . انه يشغل افريقيا الشمالية كلها واسيا الغربية باسرها (العرب من الجنس الاوربى) . وهو يشغل سيبيريا (الروس) وايران وافغانستان والهند (ثمة فى الهند زنوج ايضا) . وفى خلال الاربعمئة سنة الاخيرة اصبح الجنس الاوربى السواد الاعظم من سكان اميركا ، ولا سيما اميركا الشمالية .

ليس مصادفة ان يسمى الجنس الثالث - المغولى - بالجنس الاسيوى ايضا . اذ ان الصين والفيتنام واليابان وبورما واندونيسيا وجزر الفيليبين هى المنطقة الاساسية للجنس المغولى . وتنسب شعوب شمال اوراسيا الى الجنس المغولى . ويعتبر اغلب العلماء ان هنود اميركا من الجنس المغولى .

ان التقسيم الى اجناس لا يخلو من عنصر الاصطلاح . يعتبر ان الملامح الرئيسية المحددة ، من الناحية العرقية ، للجنس المغولى هى الشعر المستقيم الناعم ، والانف المتوسط الاتساع بين الانف الاوربى الضيق والانف الزنجى العريض ، والوجه المسطح نسبيا ، وثنية الجلد فوق الجفن الاعلى . ولكن الوجه بالنسبة الى هنود اميركا ليس مسطحا ابدا ، ويبرز فيه انف ضخم غالبا ما يكون محدبا . فى حين ان هذا الانف هو بالنسبة الى اى صينى سمة مميزة للجنس الاوربى . (وقد اطلق فى الصين يوما لقب «الشياطين ذوى الانوف الكبيرة» على المبشرين الاوربيين الذين حاولوا الدعاية الى المسيحية هناك ، ممهدين بذلك الطريق للاستعمار) .

ويعتبر الاستراليون من الجنس الزنجى . وبشرتهم سوداء بالفعل . ولكن شعرهم ، خلافا لسكان افريقيا الاصليين ،

ليس ذا تجعيدات دقيقة ، بل متموج ، كما هو لدى اغلب الاوربيين . ويوجد بين الكثير من الاوربيين ، كالايطاليين ، مثلا ، من له شعر ذو تجعيدات دقيقة .

لقد اتى الجزء الاعظم من البشرية نتيجة لاختلاط الاجناس . ففى اكبر بلدان اميركا الجنوبية – البرازيل – اختلط الناس من كل شعوب الدنيا تقريبا . فقد اتى الى هناك برتغاليون وانكليز ، عرب ويابانيون . وجلب الى هناك من افريقيا عبيد من الزنوج . وكانت تعيش هناك يوما قبائل هندية حرة .

طبيعى ان آثار الفوارق العرقية بين البرازيليين لم تمحى بعد ، ولكن فى كل سنة يحتفل بمهابة فى البلاد بعيد العرق . اى عرق ؟ العرق البرازيلى ، طبعا . والانتروبولوجيون لا يوافقون الحكومة البرازيلية فى صدد وجود هذا العرق – فسوف يمر وقت طويل الى ان يتكون . ولكن ستحل اللحظة التى قد يصبح فيها هذا العرق حقيقة واقعة : اذ يعيش فى افريقيا الشرقية عرق الاثيوبيين الوسطى بين الزنوج والاوربيين الذى يجمع على نحو فريد فى مظهره الخارجى بين ملامح هؤلاء واولئك .

ان الانتروبولوجيين يعزون الكثير من القيرغيزيين والكازاخيين الى الجنس السيبيرى الجنوبى الذى يشغل مكانا وسطا بين الجنسين الاوربى والمغولى . فى الجنس الوسطى الكوريلى ، الذى لا يمثله سوى شعب الاينيين الصغير وحده ، وفى الجنس البولينيزى الوسطى تجتمع – على نحو متباين لكل منهما – سمات كل من الاجناس الافريقى – الاسترالى والاوربى والمغولى .

لا يمكن للاجناس الا ان تختلط ، وهذا مفهوم تاريخيا . وقد اعتبر شكسبير من الطبيعى زواج «مغربى البندقية» ، عطيل الاسود وديدمونا الحسناء . واذا كان معاصرو عطيل قد اعتبروا مظهره «الغريب» عجيبا ومقيتا وحتى ممسوخا ، فان ديدمونا (وشكسبير) لم يكونا يشاطرانهم آراءهم . وهذا شىء رائع .

لقد كان الفرنسى اليكساندر دوماس ، مؤلف «الفرسان

الثلاثة» و«الكونت مونت كريستو» ، حفيد زنجية . ولم يكن العبقرى الروسى بوشكين سليل عائلات روسية وجيهة وغير وجيهة فحسب . بل وكان من سلالة «زنجى بطرس الاكبر» ، احد سكان شمال شرقى افريقيا الذى جلب الى روسيا . ان وجود الدم «الغريب» لا يمنع الناس من ان يصبحوا عظماء .

يعتبر علماء كثيرون ان كل اجناس الارض ستندمج تدريجيا فى جنس كبير واحد لسكان الارض . ومنذ الان يكتشف الانتروبولوجيون عند الكثير من الناس ، حتى الذين يمثلون للوهلة الاولى «نمطا صافيا» لهذا الجنس الكبير او ذاك ، سمات تشهد على «اختلاط الدم» منذ ازمنة بعيدة او قريبة نسبيا .

منذ اربعة او خمسة الاف سنة قدمت من اسيا الى اوربا قبائل كانت اسلافا للشعوب الفنلندية الاوغورية . وهذه القبائل شغلت شمال اوربا الشرقية ، وربما جزءا من وسط اوربا ايضا ، حيث التقت اسلاف الشعوب الهندية الاوربية . وقد حمل الفنلنديون الاوغريون القدماء معهم وفى ذاتهم جملة من سمات الجنس المغولى .

ان الفنلندى العادى او الاستونى العادى لا يشبهان ، طبعا ، المغولى ولا البورياتى . ولكن نظرة الاختصاصى تلاحظ عند احد سكان شرق استونيا فتحة عين تشبه ما لدى المنغولى ، وعند الآخر وجها مسطحا الى حد ما . والمجموع العام لبعض السمات العرقية المغولية المبعثرة ، «الموزعة» بين مختلف الناس يبدو ، فى راى العلماء ، مقنعا بما فيه الكفاية .

ولكن بعض السمات فقط ، لا اكثر . وهذا نتيجة لاختلاط السكان المحليين والدخلاء .

لقد حمل الدخلاء القدماء السمات المغولية من اسيا الى اراضى اوربا الشرقية والوسطى . ومن الجنوب تغلغل الافارقة فى اوربا على امتداد الوف السنين . ولا يلاحظ الانتروبولوجيون «شوائب دمهم» عند الاسبان والبرتغاليين والايطاليين وسكان جنوب فرنسا فحسب ، بل يجدونها ايضا فى مناطق ابعد ،

في المناطق الشمالية الغربية ، في ايرلندا . يبدو ان سكان «القارة السوداء» بقوا الوف السنين ينزحون الى الشمال ، وان كان ذلك منذ قديم الازل ، حيث خلفوا آثارهم في هذه المناطق البعيدة . ومع ذلك لم تتغير الصفات الجسدية الاساسية للشعوب الاصلية .

من المعروف ان اراضي بيزنطة وقعت تحت سلطة الاتراك نهائيا منذ خمسمئة سنة ونيف . ولكن الاتراك المعاصرين يشبهون بمظهرهم الخارجي اولئك البيزنطيين اكثر مما يشبهون الاتراك القدماء الذين ورثوا لغتهم .

وثمة امثلة اخرى من هذا النوع . ان تاريخ شبه جزيرة البلقان معقد ومتشابك الى ابعد حد . فقبل ان يصبح السلافيون ، سكان يوغسلافيا وبلغاريا الحاليتين ، اصحاب جزئه الاكبر ، اجتاحت البلقان موجات تنقلات كبرى للشعوب ، ومن بينها القوطيون والهون والافاريون وشعوب اخرى لاعد لها ولا حصر .

ولكن سلافيي البلقان يشبهون خارجيا ، من حيث الاساس ، اسلافهم من الشعوب القديمة ، مثل الايليريين الذين عاشوا غربي البلقان والفراكيين الذين قطنوا في شرق شبه الجزيرة . ويشير التشابه هنا الى صلة قربى مباشرة واعمق تاريخيا .

ما الذي يجعل ذكرى الماضي المندرجة في مظهر الناس ذاته حية الى هذه الدرجة ؟ يجب ان نعتاد قبل كل شيء على قاعدة عامة بالنسبة الى التاريخ وهي ان الدخلاء عادة اقل من المقيمين القدماء ، اما الغزاة فانهم على الغالب ، وربما دائما ، اقل من الذين يتعرضون للغزو . ويمكن القول ان الذين يتعرضون للغزو يحرزون ، بدورهم ، انتصارا على الغزاة . هذا اذا كان الشعب راسخا في استقلاله . وغالبا ما يخلف المغلوبون في مظهر الاخلاف الخارجي اثرا اوضح بكثير مما يخلفه الغالبون .

ان الفاتحين المتكبرين الذين يسمون انفسهم «حملة السيف» او «اخلاف الالهة» وغير ذلك ينصهرون بسرعة

مدهشة بين الذين يدفعون الاتاوة اليهم ، او حتى بين عبيدهم . فالنظام الفئوي الفائق الصرامة في الهند ، الذي يمنع منعا باتا الزواج بين الفئات ، لم يستطع في آخر الامر ان يصمد الى النهاية في وجه هذا الاختلاط . بين الهنود المعاصرين اناس يعزون الى الجنس الاوربي ، وبينهم افارقة ايضا . ولكن ملايين عديدة من سكان هندستان يحملون في وقت واحد سمات الجنسين الاوربي والافريقي . انهم في آن معا اخلاف سكان الهند الاصليين القاتمي البشرة و«غزاتهم» الاوربيين الاريين الذين اقتحموا الهند منذ حوالي ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة (وهم ، علاوة على ذلك ، اخلاف مئات الشعوب الاخرى التي اخضعت وخضعت) .

يمكن القول ان الذين يتعرضون للغزو يحرزون ، بدورهم ، النصر على الغزاة . ومن حيث المظهر الخارجي للاخلاف المشتركين غالبا ما يكون تراث المهزومين ملحوظا اكثر بكثير من تراث المنتصرين .

وهذا امر مفهوم . فالعدو الذي يحول في المجتمع الطبقي الى عبد او قن يوفر دخلا الى «السيد» . وينبغي ان يؤخذ في الاعتبار ايضا انه حتى اقسى الفاتحين لم يكونوا يبيدون النساء في الاراضي المقهورة سواء في المجتمع الطبقي او في المجتمع غير الطبقي . ان قبيلة الكاريبيين الهندية ، التي انتقلت من القارة الى جزر اميركا الوسطى ، ابادت قبيلة الارافاكيين التي كانت تعيش هناك . او بالاحرى ابادت نصفها ، لان النساء الارافاكيات اصبحن زوجات للكاريبيين . وبالنتيجة ظهرت حالة نادرة ، وان لم تكن شاذة في التاريخ : عند قدوم الاسبان كان الرجال هناك يتكلمون بلغة ، والنساء بلغة اخرى .

ولكن تكفي نساء الشعب المقهور وحدهن لجعل اخلاف المنتصرين اخلافا للمتهزمين ايضا . هذا مع العلم انه لم تكن تجري عادة ابادة الاطفال واغلب الرجال .

ينبغي الاعتراف بان بعض المؤرخين كانوا حتى امد قريب يبالغون احيانا كثيرة ، وان كان ذلك من غير قصد ، بدور

الدخلاء في تاريخ الشعب نتيجة «اختلاط الدم» ، مستخفين بمغزى السكان الاصليين الذين عاشوا في الاراضي ذاتها قبل قدوم اولئك اليها . وكان هؤلاء الباحثون يتبعون هنا الاساطير التي الفتها الشعوب نفسها ، غير متذكرة الا الاحداث الاخيرة المرتبطة بظهورها .

وبالمناسبة ، لعلنا تحدثنا كثيرا عن الفتوحات . ولكن الشعوب لا تلتقي وتختلط نتيجة لحملات الغزو وحدها . فهناك مجرد هجرات ايضا .

منذ ثلاثة آلاف سنة صارت القبائل المهاجرة تدريجيا من شبه جزيرة العرب الى ما بين نهري دجلة والفرات تضطلع في نهاية المطاف باهم دور في بابل ، على الرغم من انه لم تكن هناك ، كما يبدو ، حملات لجيوش جرارة ولا معارك ضارية .

في ختام عرضنا لهذا القسم نذكر بالتعريف الموجز للاجناس . ان الاجناس هي اقسام لنوع «الانسان العاقل» الذي تمثله البشرية المعاصرة ، وتتسم اجناس الانسان بخصائص جسدية موروثة مشتركة ترتبط بوحدة الاصل . وهذا الاصل يسبق ظهور الشعوب – الاثنوسات ، الروابط الاحدث تاريخيا ، اي الروابط الاجتماعية من حيث المبدأ

هرم اللغات

ان الروسي والاوكراني والبيلوروسي يستطيعون اجمالا ، وان كان ذلك لا يخلو من الصعوبة ، ان يفهموا حديث بعضهم البعض . اما الروسي والبولندي والصربي والبلغاري فلا بد لهم من مترجم . ان اللغات الروسية والاوكرانية والبيلوروسية «شقيقات» . وللغات الروسية والبولندية والصربية والبلغارية «جدة» مشتركة ، هي اللغة السلافية الاولى . وكلما كانت القربى بين اللغات اوثق وكان الزمن الذي عاشته كلغات منفصلة اقصر ، كان التفاهم بينها اشد . منذ اثني عشر قرنا كان السلافي من الدنيبر لا يحتاج الى مترجم لدى التحدث مع ساكن وادي فيسلا ، اذ كانت لغات السلافيين الجنوبيين

والغربيين والشرقيين متشابهة اكثر مما هي الان بكثير . واذا اوغلنا في الماضي ثلاثة آلاف سنة نجد ان الاسلاف المشتركين للسلافيين واللاتفيين والليتوانيين كانوا يتكلمون بلغة واحدة . واذا اوغلنا ايضا بضع مئات اخرى من السنين نسمع اللغة الواحدة للاسلاف المشتركين للسلافيين والالمان .

لعله يصلح هنا التشبيه بنظرية الكون المتسع ، وهي القائلة بان مجراتنا كلها كانت متركزة – قبل انفجار كوني معين – في نقطة واحدة من الفضاء . ومع تعمقنا في الماضي يتقلص «عالم اللغات» : عوضا عن اكثر من عشر لغات سلافية نجد اللغة السلافية المشتركة (السلافية الاولى) ، ثم تتحد اللغة السلافية العامة مع اللغة البلطيقية العامة ، ثم (قبل ذلك) مع اللغة الجرمانية العامة (جدة الالمانية والانكليزية والسويدية) . لقد انفصلت اللغتان السلافية الاولى والجرمانية الاولى (مع لغتي الكيلتيين والايطاليكيين وغيرهما) عن اللغة الاوربية القديمة . وجاءت اللغة الاوربية القديمة مع اللغات الهندية الايرانية وغيرها من حضن اللغة الهندية الاوربية المشتركة التي كان يتكلم بها (او بتعبير ادق ، بمجموعة لهجاتها) الاسلاف المشتركون للاوكرانيين والايرانيين والانكليز والهنود والارمن واليونانيين . وسنجد الصورة نفسها اذا توجهنا الى اللغات الاخرى سواء منها العربية او الاسبانية او الامهرية . امامنا هرم يقف على هامته .

كيف امكن رؤية هذا الهرم ؟ ان التشابه بين اللغات ذات القربى ملحوظ ، طبعا ، بما فيه الكفاية حتى بالنسبة الى غير الاختصاصي . وانه لمن الاصعب بكثير تتبع صلة القربى الاكثر بعدا . منذ اربعمئة سنة كان الايطالي فيليب ساسيتي اول من لاحظ ، بعد ان زار الهند ، التشابه بين الكلمات الايطالية واللاتينية والهندية . وفي ذلك العهد نفسه قسم الهولندي يوسف يوستوس سكاليغير اللغات الاوربية الى احدى عشرة مجموعة حسب درجة تشابهها . ووضع العالم الليتواني ميخايلو ليتوانوس قائمة بالكلمات الليتوانية

الشبيهة بما يقابلها من الكلمات اللاتينية . واثار التشابه بين اللغتين الفنلندية والمجرية انتباه الفيلسوف وعالم الرياضيات الالمانى ليبنيتس . وكتب العالم الروسى العظيم ميخائيل لومونوسوف عن صلة القربى بين اللغات اليونانية واللاتينية والروسية والالمانية . وفيما بعد ، منذ قرابة مئتى سنة ، صدر فى روسيا «القاموس المقارن للغات واللهجات جميعا» ، وهو الاول من نوعه فى العالم ، وقد وضع «ببساطة» ، حيث ترجمت الكلمات الروسية الى لغات العالم كلها التى وجد مترجمون لها . وقد راعت طبعة القاموس الاول مئتى لغة فى اوربا واسيا . واخذت الطبعة الثانية فى الاعتبار مئتين واثنتين وسبعين لغة كانت بينها هذه المرة لغات افريقية واميركية .

ينبغى اعطاء العلماء حقهم من التقدير ، فان ابحاثهم لا تقدم الينا الحقيقة فحسب ، بل وتقدم معها الاحساس نفسه بقرابتنا التاريخية والروحية لشعوب ابعد وابعد .

يقال ان اللغويين «يستحضرون جوز البلوط حسب شجر البلوط» . بيد ان هذا التشبيه ليس صحيحا تماما . فمنذ الف او خمسة او عشرة او عشرين الف سنة لم يكن الناس يتكلمون بجنين لغة من اللغات الحالية ، بل كانوا يتكلمون بلغة اخرى . واذا كان الاخلاف فى عالم الحيوان اكثر تطورا من الاسلاف كقاعدة عامة ، فان هذه القاعدة فى عالم لغة الانسان لا تسرى دائما . فليس من البساطة ابدا القول عن لغات الالوف الاخيرة من السنين انها تتحسن او تسوء . القضية تنحصر فى امر آخر : انها تتطور وتتغير دائما . لا يجوز تشبيه اللغتين اللاتينية والفرنسية بالحبة والسنبلة ، مع ان الفرنسية تطورت من اللاتينية .

حتى اللغات الحية المعاصرة لم تدرس بالعمق الذى يريده الاختصاصيون . ومن باب اولى ان ينطبق هذا على ماضى اللغات . تجرى ، مثلا ، على اساس تحليل اللغة المعنوى مناقشات حادة حول ما اذا كان الهنديون – الاوربيون الاوائل مربى ماشية او مزارعين بالدرجة الاولى . كانت تربية

الماشية موجودة عندهم بلا شك : لقد اضطلعت الاغنام بدور كبير فى اقتصادهم ، اما الانتشار المدهش باتساعه للغات الهندية – الاوربية فيرتبط ارتباطا وثيقا بواقع ان الهنديين الاوربيين كانوا ، كما يرى علماء كثيرون ، اول من دجن الحصان ، وهو بالذات الذى منحهم تفوقا معينا فى الاصطدامات مع الشعوب الاخرى . بيد ان الكلمة اللاتينية «ليبير» – «الحر» – تعنى قبل كل شىء ، كما يفترض بعض اللغويين ، «المزارع الحر» ، اما المصطلح اللاتينى «العبد» فيأتى من تسمية مربى الماشية – الراعى . وهكذا فان المعارضة بين «الحر» و«غير الحر» ترجع حسب المعطيات اللغوية الى المعارضة بين «غير الغريب ، المزارع» و«الغريب ، مربى الماشية» .

بودنا هنا ان نورد ابياتا لشاعرنا السوفييتى مارشاك :

على الكلمات طابع احداث وامور .
بالجهد نالها الانسان
«عصر» ، «منذ عصر» ، «ابد العصور» ،
«عاش عصرا» ، «مضى عصره والاوان» ،
«عش عصرا تعرف دفائن النفوس» .
فى الكلمات رنة لوم وغضب واحزان .
كلا ليس هذا بقاموس .
بل قصة مبعثرة من قديم الزمان .

ننوه بانه يمكن حتى انطلاقا من الكلمات غير الموجودة فى هذه «القصة» التحدث كثيرا عن الشعب الذى ألفها . ان الكثير من اللغات الهندية الاوربية ، مثلا ، اقتبست للتعبير عن مفهوم «القناة» الكلمة التى اطلقها المصريون عليها . وهذا يعنى انه لم تكن عند الهنود الاوربيين الاوائل كلمتهم القديمة للتعبير عن منشآت الرى ، لان الاقنية نفسها لم تكن قد وجدت عندهم بعد . والقصة تقول كذلك انه لم تكن عند الهنديين الاوربيين الاوائل دولة مركزية واحدة ، ولا كتابة . ويبدو ان هذين الظرفين اضطلعا – مهما يبدو فى

الامر من مفارقات – بدور هام فى انتشار الشعوب الهندية الاوروبية فى ارجاء الارض : لم يكن ثمة ما يبقى القبائل المستقلة فى اراضيهم المشتركة الاولى ، ولم يكن ثمة ما يعزز صلتهم ويمنع جولاتهم البعيدة ، فانطلقوا من وطنهم الاول وتبعثروا فى العالم .

يبدو ان الشعوب تتبع نسبها بدقة اكثر من السابق ، وتكشف جذوره بمزيد من العمق .

ان هرم اللغات الاوروبية هو واحد فقط من الاجزاء المكونة «لهرم لغوى» اكبر ، وهو ما يسمى باللغات النوستراتية . فقد برهن على وجود صلة قربى بعيدة بين الاسر اللغوية الكبرى فى افريقيا واوربا وآسيا : الافريقية الآسيوية (السامية – الحامية) ، الكارتفيلية ، الهندية الاوربية ، الدرافيدية ، الاورالية ، الالطائية . ونشأت من اللغة النوستراتية الاولى القديمة اللغات الاسكيموسية – الاليوتية واللغتان اليابانية والنيفخية واللغات التشوكوتية ، الكامتشاتية وبعض اللغات الاخرى .

والاسرة النوستراتية العليا ليست منعزلة . فهى تضم ، مثلا ، الشعوب الاوغرو – فنلندية واعضاء الاسرة الالطائية الذين يصر بعض العلماء على ربط لغاتهم بجملة من اللغات الهندية فى اميركا . وحتى انه اخترعت تسمية لهذه الاسرة «ما بين العائلية» ، حيث يجرى الحديث عن الشعوب الديتيفنلندية على اسمى ممثليها الذين يعيشون فى اقصى الشرق (فى اميركا) وفى اقصى الغرب (فى اوربا) . كم هى بعيدة لغات افريقيا الشمالية وشمال الاورال ، اسيكمو غرونلاند وشعوب الهند ، ولكن العلماء وجدوا فيها سمات القربى البعيدة والصلات القديمة . ويبدو انه يتسنى وصل لغات سكان استراليا الاصليين بلغات شعوب جنوب الهند . وثمة اسر لغوية كثيرة تبدو الان متباعدة تنتظر العثور على رابطة توحدها .

ان لغتنا دائمة ومتغيرة فى الوقت نفسه .

ويمكن ان نبرز فيها ، من ناحية الرسوخ ، ما يسمى

«القاموس الاساسى» ، وهى الكلمات التى تعنى مفاهيم تبدو انها لا تخضع للزمن (او لا تخضع الا قليلا) . ان الانسان يعيش فى المجتمع دوما ، ولذا يحتاج الى استخدام الضمائر الشخصية ، «انا» و«نحن» ، «انت» و«هم» ، الى آخره . ومن المفهوم ان اللغة مستحيلة بدون كلمات معينة (اصطلح على ان عددها يقارب المئتين) . ولكن القاموس الاساسى يتغير ايضا . اذ تختفى كلمات وتحل مكانها كلمات اخرى . وهكذا ، فمنذ الف سنة تقريبا اتت الى اللغة الروسية كلمة «سبينا» («ظهر») ، وقبل ذلك كان الظهر يسمى «غورب» اى «حدبة» . وننوه بان الاهم هنا ليس ، على ما يبدو ، كون القاموس يتغير ، بل كونه يتغير بقانون معين وبسرعة واحدة وسطيا فى مختلف اللغات . وقد حسب انه فى غضون الف سنة يذهب ويتبدد من «الكلمات الرئيسية» المئتين ٣٩ كلمة تحل مكانها كلمات جديدة ، وفى هذا الصدد ادرج اللغويون فى الاستعمال مفهوم «معامل ديمومة المفردات» ، وهو يعادل ، كما نرى ، ٨٠،٦٪ وسطيا فى الالف سنة . وهذا يعنى انه يمكن ان نحسب بواسطة عدد الكلمات المشتركة فى لغتين قريبتين الزمن الذى انفصلت فيه هاتان اللغتان . وبتعبير آخر ، يمكن ان نستوضح متى اصبح اثنوسان مستقلين ، وكم من القرون مضت منذ ان كانا يتكلمان بلغة مشتركة ويشكلان اثنوسا واحدا .

فى ارجاء شاسعة من شمال الاتحاد السوفييتى يعيش النينيون ، وغير بعيد عنهم ، فى تايمير يعيش النغاناسانيون ، وبين نهرى اوب وينيسيه يعيش السيلكوبيون . وهم جميعا يتكلمون بلغات ساموديئية تربطها صلة القربى . ومن بين هذه اللغات اللغة الكاماسينية المندثرة حاليا ، والتى كانت شائعة فى سايانى . متى انقسمت اللغات الساموديئية؟ ان عدد الكلمات المشتركة فى اللغتين النينية والنغاناسانية يبلغ ٥٥٪ وفى النينية والسيلكوبية ٤٨٪ . وهناك ٤٦–٤٩٪ من الكلمات المشتركة فى اللغتين النينية والكاماسينية ، وفى اللغتين النغاناسانية والسيلكوبية ، وفى اللغتين

النغاناسانية والكاماسينيـــة ، وفى اللغتين السيلكوبيـــة والكاماسينية . ويبين الحساب ان تفكك اللغة الساموديئية المشتركة جرى منذ الفى سنة تقريبا ، ويبدو ان النينيين والنغاناسانيين بقـــوا بعد هذا يشكلون اثنوسا واحدا ، وانقسموا فى وقت متاخـــر ، فى القرن السادس الميلادى تقريبا .

هذا الحساب ليس ، بالطبع ، دقيقا دائمـــا بما فيه الكفاية . فنسبة الكلمات المشتركـــة فى اللغات التركية ، مثلا ، هى اكثر «مما ينبغى» بكثير ، اذا لم يؤخذ فى الاعتبار سوى المعامل العادى لديمومـة المفردات . ومن التفسيرات المحتملة هو ان شعوبا تركية كثيرة كانت تضمها معا على امتداد الالفى سنة الاخيرة دول كبيرة ، مثل الخاقانية التركية وغيرها من تشكيلات الدول الضخمة فى القرون الوسطى ، وفى غضون ذلك بقى عدد كبيـر من الاتراك رحلا يغيرون اراضيهم من حين الى آخر . وبالنتيجـــة كانت الاثنوسات المختلفة الناطقة بالتركية مترابطة واشد اختلاطا فيما بينها مما يحدث لدى الاثنوسات «وسطيـــا» . وانعكس هذا على تباطؤ الوتيرة التى تفرقت بها اللغات «كل الى جهة» .

لا يزال من الصعب حتى مجرد افتراض موقعى المركزين اللذين انطلق منهما انتشار اللغات الافريقية – الآسيوية او الدرافيدية وهذا يعنى ان امام المؤرخين واللغويين وعلماء الاثار عملا كثيرا جدا .

ولكن كل البراهين والافتراضات فى صالح القربى بين اللغات تبهت على خلفية الفرضيات التى تؤكد اننا جميعا ، سكان العالم كلهم ، نتكلم بلغة واحدة من حيث المبدأ . ان كل واحد منا ، طبعـــا ، يكتشف بدهشة عاجلا او اجلا ان صيغ لغته المالوفة لديه ليست حتمية بالمرة بالنسبة الى كلام البشر . ويعرف علم اللغـــة اشياء مدهشة من وجهة نظرنا الذاتية .

فى لغة الاسكيمو من الصعب جدا تجزئة العبارات الى كلمات . وكل الكلمات تقريبـــا عند الصينيين قصيرة جدا

ووحيدة المقطع ولا تتغير صيغها . وثمة لغات يتوقف فيها معنى الكلمات ومغزى العبارات على النغمة الموسيقية للكلمة او العبارة . ويمكن ايراد امثلة كثيرة لهذه .

ولكن لكل لغات العالم – العربية والانكليزية ، السواحلية والاوكرانية ، الياقوتية ولغة هنود الايمارا – بعض الملامح المشتركة . يتحدث اللغويون عن الكليات اللغوية ، وهى القواعد السارية بقوة واحدة فى لغات كوكبنا ولهجاته كافة .

ومن المؤكد اننا لا نعرف الى الان هذه الكليات جميعـا ويمكن ابداء افتراضات فقط حول تفسير الكثير منها : قد يتوقف شىء منها على مجرد بناء الجهاز الصوتى للانسان ، وقد يتوقف شىء آخر على قوانين تفكيرنا العميقة ، الاساسية الخ . من الطبيعى ان تثير الاختلافات انتباهنا اكثر من اى شىء آخر : يبدو لنا عادة ان الاهم هو كون الناطقين بلغات مختلفة لا يتفاهمـــون . ولكن المنظرين اللغويين ، الذين يتصورون جيدا الاختلافات الممكنـــة مبدئيا بين اللغات ، يعتبرون تنوع اللغات الفعلى ليس بلا حدود كما قد يبدو . بل العكس هو الصحيح .

ان اعمال اللغويين تجعلنـــا ندرك بدرجة اكبر بكثير قرابتنا لشعوب العالم الاخرى . ولا بد من اعطاء العلماء حقهم من التقدير ، لان استقصاءاتهم لا تجلب الينا الحقيقة وحدها ، بل تجلب معها ايضا الاحساس بقرابتنا التاريخية والروحية لشعوب ابعد فابعد .

الشعوب والدين

انتهت فى اوائل القرن السابع عشر الحرب التى خاضتها هولندا ضد اسبانيـــا من اجل الاستقلال . وقـــد تحررت المقاطعات الشماليـــة من هولندا حينذاك من سلطة الملوك الاسبانيين واصبحت فيما بعد دولة مستقلة . وبقيت المقاطعات الجنوبية ملكا لاسبانيـــا . وقد مرت الحدود الدولية بين فلاندرا والمقاطعات الجنوبية الاخرى وهولندا . ولكن هذه

الحدود لم تكن تفصل بين ممتلكات الملوك وراء البحار عن الجمهورية المستقلة فحسب ، بل كانت ايضا حدودا بين ممتلكات كنيستين . فقد استطاعت محاكم التفتيش بعث الكنيسة الكاثوليكية فى المستعمرة الاسبانية . وانتصرت البروتستانتية فى هولندا .

يقطن فى بلجيكا المجاورة لهولندا الحالية شعبان : الفلمنك الذين يتكلمون باحدى اللغات الجرمانية ، والفالونيون ولغتهم الفرنسية . ومن البديهى ان يخلق هذا معضلات معينة – المناقشات فى البرلمان ، صعوبات التعليم المدرسى والجامعى الى آخره – ولكن لا توجد ، طبعا ، اية مسوغات لافتراض ان بلجيكا ستنشطر يوما الى قسمين . ان التاريخ المشترك صهر بشدة شعبى البلد الواحد ، وحتى ان بعض العلماء يتحدثون عن ظهور اثنوس بلجيكى بلغتين . ولا ينبغى ان ننسى ايضا دور الدين المشترك ، الكاثوليكية ، فى اتحاد الشعبين هذا .

بعد قرنين من الحرب ضد اسبانيا من اجل الاستقلال اضطلع الدين بدور كبير فى جعل هولندا وبلجيكا دولتين منفصلتين كل واحدة منهما مستقلة عن الاخرى . بقرار من مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، الذى فرض «نظام المنتصرين» فى اوربا بعد حروب نابليون ، وضعت بلجيكا تحت سلطة الملك الهولندى . ولكن ما لبث البلجيكيون – الفلمنك والفالونيون – ان انتفضوا وانفصلوا . لقد كان الفلمنك من حيث اللغة اقرب بكثير الى الهولنديين (يستطيع الناطقون باللغتين التفاهم عمليا) منهم الى الفالونيين ، ولكن المصالح الاقتصادية المشتركة والتاريخ المشترك على امتداد قرنين والدين المشترك وحدتهم مع الفالونيين ، وكانت الغلبة لكل هذا . . .

واضطلعت الاختلافات الدينية ايضا بدور فى كون الكرواتيين والصربيين ، الذين يتكلمون بلغة واحدة ، يشكلون شعبين مختلفين ، اذ ان الكرواتيين كاثوليك ، والصربيين ارثوذكس . بيد ان ذلك الانفصال الدينى نفسه فى هذا المثال التاريخى ، شأن الامثلة السابقة ، هو نتيجة

احداث سياسية ملموسة . ان كرواتيا ، خلافا لصربيا ، كانت فى يوم من الايام جزءا من الدولة الفرنكية ، وكانت منذ القرن الثانى عشر الى عام ١٩١٨ باستثناء فترات قصيرة من الزمن ، جزءا من الامبراطورية النمساوية . اما صربيا فكانت مستقلة حتى القرن الخامس عشر ، ثم ناضلت خمسة قرون تقريبا ضد النير التركى ، ولم يأتها الدين من الغرب ، بل من الشرق ، من بيزنطة ، ولذا اصبحت ارثوذكسية .

احيانا يضطلع الدين – وذلك ، طبعا ، على الاساس الاقتصادى-الاجتماعى الذى يخلقه العصر المعنى – بدور اكثر اهمية بالنسبة الى تاريخ الشعب .

تمتد الدول العربية من الخليج العربى الى ساحل موريتانيا على الاطلسى عبر آسيا وافريقيا .

ان الكثير من شعوب شمال افريقيا وبعض شعوب آسيا الامامية صارت تتكلم العربية نتيجة الفتوحات التى قام بها الخلفاء العرب فى اوائل القرون الوسطى . اما قبائل الرحل المشتتة العديدة فى شبه جزيرة العرب فاصبحت قوة عسكرية وسياسية جبارة قادرة على القيام بفتوحات كهذه حينما اتحدت فى شعب واحد . واتحدت تحت راية ديانة واحدة ، وهى الاسلام . ومن المفهوم انه كان يجب ان تنضج الظروف الاقتصادية – الاجتماعية لهذا الاتحاد . ان الايمان بالله الواحد الاحد اصبح من الناحية السياسية شكلا للاعتراف بالدولة الواحدة . والدولة التى توحد الكثير من قبائل الرحل تكون عادة فى الازمنة الاقطاعية ، كما تبين تجربة التاريخ ، دولة محاربة ومظفرة . وقد اندفع الالوف من محاربى محمد وخلفائه الى الشمال والغرب والشرق والجنوب . انهارت سلطة بيزنطة فى سورية ومصر ، وضم الى الخلافة الكثير من بلدان افريقيا وآسيا ، وفارس وارمينيا وجورجيا والجزء الاكبر من آسيا الوسطى . بقيت الخلافة الواحدة امدا قصيرا نسبيا ، وبقيت لغات ايران وما وراء القفقاس وآسيا الوسطى فى اراضيها السابقة ، ولكن اصبحت اللغة والثقافة العربيتان سائدتين فى ارجاء شاسعة .

اليوم يتحدث الاثنوغرافيــون عن الاثنوسات المصرى والجزائرى والليبى وغيرهــا ، ولكن اناس هذه الشعوب يعزون انفسهم الى امة عربية واحدة .

كانت فتوحات جنكيز خان اقرب الينا من حيث الزمن وشملت اراضى اوسع ، وبقيت الامبرطورية المغولية الواحدة حوالى مئة وخمسين سنة . ولكن لا يوجد «عالم مغولى» ، ولا يتحدث اخلاف الشعوب التى هزمها المغول بلهجات اللغــة المغولية .

بقيت مصر مئـــات السنين مملكــة لاخلاف بطليموس لاغوس ، احد قواد اسكندر المقدونى ، ثم ولاية لرومــا وبيزنطة . وقد عاش هناك مئات الالوف من اليونان ، وكانت اليونانية لغة بلاط البطالسة ودواوين حكام الولاية ، ولكن مصر لم تعتنق ديانة اليونـان البيزنطيين . وحتى حينمــا انتصرت المسيحية فى وادى النيل ، اصبح اغلب سكانــه اتباعا لطائفة هرطوقية من وجهة نظر الحكام البيزنطيين .

اما الاسلام فقــد اعتنقته مصر بسرعة من الناحيــة التاريخية ، ولكن احتاجت اللغة العربية الى الف سنة تقريبا لتهزم اللغة المحلية . وكان آخر من تبنى اللغة العربية فى البلاد ، وذلك فى القرن السابع عشر ، المسيحيون - الاقباط المصريون ، مبقين على لغتهم «مــا قبل العربية» كلغة لاداء الشعائر الدينية فى الكنيسة .

ننوه هنا من اجل العرض اللاحق لموضوعنا ايضا بان الدين اضطلع ولا يزال يضطلع - على الاساس الاجتماعى - الاقتصادى لكل عصر على حدة - بدور هــام فى تاريــخ الشعوب .

الاسم على مر العصور

لكل شعب معاصر تقريبا عدة القاب واسماء . ثمة تسمية ذاتيه يطلقها الشعب على نفسه ، فى حين يسميه الجيران على نحو آخر .

يبدو ان الروس ، مثلا ، ينبغى ان يبقوا روسيا مهمــا كانت اللغة التى تنطق بهــا هذه التسمية . ولكن شعب السآميين الصغيــر الذى يعيش فى الشمال الاقصى للقسم الاوربى من الاتحاد السوفييتى يسمى الروس على نحو آخر تمامــا - «كاريبلى» . و«الروسى» باللاتفى - «كريبيفـى» . وبالفنلندية والاستونية يصبح الروس «فينى» . وفى تركيا غالبا ما تستخدم بمعنى «الروسى» الكلمة العامية «قوزاق» .

يسهل فهم مصدر كلمة «كاريبلى» فى لغة السآميين : هنا تخطر على البال فورا تسمية الكاريليين الذين كانوا منذ القدم اقرب الجيران الجنوبيين للشعب الشمالى الصغير . ومن الواضح ان اللاتفيين يتذكرون اقرب جيرانهم السلافيين فى الازمنة القديمة ، قبيلة الكريفيتشيين . اما الاستونيون والفنلنديون فقد اطلقوا على الروس ، كما تشير كل الدلائل ، اسم القبائل السلافية القديمة فى منطقة البلطيق - الفينيديين .

وبالنسبة الى الاتراك ، فان ممثلى الروس - تاريخيا - هم القوزاق الذين كانوا على امتداد قرون المفاوز الطليعية لروسيا فى الجنوب واضطلعوا بدور العازل بين روسيــا وتركيا .

من الاعتقد بكثير بالنسبة الى المؤرخين ان يفهموا لماذا اطلق الروس على انفسهم هذه التسميــة بالذات . وليس مما يدعو الى الدهشة ان الجيران لا يقرون او يعترفون دائما بالاسم الذى يطلقه الشعب على نفسه .

يمكن التذكير بان الصينيين يسمون انفسهــم بشعب الخان .

اما الروس فيسمونهم على نحو آخر - الكيتايتسى - الاسم الذى «بقى فى ذاكرتهــم» والذى كان يطلق على «الجيران المشتركين» - شعب الكيدانيين . ويمكــن ان نضيف ان الصينيين اطلقوا على انفسهم اسم سلالة امبرطورية قديمة ، اما فى بلدان اوربا الغربية فيطلقون عليهم اسم سلالــة امبرطورية قديمة اخرى ، وهى الصين .

يغدو الاسم ضروريا للاثنوس - وهذا مــا ينطوى على

اهمية خاصة بالنسبة الى موضوعنا – حينما يكون قد اجتاز طريقا تاريخيا معينا فى تطوره . والاسم هو قبل كل شىء تعبير عن ان افراد الاثنوس شعروا بانهم رابطة وشعب من الشعوب .

حينما كانت البشرية كلها تنقسم فى نظر الناس الى جزئين – قبيلة المرء والعالم الآخر باسره – وحينما كانت قبيلة المرء تستحق وحدها فقط ، وفى كل الحالات ، الضمير «نحن» ، وكل القبائل الاخرى تستحق على قدم المساواة الضمير «هم» ، ومجرد «هم» لا اكثر ، لم تكن ثمة حاجة الى الاسم .

يعرف الاثنوغرافيون حالات كثيرة كانت فيها القبيلة البدائية لا تطلق على نفسها اية تسمية ، كما يبدو للوهلة الاولى . ان كل (!) قبائل غينيا الجديدة تلقت اسماءها من الاوربيين (فسكان احدى المناطق الذين رفضوا ان يعتنقوا المسيحية تلقوا من احد المبشرين اسما مميزا بالنسبة الى المستعمر ، وهو «ناماو» اى «المغفلون») . ولم تلمس اغلبية شعوب اوقيانوسيا ضرورة التسمية الذاتية . واضطرت هذه الشعوب الى اعطاء اسماء للقبائل المجاورة لتميز احداها عن الاخرى . ولكن افراد القبيلة نفسها كانوا يعرفون من هم حتى بدون هذا ، انهم اناس وكفى . وبتعبير آخر ، ان كلمة «اناس» او «انسان» كانت حتى حد تاريخى معين فى التطور الاجتماعى الداخلى للرابطة السلالية تضطلع بدور تسمية سلالية .

ان هنود النافاخو يسمون انفسهم «الناس ، الشعب» ، اى «دينى» بلغتهم . و«الالمانى» يسمى نفسه «دويتش» ، و«دويتش» هذه جاءت يوما من كلمة قديمة تعنى كذلك «الناس ، الشعب» . و«تركى» اصلها من كلمة تعنى «الانسان» باللغة التركية . وكلمة «نيفخ» معناها «الانسان» باللغة النيفخية .

وباختصار ، ثمة امثلة كثيرة فى هذا الصدد . ويفترض

كثير من العلماء ان مقطع «آر» الذى تنتهى به تسميات العديد من الشعوب هو كلمة تعنى «الانسان» .

حينما تغدو الكلمة التى تعنى الانسان جزءا من الكلمة او العبارة التى ترمز الى القبيلة ، فان هذا يعنى خطوة كبرى الى الامام فى ادراك الناس التاريخى لمكانهم فى العالم . فهم يجعلوننا نعرف من اسم القبيلة نفسه انهم اعترفوا بان القبائل الاخرى هى ايضا جزء من الجنس البشرى المشترك ، «نحن اناس» ، «نحن» و«هم» اناس على حد سواء ، ولكن «نحن» نحن ، و«هم» آخرون .

ان كلمتى «اهلنا» ، «جماعتنا» صارتا اساسا لتسميات الكثير من الشعوب . ان اللغوى البولندى المعروف يان اوتريمبسكى استخلص من كلمة اهلنا فى صيغتها القديمة اسماء السلافيين والسويديين وبعض الشعوب الاخرى ، ومن بينها ، بالمناسبة ، قبيلة السابينيين فى ايطاليا القديمة ، وهى نفسها التى سبى الرومان نساءها .

وهناك اسماء كثيرة تعنى ايضا «صديق» و«رفيق» و«حليف» . ان الاسم القديم لاجداد الاوسيتيين هو الآلانيون . وكلمة «آلان» تعنى الى اليوم «الصديق» عند بعض شعوب القفقاس . و«الصديق» و«الحليف» هما معنى تسميتى التيغوميين فى جزيرة تيمور فى اندونيسيا ، والنغاناسانيين فى تايمير .

ولكن اسم الشعب – وهذا ما تنبغى معرفته ايضا فى تاريخ الشعوب – قد يعنى ، ولكن نادرا ، «الغرباء» مع تلاوين تعنى «الاعداء» . لقد كان القرن الثامن عشر ، مثلا ، زمن العداوة بين قبيلتين شقيقتين من حيث الجوهر ، قبيلتى الكورياكيين والتشوكتشيين اللتين لم يكن قد مضى على انفصالهما الا امد قصير . ونتيجة لهذا بقى الكورياكيون زمنا طويلا يسمون التشوكتشيين «تان ايتبن» – «الغرباء» . وحينذاك اصبحت هذه الكلمة ذاتها لوقت معين اسما للكورياكيين فى لغة التشوكتشيين .

منذ زمن بعيد جدا صارت الشعوب تاخذ اسم البلد

الذى تعيش فيه . ولكن من اين يأخذ البلد اسمه ؟ يأخذه من الشعب ايضا ، ولكن من شعب اقدم .

لا وجود للبريتيين منذ زمن بعيد ، ولكن الانكليز يسمون بالبريطانيين ، لان جزيرتهم الكبيرة احتفظت باسم بريطانيا العظمى ، ولا وجود منذ اقدم الازمنة لشعب الفيطاليين الذى كان يقطن فى جنوب شبه جزيرة ابينين . ان اليونانيين الذين قابلوا الفيطاليين اطلقوا اسم ايطاليا على كل شبه الجزيرة ، والان يحمل الشعب الايطالى اسمهم القديم .

ان المقدونيين الحاليين شعب سلافى ، ولا يمت بصلة من حيث اللغة للمقدونيين الذين اخضعوا مع اسكندر الاراضى فى افريقيا وآسيا .

ينعكس فى اسم الشعب احيانا طابع المنطقة التى يشغلها . ان اثيوبيا ، البلاد الواقعة فى شرقى افريقيا ، اتخذت هذا الاسم رسميا منذ بضع عشرات من السنين ، و«الاثيوبيون» تعنى باليونانية «الذين لفحتهم الشمس» . وكانت هناك على الدنيبر وعلى فيسلا قبيلتان سلافيتان مختلفتان (وربما اتحاد قبائل) يحملان اسما واحدا ، هو بولانى (سكان الحقول) . وسميت احدى القبائل السلافية الشرقية ، وكانت تسكن فى منطقة مستنقعية ، بالدريغوفيتشيين ، وهى تسمية مشتقة من كلمة معناها منقع ، مستنقع .

احيانا يغدو نوع العمل فى المنطقة المعنية اسما . ففى تركيا تعيش فلول قبيلة التختجى ، ومعناها «الخشاب» : لقد كان افراد هذه القبيلة حطابين . والمهيليون فى الهند «صناع للاقواس» .

تعنى بعض الاسماء السلالية الموقع الجغرافى للشعب . وثمة افتراض بان تسمية «القيرغيز» جاءت من الكلمة التركية «احمر» . وكما يكتب اللغوى السوفييتى المرموق باسكاكوف ، فان «تسميات الشعوب التركية غالبا ما تنطوى فى بنيتها على اسماء الالوان التى لا تشير ، كما بينت ابحاث بعض المختصين فى الشؤون التركية والالطائية ، الى مظهر الشعوب

الخارجى بقدر ما تشير الى موقعها الجغرافى فى جهات المعمورة» . الاحمر هنا يعنى الجنوبى ، والاسود الشمالى ، اما اللون الاصفر فيرتبط ، كما يبدو ، بالوضع الوسطى للاثنوس بين الاثنوسات القريبة اليه من حيث اللغة . ويبدو ان كلمة البولوفيين ، التى اطلقت فى روسيا على الكيبتشاكيين ، هى مجرد ترجمة لاسم الكومانيين التركى الذى كان الكيبتشاكيون يسمون به انفسهم ، والكومانيون تعنى بالتركية «الصفر» : فى وطن البولوفيين – الكومانيين الاول كانت تعيش شعوب تركية اخرى الى الغرب والشرق والشمال والجنوب منهم .

وبالمناسبة ، يمكن الا يكون لاسم الشعب اية علاقة بالارض التى يشغلها .

ان البيكتيين («المتقشين») – وهم مجموعة من القبائل كانت تشكل سكان سكوتلاندا القدماء – قد اطلق عليهم هذا الاسم بسبب عادة تشبه الوشم .

ويمكن لعنصر معين من الملابس ان يصبح اسما لشعب ، كما هو الامر بالنسبة الى القره قلبقيين – شعب فى آسيا الوسطى – الذين يعنى اسمهم «القبعات السود» .

وليس من النادر ان يحمل الاثنوس او جزء منه اسم قائده البارز . لقد حكم الخان التترى – المغولى نوغاى فى اواخر القرن الثالث عشر اراضى من الدانوب الى القفقاس ، واثار الرعب فى بيزنطة ، وهدد الصربيين والبلغار . واغار على بولندا ، وفى نهاية المطاف حطمه صنيعته الذى كان قد نصبه على عرش الارطة الذهبية ، حيث عقد حلفا مع ابناء نوغاى نفسه . ولكن اربعين سنة من النجاحات الحربية خلفت فى الارض بعد موته شعبا كاملا يحمل اسم تتر نوغاى ، او النوغائيين . ان الغز ، الذين اقتحموا ايران وآسيا الصغرى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، كان يقودهم زعماء من سلالة السلجوقيين ، وصار هذا الشعب يسمى بالاتراك السلجوقيين وفيما بعد وقفت على رأس اخلاف السلجوقيين

(والشعوب التى غزوها) سلالة العثمانيين ، و«ظهر» الاتراك العثمانيون .

قد يتلقى الشعب اسمه بالوراثة ، اذ يأتى من اجداد بعيدين يعيشون احيانا فى ارض اخرى تماما . ان الياقوتيين يسمون انفسهم «ساخا» ، وليس من المستبعد ان يكون هذا الاسم مرتبطا بتسمية ساكيى آسيا الوسطى ، ابناء الاسقوثيين : يبدو ان الساكيين وصلوا منذ ما قبل الميلاد الى بايكال التى كانت تعيش فى منطقتها حينذاك قبائل انطلق اخلافها بعد ذلك بامد طويل الى ارض ياقوتيا المعاصرة . هل كان من الممكن ان يدخل ساكيون حينذاك فى بنية هذه القبائل ويطلقوا اسمهم على اتحادها ؟ يبدو ان ذلك كان ممكنا .

احيانا يختفى اسم الشعب قرونا ، ليبعث بعد ذلك من جديد . وهذا ما حدث لاسم الاويغوريين . وحاملو هذا الاسم القدماء شعب تركى اقام فى القرن الثامن دولة جبارة سيطرت بعض الوقت فى وسط آسيا ، وفى شرقيها جزئيا . بعد انهيار الدولة الاويغورية فقد الشعب تماسكه الجغرافى وزالت اللغة الاويغورية الواحدة ، ومن ثم اسم الشعب نفسه .

واتخذت من قبل بعض مجموعات هؤلاء الاتراك الشرقيين تسميات سلالية مختلفة سواء حسب المناطق التى كانت تعيش فيها ، او حسب نوع الاعمال التى تمارسها . واطلق الفيلولوجيون على لغتها المشتركة تسمية غير محددة ، وهى اللغة التركية-الشرقية .

وقد تم بعث الاسم بموافقة من المثقفين الاتراك الشرقيين فى مؤتمرهم فى الما-اتا : فى عام ١٩٢١ اقترح الاختصاصى السوفييتى فى شئون الشعوب التركية مالوف اطلاق هذا الاسم على الشعب التركى – الشرقى الذى يقطن فى آسيا الوسطى وشمال غربى الصين . (ينبغى التنويه بان اللغة الاويغورية الحديثة هى اقرب الى الاوزبكية بكثير منها الى لغة الاويغوريين القدماء . ولكن الاسم يعيش مجددا ، وسوف يعيش) .

ان تاريخ اسم «التتر» مدهش حقا ، وليعذرنا القارئ على ايراد مثل آخر من شعب قريب الينا ، ولكن لهذا المثل دلائله البليغة . لقد تلقى تتر الفولغا اسمهم ، كما جاء فى احدى الموسوعات ، «نتيجة سوء تفاهم تاريخى» . وتصوروا انه كانت عند مؤلف المقالة فى الموسوعة مسوغات معينة لوجهة النظر هذه .

يعيش تتر الفولغا من حيث الاساس فى اراض كانت تشغلها بولغاريا الفولغا منذ اكثر من سبعة قرون ، اى قبل الغزو المغولى لاوروبا الشرقية . ان الاتراك البولغار ، الذين كانوا يعيشون على الدون ، انقسموا فى وقت من الاوقات الى قسمين . قسم انطلق الى الغرب وعبر الدانوب واخضع منطقة فى البلقان واطلق اسمه على شعبها السلافى . وتحرك القسم الآخر فى الاتجاه الشمالى الشرقى واسس فى اواسط الفولغا ، مختلطا مع السكان الفنلنديين المحليين ، الدولة البولغارية .

لقد تعرضت بلغاريا الدانوب فى حياتها للكثير ، ولكنها احتفظت باللغة السلافية وباسمها الذى تلقته من الاتراك . اما بولغاريا الفولغا فبقيت طويلا تتكلم بلغة الاتراك البولغار ، ولكنها فقدت اسمها بعد الاجتياح المغولى . وفى القرن الخامس عشر بنى احد اواخر خانات الارطة الذهبية مدينة قازان فى اراضيها المقفرة ، وشجع بكل السبل على انتقال البولوفيين الى الاراضى المجاورة . ان السكان المحليين ، الاخلاف المشتركين لقبائل الفولغا الفنلندية القديمة والبولغار والبولوفيين ، وبنسبة قليلة جدا التتر – المغول (وفق بعض الحسابات استوطن الفولغا منهم فى عهد باتو ما لا يتجاوز الاربعة آلاف) ، بقوا لفترة تاريخية طويلة جدا يسمون باسم مدينتهم الرئيسية : القازانيين . وفى اواخر القرن التاسع عشر فقط اعترفوا باسم التتر الذى اطلقه عليهم جيرانهم .

لقد اطلق الروس اسم التتر على شعوب شرقية كثيرة . اما سكان اوروبا الغربية فكانوا يميلون فى وقت من الاوقات

الى ان يسموا بالتتر كل الشعوب تقريبا التى تعيش الى الشرق من الروس . ومن السهل ايجاد اثر هذا الميل على الخارطة : يقع فى الشرق الاقصى السوفييتى بين جزيرة سخالين والقارة مضيق التتر ، وهذه التسمية الغريبة من وجهة النظر المعاصرة اطلقها عليه البحار الفرنسى لابيروز منذ حوالى مئتى سنة .

وهنا ايضا «سوء تفاهم تاريخى» . ولكن اكثر ما يدعو الى الدهشة ان «حالات سوء التفاهم» هذه بالنسبة الى اسم التتر قد بدات قبل ان يسمى القازانيون تترا بامد طويل ، ناهيكم عن حادثة مضيق التتر .

الى الان يتناقش العلماء حول سبب اطلاق اسم التتر على المغول الذين قدموا فاتحين الى آسيا الوسطى واوربا فى مستهل القرن الثالث عشر . لقد بحث المؤرخون واللغويون ووجدوا جذورا ايرانية وتونغوسية وتركية وصينية وحتى يونانية قديمة وغيرها لهذه الكلمة . تشير بعض المعلومات الى ان الصينيين فى اوائل العصور الوسطى صاروا يطلقون اسم قبيلة «تاتا» او «تاتان» المغولية المزعجة بشكل خاص على كل من يهدد البلاد من الرحل الشماليين .

ومهما كان الامر ، يبدو ان اسم التتر قد اظهر منذ ما قبل الغزوات المغولية من الثبات فى وجه تقلبات القدر ومن القدرة على الانتقال الى شعوب اخرى والانتشار فى اراض جديدة قدر ما اظهره فى حالتى القازانيين ومضيق التتر .

غالبا ما يكون تاريخ انبثاق تسميات الشعوب غامضا شان هذه التسميات نفسها . . . ولكن الاسم الذى يتخذه الشعب لا يعود بالنسبة اليه مجرد كلمة عادية ، بل يغدو رمزا ، بما فى ذلك لماضيه التاريخى كله .

«روح الشعب»

فى مستهل الكتاب تحدثنا قليلا عما يسمى «وحدة التكوين النفسى» للاثنوس و«الطبع القومى» و«روح الشعب» . ولكن

هذه القضية هامة بحيث اننا فى هذا الكتاب لا نستطيع ، طبعا ، الاستغناء عن التحدث عنها بمزيد من التفصيل ودعمها بامثلة ملموسة .

ان الوحدة الثقافية لافراد الاثنوس ترتبط ارتباطا لا ينفصم بوجود ملامح معينة عندهم لنفسية اجتماعية غالبا ما تسمى – فى المؤلفات الخاصة – بالطبع القومى . ينبغى القول انه لم يتكون بعد فى السيكولوجيا السوفييتية رأى موحد بصورة كافية حول مفهوم «الطبع» . ويبدو انه بالنسبة الى بعض خصائصه الملموسة فقط يوجد اجماع اكبر بكثير . ان مظاهر الطبع الملموسة متنوعة للغاية . ومن المميز فى هذا الصدد ان السرد البسيط لخصائص الطبع فى الادبيات السيكولوجية يعطى المئات من مختلف الصفات . ومما يشهد على تنوع خصائص الطبع البشرى ووفرة تبايناته وتلاوينه واقع انه توجد فى اللغة الروسية ، مثلا ، كما تبين الحسابات ، حوالى الف وخمسمئة كلمة للدلالة على هذه الظواهر .

يبدو من الواضح ان الخصائص من هذا النوع تعبر عن صفات الناس الارادية . ومن الجلى كذلك انها ليست مجرد ما يدركه الناس من اراء ومثل عليا ومصالح وما شابه ذلك . وعلى الرغم من ان الوعى قادر سواء على حث او على كبح تجلى هذه الخصائص للطبع او تلك ، فان اكثرها عمقا يبرز بالرغم من الوعى ، اى يتجلى كشعور .

سال مراسل مجلة «فن الديكور» السوفييتية يوما فنان السيراميك بيتروف كيف يسبغ الطبع القومى على مؤلفاته . وقد اجاب الفنان انه لا ضرورة له لان يحرص على اصالة سيراميكه القومية ، فطالما انه فنان روسى فلن يكون سيراميكه جورجيا او هولنديا .

تجعلنا كلمات الفنان هذه نتذكر رأى الناقد والكاتب والشخصية الاجتماعية الروسية العظيمة فيساريون بيلينسكى : « . . . بعد بوشكين اندفع الجميع نحو الشعبية ، وصار

الجميع يقتفى اثرها ، ولكن لا يصل اليها الا الذين لا يحرصون عليها اصلا ، محاولين التعبير عما فى نفوسهم» .

ان ملامح الطبع ، اذ تتجلى فى نشاط الناس «الخارجى» ، تعبر عن خصائص موقفهم من هذه الجوانب للواقع او تلك . ولا يصعب فى هذا الصدد ملاحظة «تدرج» و«تفاوت» فريدين لخصائص الطبع . وقد يكون «مستوى» هذه الخصائص متباينا للغاية : من الثانوية نسبيا الى اكثرها جوهرية . واذ نقصد بهذه الاخيرة «الاتجاه العام للطبع» ، يجب ان تبرز من بينها قبل كل شىء الطروحات الهادفة والموقف من العمل والعلاقة بين الفرد والجماعة .

وانه لمن التبسيط الشديد اجمالا النظر الى الطبع كمجرد محصلة بسيطة لخصائصه . فهو عبارة عن نظام متكامل يتمتع بخصائص بنيوية («القوة» ، «الصلابة» ، «الاتزان» وما شابه ذلك) ، ويتمتع ايضا ، الامر الذى لا يقل اهمية ، حسب قناعتنا ، بملامح مسيطرة .

لدى الحديث عن الطبع القومى (السلالى) كمقولة اجتماعية نفسية خاصة ، ينبغى الانطلاق من ان الافراد على حدة لا يبرزون بمثابة معبر عن التكوين النفسى للامة (الاثنوس) ، بقدر ما تبرز رابطة الناس . من المعروف ان الجماعة الاجتماعية تقوى او تضعف هذه الجوانب او تلك للنفسية الفردية . وهذا ما ينطبق ايضا على الطبع السلالى . وقد سبقت الاشارة مرارا الى انه يتجلى بوضوح اكثر بكثير فى الحالات التى لا يعمل فيها اشخاص على حدة ، بل مجموعات من الناس . ثم انه من المفهوم بداهة انه لاعتبار ملامح خلقية ما نموذجية للاثنوس المعنى يجب ان تكون ملازمة لاغلب افراده وتميزهم عن ممثلى الاثنوسات الاخرى . بيد ان هذه النموذجية لا تنفى وجود اشكال لبعض الملامح الاجتماعية النفسية الخاصة لدى مختلف الجماعات المنضوية الى الرابطة السلالية المعنية . وعلاوة على ذلك ، فان هذه الملامح تتجلى بوضوح تام فى المجتمعات المنقسمة الى طبقات متناحرة . ومن الضرورى كذلك الاشارة بشكل خاص الى عدم جواز

اطلاق صفة التعميم على طبع كل من الروابط السلالية . اذ ان اغلبية خصائص الطبع الحاسمة ، مثل حب العمل والوطنية والاقدام ، هى خصائص بشرية عامة . وبالتالى ، لا يمكن الحديث عن احتكار رابطة سلالية لواحدة من هذه الخصائص ، بل يمكن الحديث فقط عن الاختلافات بين بعض الشعوب فى الاشكال (او التباينات او الاسلوب وما شابه ذلك) التى تتجلى فيها . يمكن ، مثلا ، ملاحظة ان صفة ، مثل حب العمل ، لا تتجلى بحكم خاصية الظروف الاقتصادية الاجتماعية والجغرافية وغيرها على نحو واحد لدى مختلف الشعوب : يمكن للاثنوسات بهذا المعنى ان تختلف ، مثلا ، بدرجة الاتقان او الدقة . وهكذا ، فان الدقة التى يقدرها الالمان والهولنديون عاليا ، تعنى القليل نسبيا فى اسبانيا ، واقل من ذلك فى بلدان اميركا اللاتينية . ان الروح المضيافة تنطوى على خصائص متباينة فريدة لدى مختلف الشعوب ، وتتجلى الشجاعة عند كل شعب بطريقته الخاصة الخ .

يؤكد ليف تولستوى حينما يتحدث فى «الحرب والسلام» عن اعمال النقيب فى الجيش الروسى توشين فى خلال معركة بورودينو :

«ان الفرنسى الذى قال فى واترلو : «الحرس يموت ، ولكنه لا يستسلم» ، والاخرين ولا سيما الابطال الفرنسيين ، الذين تعلقوا باقوال ماثورة ، كانوا شجعانا . . . ، ولكن ثمة بين شجاعتهم وشجاعة النقيب فرق ، وهو انه حتى ولو الحت على بطلى كلمة عظيمة فى حالة من الحالات ، فانا واثق بانه لن يقولها : اولا ، لانه ، اذ يقول هذه الكلمة ، يخاف ان يفسد بهذا عملا هاما ، وثانيا ، لان الانسان حينما يشعر فى نفسه بقوة لاجتراح عمل عظيم ، فلا حاجة الى اية كلمة كانت . وهذه ، فى رأيى ، خاصية عظيمة ورفيعة للشجاعة الروسية» .

لعله مما يتسم بالطرافة ايضا فى صدد موضوع الشجاعة امثلة تاريخية «عامة» اخرى على الاختلافات «القومية» فى عادة قديمة بطلت الان ، وهى عادة حل النزاعات بواسطة المبارزة .

في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين اصبحت المبارزة تقليدا للجامعات وضباط الجيش قبل كل شيء . وكان من المتعارف عليه ان الندوب التي تخلفها المبارزة تزين وجه الطالب . وكان الطلاب يشتبكون بالشياش من حين لآخر . وكان المتخاصمون في غضون ذلك يرتدون ربطات خاصة واجهزة وقائية على العينين والرقبة واليدين والصدر ، فلم تكن المبارزة تسفر عن وفيات . ولكن كان الطالب يؤدي واجبه ويتلقى ندبا يزين وجهه . وفي فرنسا كانوا يقيمون في العصر نفسه مبارزات بالمسدسات عادة ، وكان يساهم فيها ضباط وكتاب ونواب في البرلمان وحتى علماء . ان باستور العظيم دعاه منافسه العلمي يوما الى المبارزة ، ولكنه فضل التملص ، لحسن حظ العلم . وكانت المبارزات الروسية اقرب بكثير الى المبارزات الفرنسية من حيث طابعها . وكان يمكن لفرنسا وروسيا ان تتباهيا باكبر عدد من عشاق المبارزة والشجار المستعدين للعراك حتى الموت لاى سبب . لم ينتشر عند الفرنسيين ولا الالمان ولا الروس ما يسمى بالمبارزة الاميركية ، حينما يترك المتخاصمان الحظ ليقرر من سيموت منهما ، حيث يتناول كل منهما مثلا حبة تشبه الاخرى بمنظرها ، ولكن احداهما لا تسبب تضررا والاخرى تحتوي على سم قاتل . وهذه المبارزة «استخدمت» بعض الشيء في الولايات المتحدة الاميركية (ومن هنا تسميتها) . وقد بطل تقريبا استخدام المبارزات المميتة في انكلترا مع بداية العصر البرجوازي ، ويبدو انه اضطلع بدور هنا التقليد الشعبي للصراع بالقبضات والملاكمة ، الامر الذي حل مكان «تبادل العيارات النارية» .

ان طبع كل رابطة سلالية معينة يشكل وحدة عضوية للعام والخاص . ويتجلى تفرده آخر الامر في جملة ما يلازمه من اشكال خاصة لظهور الصفات النفسية البشرية العامة ، اى ، كما يقال ، في «القسط» — ولا يهم ان كان كبيرا او صغيرا — الذي يؤديه الاثنوس المعني في ثروة البشرية باسرها .

لاشك في ان النشاط هو المجال الاساسي لتجلي طبع الرابطة السلالية والفرد على حدة . اذ لا يمكن تحديد التطلع الى الهدف ، ولا الارادة ، ولا خصائص الطبع البنيوية ، اذا لم نعرف كيف يتصرف الناس ، وكيف يعملون ، وما هو سلوكهم ، وباية افعال يقومون . وطبيعي ان هذه الملامح او تلك للطبع القومي (السلالي) لا بد وان تخلف طابعا معينا على نتائج النشاط البشري . وتتجلى علامات هذا التأثير سواء في الثقافة المادية ، او في العناصر الثابتة للثقافة الروحية .

يرتبط بطبع الاثنوس ارتباطا وثيقا نظام الدوافع المميز لافراده : مجموعة متطلباتهم ومثلهم الخ . وهذا النظام ، اذ يحدد في نهاية المطاف توجه الطبع ، يشمل كل المجالات ، وكل «طوابق» النفسية البشرية . ولما كانت عناصر النفسية هذه تحددها الظروف التاريخية الملموسة لوجود الاثنوس ، فانها تعين طبع افراده في نهاية المطاف . وتغير الظروف التاريخية الملموسة ، ولا سيما الظروف الاقتصادية الاجتماعية ، لا بد وان يجر وراءه تغير نظام الدوافع ، وبالتالي الطبع السلالي .

اما في خصوص «آلية» تجدد ملامح الطبع المميزة لكل اثنوس ، فان الذي يضمنه بالدرجة الاولى نظام خاص ، ملازم للناس وحدهم ، وهو نظام انتقال الخبرة عبر الاجيال . ان خصال الطبع الثابتة ليست ابدا خاصية فطرية للعقل البشري ، انها نفسها نتاج لظروف خارجية معينة ، ولا سيما الظروف الاجتماعية التاريخية . ومن المعروف ان الفرد لا يولد بهذه الخصائص المتكونه للطبع السلالي او تلك . انه ينالها نتيجة لاستيعابها طوال الحياة ، او ما يسمى اكتساب الفرد للصفة الاجتماعية . وفي غضون ذلك ، فان الناس ، خلافا للحيوانات ، تبرز عندهم اداة اجتماعية ، وهي اللغة ، بمثابة وسيلة اساسية لانتقال الخبرة الاجتماعية التاريخية عبر الاجيال .

يرتبط طبع الناس بالمزاج اوثق ارتباط . وينتشر نسبيا في الادبيات العلمية السوفييتية رأي مفاده ان المزاج كعنصر

للتكوين النفسى لا يوجد عند الافراد فحسب ، بل عند الروابط السلالية ايضا . والى جانب ذلك توجد فى مراجعنا ايضا اعتراضات على هذا التصور . وتاكيدا لهذا يشار ، بين امور اخرى ، الى انه لا يوجد ولا يمكن ان يوجد مزاج واحد «لدى الامم الكبيرة» التى تنتشر اجزاؤها فى مناطق مناخية مختلفة . وهذا الموقف يبدو لنا قاطعا بافراط . ويبدو لنا اكثر مرونة الراى القائل بان هذا المفهوم باعتباره احدى صفات التكوين النفسى للروابط السلالية ينبغى ان يستخدم بمعنى يختلف بعض الشىء عما فى السيكولوجيا العامة . فهو فى هذه الاخيرة يعبر ، كما هو معروف ، عن خصائص النشاط النفسى للانسان التى تنطوى كاساس لها على نمط معين للنشاط العصبى الاعلى . وعلى الرغم من انه يوجد عمليا فى الكتلة البشرية العديد من اشكال انماط المزاج الاساسية ، فان كل فرد يتسم بتغلب خصائص نمط من هذه الانماط . والامر يختلف بالنسبة الى الشعوب – الاثنوسات . فنحن لا نستطيع ، كقاعدة عامة ، ان نقول ان هذا او ذاك منها يتسم بنمط معين من المزاج . وفى كل رابطة سلالية يمكن اكتشاف ذوى مزاج حاد وبلغمى ، او ذوى مزاج سوداوى ودموى . وفى الوقت نفسه يمكن الاعتراف بالتباين بين الجامعات السلالية فى عمق وسرعة ردود الفعل على حالات الحياة اليومية . وفى غضون ذلك يجرى الحديث ، كقاعدة عامة ، عن نمط المزاج المميز للاثنوس اكثر من غيره او ، اذا كانت روابط كبيرة هى المقصودة ، عما تتسم به من التقاء لانماط المزاج السائدة .

ومن الخطا ، الى جانب ذلك ، المبالغة فى مغزى المزاج كصفة للاثنوس . اولا ، لا يجوز نسيان ان المقصود هو مجرد ابراز نسبى لنمط المزاج . ثانيا ، ان المزاج ، شانه شان النمط الانتروبولوجى ، متقارب للغاية عادة عند الروابط السلالية المتجاورة . واخيرا ، يجب ان يؤخذ فى الاعتبار تاثير الوسط الاجتماعى فى تكوين المزاج ، كما لدى وصف الخصائص السلالية اجمالا . وكما اشار تشيرنيشيفسكى ،

فان «مؤثرات الحياة تحجب عموما المزاج الطبيعى» .

ينبغى التنويه بان الناس ليسوا ممثلى امزجة نفسية مختلفة فحسب ، بل وفئات مختلفة فى المجتمع . يعتبر الاكاديمى ليخاتشوف ان «. . . من الاصح عدم التحدث عن الطبع القومى للشعب ، بل عن اجتماع طباع مختلفة فيه ، وكل منها قومى» . ان انقسام المجتمع الى طبقات وشرائح ادى الى ظهور مجموعات داخل كل شعب تختلف كل منها عن الاخرى سواء من حيث التكوين النفسى ، او من حيث اهدافها الاجتماعية .

كتب تشيرنيشيفسكى : «ان الوجيه البرتغالى اقرب من حيث نمط حياته ومفاهيمه الى الوجيه السويدى منه الى فلاح شعبه ، والعكس بالعكس : الفلاح البرتغالى اشبه من حيث طبعه بالفلاح السويدى منه بالغنى البرتغالى» .

تشير الابحاث المعاصرة الى الامر نفسه من حيث المبدأ ، حينما يقارن بين الفلاحين والملاك اليابانيين والبورميين ، بين تجار وحرفيى الفيليبين وافريقيا الشرقية . يكتب الاثنوغرافى السوفييتى كوزلوف ، مثلا ، انه حتى لدى الحديث عن جماعة صغيرة من اناس قومية واحدة يمارسون عملا واحدا (فى مؤسسة واحدة مثلا) لا يغامر احد بتاكيد وجود تكوين نفسى مشترك عندهم .

وطالما ان الحديث يجرى عن شعب كبير ، فان الفلاح والتاجر والموظف والعامل الروس كان لهم ، كما ينوه كوزلوف ، تكوين نفسى متباين ، اما قوزاق تيريك – وهم جزء من الشعب الروسى – فكانوا من حيث التكوين النفسى اقرب الى شعوب شمال القفقاس منهم الى بوموريى الشمال الروسى . وكان البوموريون ، بدورهم ، قريبين الى الجيران الشماليين من حيث التكوين النفسى .

ولكن هذا الاعتراض ينطوى على نصيب من الموافقة ، لان كوزلوف ايضا يتحدث هنا عن تكوين نفسى معين ان لم يكن لشعوب باكملها ، فلمجموعات سلالية كبيرة فى داخلها .

لم يخلف كلاسيكيو الماركسية مؤلفات خاصة فى صدد هذه القضية ، ولكن يمكن ان نجد سواء عند ماركس او انجلس او لينين اشارات الى الطبع القومى كمادة فعلية .

بوسعنا ان نشير ايضا كيف تجرى انتخابات الرئاسة على نحو متباين فى الولايات المتحدة وفرنسا . ان الساسة الاميركيين يحولون درجاتها المتتابعة (انتخاب المؤهلين للاقتراع ،تقديم المرشحين عن الاحزاب الخ) الى شيء اشبه بعرض مسل ويرفقون الاجراءات الرسمية بمختلف الفعاليات الاستعراضية التى من شانها ، كما نعتقد ، ان تدهش كثيرا الناخبين الفرنسيين الذين يرونها لاول مرة .

ونقرا فى الصحف من حين الى آخر عن «الاضطرابات العنصرية» فى الولايات المتحدة ، مع العلم ان عدد ضحايا النزاع حتى فى مدينة صغيرة نسبيا يبلغ العشرات .

اما فى فرنسا ابان انتفاضة الشباب فى ايار (مايو) عام ١٩٦٨ ، حينما انتصبت المتاريس فى الكثير من المدن الكبيرة ، وحينما هبت الى النضال جماهير تعد بالملايين ، فجابهم العديد من رجال البوليس ، وحينما كان بين اليساريين «يساريون» متطرفون ، لم يقتل فى فرنسا حينذاك فى معارك الشوارع سوى شخصين .

وهذا من وجهة نظر معينة نتيجة للفوارق السلالية ايضا بين الاميركيين والفرنسيين ، الفوارق التى تتجلى فى تلك الظاهرة المعقدة والمتناقضة للغاية التى تسمى بالطبع القومى .

ان درجة تجلى الوحدة القومية (السلالية) فى مختلف الحالات الاجتماعية الملموسة تاريخيا ، سواء منها الداخلية او الخارجية هى ، كما يبدو لنا ، متباينة اشد التباين .

لقد كرس الشاعر الالمانى العظيم هنريخ هاينى فى «لوحات الطريق» غير قليل من الصفحات للمقارنة بين الطباع القومية للانكليز والفرنسيين والالمان والايطاليين . ثم كتب ، وهو يقصد عصر نشوء الانظمة الراسمالية فى اوربا :

«تحت قباب بورصة لندن كان يشار الى مكان كل امة ،

وعلى الالواح المسمرة عاليا تمكن قراءة هذه التسميات : الروس ، الاسبان ، السويديون ، الالمان ، المالطيون ، العبريون ، الهانزيون ، الاتراك الخ . فى السابق كان كل تاجر يقف تحت اللوح الذى يشير الى امته . اما الان فعبثا تبحث عنه هناك ، لقد تحرك الناس فحيث كان يقف الاسبان يوما يقف الان هولنديون ، وترك العبريون مكانهم للهانزيين ، وحيث تبحث عن الاتراك تجد الروس الان ، ويقف الايطاليون حيث كان يقف الفرنسيون يوما ، وحتى الالمان تقدموا .

وكما فى بورصة لندن ، بقيت كذلك فى العالم كله الالواح القديمة ، ولكن الناس الواقفين تحتها تحركوا واتى آخرون مكانهم ، ورؤوسهم الجديدة قلما تناسبها اليافطات القديمة . ان الصفات الشائعة للشعوب التى نجدها فى الكومبينديومات (اى الاوصاف الموجزة – ملاحظة من المحرر) وفى حانات البيرة ، لم يعد فى مقدورها ان تساعدنا» . . . لقد اختلط برجوازيو مختلف الشعوب .

ان الطبع السلالى متغير تاريخيا . وفى رأينا ان موخوف ، احد العاملين فى اكاديمية العلوم فى مولدافيا ، قد عرض جيدا تغيرات نفسية الشعب ، حيث قال : «ثمة حالات تتغير فيها كثيرا ملامح الشعب الاجتماعية النفسية تحت تاثير اسباب معينة . وفى تاريخ مولدافيا يمكن ان نتتبع كيف «تغيرت» لدى الشعب فى عملية التطور السياسى خصال ، مثل الامانة والاخلاص للواجب ازاء الدولة ، والشجاعة الخ . ففى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ظهرت فى الحروب الدفاعية ضد المعتدين الاجانب افضل صفات الشعب المولدافى : الصمود والاقدام . وقد تحدث مؤلفو القرنين الخامس عشر والسادس عشر كثيرا عن بسالة المولدافيين العسكرية ، وعن انهم «يقاتلون بشجاعة» ، وانهم «محاربون» و«مهرة فى الفن العسكرى» و«يستخدمون الرمح والترس بمهارة» وانهم «عنيفون وشجعان» الخ . وتغير الوضع فى القرن السابع عشر . فى مصادر ذلك الزمن لم يعد يجرى الحديث عن اخلاص المولدافيين وصمودهم وشجاعتهم . . .

الاوربية – الاميركية بسرعة شديدة . بسرعة اثارت لدى الكثير من اليابانيين القلق على اصالة شعبهم .

نقل الكاتب السوفيتي ايليا اهرنبورغ فى احد كتبه حديثا مع كاتب يابانى قال فى نهايته ، وكانه يرغب فى طمأنة نفسه : «ليس هذا بالامر الرهيب اجمالا ، فقد بينت اليابان مرارا انها تستطيع ان تأخذ الغريب وتجعله لها . . .» وتابع اهرنبورغ قائلا : «اعتقد انه على حق : اليابان لا تتبرأ من نفسها . وفى هذه الحالة ليس ثمة ما يخيف اذا تغيرت هذه الجوانب من المعيشة او تلك . ثم ان تقليد مختلف نماذج الفن الاوربى ليس مخيفا اذا كان مرتبطا بالبحث المخلص عن شكل اصيل . . . الامر الجوهرى هو روح الشعب» .

ولكن «روح الشعب» نفسها لا تبقى مغلقة الى الابد على الشعوب الاخرى . لقد كرس الكاتب السوفييتي الروسى ليونيد سولوفييف كتابيه الرائعين «معكر الهدوء» و«الامير المتيم» لخواجه نصر الدين ، بطل العديد من الاساطير والحكايات الشعبية الشرقية . وفى الوقت نفسه كان الشعبان الاوزبكى والطاجكى بطلى هذين الكتابين . ان القراء فى اسيا الوسطى يحبون كتابى سولوفييف ، وهم موافقون على انه استطاع ان يظهر روح الشعب الذى عاش بينه طويلا .

واليكم مثال آخر . يعتبر الكثير من الباحثين ، وبينهم باحثون فرس ، ان كتاب «مغامرات حجى بابا من اصفهان» الذى صدر فى القرن التاسع عشر هو بداية الادب الفارسى الحديث . ومؤلفه هو الانكليزى جيمس موريير . والكتاب ، فى راى الكثير من الايرانيين ، يتجاوب مع روحهم القومية بحيث ان علماء كثيرين كانوا يشككون احيانا فى امكان ان يؤلف اجنبى كتابا كهذا . وبعد مئة سنة تقريبا من ظهور كتاب «مغامرات حجى بابا» فى انكلترا ادى ، وقد صدر باللغة الفارسية ، دورا هاما بالنسبة الى الحركة التحررية فى ايران فى مستهل القرن . وقد قال الشاعر والفيلولوجى ملك الشعراء بهار : «ان كتاب» حجى بابا» يشبه برشاقة

الاسلوب وروعة الفكرة «غولستان» لسعدى» . وسعدى هو اكثر الكلاسيكيين تمتعا بالاحترام فى ايران . . .

ان «حكايات» ليف تولستوى و«مغامرات توم سوير» لمارك توين اصبحت من كتب الاطفال المفضلة فى عشرات البلدان لان الام ، تحت كل سماء وفى القارات والجزر جميعا ، تربّى الاطفال ، ويفخر الرجال والفتيان بمنجزاتهم ، ويعانى العاشق لفقد الحبيبة . . .

من الواضح ان الملامح المشتركة للشعوب تتفوق على خصائصها .

وهذه الخصائص نفسها . . . هى ، شأن الطباع المختلفة لدى الناس ، لا تمنعهم ، فى ظل الاحترام المتبادل ، من التفاهم وتبادل المساعدة .

مادة الاثنوغرافيا ومهماتها

اردنا فى هذا القسم استعراض بعض نتائج ما سبق قوله وتدقيق احكام تناول المؤلفين لموضوع البحث .

وهكذا ، فان الاثنوغرافيا هى علم تشكل شعوب العالم موضوع دراسته الاساسى . بيد ان هذا التصور لموضوع ابحاث الاثنوغرافيا لم يتكون فورا . فى السابق كان بعض العلماء يعتبر الانسان موضوعها ، وآخرون الثقافة ، وغيرهم المجتمع . وعلى الرغم من انه انتشر فى الوقت نفسه راى يقول بان الشعوب هى مادة الاثنوغرافيا ، الا انه كان المقصود بصورة رئيسية الشعوب التى لا تعرف الكتابة ، والتى لا تزال فى الدرجات الاولى من التطور الاقتصادى الاجتماعى . وانتشار هذا التصور يرتبط الى درجة كبيرة بواقع ان الاثنوغرافيا التى تكونت كعلم فى عصر ازدهار كولونيالية اوربا البرجوازية كانت موجهة اوّل الامر فى اغلب الاحيان نحو دراسة شعوب الاراضى غير الاوربية المتخلفة فى تطورها الاقتصادى .. وكانت الاثنوغرافيا توضع فى غضون ذلك على طرف نقيض من التاريخ الذى كان يعتبر علما

يدرس الشعوب «التاريخية» على اساس المصادر الكتابية . اما الاثنوغرافيا فخصص لها دور علم دراسة الشعوب «غير التاريخية» . هذه المفاهيم شاخت الآن الى غير رجعة . واصبح واضحا منذ امد بعيد تهافت تقسيم الشعوب الى «تاريخية» و«غير تاريخية» . وانتشر على نطاق واسع بين الاختصاصيين اعتبار ان مادة الاثنوغرافيا هى الشعوب جميعا ، سواء منها المتخلفة فى تطورها او الرفيعة التطور ، الصغيرة او الكبيرة ، التى وجدت فى السابق او الموجودة حاليا .

ان مصطلح «الاثنوغرافيا» مشتق ، شأن اغلب تسميات العلوم ، من كلمتين يونانيتين . احداهما «اثنوس» ومعناها شعب ، والاخرى «غرافيا» وتعنى كتب ، وصف * .

لكلمة «الشعب» فى اللغات المعاصرة معان كثيرة متباينة . اذ يقصد بالشعب سواء الجماهير الكادحة ، او المجموعات القومية ، او مجرد تجمع من الناس . ولهذا ففى

---

* فى بعض البلدان يستخدم ، كما سبق وتوهنا ، مصطلح «الاثنولوجيا» للاشارة الى العلم الذى يمارس دراسة القضايا الاثنوغرافية . وفى غضون ذلك ينظر الى هذا المصطلح حيانا كمادة نظرية ويوضع فى مقابل الاثنوغرافيا التى يخصص لها دور علم وصفى صرف . ولكن مصطلح «الاثنولوجيا» لم يلق انتشارا فى علمنا السوفييتى ، حيث تضم الاثنوغرافيا كلا من الجانبين الوصفى والنظرى لدراسة شعوب العالم . وفى السابق كان يستخدم احيانا فى الادبيات الروسية قبل الثورة مصطلح «علم الشعوب» بمثابة مرادف للاثنوغرافيا . وفى البلدان التى تنتشر فيها اللغة الالمانية تعنى الاثنوغرافيا مجموعة مادتين ، هما „Volkskunde" (دراسة الشعب الام) و „Völkerkunde" (دراسة الشعوب الاجنبية ، ولا سيما غير الاوربية) . وفى البلدان الناطقة بالانكليزية تطابق الاثنوغرافيا من نواح كثيرة الانتروبولوجيا الثقافية والانتروبولوجيا الاجتماعية اللتين ينظر اليهما مع الانتروبولوجيا الفيزيائية كعلم عن الانسان اجمالا . بيد ان ادعاء الانتروبولوجيا فى البلدان الناطقة بالانكليزية الدراسة الشاملة للانسان والبشرية عموما يبقى غير مدعم بابحاث فعلية ، وعلاوة على ذلك ، فان غياب المعايير الدقيقة لتعريف مادة الانتروبولوجيا الثقافية الاجتماعية يهدد بان «تذوب» فى المواد القريبة ولا سيما السوسيولوجيا .

الحالات التى تستخدم كلمة الشعب بالمعنى الذى تنطوى عليه فى تعبير «شعوب العالم» ، يستخدم فى العلم عادة المفهوم العام «الاثنوس» .

بناء على التصور السائد فى الوقت الحاضر بين العلماء السوفييت ، فان الاثنوس (الشعب) هو نوع خاص لتكتل اجتماعى لا يظهر بفعل ارادة الناس ، بل نتيجة عملية تاريخية طبيعية . والصفة المميزة للاثنوسات هى رسوخها الشديد : انها تبقى ، كقاعدة عامة ، قرونا عديدة وعديدة . وكل اثنوس يتمتع بوحدة داخلية معينة ، وكذلك بملامح خاصة تميزه عن كل التشكيلات من النمط نفسه . يضطلع بدور خاص فى غضون ذلك الوعى الذاتى للناس الذين يشكلون اثنوسا معينا : سواء تشابههم او اختلافهم عن الروابط المماثلة الاخرى فى شكل تناقض بين «نحن» و«هم» . ومن الخطأ الى جانب ذلك حصر جوهر الاثنوس فى الوعى الذاتى ، كما يفعل الكثير من العلماء الغربيين . اذ تكمن خلف هذا الوعى الذاتى ، الذى اصطلح على تسميته بالوعى السلالى ، صفات موضوعية ، موجودة فعلا لاناس ينتمون الى الاثنوسات .

انها قبل كل شيء الملامح المشتركة والخصائص المميزة التى تتجلى فى مختلف مجالات نمط حياة افراد الاثنوس . وتشكل اللغة احد اهم هذه المجالات . وهى وسيلة التخاطب الرئيسية بين الناس ضمن الاثنوس المعنى ، والى جانب ذلك تميزهم عن ممثلى الاثنوسات الاخرى كلها او اغلبها على الاقل . ويعود الى الثقافة دور من الدرجة الاولى فى حياة الاثنوسات . وهذا ينطبق بالدرجة الاولى على عناصرها التى تنطوى على طابع تقليدى ، جماهيرى ، متجلية فى الحياة اليومية . انها فى ميدان الثقافة المادية الاشكال التقليدية لخبرات العمل والمسكن واللوازم المنزلية والملبس والطعام وما شابه ذلك . وهى فى الثقافة الروحية العادات والشعائر والفن الشعبى والدين ، الخ . والوحدة الروحية لافراد الاثنوس ترتبط بدورها ارتباطا لا ينفصم ببعض خصائص نفسيتهم ، ولا سيما تباينات واسلوب تجلى الخصائص البشرية

تصنيف الروابط السلالية الاجتماعية المعمول به فى ادبيات علم الاجتماع عندنا . ومن المتعارف عليه بناء على هذا التصنيف ابراز ثلاثة انماط لها : القبيلة المميزة للعصر البدائى ، والقوم المميز لعصرى الرق والاقطاعية ، والامة المميزة للراسمالية والاشتراكية .

ان الكثير من الاثنوسات ، ولا سيما الكبيرة ، تتكون هى نفسها فى حالات ليست بالنادرة مما يسمى المجموعات السلالية او الاثنوسات الفرعية . وقد جرت العادة على ان يقصد بهذين المصطلحين اجزاء الاثنوس الاقليمية التى تتباين بالخاصية المحلية للغة العامية والثقافة والمعيشة ، وتملك احيانا تسمية ذاتية وما يشبه الوعى الذاتى المزدوج . وغالبا ما يعود نشوء المجموعات السلالية الى العناصر القبلية التى دخلت فى القوم او الامة . وتظهر احيانا فى ظل التمايز الاجتماعى الدينى للاثنوس ، وكذلك نتيجة التوسع الشديد للاراضى السلالية ، حينما تعيش اجزاء الاثنوس المهاجرة فى وسط طبيعى متباين وتتفاعل مع مختلف الاثنوسات المجاورة ، الخ .

ليس من النادر ، الى جانب التقسيم الداخلى للاثنوسات ، ان تشكل هى نفسها وحدات اضخم . وبعض هذه الوحدات ، التى تتشكل على اساس التشابه اللغوى الثقافى بين الشعوب ، تسمى بالمجموعات السلالية اللغوية ، والاخرى ، التى تتكون داخل الدول المتعددة القوميات ، نرى من المناسب تسميتها بالروابط ما بين السلالية .

ان الروابط السلالية على مختلف المستويات ، شأنها شأن الاقسام السلالية الاساسية ، تتسم برسوخ كبير . بيد ان هذه الروابط كلها لا تتصف بالتعاقب فحسب ، بل وبالتغير مع الزمن . وقد اصطلح على تسمية التغير من هذا النوع بالعمليات السلالية .

هذه العمليات فى غاية التنوع . يبرز قبل كل شىء نوعان اساسيان منها يختلفان طبقا لآثار التغيرات التى تطرا على الاثنوس . احدهما يؤدى فى نهاية المطاف الى تغير الوعى

الذاتى السلالى لافراد الاثنوس المعنى . وهذه العمليات تسمى بعمليات التحول السلالية ، وذلك لارتباطها بالانتقال من حالة سلالية الى اخرى . والنوع الثانى هو عمليات التطور السلالية التى تتجلى فى تغير كبير لاى من مؤشرات الاثنوس الاساسية ، ولكنها لا تؤدى الى تغير الوعى الذاتى السلالى مباشرة . وتغير الخاصية الثقافية للروابط السلالية هو المضمون الموضوعى الاساسى لهذه العمليات السلالية .

لدى مراعاة توفر شكلين لوجود الظواهر السلالية ، احدهما يعبر عنه الاثنوس بالمعنى الضيق للكلمة ، والآخر — البنية السلالية الاجتماعية ، يصبح من الضرورى التفريق فى المؤلفات التاريخية بين العمليات السلالية الصرف والعمليات السلالية الاجتماعية .

هذا التفريق تقتضيه قبل كل شىء الاختلافات فى انماط تغيرات المجالين السلالى الصرف والاقتصادى الاجتماعى لنشاط المجتمع . من المعروف ان الظواهر الاقتصادية الاجتماعية هى الاكثر تحركا فى كل مجموع الظواهر الاجتماعية . ولهذا فهى بالذات الحاسمة ، ولا شك ، فى تغير الانظمة السلالية الاجتماعية . اما فى خصوص الظواهر السلالية الثقافية فانها ، كما سبق القول ، تتسم ، على العكس من ذلك ، برسوخ اشد . وهذا هو سبب البطء الشديد للعمليات السلالية مقارنة بالعمليات الاقتصادية الاجتماعية . وبالنتيجة لا تطابق القفزات فى العمليات السلالية الصرف «انقطاعات التدرج» والثورات فى التاريخ الاقتصادى الاجتماعى ، وبالتالى القفزات فى تطور الانظمة السلالية الاجتماعية .

من المصطلح عليه لدى دراسة العمليات السلالية الصرف (وهذا ما سوف نكتب عنه لاحقا) التفريق بين نوعين اساسيين لها : العمليات التجزيئية ، حينما ينقسم الشعب الواحد الى عدة اثنوسات مستقلة او تنفصل عنه اجزاء تغدو اثنوسات مستقلة ، والعمليات التوحيدية ، حينما تندمج مجموعات من الناس متباينة سلاليا فى اثنوس واحد . ويتجلى ديالكتيك التطور السلالى هنا فى ان كل عملية توحيدية تقريبا تؤدى —

وان كان ذلك على مستوى جديد – الى عزلة سلالية للاثنوسات التى انجذبت اليها عن الاخرى . ان العمليات السلالية التجزيئية كانت منتشرة بشكل خاص فى عصر المشاعية البدائية ، وكانت ناجمة ، بين عوامل اخرى ، عن التزايد المفرط لعدد افراد القبيلة او مجرد هجرة اجزاء منها الى مسافات بعيدة . لقد كانت العمليات التوحيدية ولا تزال النموذج الاكثر شيوعا بالنسبة الى العصر الحديث ، فهى تعكس الاتجاه المنطقى تاريخيا والتقدمى نحو تراص الشعوب .

ان التصور القائل بان الشعوب هى موضوع الاثنوغرافيا الرئيسى لا ينفى الاختلاف فى تحديد مادتها . وهذا ما تجلى بوضوح ، مثلا ، فى فترة تكون العلم الاثنوغرافى السوفييتى . فقد كانت هناك ، من جهة ، محاولات لحصر مهمات الاثنوغرافيا فى دراسة الظواهر المترسبة ، القديمة وحدها ، وبذلت ، من الجهة الاخرى ، محاولات للنظر الى الاثنوغرافيا كمادة فائقة الاهمية ينبغى لها ان تدرس كل عناصر النشاط الحيوى للمجتمع تقريبا . هذه الاختلافات فى تحديد ماهية الاثنوغرافيا لا تزال باقية بدرجة معينة الى الآن فى كل المدارس الاثنوغرافية تقريبا (ولا سيما فى المواد الشبيهة بالاثنوغرافيا ، مثل الاثنولوجيا والانتروبولوجيا الثقافية والاجتماعية) . ولكن من الواضح ان اول الاتجاهين المشار اليهما لا بد وان يؤدى الى تصور مادة الاثنوغرافيا بمثابة «شىء يتقلص باستمرار» ، لان العصر يتسم بزوال متزايد لمخلفات الماضى من حياة الشعوب . وكذلك ، فان الاتجاه الثانى ، على الرغم مما يبدو من اتساعه ، ليس اوسع افقا بالنسبة الى علم الاثنوسات . انه يخلق صعوبات لا تذلل لتحديد المهمات المعرفية للاثنوغرافيا والمواد العلمية الاخرى التى تدرس مختلف جوانب حياة الشعوب (السوسيولوجيا ، فقه اللغة ، نقد الفن ، دراسة الفولكلور ، الخ .) .

كل هذا يطرح بالحاح مسالة معايير تعريف ميدان مادة العلم الاثنوغرافى ووضع حدود فاصلة بينه وبين المواد

المتاخمة ، وكذلك صياغة هذه المعايير بالنسبة الى الاثنوغرافيا التطبيقية ، الامر الذى ينطوى على اهمية خاصة . ينبغى لدى اختيار معايير من هذا النوع الانطلاق من ان مادة كل علم لا تعين ابدا بصورة كيفية ، بل تتوقف قبل كل شىء على ابراز تلك الصفات بالذات التى يبحث فيها ذلك العلم من بين مجموع الصفات الملازمة لموضوعه . وبالتالى ، فان وجهة النظر النموذجية له لا تحددها مجموعة اعتباطية من القضايا ، بل توفر صفات خاصة معنية موجودة فعلا لدى الموضوع . ولما كانت الاثنوسات – الشعوب موضوعا للاثنوغرافيا ، فمن الواضح انه ينبغى البحث بين خصائصها التصنيفية ، المميزة عن معايير لتحديد مادة هذا العلم . ونعيد الى الاذهان ان هذه الصفات هى تلك التى يمكن بفضلها ابراز الاثنوسات من بين الروابط البشرية الاخرى ، اى تلك التى يمكن تسميتها بالسلالية . وهى ، من جهة ، وظيفة توحيد كل افراد الاثنوس (التكامل السلالى الداخلى) ، ومن الجهة الاخرى ، وظيفة فصلهم عن ممثلى الروابط الشبيهة الاخرى (التمايز ما بين الاثنوسات) . كما سبق وقلنا فان الوظائف من هذا النوع تؤديها ، الى جانب اللغة ، العناصر التقليدية العامة للثقافة فى الغالب (خبرات العمل ، العادات ، الشعائر ، الفن الشعبى ، الابداع الشفوى وما شابه ذلك) التى تميز خصائصها المتفردة ما بين اثنوس وآخر .

وبالتالى ، يجب ان يشكل النظر الى عناصر الاثنوس من خلال موشور تأديتها الوظائف السلالية اساسا لابراز ميدان مادة الاثنوغرافيا . ونظرا لما تتمتع به الصفات السلالية المميزة (الخاصية السلالية) من وضوح اشد ، فان هذه الصفات بالذات تبرز بمثابة نقطة انطلاق لفرز ميدان مادة الابحاث الاثنوغرافية .

ولكن الاثنوغرافيا مدعوة ، بالطبع ، الى الكشف عن كل مظهر الاثنوس ، لا خصائصه المميزة فحسب ، بل وملامحه المشتركة مع الاثنوسات الاخرى . وتحديد الخاص والعام يشكل دوما عملية واحدة . ولهذا فان الدراسة المقارنة لعناصر

الاثنوس كطريقة اساسية لتعيين خصائصه المميزة تفترض لا محالة اظهار الصفات المشتركة مع الاثنوسات الاخرى ايضا . وفى غضون ذلك فان بعض هذه الملامح قد يكون ملازما لكل الاثنوسات الموجودة والتى وجدت ، اى يحمل طابعا بشريا عاما ، وقد يكون بعضها ملازما لمجموعة من الاثنوسات فقط ، اى انه ، بالتالى ، ذو صفة خاصة ايضا من هذه الناحية .

وهكذا ، فان التعريف الذى سبق ايراده للاثنوغرافيا كعلم مادته الاساسية الاثنوسات – الشعوب ، يجب ان نضيف اليه ايضا ان هذا العلم يبحث فى تشابهها واختلافاتها .

ان التصور القائل بان الاثنوغرافيا تنظر الى مواضيعها من خلال موشور تادية عناصرها للوظائف السلالية يمكن من فرز النواة الاساسية لميدان مادتها . ومن الواضح ان هذه النواة تشكل فى ظل هذا التناول شريحة الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة التى تؤدى الوظائف السلالية ، اى الثقافة التقليدية – العامة قبل كل شىء .

لا يعود الى الشريحة التقليدية – العامة للثقافة دور واحد فى مختلف درجات التطور الاجتماعى . وعلاوة على ذلك ، تتباين ايضا المؤشرات الزمنية للتقاليد ، فهى فى بعض الحالات قديمة ، عتيقة باغلبها ، وفى حالات اخرى تقاليد جديدة ، فى طور التكون .

فى المجتمعات ما قبل الطبقية والطبقية المبكرة تشمل الشريحة التقليدية – العامة القديمة الثقافة باسرها تقريبا . وهذا ما يفسر واقعا معترفا به منذ امد بعيد ، وهو ان الاثنوغرافيا تدرس لدى الشعوب المتخلفة فى تطورها الاقتصادى والتى لا تعرف الكتابة الثقافة باكملها : من وسائل ادارة الاقتصاد الى المعتقدات الدينية واللغة . وعلاوة على ذلك ، لما كان المجال الاجتماعى كله لدى هذه الشعوب يتسم بصفة خاصية سلالية ، فانه يصبح اجمالا مادة لابحاث الاثنوغرافيين كذلك . ان الوضع المتقدم عمليا الذى تشغله الاثنوغرافيا فى البحث فى الخصائص القديمة لدى الشعوب

المتخلفة فى تطورها الاقتصادى التى تجرى دراستها مباشرة قد ادى الى مساهمتها النشيطة فى معالجة قضايا التشكيلة الاجتماعية التاريخية المشاعية البدائية اجمالا .

ولكن فى العصر الحالى تقترن الثورة العلمية التكنيكية والتقدم الاجتماعى ، كما هو معروف ، بالزوال السريع للرواسب القديمة . ومن هنا تنبع مهمة من اكثر مهمات الاثنوغرافيين خطورة فى الوقت الحاضر وفى المستقبل القريب ، وهى تسجيل الظواهر القديمة المتبقية . ان طابع هذا التسجيل واهميته يتوقفان كثيرا ، بدورهما ، على ما اذا كان الاثنوغرافى يدرس الرواسب القديمة لدى الشعوب المتخلفة فى تطورها الاقتصادى او الظواهر الشائخة الموجودة فى المجتمعات المتطورة صناعيا . ان المعطيات عن العناصر القديمة لحياة الشعوب فى الحالة الاولى تلقى عادة الى هذه الدرجة او تلك ضوءا اضافيا على قضايا تاريخ المجتمعات الطبقية المبكرة ، او حتى ما قبل الطبقية احيانا . اما فى خصوص الاشكال القديمة المتبقية حتى الآن هنا وهناك فى معيشة شعوب البلدان المتطورة صناعيا ، فان دراسة هذه الظواهر ليس من النادر تمكن من النظر ولو جزئيا الى الحياة اليومية السالفة لهذه الشعوب والتى يفصلنا عنها قرن على الاقل ، ان لم يكن اكثر . بيد انه ينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار ان الثقافة المهنية ، المتمدنة فى الحالة التى نحن فى صددها تزيح مخلفات الرواسب القديمة بسرعة خاصة . ولهذا تكتسب قضية تسجيلها اهمية كبيرة . وليس من قبيل المصادفة ان الاثنوغرافيين الذين يدرسون شعوب البلدان المتطورة صناعيا يعيرون هذه الناحية اهتماما شديدا .

الا انه ، مع كل ما ينطوى عليه اظهار الرواسب القديمة من اهمية بالنسبة الى الاثنوغرافيا ، من الخطأ الافتراض ان هذه المادة لا تتوجه الا الى «الاثر الحى» . وهذا ما ينطبق بشكل خاص على اثنوسات المجتمعات الطبقية المتطورة . وذلك لان جانب مضمون موضوع الابحاث الاثنوغرافية يتغير بشكل

جوهري في هذه المجتمعات . فيغدو في غاية التعقيد والتنوع . ونتيجة لتطور القوى المنتجة ينال كل من مجالات الحياة الاجتماعية تفردا كبيرا . ويجرى تخصص فى ميدان الاقتصاد وتوزيع لمجالات الانتاج والاستهلاك يزداد على نحو خاص فى عصر الراسمالية . وتتعقد البنية الاجتماعية . ويزول التماسك فى ميدان الثقافة ، وتتمايز انواعها ، وتتجلى فوارق عميقة فى نمط حياة الطبقات والفئات الاجتماعية وسكان الريف والمدن ، وبين الثقافتين العامة والمهنية .

تمارس الثورة العلمية التكنيكية تأثيرا جبارا فى الروابط السلالية . ولكن هذا التأثير ينطوى على طابع مزدوج : فهو ، من جهة ، يساعد على تقريب المستوى الثقافى للروابط السلالية واختلاط الثقافات وقولبتها وتنميطها ، ويمكن له ، من الجهة الاخرى ، ان يؤدى ، نتيجة لتطور وسائل الاعلام ، الى تقوية الوعى الذاتى السلالى لدى اوسع جماهير السكان . وهذا ، بدوره ، يمارس تأثيرا عكسيا فى الثقافة الروحية ، فيسبغ اهمية سلالية على عناصرها التى لم تكن لها اهمية كهذه الا بادنى الدرجات او لم تكن تؤدى وظائف سلالية بالمرة . واجمالا ، مع انتشار مختلف الاشكال المقولبة للثقافة نجد ان الخاصية السلالية للشعوب المعاصرة قد تنتقل بالتدريج من مجال الثقافة المادية الى المجال الروحى .

ينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار ايضا ظهور تقاليد جديدة ، بما فى ذلك فى مجال الثقافة اليومية . والى جانب ذلك تبدأ الثقافة الروحية المهنية تضطلع بدور سلالى متزايد فى البلدان المتطورة صناعيا ، ولا سيما حينما تتغلغل منجزاتها فى حياة الشعب اليومية . وبالنتيجة لا تعود الوظائف السلالية الاساسية لدى شعوب البلدان المتطورة صناعيا تؤديها مخلفات الرواسب القديمة ، بقدر ما تؤديها عناصر الثقافة الروحية الجديدة الراسخة نسبيا التى تكونت فى نمط الحياة اليومى ، والتى ليس من النادر ان تشمل ، بالمناسبة ، عناصر التقاليد القديمة ، وان كان ذلك بشكل معدل .

كل هذا يطرح امام الاثنوغرافيا مجموعة خاصة من المهمات

المرتبطة بالنظر الى الشعوب المعاصرة (ومن بينها شعوب البلدان المتطورة صناعيا) كواقع حى . وطبيعى انه ينبغى فى هذه الحالة ايضا ان يعار اهتمام خاص لمجالات حياة الشعوب التى تتجلى فيها ملامحها المميزة باوضح ما يكون . وهذا ما ينطبق بدرجة كبيرة على الحياة الروحية للشعوب ، وعلى نفسيتها الاجتماعية .

ولما كانت الاثنوسات انظمة دينامية ، فان من اكثر مهمات الاثنوغرافيا خطورة دراسة العمليات السلالية التاريخية . وفى غضون ذلك يعار اهتمام خاص لفترتين مختلفتين فى تاريخ البشرية السلالى : من جهة ، لظهور الروابط السلالية (الاثنوجينيز) الذى يعود الى الماضى البعيد بصورة اساسية ، ومن الجهة الاخرى ، للعمليات السلالية المعاصرة قبل كل شىء . ان التعاظم المتزايد للعمليات السلالية فى العالم المعاصر يسبغ على الابحاث الاثنوغرافية فى هذا المجال اهمية وافقا خاصين . وهكذا ، فان الاثنوغرافيا هى مادة علمية تدرس التشابه والتباين بين شعوب العالم جميعا ، وكذلك التغيرات التى تجرى فيها على امتداد تاريخ البشرية بأسره منذ اقدم العصور الى ايامنا هذه .

لقد حظيت الابحاث الاثنوغرافية بانتشار واسع فى بلادنا . ويجريها معهد الاثنوغرافيا لاكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى مع العديد من الجماعات العلمية الاثنوغرافية الموجودة فى الجمهوريات المتحدة وذات الحكم الذاتى ، وكذلك الجامعات . وتؤدى المتاحف الاثنوغرافية والتاريخية قسطا لا يستهان به فى دراسة الشعوب .

ان البعثات الى المناطق النائية ، والتى ليس من النادر ان يكون الوصول اليها صعبا ، فى الاتحاد السوفييتى والبلدان الاجنبية يسبغ مسحة رومنتيكية على نشاط الاثنوغرافيين ، والاهتمام الخاص بالشعوب التى تتسم حياتها اليومية ببعض الملامح القديمة يلف هذا النشاط بسربال من السحر والغموض . بيد ان كل هذا لا ينفى الاهمية العملية الكبيرة للابحاث الاثنوغرافية . وليس من قبيل المصادفة ان توصيات

الاثنوغرافيين قد استخدمت على نطاق واسع منذ السنوات الاولى للسلطة السوفييتية لدى حل المسائل المرتبطة بتحويل اقتصاد وثقافة ومعيشة الشعوب التى خطت الى الاشتراكية مباشرة من النظام الاقطاعى او حتى العشائرى . وبدون المعارف الاثنوغرافية يستحيل ، مثلا ، اتخاذ موقف صحيح من تراث الشعوب الاقتصادى الثقافى الضخم وفصل ما فيه من تقاليد تقدمية ، رشيدة عن الظواهر الشائخة الضارة . وادت توصيات الاثنوغرافيين دورا كبيرا بشكل خاص فى اعادة بناء حياة شعوب الشمال الصغيرة على اساس اشتراكى : الكورياكيين ، الايتيلمينيين ، الاسكيمو ، الايفينكيين ، النينيين وغيرهم . ان مراعاة خصائصها الثقافية المعاشية التقليدية ساعدت كثيرا على القفزة العملاقة التى قامت بها فى اقصر فترة تاريخية .

ان الاثنوغرافيا ، اذ تركز اهتمامها على الثقافة التقليدية المعاشية قبل كل شىء ، تساعد بهذا على معالجة احد الجوانب الجوهرية لتاريخ البشرية بأسره الذى لا ينحصر ابدا فى تطور الاشكال المهنية للثقافة فقط . وتضطلع الابحاث الاثنوغرافية بدور خاص فى استيضاح تاريخ الثقافة فى الدرجات المبكرة للتطور الاجتماعى . وبالاجمال تبين الابحاث الثقافية التاريخية الاثنوغرافية على نحو مقنع ان الشعوب جميعا مؤهلة للتقدم الثقافى على قدم المساواة . ولهذا يعود الى هذه الابحاث دور هام فى النضال ضد المفاهيم العنصرية الرجعية ومختلف الاوهام القومية . مثلا ، ان الابحاث التاريخية الاثنوغرافية ، التى كشفت للعالم الحضارات الاصيلة الرائعة للكثير من الشعوب الزنجية والتى وجدت قبل الغزو الاوربى لافريقيا نسفت من الاساس الاساطير حول عجز هذه الشعوب عن الابداع الثقافى .

تنطوى المعارف التاريخية الاثنوغرافية على مغزى جوهرى بالنسبة الى فهم جوانب كثيرة من الحياة الحالية للشعوب . وبدون معارف كهذه يستحيل ، مثلا ، ايجاد السبل القويمة لفهم العمليات الجارية حاليا فى القارة الافريقية . اذ ان

الامبرياليين لم يراعوا لدى اقامة المستعمرات القبائل والروابط السلالية اللغوية التى تكونت تاريخيا . وبالنتيجة نشأ فى الكثير من المستعمرات موزاييك من قبائل واقوام مختلفة مقسمة الى اجزاء . ومن هنا الخليط السلالى المدهش للكثير من الدول الفتية .

تشغل دراسة العمليات السلالية المعاصرة احد الاماكن المركزية فى الاستقصاءات السلالية . ان الثورة العلمية التكنيكية فى اواسط القرن العشرين ، التى قلصت على نحو خارق المسافات بين الشعوب كافة ، جعلت ارث تطورها المتباين السابق ملموسا وغير محتمل بشكل خاص . ولدى دراسة العمليات الوطنية المتعاظمة فى العالم بأسره يصطدم الاثنوغرافى ، والحق يقال ، بصعوبات من نوع خاص ، وينطبق هذا خاصة على دراسة شعوب البلدان الرفيعة التطور التى يتقارب نمط حياتها تدريجيا بصورة متزايدة . ولكن ينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار ان شعوب البلدان الرفيعة التطور تتمتع ايضا بخصائصها السلالية ، لا تلك المتخلفة من الماضى البعيد فحسب ، بل وتلك التى ظهرت منذ عهد قريب نسبيا . ومن الهام بالنسبة الى الاثنوغرافى تلقى تصور واضح لبقاء وتكيف الاشكال التقليدية للثقافة والمعيشة ، وتزايد الزواج المختلط من الناحية القومية ، وتغيرات الوعى الذاتى القومى .

لدى دراسة العصر الحالى يقترب عمل الاثنوغرافى اقترابا شديدا من الابحاث السوسيولوجية الملموسة . وليس من النادر ان يهتم علماء الاختصاصين بالمجالات نفسها من الحياة الاجتماعية (المعيشة ، الاسرة وما شابه ذلك) . بيد ان السوسيولوجى والاثنوغرافى لا يكرر احدهما الآخر : فكلاهما ينظران الى موضوعيهما من منظارين مختلفين . فلدى دراسة الاسرة ، مثلا ، ينصب اهتمام السوسيولوجى بصورة رئيسية على الصلات الاجتماعية ذات الطابع العام المتجسدة فيها ، اما الاثنوغرافى فيهتم بخصائصها السلالية . والى جانب ذلك تستحيل احيانا من الناحية العملية دراسة العلاقات الاجتماعية الطبقية والسلالية كل على حدة نظرا لتشابكها الشديد .

لا يمكن حل مهمة الوصف الشامل للشعوب – الاثنوسات والعمليات السلالية الا على اساس بحث خاص فى كل عناصرها التى تتجلى فيها الخاصية السلالية بالنتيجة . ومن هنا تنبع الاهمية الخاصة التى ينطوى عليها بالنسبة الى الاثنوغرافيا التناول الشمولى لمادة البحث واستخدام معطيات العلوم الاخرى سواء منها الانسانية او الطبيعية . وفى غضون ذلك تبرز الخاصية السلالية بمثابة احد المعالم الاساسية لتحديد تفاعلها مع المواد المتاخمة التى ترتبط بالكثير منها ارتباطا وثيقا . ولما كانت الاثنوغرافيا واحدة من المواد التاريخية ، فانها تنطوى ، بين امور اخرى ، على نقاط تماس غير قليلة مع التاريخ المدنى العام فى دراسة العصر المشاعى البدائى ومسائل التاريخ السلالى . واذ يبحث الاثنوغرافى فى مسائل الاثنوجينيز ، يتوجه باستمرار الى مواد الارخيولوجيا ، اما الارخيولوجيا فتستخدم معطيات الاثنوغرافيا على نطاق واسع من اجل استقصاءاتها ، بما فى ذلك تحديد الانتماء السلالى للآثار الارخيولوجية . وتلامس الاثنوغرافيا تاريخ الثقافة ونقد الفن والابحاث الفولكلورية لدى دراسة النتاج الفنى الشعبى ، وتلامس علم الاقتصاد لدى دراسة النشاط الاقتصادى . وكذلك فان الاثنوغرافيا ، كما سبق واشرنا ، تربطها بالسوسيولوجيا الملموسة دراسة تفاعل الظواهر الاجتماعية الطبقية والثقافية السلالية (السوسيولوجيا السلالية) . وثمة قسم مشترك بين السيكولوجيا الاجتماعية والاثنوغرافيا ، وهو السيكولوجيا السلالية . وترتبط الاثنوغرافيا بفقه اللغة دراسة القربى اللغوية بين الشعوب والظواهر والاقتباسات اللغوية المتبادلة وتفاعل العمليات اللغوية والسلالية (فقه اللغة السلالى) . تتعاون الاثنوغرافيا والجغرافيا فى دراسة تفاعل الاثنوس والوسط الطبيعى ، واصناف توزع السكان ، وكذلك فى مسائل وضع الخرائط السلالية . وفى البحث فى تعداد شعوب العالم وعمليات الهجرة تقترب الاثنوغرافيا من الديموغرافيا (الاثنوديموغرافيا) . وتقترن الاثنوغرافيا اوثق اقتران

بالانتروبولوجيا فى دراسة الاثنوجينيز (الانتروبولوجيا السلالية) ، وكذلك تاريخ المجتمع البدائى . وتتفاعل الاثنوغرافيا ايضا الى هذه الدرجة او تلك مع الكثير من العلوم الطبيعية الاخرى (علم النبات ، علم الحيوان ، الاوقيانولوجيا ، الخ .) ، التى من شأن معطياتها ان تكمل لوحة تاريخ البشرية السلالى .

طريق من الماضى

ان تاريخ كل اثنوس جزء لا ينجزئ من تاريخ البشرية العام . فكيف تمكن معرفة طريق الشعب الذى قطعه عبر القرون والعثور على جذوره ونسبه القديم والجديد ؟

اننا ، فى القرن العشرين ايضا ، نعيش زمنا تتكون فيه العشرات من الاثنوسات الجديدة . ويتتبع الاثنوغرافيون باهتمام مفهوم كيف تتكون اليوم الامة الاندونيسية من اقوام وقبائل عديدة . انها لم تنشأ بعد ، ولكن الكثير من العلماء واثقون بان الاثنوس الاندونيسى سيترسخ وسيغدو – فى مستقبل ليس بالبعيد جدا – رابطة سلالية اجتماعية ، اى امة .

يتنبأ الكثير من الباحثين بولادة روابط سلالية جديدة فى البلدان الافريقية : فاذا كان ظهور الامة الكينية امرا لا يمكن ان يعزى الا الى مستقبل بعيد نسبيا ، فانه يجرى فى كينيا منذ الآن اتحاد جامع للقبائل وتحولها الى اقوام كبيرة .

وظهرت فى القرن الاخير عدة اثنوسات جديدة فى اراضى الاتحاد السوفييتى . ولعل اسطع مثال هو الالطائيون ، الشعب الذى تشكل من قبائل واقوام صغيرة تتكلم بلغات مختلفة ، وذلك فى العهد السوفييتى ، بعد عام ١٩١٧ .

اننا ننهل وقائع العمليات السلالية فى القرن التاسع عشر من كتب العلماء وملاحظات الرحالة وشهادات المعاصرين . وكلما توغلنا فى الماضى اكثر ، ازداد شح الشهادات الكتابية

عن تاريخ الشعوب . وطالما ان الماضى يتحدث مع العلماء من صفحات المدونات والاسفار ، فان الامر لا ينطوى على تعقيد كبير .

واذا لم توجد مدونات ؟ تبقى المراسيم التشريعية والوثائق الاقتصادية . وهى بالذات كانت مضمون الالواح الفخارية السومرية والبابلية ، مع العلم ان مواد ما نسميه اليوم بكشوف المحاسبات هى اكثر من غيرها بوضوح . ولكن حتى وثائق المستودعات تعطى الباحث فى الاثنوجينيز الكثير . اذ ان لغة الوثائق بحد ذاتها تشير (وان لم يكن دائما) الى الشعب الذى ينتمى اليه واضعو هذه الوثائق .

وانه لاكثر تعقيدا بكثير وضع الباحثين الذين يدرسون ماضى الشعب فى الفترة التى لم يكن يستخدم فيها الكتابة . قد تساعد ، طبعا ، شهادات الجيران الذين كانت عندهم كتابتهم واحاديث الذين زاروا ذلك البلد . ولا يسعنا الا ان نتذكر اننا مدينون للرحالة العرب ، مثلا ، بوفرة من المعلومات عن تاريخ شعوب الفولغا والاورال واوربا الشرقية عموما فى اوائل القرون الوسطى . ولكن هذه الشهادات «الجانبية» ليست ، للاسف ، كاملة دائما . وكثيرا ، كثيرا جدا ، لا وجود لها اصلا .

ينبغى لعلمنا ، الاثنوغرافيا المتعاونة دوما مع العلوم التاريخية الاخرى ، ان يكمل تاريخ الشعوب ، وان يقومه احيانا . وكلما اوغلنا فى القدم ، ازدادت اهمية البحث الشامل فى الاثنوجينيز .

ان الانثروبولوجى يبعث مظهر الساكن القديم لهذه المنطقة او تلك ، فيقارن هذا المظهر بمظهر ممثلى الاثنوسات المعاصرة ويربط بين الماضى والحاضر .

لقد اقتحم اوربا فى وقت من الاوقات شعب كان السلافيون القدماء يسمونه بالاوبريين ، ونسميه نحن الآن بالافاريين . ويعود منشؤهم الى اواسط آسيا وكانوا من الجنس المغولى ، ولكنهم فى طريقهم الذى استغرق عقودا عديدة ، ضموا فى بنيتهم اناسا من النمط الاوربى وتزوجوا

من ساكنات اوربا الشرقية والوسطى ، بحيث ان وجهاءهم فقط ، حسب شهادة الانتروبولوجيين ، احتفظوا فى مظهرهم بملامح مغولية بارزة بوضوح ، اما عامة الناس من الافاريين فقلما كانوا ، كما بينت نتائج حفريات القبور الافارية فى المجر ، يختلفون فى مظهرهم عن النمط الاوربى المتوسط .

تعثر الارخيولوجيا فى الارض على اشياء : فؤوس حجرية وسكاكين برونزية ، رؤوس حديدية للاسهم ومقصات ، حطام اوان تكسرت منذ قرون كثيرة . ما الذى ، يا ترى ، تستطيع هذه الاشياء القديمة قوله عن انتماء اصحابها الى هذا الشعب او ذاك ؟ غالبا ما تستطيع قول الكثير جدا . ان اغلبها يتسم بخصائص مميزة لاراض معنية بذاتها . فقبائل كثيرة كانت تبدى ، مثلا ، ولعا خاصا بنوع معين من الزخرفة كل على هواه . كانت الزخارف نفسها ترسم على اعناق وجوانب الاباريق ، الوف الاباريق ، المصنوعة فى منطقة واحدة على امتداد القرون ، متحولة على الحدود مع القبائل المجاورة الى زخارف مميزة لهذه القبيلة الجديدة . من هذه الآثار التى كانت تخلفها على الصلصال الخام اصابع النساء الرقيقة (فالنساء بالذات كن اول من استوعب صناعة الفخار) ، يتوصل الارخيولوجيون والاتنوغرافيون الى معارف جديدة سواء عن اصل القبيلة نفسها او عن اخلافها المحتملين .

ان صلة الاتنوغرافيا بفقه اللغة وثيقة بشكل خاص . فاللغويون ، الذين يميلون الى الابحاث التاريخية ، يتتبعون منشأ اللغة وتطورها على امتداد آلاف السنين ، ويجدون فيها كلمات وتراكيب نحوية من اللغات الاخرى ، ويحددون اين التقت الشعوب ومتى .

«اللغة ، اللغة ! انها روح الشعوب . وفيها يقرأ مصيرها» . هذا ما يقوله احد «تلاميذ الشعب صانع اللغة» ، الشاعر الفرنسى العظيم بيير جان بيرانجيه فى سيرته الذاتية . وفى هذا يتفق الشاعر والعالم : فقد اصرّ الفيلولوجى الالمانى الشهير من القرن التاسع عشر ياكوب غريم على ان لغتنا هى تاريخنا فى الوقت نفسه .

انطلاقا من بنية مفردات اللغة يمكن الحكم بدرجة عالية من الصواب لا على حياة الشعب الاجتماعية ومعيشته فحسب ، بل وعلى منشئه . فقد بين البروفسور أباييف ، مثلا ، فى مؤلف رائع كيف يمكن فعلا على اساس تحليل لغة الشعب استخلاص تجربته التاريخية ، وهذا ما فعله فى كتاب «اللغة والفولكلور الاوسيتينيان» .

يتكلم الاوسيتينيون بلغة تمت بالقربى للغات الفارسية والطاجيكية والافغانية المعاصرة . ويتكلم جيران الاوسيتينيين بلغات مختلفة تماما ، بلغات قفقاسية وتركية . فمن اين ظهرت اللغة الاوسيتينية فى قلب جبال القفقاس ؟ يبدو ان اجداد الاوسيتينيين كان ينبغى ان يأتوا الى القفقاس من الجنوب ، حيث يتكلم الآن ملايين عديدة من الناس بالفارسية والطاجيكية والافغانية . ولكن تحليل اللغة يبين ان اجداد الاوسيتينيين ، الذين جلبوا الكلام الايرانى الى هنا ، لم يأتوا من الجنوب ، بل من الشمال . يبدو هذا من الكلمات ذات الاصل غير الفارسى فى المفردات الاوسيتينية الحالية : من بينها ، مثلا ، تسميتا الرّمان والجَمَل . عند الايرانيين ، طبعا ، كلمتان خاصتان للدلالة على هذه الشجرة وهذا الحيوان . اما الاوسيتينيون فيستخدمون فى لغتهم لهذا الهدف كلمتين غريبتين . اى ان اجدادهم اتوا من اماكن لم يكن الرمّان والجمل معروفين فيها . وكانت ايران القديمة تعرف الاسد جيدا . اما الاوسيتينيون فيسمونه بكلمة خاصة كانت تعنى اول الامر حيوانا آخر تماما ، وهو الثور البرى . وهذا معناه انه لم تكن توجد اسود فى وطن الاوسيتينيين الاوائل ، والا لما حدث هذا التشوش .

وهكذا ، تمكن اللغة من تعيين طريق الاوسيتينيين الاوائل الى وطنهم الجديد . ويمكن لها ان تشير الى نمط حياتهم ايضا . ان كلمة «رَحّل» ، وهى جوهرية جدا ، كما هو مفهوم – وسعت معناها الاولى كثيرا فى اللغة الاوسيتينية ، واخذت مفهوم «عاش» . ومن الواضح ان هذا لا يمكن له ان يحدث الا لدى اجداد رُحّل .

متى قدم الاوسيتينيون الاوائل الى القفقاس ؟ وهنا ايضا فى وسع تحليل اللغة ان يوضح الامر . لقد جلبوا معهم تسمية خاصة للحديد ، اى ان انتقالهم لم يتم الا فى اوائل الالف الاول قبل الميلاد . قبل ذلك لم يكن الحديد معروفا جيدا فى العالم القديم ، وما كان لشعب من شعوب الاطراف ان يطلق عليه اسما .

يجيب القاموس عن كل ما يخطر على بالكم من الاسئلة — المهم طرحها بطريقة صائبة فقط . . . ولا تضن العلوم التاريخية بتأكيد الافتراضات الدقيقة . وفى مثالنا يذكرنا التاريخ بالاسقوثيين والسارماتيين الناطقين بلغة ايرانية على الشاطئ الشمالى للبحر الاسود . فى القرون الاخيرة قبل الميلاد والقرون الاولى بعد الميلاد تغلغلت القبائل الاسقوثية السارماتية بعمق فى القفقاس . ونشر اقوى اتحاد قبلى سارماتى — الالانيون — نفوذه من الدانوب الى ما وراء القفقاس . ان الاسقوثيين والسارماتيين يصلحون بوضوح لدور الجدود الاوائل للاوسيتينيين : فقد كانوا ايضا يتكلمون بلغة ايرانية وعاشوا اول الامر فى الشمال من القفقاس ، وكانوا رحلا باغلبيهم والى آخره . الا يصلحون ؟ يصلحون . ولكن «المصيبة» ان الاوسيتينيين المعاصرين يشبهون جدا ، من وجهة نظر الانتروبولوجيين ، جيرانهم الحاليين الناطقين بلغات قفقاسية : الشاشان ، الكاباردينيين ، البلقاريين ، الخيفسوريين . . .

ما العمل ، ان معطيات الاثنوغرافيا والانتروبولوجيا وفقه اللغة والارخيولوجيا وغيرها من العلوم المتجاورة ليس من النادر ان تتناقض فيما بينها ، سواء «داخل» كل من هذه العلوم او على الحدود ما بين علم وآخر .

يمكن ان نشاهد فى مؤلفات الابحاث فى ميدان الاثنوجينيز والتاريخ السلالى رأيا يقول بانه فى القضايا الاثنوجينيزية السلالية لا جدال فى رجحان كفة الارخيولوجيين والتطلع الى ان تترك للارخيولوجيا بالذات الكلمة الفصل فى مسائل الاثنوجينيز ، وان منجزاتها تعتمد فى غضون ذلك على التسليم

بان كل ثقافة ارخيولوجية توافق اثنوسا معينا . هذا فى حين ان الاثنوغرافيين يعرفون غير قليل من الحالات ، حينما يوافق نموذجان او اكثر للثقافة المادية اثنوسا واحدا ، وحينما يكون ، مثلا ، جزء من الشعب مزارعين ، والجزء الآخر رعاة .

والاهم من ذلك اننا نعرف اليوم ايضا شعوبا مختلفة ذات ثقافة مادية متشابهة جدا ، وكذلك كان يتمتع ويمكن ان يتمتع بثقافة متشابهة جدا الكثير من القبائل القديمة التى كانت تتكلم بلغات مختلفة . فهل ثمة مجال لان نعرف من الآثار والمكتشفات الارخيولوجية لغة شعب لم تكن عنده كتابة . ولذا غالبا ما تجرى نقاشات حول انتماء هذه الثقافة او تلك الى قبائل قديمة معينة بالذات ، العربية ؟ الافريقية ؟ الاوروبية ؟ . . ان الثقافة المادية للشعوب ، حينما يتعلق الامر بقرون عديدة من تاريخها ، تتمتع بالاضافة الى ذلك بقابلية للحركة عالية نسبيا ، فهى تتغير ، ولا سيما لدى اقامة الشعب فى مناطق جغرافية جديدة .

انه ليصعب جدا العثور على سمات لاختلاف مبدئى بين الثقافات المادية لاثنوسات شتى تعيش فى ظروف طبيعية متماثلة وتملك نمطا واحدا من الاقتصاد . هنا لا تتمتع الارخيولوجيا الى الآن بمنهج يعول عليه .

ليس من النادر ان تتعارض معطيات العلم مع ذاكرة الشعب التاريخية المثبتة فى ما يسميه الاثنوغرافيون المحترفون بالروايات الاثنوجينيزية . اما ذاكرة الشعب التاريخية الشفوية فيمكن ان تتغلغل الى «اعماق العصور» بدرجات متباينة . وقد سجل البولينيزيون رقما قياسيا فريدا فى هذا الخصوص . ان بعضهم يتذكرون اسماء اجدادهم لفترة تمتد حتى الفى سنة . ويستطيع الكثيرون من سكان جزر مركيز سرد نسبهم على امتداد ١١٥ جيلا .

من المعروف ، بالمناسبة ، ان للذاكرة حدودها ، مهما بلغت من القوة . وقد بين البحث فى ثقافة البولينيزيين اياهم ان هذه الروايات التى يبدو انها تستحق الثقة الكاملة — من حيث الاساس على الاقل — يمكن ان تضلل العلماء . وهكذا

فانهم ، وقد تتبعوا الروايات البولينيزية التى تتحدث كيف اتى بحارة المحيط الهادئ العظام واستقروا فى الجزر ، تبينوا ان اول جزيرة سُكنت – الوطن الاصلى – قد هُجرت للبحث عن اراض جديدة منذ عشرين قرنا ؛ وهكذا اعتبر العلماء ان بداية استيطان الجزر البولينيزية من قبل سكانها الحاليين تعود الى اواخر عصر مـا قبل الميلاد . هذا فى حين ان البولينيزيين الاوائل ظهروا فى جزرهم ، كما بينت الحفريات الارخيولوجية ، قبل ذلك بالف سنة تقريبا . ولكن حتى فترة الفى سنة هى «اعماق قرون» بعيدة الغور بشكل خيالى بالنسبة الى الذاكرة الشفوية ، ولا سيما حيتما تحتفظ بوفرة من تفاصيل التاريخ الملموسة ، من الوف اسماء الاشخاص الى مئات الالوف من تسميات الجزر والاماكن الضحلة والجبال والصخور المرجانية ، وصولا الى تسميات القوارب التى كان الاجداد يتنقلون عليها من جزيرة الى اخرى .

ينبغى القـول ان «التاريخ» لدى التنقل من لسان الى لسان يتمتع بخاصية يمكن اعتبارها خاصية التحول الى «ادب» ، فيتكون ويتطور وفق قوانينه . ان البيلينات الروسية هى روايات عن اعمال وافعال اجدادنا . لقد حملت البيلينات من القرن العاشر شخصية فلاديمير الاول الملقب بالشمس الحمراء ، امير كييف الاكبر الاول الذى اعتنق المسيحية . وبناء على قوانين الفولكلور ، اسبغت على هذه الشخصية خصال امراء عديدين من كييف وغير كييف ؛ والاحداث التى يرتبط بها اسم فلاديمير الاول فى البيلينات لم تجرِ فى الواقع فى زمنه وحده . ان عمالقة فلاديمير يقاتلون التتر الذين اتوا الى روسيا فى الواقع بعد موته باكثر من قرنين . وحينما يصارع بطل البيلينات ، بامر من فلاديمير ، الافعى المتعددة الرؤوس ، يميز المؤرخ فى هذا الغول شخصية تاريخية تماما ، وهى الخان البولوفى طُغُرْكان . ولكن الروس لم يصطدموا بطُغُرْكان الا بعد فلاديمير الاول باكثر من قرن .

ولكن الكثير من الامراء المشهورين فى اسفار ومدونات

التاريخ الروسى والاوروبى تغيب عن انظار واضعى البيلينات . ان فلاديمير مونوماخ ، حفيد الامبراطور البيزنطى الذى انتصر على البولوفيين وجمع موقتا روسيا المشتتة فى قبضته الجبارة ، قد اندمج تماما بالنسبة الى الشعب ، كما نستطيع ان نحكم من البيلينات ، فى سميه وابى جده .

ليس مصادفة ان تسمّى الميثولوجيا والفولكلور بتعبير مكثف عن الحكمة الشعبية ، فهما ليسا مجرد قصة عن الاحداث المشهودة التاريخية ، بل يقومان بالاصطفاء بين هذه الاحداث . فثمة بينها ما لا يريد الشعب تذكره . . .

يبدو انه ثمة ما يجعل سفياتوسلاف ايغوريفيتش امير كييف شخصية من شخصيات البيلينات ! صاعقة على بيزنطة ، المنتصر فى الكثير من المعارك الذى رسخ اقدامه على الدانوب بالسلاح ، الفارس الذى خلف لاعقابه كلمات ابية «لا يلحق العار بالموتى» وذكرى عن التحذير الشريف للاعداء «أعلنُ الحرب عليكم» . . . ولكن لا وجود له فى البيلينات . يفسر الاكاديمى ريباكوف هذا بالموقف السلبى للشعب الروسى من حملات الغـزو البعيدة التى جرت مرارا فى زمن امارة سفياتوسلاف .

لقد دخل فلاديمير الاول البيلينات ، ولكن بقيت خارجها حملات الغزو التى قام بها . انه يبرز هنا كجانب مدافع ، كمن يتعرض للهجوم . لم يكن الشعب يؤيد اعتداءات حاكمه ، واعرب عن هذا بوضوح كاف . وقد اثار انتباه الباحثين انه فى ملاحم مختلف الشعوب ، ومن بينها الرحّل الذين غالبا ما يعتبرون ذوى نزعة حربيـة بشكل خاص ، يبرز بوضوح التنديد حتى بالابطال الايجابيين اذا كانوا يخططون للفتوحات .

ليست الاساطير المكرسة خصيصا لاصل الشعب او حكامه هى وحدها التى تعطى معلومات عن الاثنوجينيز . ان التشابه فى الميثولوجيا والفولكلور لدى شعوب منفصلة اقليميا يمكن ان يؤكد ، بل ويثبت قرابتها ، وصولا الى البرهان على واقع وجود شعب واحد فى الماضى البعيد تحدرت منه ؛ وغالبا ما يمكن انطلاقـا من الابداع الشعبى ، الذى يعكس التغيرات

الاجتماعية بدقة ، تحديد مرحلة التطور الاجتماعي التى وصل اليها اثنوس الاجداد حينما كان اثنوسا واحدا .

بيد انه ينبغى هنا دائما تذكر ان موضوعين متشابهين فى حكايات او فى ملاحم مختلف الشعوب يمكن لهما الا يعكسا القربى القديمة والصلة القديمة بين هذه الشعوب فحسب ، بل فى وسعهما ، من حيث المبدأ ، ان يظهرا بصورة مستقلة . وهذه احدى «القضايا الازلية» سواء لعلم الفولكلور او لتاريخ الميثولوجيا .

هذا مع العلم ان الوضع بالنسبة الى التاريخ السلالى يكتسب حدة اكبر : على الباحثين فى الاثنوجينيز حتى فى حالة الصلة الجلية بين الموضوعات ان يتصوروا بوضوح ما اذا كان امامهم اقتباس بسيط من «حبكة متنقلة» او نبذتان لتراث مشترك خلفه الاسلاف القدماء .

ان مايبه ، احد اكبر اللغويين الفرنسيين ، معروف ايضا كباحث فى الفولكلور . واذ قارن روايات مختلف الشعوب ، توصل الى هذا الاستنتاج :

«ان الحكايات عن الحيوانات موجودة فى كل مكان ، والشبه بين بعض الحيوانات والانسان واضح بحيث يصبح من المنطقى تماما عزو التصرفات الملازمة للناس الى الحيوانات والتعبير بهذا عما يصعب قوله مباشرة . يمكن المقارنة بين هذه الحكايات لتحديد اشكالها وطابعها ومجالات استخدامها والقيام على هذا النحو بوضع نظرية عامة للحكايات عن الحيوانات . والتطابقات ، التى يعثر عليها فى غضون ذلك ، تنبع من الخصائص البشرية العامة ، اما التباينات فمن تنوع الانماط والاختلاف فى مستوى الحضارة . ويمكن عن هذا الطريق معرفة شيء عن الملامح المميزة ، العامة للبشرية ، ولكن تستحيل معرفة اى شيء عن تاريخها . اما اذا نظرنا الى . . . الاساطير الهندية الاوروبية عن شراب الخلود فنحصل على نتائج مغايرة . ان فكرة الشراب ، الذى يستطيع ان يمنح الخلود ، طبيعية تماما بحيث لا يمكن لها ان تعود الى شعب واحد . ولكن حينما تكتشف عند شعوب مختلفة تتكلم باللغات

الهندية الاوروبية ، وبروايات كاملة الى هذه الدرجة او تلك ، اسطورة شراب الخلود الذى يحضر فى خابية كبيرة ، وتضاف اليها علاوة على ذلك قصة العروس الخائنة واسطورة الصراع بين الآلهة والمخلوقات الشيطانية ، فان هذا التطابق لمواضيع متفرقة ، غير مترابطة داخليا بالمرة ، لا يمكن ان يظهر بمحض المصادفة» .

وبالفعل ، ان هذه الحبكة موجودة فى اساطير الايسلانديين وسكان البنجاب فى الهند على حد سواء . من الواضح ان هذا تراث مشترك فعلا . ولكن هذا التشابه الجلى فى التفاصيل امر نادر . ان الباحثين يصادفون فى حالات اكثر بما لا يقارن تشابها ابعد بكثير عليهم ان يستخلصوا منه كل ما هو ممكن .

امضى العالم الروسى فيكتور غولوبيف (١٨٧٨-١٩٤٥) جانبا كبيرا من حياته فى الهند الصينية ، حيث بحث فى فولكلورها وتاريخها . وقد اهتم غولوبيف ، بين امور اخرى ، بما اذا كان يمكن العثور من خلال الاساطير عن الآلهة والابطال القدماء على مفتاح يكشف سواء عن منشئها او عن الصلات التاريخية بين الشعوب التى تعود اليها هذه الاساطير . وحاول غولوبيف تبيان الصلات بين الخميريين ، وهم شعب فى جنوب شرقى آسيا ، والاسقوثيين شمالى البحر الاسود .

لم يمنعه عن هذا بعد المسافة التى تبلغ الوفا عديدة من الكيلومترات ، ولا واقع ان لغتى الخميريين والاسقوثيين ليست بينهما صلات قربى ، ولا ما يبدو من استحالة العثور فى التاريخ القديم على حادثة تشابكت فيها بشكل من الاشكال مصائر الاسقوثيين واجداد الخميريين .

لقد وجه اهتمامه الى اسطورة منشأ المملكة الخميرية التى تقول بان اسرة كاودينيا الاولى نشأت من الافاعى . وكان غولوبيف يعرف ان علماء آخرين عثروا على مصدر هذه الاسطورة الخميرية فى جنوب الهند . اذ كانت توجد فى احدى الممالك هناك اسطورة عن منشأ حكام منحتهم ملكة افعى قوة

خارقة . وقرر الباحث الروسى متابعة الاستقصاء ، فقارن بين الاساطير عن الافاعى - امهات الملوك التى عاشت امدا طويلا فى آسيا الغربية وآسيا الصغرى وهيمالايا ومنطقة البحر الاسود . ورسخ الاستقصاء الصعب قناعته بان الاسطورة الاسقوثية ظهرت قبل غيرها ، وقد سجلها «ابو التاريخ» اليونانى القديم هيرودوت : ان اول ملك اسقوثى ، واسمه اسقوث ، كان الابن الاصغر لهرقل وايخيدنا التى كانت نصف امرأة ونصف افعى .

ان نصف المرأة-نصف الافعى ، التى تؤدى دور بعبع احيانا ، ودور الهة احيانا اخرى ، شخصية منتشرة للغاية فى ميثولوجيا العديد من الشعوب . وليس من النادر ان يرى فى هؤلاء «الالهات الافعوية الارجل» تجسيد للارض الام التى كانت الافعى رمزا لها عند شعوب كثيرة . ولكن ليست كثيرة ابدا تلك الاساطير التى تلد فيها انصاف الافاعى هذه ملوكا جبابرة ، ولاسيما اذا كانوا اجدادا لشعوب باكملها . وقد اجرى غولوبيف مقارنة مسهبة بين الاشكال الاسقوثية-الهيلينية للاسطورة واشكالها الهندية الجنوبية والخميرية واستنتج ان العناصر المشتركة فى هذه الاشكال ليست من قبيل المصادفة . ان الالهة الاسقوثية ، التى لها وجه انسان وجسد افعى والتى سماها هيرودوت بايخيدنا ، اصبحت عند الخميريين ، فى رأى العالم ، الآلهة-الافعى ناغا ، الجدة العليا لشعب كمبوتشيا . كيف وصلت هذه الاسطورة الى الهند الصينية ؟

ابتداء من اواسط القرن الثانى قبل الميلاد تغلغل الاسقوثيون عميقا فى اراضى الهند (يعرفون هناك باسم الساقيين او الشاقيين) ، واسسوا دولة مترامية الاطراف شملت جزءا كبيرا من شبه القارة . لقد كانت ، طبعا ، بين حدودها الشرقية واراضى كمبوتشيا الحالية ، مسافة لا يستهان بها ، ولكن يمكن تماما فى مثل هذه الحالة وجود حلقات اتصال .

لا يمكن موافقة غولوبيف على افتراضاته جميعا ، ولكن لا يسعنا الا الاعتراف بانها جذابة وجريئة .

لقد سبق القول بان هذا الحدث او ذاك ، اذ يدخل حيِّز الميثولوجيا ويصبح اسطورة ، يبدأ بالتحول . ولكن هذا التحول يجرى وفق قوانين معينة ، ويمكن القول انه «ياخذ رموزه» الخاصة .

اليكم ، مثلا ، كيف تحل طلاسم اسطورة تاسيس الدولة الاينكية فى بيرو التى ضمت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ارجاء شاسعة فى اميركا الجنوبية .

خرج من كهف باكاريتامبو اربعة اشقاء واربع شقيقات وانطلقوا للبحث عن اراض مناسبة . كان احد الاشقاء ذا قوة مفرطة ، اذ كان يستطيع زحزحة جبل كامل بحجر من مقلاعه . خافه الثلاثة الآخرون ، فاحتالوا عليه واعادوه الى الكهف من جديد واغلقوا المخرج بصخرة كبيرة . وتحول اخ آخر وهو فى الطريق الى صنم حجرى . وبقى شقيقان : ايار اوكا وايار مانكو . وتحول ايار اوكا الى حجر ايضا ، ولكن بعد العثور على ارض خصبة . فى احدى روايات الاسطورة انطلق مع الاشقاء للبحث عن اراض جيدة هنود آخرون : بسطاء ، فانون ، ليسوا من منشأ «كهفى» . وقد قادهم ايار مانكو الذى خاض الصراع ضد القبائل القاطنة فى الاراضى الجديدة وانتصر عليها واصبح اول زعيم للاينكيين .

حلل مؤرخو بيرو الاسطورة بدقة وفسروها بمهارة كقصة مجازية عن حملة اربع قبائل متحالفة على وادى كوسكو . وهكذا ، يفترض لويس فالكارسيل ان كلا من الاخوة يرمز الى احدى القبائل ؛ فقد فنيت ثلاث قبائل او ابتلعتها القبيلة الرابعة ، الاقوى . وبناء على تفسير آخر ، يرمز شقيقان الى قبيلتين غازيتين ، وشقيقان الى قبيلتين مهزومتين . ولفت انظار الباحثين ان تسمية الكهف - باكاريتامبو - ربما يعنى «مكان الشروق» وان ايار اوكا لم يتحول الى مجرد حجر ، بل تحول الى عمود حجرى مثل الذى ينصبه الهنود اشارة الى التملك . ان زعيم الاينكيين ، كما تقول الاسطورة ، اسس مدينة مقسمة الى اربعة احياء . وتعطى الاسطورة تسميات الاحياء كلها ، ولكن احداها لم تكن ماخوذة من لغة كيتشوا

التى كانوا يتكلمون بها فى دولة الاينكيين ، بل من لغة شعب أيمارا الهندى الكبير المجاور . وهذا يشهد ، كما يفترضون ، على ان كوسكو سكنها منذ البداية اناس من قبائل مختلفة يتكلمون بلغات مختلفة . ووجه الانتباه ايضا الى ان اسماء الاخوة ايار فى الاسطورة ذات معنى : الاسم المشترك ايار يعنى ، فى رأى بعض الباحثين ، «الحنطة السوداء» ، ويعنى احد اسمى اثنين من الاشقاء «الملح» والآخر «الفليفلة» ، واسم مانكو يعنى ، على ما يبدو ، حبوبا لهـا اهمية عند الهنود . والاسماء الاخرى فى الاسطورة تعنى كلها تقريبا نباتات صالحة للاكل . من الواضح ان واضعيها كانوا جامعى نباتات او مزارعين بدائيين . (بالمناسبة ، ينبغى الا يغيب عن انظارنا ان واضعى الاساطير هم ، كقاعدة عامة ، متطورون اجتماعيا اكثر من الذين تتحدث عنهم الاسطورة .)

ومن الهام كذلك بالنسبة الينا ان الشخص الواحد فى اسطورة النسب السلالى ليس من النادر ان يجسد قبيلة كاملة .

حينما اسس الاينكيون امبراطوريتهم الجبارة ، استولوا ايضا على منطقة بحيرة تيتيكاكا الشهيرة حاليا ، حيث كان يوجد يوما اتحاد قبائل جبار اقام حضارة التياواناكو الرفيعة والاصيلة ، وكانت هذه الحضارة قد بادت فى ذلك الحين ، ولكن ذكراها كانت حية وسط الهنود . وقد ربطت الميثولوجيا الاينكية تاريخ شعبها بتاريخ الحضارة السابقة : فى شكل الاسطورة الجديد ، الذى يسمى احيانا «الرواية الامبراطورية» ، لم يخرج الاشقاء الاربعة والشقيقات الاربع من كهف باكاريتامبو ، بل من بحيرة تيتيكاكا . ان نبذا كثيرة من اسطورة خروج الاينكيين من بحيرة تيتيكاكا تبين ، كما يفترض الباحثون الاثنوغرافيون ، انها نشأت فى فترة متأخرة نسبيا . هنا يزرع الاشقاء–رسل الشمس الذرة . اما فى شكل الاسطورة الاول فلا يوجد ذكر للذرة ، ولا للبطاطا التى ظهرت فى منطقة كوسكو قبل ذلك الصنف من الحبوب .

وهذه اسطورة نموذجية اخرى حول النسب السلالى .

فى عام ١٩٣٩ نشرت حكاية نينية عن شيخ عنده سبعة ابناء . خمسة منهم اصبحوا وحوشا جبارة . واثنان – خاريوتشى وفانويتا – كانا ارومة الشعب النينى الذى يعيش فى التوندره شمال الاتحاد السوفييتى .

فى البداية كان النينيون ، كما تقول الاسطورة ، عشيرتين يعود اصل كل منهما الى احد هذين الاخوين ، ثم قسم خاريوتشى ابناءه الى عشر عشائر ، وفعل فانويتا مثله . وتذكر الحكاية اسماء العشائر الجديدة . وقد اكدت الوثائق ان تسعا من العشائر العشر ، التى انقسمت اليها عشيرة خاريوتشى ، لم تظهر الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وابطال اسطورة نينية اخرى يعيشون على شاطىء البحر فى مساكن محفورة فى الارض ، ويقتاتون بما يصطادونه من البحر . وهذه ، من حيث الجوهر ، حكاية عن الازمنة التى لم يكن فيها بعد ايائل عند النينيين . واكدت الحفريات الاثرية تفاصيل الحكاية ، مع العلم انه عثر فى ساحل شبه جزيرة يامال على مساكن محفورة فى الارض تعود الى اواخر الالف الاول ومستهل الالف الثانى بعد الميلاد .

يمكن الركون نسبيا الى الخصائص الثقافية – المعاشية للاثنوسات كمصادر للاثنوجينيز .

من المعروف ان الرومان اخضعوا اراضى داكيا ، رومانيا حاليا ، فى القرن الثانى بعد الميلاد فى عهد الامبراطور تراجان . وقد احتل جيش رومانى ضخم البلاد لامد طويل ، جاعلا اللغة اللاتينية تحل بالتدريج مكان اللغات المحلية . ويجد اثنوغرافيو رومانيا علاوة على ذلك ملامح مشتركة فى ملابس سكان شبه جزيرة الابينين والداكيين ، الامر الذى يمكن الحكم عليه من صورهم البارزة فى تماثيل ازمنة الامبراطورية الرومانية ، وهم يعتقدون ان سكان رومانيا لا يزالون حتى ايامنا هذه محافظين فى بعض المناطق الريفية على التنانير والبلوزات والاحذية التقليدية وغيرها من عناصر الملابس الداكية القديمة . ونشر مؤخرا الاثنوغرافى دونارى

من رومانيا مؤلفا يستدل منه ان الاشكال الزخرفية القديمة المنتشرة عند الداكيين قد بقيت او تطورت لاحقا فى التطريز الرومانى . فى هذه الحالة ينتظم النسق السلالى-التاريخى بشكل يعول عليه بصورة كافية ويستطيع الباحث ان يشعر بالثقة .

انه لمن الجيد حينما تتبادل كل المصادر المتنوعة الدعم ، وحينما لا تتناقض المعلومات التى تستخلص منها . وللاسف ، فان المصادر ، كما سبق ورأينا ، لا تتفق فى حالات كثيرة ، بل تتنازع .

فلنكمل موضوعتنا . ثمة تاكيدات تقول ان الاسقوثيين اتوا الى الساحل الشمالى للبحر الاسود من الجنوب الغربى ؛ ولغتهم (المجموعة الايرانية) تشير وكان منشاهم من الجنوب الشرقى ؛ ويشهد مظهرهم الانترويولوجى على صلة وثيقة بالسكان السابقين لسهوب منطقة البحر الاسود . فمن هم الاسقوثيون : سكان اصليون او دخلاء ، واذا كانوا دخلاء ، فمن اين ؟ اية رواية ينبغى ان تفضل ، وان مصدر يستحق ثقة اكبر ؟ فى صدد المسائل المعقدة والجوهرية ، كمنشا الشعب – الاثنوس ، تستمر المناقشات فى مختلف الاوساط العلمية وشتى البلدان ، وهذه المناقشات تجرى فى الادبيات التاريخية السوفييتية ايضا .

يقول زميلنا ، الانترويولوجى اليكسييف ، وقد حلل هذه الحالات المتناقضة : «ينتشر فى الادبيات اتجاه لناقشة الفعالية النسبية لشتى اصناف المصادر التاريخية حينما يجرى الحديث عن القضايا الاثنوجينيزية ، مع العلم ان النقاش يحل غالبا فى مصلحة المصدر التاريخى الذى يقبض المؤلف على ناصيته مهنيا» . اى ليس من النادر ان يبالغ اللغوى فى معطيات اللغة ، والانترويولوجى فى مواده ، والمختص فى الفولكلور فى مجالــه . ويسعى اليكسييف الى ان يضع المصادر فى اماكنها ويقدرها موضوعيا .

انه يعتقد ان معطيات علمه تعطى الكثير جدا للمتغلغل فى عمق الزمن ، لتوضيـــح هجرات الشعـوب فى العصر

البرونزى ، وحتى فى العصر الحجرى ، مثلا . ولكن الاتصالات التى تؤدى الى ظهور ذرية مختلطة هى وحدها ، فى رأى مؤلفى هذا الكتاب ، التى تؤثر فى مظهر الناس الخارجى فى الزمان . اما اللغة ، مثلا ، فتنتقل احيانا بدون «دم» الشعب الذى يقتبس منه شعب آخر هذه اللغة .

ولكن حتى الاحداث التاريخيــة التى تؤدى فى نهايــة المطاف ، من جملة ما تؤدى ، الى «اختلاط الدم» لا تحدث تغيرات انترويولوجية على الفور . لا بد من الزمن لكى يتجلى هذا التاثير فى المظهر الخارجى للشعب . ان الانترويولوجيين هم انسباء السحرة الذين عمل باسمهم بطل رواية مارك توين «يانكى فى بلاط الملك ارثر» . كان يؤكد ان التنبؤ بالمستقبل البعيد اسهل على النبى الحقيقى من التنبؤ بالمستقبل القريب . اما الانترويولوجيون فيحسنون تحديد الماضى البعيد افضل من الماضى القريب نسبيا .

ان الروايات الاثنوجينيزية تساعد ، فى رأى اليكسييف ، عند الطرف الآخر من سلم الزمن . انها لا تحتفظ فى الذاكرة الا بالقرون الاخيرة ، وبالالف سنة الاخيرة كحد اقصى (ذاكرة البولينيزيين التى تمتد الفى سنة امر نادر على اى حال) . ولكن التكون النهائى لعدد كبير من الشعوب المعاصرة يعود الى هذه الالف سنة الاخيرة بالذات : الاوكرانيون ، العرب ، الليتوانيون ، السكوتلانديون ، الاسبــــان ، الخميريون ، التائيون ، البورياتيون ، الخاوسا والى آخره . ولكن ما العمل اذا كان الفولكلور يحور بشدة الواقع التاريخى الذى يعكسه ؟ وما العمل فى «جمـــع» عشرة امراء فى شخصيـــة فلاديمير الكييفــى ؟ ويصر اليكسييف : «. . . هذا الاعتراض صحيح من حيث المبدأ ، بيد ان اى مصدر تاريخى كذلك لا يعكس الواقع بكامله ويتطلب تحليلا انتقاديا . ولهذا فان الاعتراضات من هذا النوع لا تنطبق على الروايات الاثنوجينيزيــة اكثر مما تنطبق على كل الاصناف الاخرى للمصادر التاريخية» . الا انه لا يجوز ، فى رأينــــا ، تجاهل ان تشويه الماضى فى الاساطير يمكن ان يكون قويا للغاية .

ان المعطيات اللغوية هي ، في راي اليكسييف ، هامة بشكل خاص بالنسبة الى الازمنة التي لا تستطيع الانثروبولوجيا ان تتحدث عنها الا القليل نسبيا والتي لا تطالها الذاكرة المسجلة في روايات الانسان السلالية .

«. . . ان اية معلومات (لغوية) كاملة بدرجة من الدرجات يمكن ان تجند في الاغراض الاثنوجينيزية لا توجد الا بدءا من الالف الاول قبل الميلاد ، اي منذ العصر الحديدي المبكر» .

ينبغي التنويه لوجه الانصاف بان احدث الابحاث التي تستخدم ، مثلا ، طريقة الغلوتوخرونولوجيا توفر امكان الاستفادة من المواد اللغوية لتحديد «القرابة» بين الشعوب في ازمنة ابعد من الالف الاول قبل الميلاد .

سبع درجات الى التاريخ

بين جمهوريات بلادنا توجد جمهورية بشكيريا الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي . في الشرق تقطعها جبال الاورال الجنوبي ، وفي الغرب تمتد تلال وسهول الاورال الامامي . في هذه الاراضي تكونت الامة الاشتراكية البشكيرية . نقترح على القارئ التوجه الى ماضيها الاشتراكي .

ان البشكيريين شأنهم ، بالمناسبة ، شأن بعض الشعوب الاخرى ، القليلة على اي حال ، قد استطاعوا ان يحتفظوا على امتداد القرون وحتى الوف السنين بتسميات اتحاداتهم العشائرية-القبلية القديمة منها والمتأخرة نسبيا .

ان الشعوب القديمة كلها كانت قبائل في يوم من الايام . نحن نعرف ان هذا ينطبق سواء على سكان روسيا القديمة ، او على سكان الاقطار العربية القدماء ، والفرنكيين القدماء ، او الهنود الذين كانوا يقطنون في اقصى جنوب اميركا اللاتينية . ولكن لم تكن القبائل تعيش دائما حتى الزمن الذي تستطيع معه كتابة تسمياتها . وهذا ما تسنى للبشكيريين . بل اننا بفضل الاساطير والروايات البشكيرية الرائعة نعرف حتى عدد

القبائل والعشائر التي كانت في بشكيريا في عهودها الغابرة ، ونعرف اسماءها .

ان التسميات التي تعطى للقبائل والعشائر والمجموعات التي تنقسم اليها العشائر شيء راسخ وتغييرها اصعب بكثير من تغيير كنية الانسان . تعيش القبيلة ويعيش عادة اسمها الذي تلقته منذ مئة او ثلاثمئة سنة او مئات عديدة من السنين .

ومن الاسم غالبا ما نستطيع ان نعرف ايضا متى ظهرت ولماذا هي على هذا النحو بالذات . لقد وضع العالم البشكيري كوزييف من الاسماء القبلية والعشائرية والعشائرية الداخلية «سلما» حقيقيا ذا اتساق علمي جيد يؤدي الى ماضي شعبه ، سلما من سبع درجات . كل منها يبلغ قرونا كاملة . ان كوزييف لا يتحدث ، طبعا ، في مؤلفه العلمي عن سلم ودرجات ، ولكن راق لنا هذا التشبيه الذي يبدو معبرا ، بل تحدث عن الطبقات اللغوية في تسميات البشكيريين السلالية .

اقرب هذه الدرجات الينا ، الدرجة العليا من السلم ، هي الطبقة التي اسماها العالم بطبقة الفولغا – آسيا الوسطى .

تقع في آسيا الوسطى جمهورية اوزبكستان السوفييتية ، وتوجد ضمنها جمهورية قره قلبق ذات الحكم الذاتي . ويوجد في بشكيريا (او كان يوجد) «اوزبكيون» و«قره قلبقيون» ، ولكنهم يتكلمون بالبشكيرية ، لان هاتين التسميتين ، في الحالة التي نحن في صددها ، ليستا تسميتي شعبين ، بل مجموعتين عشائريتين داخليتين . تقع في مجرى الفولغا الاسفل الجمهورية الكالميكية ذات الحكم الذاتي ويوجد في بشكيريا «كالميكيون» . وبعيدا عن بشكيريا ، في اقصى جنوب بلادنا ، تقع اشد الجمهوريات السوفييتية حرارة ، تركمانيا . ولكن يوجد في بشكيريا «تركمان» بشكيريون . كل هذا يبدو مدهشا ، ولكنه ليس عجيبا الى هذه الدرجة من وجهة النظر التاريخية .

اذا كانت مجموعة من البشكيريين تسمى بالكالميكيين ،

فهذا يعنى انه تجرى فى عروقهم نسبة من الدم الكالميكى ، ويعنى ان هؤلاء البشكيريين ليسوا منحدرين من الاجداد المشتركين لشعبهم فقط ، ولكنهم ايضا من اناس قادمين من اراض غريبة .

لقد اتى الى الاراضى البشكيرية فى الفترة من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر ممثلو الكثير من شعوب آسيا الوسطى ومنطقة الفولغا والاورال . قدموا الى هنا اسرا على حدة ومجموعات وعشائر . ولهذا اتخذت بعض اتحادات البشكيريين العشائرية اسماء شعوب كاملة تعيش على بعد مئات ، واحيانا الوف الكيلومترات .

اتوا من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، واندمجوا فى البشكيريين وصاهروهم واخذوا بالتدريج لغتهم وثقافتهم ، الى ان اصبحوا افرادا من الشعب البشكيرى يتمتعون بكامل الحقوق .

لقد مضت خمسمئة سنة على اقدم التسميات العشائرية القبلية لهذه الطبقة واقل من مئتى سنة على احدثها ، وما هذه الطبقة الا الدرجة العليا للتسميات السلالية وللحقائق التاريخية الكامنة خلفها : وهذه التسميات تضطلع الآن بالنسبة الى المؤرخين بدور معالم طريق من نوع خاص تشير الى التحركات القديمة للشعوب .

نقوم الآن بخطوة اخرى فى السلم الذى بناه العالم الاثنوغرافى فى بحثه الصعب ، الدقيق وننحدر الى الطبقة الثانية من الاعلى للشعوب من اسلاف البشكيريين واقربائهم التاريخيين . هنا نصادف اسماء ، مثل «النوغاى قيبتشاك» و«النوغاى يورماتيين» و«القيزيل نوغاى» . ليس من الصعب ان نرى فى هذه «النوغاى» اسم النوغائيين . فمن هم النوغائيون ؟

يجب البدء من الماضى السحيق . منذ ستمئة سنة تقريبا ، وفى اراضى بشكيريا على وجه التحديد ، قرر الى سنوات طويلة فى معركة كبرى مصير ارجاء شاسعة من شرق اوربا ، وغرب ووسط وجنوب آسيا . هنا فى عام ١٣٩١ التقى فى

ميدان المعركة جيش الارطة الذهبية والجيش الرهيب لتيمور نفسه . ان الاعرج الحديدى ، الذى لم يسم عبثا بمروع الكون ، هزم خان الارطة الذهبية توختاميش شر هزيمة .

ادت الهزيمة المروعة الى انهيار الارطة الذهبية . وظهرت مكانها عدة دول . وكان من بينها اتحاد للقبائل الرحل عرف باسم الارطة النوغائية . واليوم يعيش الشعب النوغائى السوفييتى فى شمال القفقاس . وحينذاك وقع جزء كبير من بشكيريا تحت سلطة الزعماء القبليين النوغائيين ، المورزات . وقطنت عدة قبائل نوغائية فى بشكيريا ، واصبحت بشكيرية فى نهاية المطاف . وتحتفظ الاسماء السلالية بذكرى هذا الاختلاط بين الشعبين . وفى الاسم القبلى للنوغاى يورماتيين ، مثلا ، اتحد اسم النوغائيين مع تسمية قبيلة اليورماتيين البشكيرية القديمة . ان الطبقة اللغوية الثانية من الاعلى هى نوغائية تماما .

والطبقة الثالثة ، الدرجة الثالثة فى عمق القرون هى ذكرى الكيبتشاكيين . لقد كان الكيبتشاكيون فى يوم مضى اسياد كل شمالى البحر الاسود ، وكانت اراضيهم تمتد الى الشرق عبر شمال القفقاس ومنطقة الفولغا ، وعبر آسيا الوسطى وكازاخستان الحالية حتى الطاى تقريبا .

ان الطبقة اللغوية الثالثة ، حسب تقسيم كوزييف ، للاسماء العشائرية القبلية البشكيرية يؤكدها علماء التاريخ بمواد اخرى . فى زمن غزوة باتو منى الكيبتشاكيون كما تقول رواية بشكيرية موثوقة – بهزيمة مروعة . وكانت المفارز المغولية تنطلق وراء الغنيمة من جديد وجديد الى السهوب الكيبتشاكية التى كان قد تم اخضاعها . وانتقل الكيبتشاكيون من سهولهم الجرداء ، حيث لا مكان للاختباء من العدو القوى ، من السهم الحاقد والوهق المشدود ، الى الشمال والشمال الشرقى ، الى الغابات الكثيفة ، خلف الانهار العريضة والجبال العالية والمستنقعات الموحلة . ان كل شعوب منطقة الفولغا والاورال تقريبا قد ضمت فى بنيتها حينذاك كيبتشاكيين قادمين من الجنوب والجنوب الغربى . . .

ودمجهم البشكيريون ايضا . وقد جرى هذا بشكل ابسط واسهل ، لانها لم تكن المرة الاولى التى يأتى فيها الكيبتشاكيون الى الاورال . فمنذ الفترة من القرن العاشر الى القرن الثانى عشر اخذت تظهر اسماء كيبتشاكية بين الاسماء العشائرية – القبلية البشكيرية . وهى تشكل مع الاسماء الموروثة فى تلك القرون نفسها من شعب تركى آخر ، الغز ، طبقة لغوية اقدم ، وهى الطبقة الرابعة .

على الدرجة الخامسة يظهر الحملة الاوائل لاسم بشكير ، وهم قبائل اتت منذ الف سنة الى الاورال من الاراضى المتاخمة لبحرى قزوين وآرال . ان عددا من القبائل القادمة حديثا تمكنت منذ ان كانت فى وطنها ذاك من الاتحاد ، وعرف الجيران وحدتها باسم «بشكورد» . ومن المفهوم ان هؤلاء «البشكورديون القدماء» قد نقلوا ايضا الى اخلافهم التسميات العشائرية – القبلية التى حملوها من آسيا الوسطى . ويساعد على معرفتها بين العديد من الاسماء الاخرى واقع انه لما كان عند «البشكورديين القدماء» اخلاف فى آسيا الوسطى ، فان هذه التسميات نفسها موجودة عند الانسباء الآخرين لقبائل «البشكورد» ، عند الاوزبيك والكازاخيين والقرغيزيين ، وحتى عند الالطائيين والتوفيين والمغول . . .

ويجد المؤرخون اسماء بشكيرية قديمة فى مخطوطات القرون الوسطى ايضا : ان القبائل التى اعطت البشكيريين المعاصرين اسمهم المشترك اضطلعت بدور هام فى الكثير من الاحداث التى جرت سواء فى اوربا او آسيا .

وفى رأى الاختصاصيين ان قبائل «البشكورد» بالذات وكذلك الكيبتشاكيين اضطلعوا بالدور الحاسم والاهم فى تكوين الشعب البشكيرى .

ولكن الدرجة الخامسة ليست هى الاخيرة . ان تاريخ الشعب البشكيرى فى ارضه الحالية يغور فى الماضى ابعد من الف سنة بقدر كبير ، انه اقدم بكثير من اسم هذا الاثنوس . ما زالت هناك قرون عديدة للوصول الى «القعر السلالى» ، اى زمن ظهور ابكر التسميات العشائرية – القبلية

البشكيرية التى وصلت الينا .

منذ القرن الثامن اخذت التسميات البولغارية والمجرية مكانها بين هذه التسميات : الطبقة السادسة من الاعلى للتسميات السلالية البشكيرية . لقد قدم البولغار الى الاورال من الدون . وكان البولغار القدماء اتراكا ، اى كانوا اقرباء باللغة سواء للبشكيريين او التتر او الاوزبيك او الكيبتشاكيين او النوغائيين ، اى لكل الشعوب تقريبا التى كونت الطبقات اللغوية الخمس العليا .

بالنسبة الى المجريين كان الامر مغايرا . ان صلات القربى فى لغتهم مختلفة تماما . لقد امتدت فى الشمال الى سكان الغابات ، الخانتيين والمانسى ، وفى الشرق الى الاوغريين اى السكان القدماء لحوض نهر اوب ، وامتدت بعيدا فى الغرب الى الهنغاريين الذين يسمون بالمجريين الى الآن . ولمجريى الاورال القدماء اقرباء ابعد ، وهم الشعوب الفنلندية : الفنلنديون انفسهم ، وكذلك الاستونيون والكاريليون والكومى والاودمورتيون والموردفا والماريون والفيبسيون . وللمجريين ايضا صلة قربى بعيدة بالنينيين والشعوب الشمالية الاخرى التى يجمعها الاثنوغرافيون تحت تسمية مشتركة ، وهى الساموديون . يسمى العلماء اللغويون والاثنوغرافيون انسباء المجريين القريبين والبعيدين والمجريين انفسهم بمجموعة الشعوب الفنلندية – الاوغورية ، ويدرجون هذه المجموعة مع الساموديين ضمن اسرة الشعوب الاورالية .

وهكذا ، فقبل قدوم البولغار والمجريين على حد سواء كان يقطن فى الاورال اناس من قبائل عديدة تتكلم بلغات المجموعتين الفنلندية – الاوغورية والسامودية . ولهذا كانت عند البشكيريين اسماء عشائرية – قبلية تشبه التسميات نفسها التى تصادف عند الماريين احيانا ، وعند النينيين احيانا اخرى . . . وهى التى تشكل الطبقة السابقة .

وهكذا فقد هبطنا الدرجات السبع الى الاسفل ، ووصلنا الى اقدم طبقة لغوية . وقد ظهرت اقدم التسميات السلالية المكونة لها ، كما يكتب كوزييف ، فى تخوم عصر ما بعد

الميلاد على الاقل ، والارجح انها ظهرت قبل ذلك . ان العالم تغلغل فى الماضى الفى سنة ونيف بواسطة التسميات العشائرية – القبلية .

وبعد ذلك يصبح علم التسميات السلالية عاجزا . ولكن علم التسميات السلالية ليس وحيدا بين العلوم التاريخية . اذ يذكر التاريخ والارخيولوجيا والانثروبولوجيا مجموعات جديدة من اسلاف البشكيريين المعاصرين . وتعرف هذه العلوم انه سكنت جنوب الاورال فى القرون الاولى قبل الميلاد قبائل سافروماتية وسارماتية . وكانت هذه القبائل تتكلم بلغات من المجموعة الايرانية .

ولكن حتى الآن لم تنته هذه القائمة المستفيضة ، والموجزة من حيث الجوهر ، لاسلاف الشعب البشكيرى ، ونقصد الاجداد الذين يتسنى للعلم تتبع طرق هجراتهم وتنقلاتهم . حسب تقديراتنا ، ظهرت فى الاورال منذ اربعة آلاف سنة على الاقل (وربما اكثر) قبائل الهندديين الاوربيين الاوائل . فى ذلك الزمن البعيد لم يكن يوجد اى شعب – اى شعب ! – من الشعوب التى تعيش اليوم فى الارض .

وكانت بشكيريا الحالية احد اماكن اللقاء بين الهندديين الاوربيين الاوائل والاوغريين – الفنلنديين الاوائل : كانت قبائلهم تتحارب وتتصالح وتدخل فى حديثها «كلمات غريبة» .

لقد اتينا على ذكر الكثير والكثير من اسلاف البشكيريين حتى اصيب القارئ بالاعياء . ولكننا لم نذكر حتى كل مجموعات الناس الاساسية التى اصبحت شعبا واحدا مع مرور القرون . ولعله يمكن اعتبار ان ما ذكر كافيا لرؤية غنى وتنوع انسباء الامة البشكيرية . انهم يعيشون فى الجوار شان التتر والماريين والاودمورتيين ، وبعيدا شان التوفيين فى الشرق ، والسآميين فى اقصى الشمال ، والتركمان فى الجنوب ، والهنغاريين فى وسط اوربا ، والياقوتيين فى اقصى شمال شرقى آسيا تقريبا . . . ومن الهام ان نشير فى هذا القسم الى ان مثل هذا النسب من حيث الاتساع امر يتسم به تاريخ كل شعوب الارض .

ذلكم ما تسنى احصاؤه من اسلاف البشكيريين واقربائهم . ولكنهم ، اذا توخينا الدقة ، ليسوا كل الاسلاف والاقرباء الحقيقيين . لقد اتفق العلماء على الا ياخذوا فى الحسبان بمثابة اسلاف للشعب الا مجموعات الناس التى دخلت قوام الشعب الذى يجرى تكونه كروابط مستقلة ، وبعد ذلك فقط بدأت تفقد بالتدريج خصائصها المميزة . بعض هذه الخصائص تبدد وبعضها لم يعد مميزا لانه اصبح صفة للشعب باسره . اما مجرد الدخلاء ، الفرديين او الاسر على حدة ، حتى وان كانوا كثيرين فى هذه الاراضى او تلك فى بعض العصور ، فان العلماء لا يسبغون عليهم دور الاسلاف .

ان زواج بعض الالمان او الفرنسيين بالروس لا يجعل الروس اسلافا للفرنسيين والالمان (وبالعكس) . وواقع ان بوشكين كان ابن حفيد لحبشى (اثيوبى) لا يوفر ، طبعا ، المسوغات لاعتبار الاحباش اسلافا للروس عموما .

ان نيقولاى نيقولايفيتش تشيبوكساروف ، احد ابرز الانثروبولوجيين السوفييت ، قد وضع شرطا آخر لاعتبار مجموعة من الناس فى عداد اسلاف شعب معين : كل من هذه المجموعات بحد ذاتها ينبغى ان تكف عن الوجود فى الاراضى التى يشغلها هذا الشعب على الاقل . ويتجاوب مع هذا الشرط تماما القره قلبقيون والتركمان الذين اعطوا اسميهم لبعض عشائر البشكيريين . اذ لا توجد فى اراضى بشكيريا مجموعات قومية من التركمان والقره قلبقيين .

ولكن حتى فى ظل هذا الانتقاء الصارم بين الاجداد يمكن العثور لدى كل شعب ، كما رأينا ، على غير قليل من الاسلاف ، وبالتالى الاقرباء «بالدم» . فتلك الصلات العائلية الواسعة امر لا يقتصر على البشكيريين وحدهم .

ان الروس والاوكرانيين والبيلوروس سلافيون . ويبدو قريبا للاذن الروسية كلام الصربيين والبلغار والتشيك والسلافيين الغربيين والجنوبيين الآخرين . ويدخل معهم

السلافيون الشرقيون فرعا مستقلا فى الاسرة الكبيرة للشعوب الهندية الاوربية التى تضم ايضا الفرع الجرمانى وغيره .
ولكن للشعب ، كما للانسان ، اقرباء من غير اسرته ايضا . لقد كان الشعب الروسى القديم يضم يوما فى قوامه عددا كبيرا من القبائل الفنلندية فى الشمال ، والتركية فى الجنوب ، والبلطية (انسباء اللاتفيين والليتوانيين) فى الغرب . ولكن اصل الروس والاوكرائيين والبيلوروس يرجع الى الروسيتشيين القدماء ، اى انهم ورثوا نسبهم .

وكل الناس اقرباء فى نهاية المطاف .

تذكروا : منذ عشرات الالوف من السنين ، او منذ مئات قليلة من آلاف السنين كحد اقصى ، كانت حفنة من المخلوقات ، التى اختارها قانون الارتقاء الذى لا يرحم لتتحول الى «هومو سابيينس» ، اى «اناس عاقلين» ، تضم فى ذاتها اسلاف كل شعوب العالم من اقزام افريقيا الوسطى الى الاسكيمو الغرينلانديين . كلنا اخلاف اسلاف مشتركين ، وبالتالى . . . ولكن ليس كل الاقرباء ككل الاقرباء ، ولا يقتصر الامر على درجة القربى . فالقربى نفسها يمكن ان تكون متباينة .

لننظر الى البشكيريين اياهم . انهم يدخلون فى الفرع التركى من الاسرة اللغوية الالطائية (كما يدخل الروس فى الفرع السلافى من الاسرة الهندية الاوربية) .

فمن هم اشقاء البشكيريين باللغة (ننوه - باللغة بالذات) ؟

انهم التتر والكازاخيون المجاورون والاذربيجانيون البعيدون والياقوتيون الابعد . . . يمكن الاستمرار بهذه القائمة ، كما سبق ورأيتم ، ولكن ما يهمنا الآن هو القربى من الاذربيجانيين والياقوتيين بالذات . وفحوى الامر اننا لو نظرنا الى البشكيرى «العادى» والياقوتى «العادى» والاذربيجانى «العادى» لما كان فى وسعنا الا ان نعجب لانعدام التشابه الخارجى بين الانسباء القريبين .

لا جدال فى القربى بين اللغات ، اما الناطقون بها -

وهذا واضح من النظرة الاولى ، فلا يمكن ابدا ان يكونوا انسباء قريبين بالدم .

اذا اعتبرنا القربى باللغة ، فغالبا ما يكون الاخوة مختلفين من حيث المظهر الخارجى . واذا نظرنا ، بالعكس ، الى وجوه الناس وقاماتهم فقط ، ضامين ذوى الوجنتين البارزتين الى ذوى الوجنتين البارزتين ، والشقر الى الشقر ، ومعقوفى الانف ذوى الشعر الاسود الى معقوفى الانف ذوى الشعر الاسود والى آخره ، يتبين فجأة ان هؤلاء الاخوة لا يستطيعون التفاهم ابدا لعدم وجود لغة مشتركة بينهم .

وباختصار ، ليست كل قرابة ككل قرابة ، ولا يجوز خلط التشابه فى المظهر الخارجى بالتشابه فى اللغة .

ولهذا امثلة معبرة . يرتبط زنوج الولايات المتحدة الاميركية من حيث الدم بالافارقة ذوى البشرة السوداء الذين يتحدرون منهم ، ولكنهم يتكلمون بالانكليزية ، باللغة نفسها التى يتكلم بها الاميركيون «البيض» ، وكذلك الانكليز والكنديون الناطقون بالانكليزية والاستراليون الناطقون بالانكليزية . . . وللزنوج الاميركيين ، شأن «البيض» الاميركيين ، «اخوة باللغة» ، وهم الشعوب الناطقة بلغات الفرع الجرمانى من الاسرة الهندية الاوربية ، اى الالمان والسويديون والدانماركيون وغيرهم .

والهنود المكسيكيون ، الذين يتكلم عدد منهم باللغة الاسبانية فقط ، يصبحون على هذا النحو افرادا للفرع الرومانى من الاسرة الهندية الاوربية نفسها ، و«اخوانا باللغة» للفرنسيين والايطاليين . وسكان جمهورية هايتى يتكونون اساسا من اخلاف الزنوج الافارقة ، ولكنهم يتكلمون بالفرنسية . ويمكن ايراد حالات كثيرة كهذه . فلكوكبنا تاريخ معقد وعاصف ، وفى هذا التاريخ تجولت الشعوب ولغاتها غير مرة .

ليس من النادر ان يشير التشابه فى المظهر الخارجى الى القربى ، ولكن القربى بالدم . وليس مصادفة ان يشبه الياقوتيون البورياتيين . وكما يعتبر العلماء ، فقد كان فى

عداد اسلاف الشعب الياقوتى اناس انطلقوا يوما من المناطق البورياتية الحالية عند بايكال الى الشمال ، الى حوض نهر لينا العظيم . والتشابه بين البشكيريين وتتر الفولغا ليس من قبيل المصادفة ايضا . فلدى هذين الشعبين الكثير من الاسلاف المشتركين .

من المحتمل جدا وجود نسب بالدم ، قريب او بعيد ، بين البشكيريين وكل الشعوب التى تتجلى آثارها فى تسمياتهم العشائرية – القبلية . وفى راى الانتروبولوجيين ، ان البشكيريين باغلبهم يشبهون بشكل خاص من حيث المظهر الخارجى التتر القاطنين فى ضفاف الفولغا والاودمورتيين والماريين .

ولكن الصلات اللغوية تدرج البشكيريين بثبات فى عداد الشعوب التركية ، وبهذا تقربهم الى التتر ، الاتراك ايضا ، ولكنها تفصلهم عن الاودمورتيين والماريين الناطقين بالفنلندية ، كما تفصلهم عن الهنغاريين والهنديين الاوربيين .

يمكن احيانا تتبع قرابة الدم القديمة بين الشعوب الى عهد بعيد للغاية . و«يحدث» العلماء بها ممثلو هذه الشعوب – الاحياء والاموات .

ان كلا منا ، نحن الاحياء ، مساهم فى اضخم سباق للبدل يجرى فيه تناقل الارث البيولوجى الكبير من الاسلاف الى الاخلاف . ان الابوين عادة يكتشفان فى الطفل بسهولة وسرعة جبين الاب وعينى الجدة وشفتى الام وحاجبى الجد . مع العلم انهما غالبا ما يكونان مصيبين . اذ ان كلا منا (لا «الانسان اجمالا» كشىء مجرد فقط) هو «ذروة للخليقة» وحلقة جديدة فى سلم الارتقاء . وكل واحد من الناس الذين اصبح عددهم خمسة مليارات يؤدى واجبات حفظ ما خلفته فى كيانه اجيال سابقة لا عد لها .

من شكل الجمجمة وصورة الشفتين ودرجة بروز الانف ، ومن سعة الوجه وحجم الشفتين ومئات السمات الاخرى يجد الانتروبولوجيون مكان الانسان المعنى فى تعاقب الاجيال الذى يسمونه احيانا بالنمط الانتروبولوجى .

ونعرف من رفات الناس التى يعثر عليها لدى الحفريات كيف كان مظهرهم . ولكن مظهرهم هذا لم يكن عرضيا ، بل يحتمه التاريخ دوما . ومن مظهر الاخلاف ، الذين يعيشون اليوم او الذين عاشوا منذ الوف السنين ، يمكن معرفة الكثير عن مظهر اسلافهم الخارجى .

كم هو عمر الشعوب

نحن نعرف اثنوسات (اثنيكوسات) يعود نشوؤها الى عهود الرق ، مثل الارمن والجورجيين والصينيين . ونعرف اثنيكوسات ظهرت فى القرن العشرين . وبالمناسبة ، لا يوجد اى اثنيكوس له من العمر اكثر من اربعين قرنا . اما الانسان بمظهره الحالى ، الانسان على شكل «الهومو سيابيينس» ، فقد ظهر منذ اربعين الف سنة ، اى اربعمئة قرن ، على الاقل . وثمة ، على ما يظهر ، مسوغات كافية لاعتبار ان الاثنوسات ، او بالاحرى الاثنيكوسات ، قد ظهرت منذ عشرات الالوف من السنين . ويرى علماء الآثار ان الادوات ومواد المعيشة ، التى عثر عليها فى شتى المناطق ، تختلف عن بعضها البعض . ومن شأننا اليوم ان نسمى هذه الاختلافات باختلافات سلالية . يشير عالم الآثار المعروف فورموزوف الى بعض المناطق السلالية الثقافية فى اوربا الشرقية فى عصر الميزوليت . وقد كان سكان هذه المناطق يستطيعون تماما التكلم بلغات مختلفة .

ان منطقة توزع المخلوقات البشرية وما قبل البشرية كانت منذ مئات الوف السنين اكبر من ان يمكن المحافظة فيه على لغة واحدة ، حسب القوانين اللغوية التى نعرفها . ولعل من شأن التقسيم السلالى ان يكون اقوى بكثير مما هو عليه الآن نظرا للتشتت الاشد بين مختلف مجموعات الناس التى كانت تمارس القنص وجمع النباتات .

ولكن لا بد من الحذر : اذ لا يجوز اعتبار المنطقة الكبيرة ذات الثقافة الآثارية المتجانسة مكانا لاقامة رابطة سلالية

واحدة قديمة . ففى تلك الظروف لا يمكن بشكل من الاشكال لسكان مئات الالوف من الكيلومترات المربعة ان يعوا انفسهم كلا واحدا . وليس بالضرورة ان يتكلم الناس الذين عاشوا فى هذه الاراضى الشاسعة بلغات متقاربة .

ان القبيلة هى اول اتحاد للناس من حيث الزمن يحمل فى ذاته وحدة داخلية لنمط الحياة وينطبق عليه تعريف الاثنوس . ومسألة ظهور القبيلة وتكونها تنطوى على تاريخ طويل ، وهى تناقش على نطاق واسع وتحفل بتباين كبير فى المواقف . وقد طرحت مؤخرا فرضية تقول بان ولادة اشكال الاثنوجينيز الاولى قد جرت فى العصر الحجرى القديم الاول ، اى منذ اكثر من ٢٠٠ الف سنة . وتأكيدا لهذا يستشهد عادة باختلاف الآثار الانتروبولوجية المتجاورة فى ذلك العصر ، حيث تعتبر هذه الاختلافات اساسا كافيا لافتراض ان مجموعات الناس القدماء كانت تعى تفردها الثقافى . ولكن فى ضوء المعطيات الارخيولوجية المعاصرة يبدو اكثر وجاهة الرأى القائل بان الاختلافات الثقافية بين قطعان الارخانتروبيين المتجاورة كانت غامضة للغاية . وكما يشير بحق الباحثون من انصار وجهة النظر هذه ، فان اشكال النشاط كانت متجانسة والانتاج المادى غير متطور الى درجة يستحيل معها ظهور مجموعات كاملة من الاختلافات بين تجمعات الارخانتروبيين . ومن الجوهرى والمؤكد علميا بصورة كافية واقع ان الاختلافات المحلية التى كانت موجودة فى الثقافة البدائية ، بما فى ذلك فى الاشارات النطقية للقطعان البشرية ، وفى بواكير نشاطها اللغوى كانت اختلافات فى التفاصيل ولم تكن قد تكونت بعد فى مجموعات ثابتة لاختلافات واضحة الحدود . وقد ادرجت فى ميدان التواصل اللغوى والثقافى ، وهذا التواصل الثقافى نفسه يلغى بحد ذاته مسألة امكان التقسيم السلالى الراسخ بصورة كافية فى ذلك العهد البعيد . وهذا الاستنتاج وجيه جدا ، فى رأينا . وبالتالى فان اقصى ما يمكن التسليم به هو انه كانت توجد لدى الارخانتروبيين نظائر (نماذج اولى) غير ثابتة وغير

متبلورة بالمرة للروابط السلالية التى يمكن تسميتها باثنوسات اولية .

ان الخطوات اللاحقة فى تطور البشرية مع ظهور الباليوانتروبيين – النياندرتاليين (العصر الحجرى القديم المتوسط ، منذ ٢٠٠–٤٠ الف سنة) ترمز الى تحولات ملحوظة فى ميدان الثقافة : تطور ادوات العمل ، ابتكار المسكن ، ظهور اولى التصورات الجمالية والدينية . وهذه التغيرات اقترنت باتساع هام لمنطقة سكنى الناس ، واقترنت فى الوقت نفسه بزيادة تنوع الاشكال المحلية للوعى الذاتى البدائى .

انطوى ظهور النظام العشائرى ونشوء القبائل على مغزى كبير بالنسبة الى تقدم البشرية اللاحق لا من الناحية الاجتماعية فحسب ، بل من الناحية الثقافية السلالية ايضا .

تنظر الادبيات العلمية عادة الى القبائل بالذات بمثابة وحدة سلالية اساسية للمجتمع البدائى . بيد انه لم يعد من النادر فى المدة الاخيرة التشكيك فى وجهة النظر هذه . وينتشر على نطاق واسع فى المراجع الاجنبية رأى يقول بان القبيلة ظاهرة اجتماعية «ثانوية» تظهر فى المراحل المتأخرة من التطور الاجتماعى فى ظروف تاريخية خاصة . وفى السنوات الاخيرة صار يصادف فى ادبياتنا العلمية ايضا تصور حول ظهور القبيلة فى وقت متأخر نسبيا .

تتسم الحياة الداخلية للقبيلة ببروز وظائف السلطة . وقد وجه انجلس اهتمامه الى هذا الواقع الذى اقرته الاثنوغرافيا على نطاق واسع . وكان من بين ما اشار اليه بشكل خاص انه يوجد عند القبائل – كظرف جوهرى – قائد او زعيم اعلى واجتماع عام ومجلس للشيوخ وما شابه ذلك . وفى رأى انجلس ان القبيلة تتسم كذلك برابطة لهجة معينة ، وبتصورات دينية عامة (ميثولوجيا) ، وبشعائر وتسمية خاصة . ولكن لا بد من التنويه بان الحديث فى هذه الحالة يجرى عن قبائل المجتمع البدائى المتطور ، اذ ان اسم القبيلة يطلق ايضا فى الادبيات الاثنوغرافية على الروابط

التى لا تتمتع بتلك الخاصية للبنى الاجتماعية ، اى السلطة .
فمتى ظهرت القبائل – الاثنوسات الاولية ؟ فى صدد هذا السؤال اخذت تلفت النظر فى المدة الاخيرة معطيات تشهد على انه كانت تستخدم منذ العصر الحجرى القديم المتوسط مختلف اصناف الادوات فى اطار منطقة واسعة واحدة . وهذا الظرف الاخير اعطى الاساس لاستنتاج ان سكان المحطات ذوى نمط الادوات الواحد كانوا يشكلون وحدات سلالية ثقافية من نوع خاص ، «ما قبل القبائل» .

ثمة الكثير من الثقافات الارخيولوجية الاقليمية المحددة بوضوح كاف التى وصلت الينا من العصر الحجرى القديم المتاخر ، مثل ثقافات كريب وفيليندورف وبافلوفو فى اوربا الوسطى ومجموعة الآثار من نمط بارياليو فى اسبانيا ، الخ . ويبدو ان مما يستحق الاهتمام فى هذا الصدد الرأى القائل بان كلا من هذه الثقافات ربما كان ينتمى الى رابطة سلالية واحدة ، هى القبيلة ، لان اراضى مثل هذه الثقافة (التى يبلغ قطرها ٥٠–١٥٠ كم) كبيرة جدا بالنسبة الى المشاعية .

ان الموضوعة التى يذود عنها عدد من الباحثين والقائلة بانه كان يوجد فى تلك الفترة زواج عشائرى مزدوج الى جانب تحريم الزواج الداخلى يمكن ان تشكل حجة عامة هامة فى مصلحة ظهور القبائل فى عهد الانتقال الى العصر الحجرى القديم المتاخر . فوجود نظام الزواج هذا يقترن بظهور القبائل .

ثمة تصورات عامة واكثر عمقا فى صدد القضية موضوع البحث ترتبط بالبرهان على واقع انه جرى فى الفترة نفسها انتقال الناس الى نمط حياة حضرى نسبيا . وهذا الاستقرار الذى اقتضاه صيد الحيوانات الكبيرة وفر امكان ظهور الزواج العشائرى المزدوج . وفى غضون ذلك يلفت النظر – نظرنا على الاقل – الرأى القائل بان المسافة بين الجماعات المتجاورة فى هذه الاتحادات الثنائية يمكن تقديرها مبدئيا بقرابة ٤٠–٥٠ كم . هذا الاتحاد يجب ان يشمل مساحة قطرها ١٠٠ كم تقريبا ، اى انها قريبة بمقاييسها من المؤشرات المتوسطة

للاراضى التى امتد عليها كل من الحضارات الارخيولوجية للعصر الحجرى القديم المتاخر . وثمة اقتراح ان ينظر الى التشكيلات المشار اليها بمثابة «وحدات سلالية وحيدة» لذلك الزمن .

لدى حل مسالة الاقسام السلالية للعصور القديمة يبدو من الجوهرى مراعاة التغيرات التى طرات على الظروف الطبيعية لحياة الناس . ففى نهاية العصر الحجرى القديم المتاخر انقرض او تقلص بشدة من حيث العدد الماموث ووحيد القرن المغطى بالصوف والايل العملاق والحيوانات الضخمة الاخرى . وكان هذا ناجما على الارجح عن التغيرات المناخية ، وربما كان ناجما جزئيا عن نشاط الانسان نفسه ، وفيما بعد انقرضت الجرابيات العملاقة . ونتيجة لهذه التغيرات اضطرت القبائل الناشئة الى الانتقال الى الصيد المتنقل للحيوانات الصغيرة ، وادى هذا بدوره الى تطورات اجتماعية جوهرية .

بهذه الفترة بالذات يرتبط ، مثلا ، ظهور الجماعات الصغيرة من الصيادين وجامعى النباتات المتنقلين . وعلى الرغم من انه كان يعتبر ان كل واحدة منها كانت تضم قرابة ٢٥ شخصا عادة ، الا انها كانت تحتاج فى ظل انسب الظروف الى ما لا يقل عن ٤٠٠–٥٠٠ كم مربع من اراضى الصيد ، وكانت تحتاج فى اغلب الاحوال الى مساحة اكبر بمرتين او ثلاث . وكما اشار زميلنا اروتيونوف بحق فى هذا الصدد ، فان القبيلة المكونة من جماعات كهذه ، على الرغم من انها كانت تستطيع ان تضم ٥٠٠ شخص وسطيا ، الا انها كانت ، خلافا للوحدات السلالية المتجاورة فى العصر الحجرى القديم المتطور «مجرد وحدة لهجة وثقافة ، لا وحدة اجتماعية – اقتصادية ؛ وكانت المجموعات المحلية المنضمة اليها ذات ارتباط ضعيف ، مما جعلها سهلة التشتت والتكون من جديد واكثر تقبلا للصلات الاعلامية الخارجية» .

ان القبائل – الاثنيكوسات تتحول مع الزمن الى كيانات

سلالية اجتماعية . وكان العصر الحجرى الحديث فاصلا هاما فى هذا الخصوص .

كانت ثقافة القبائل المتجاورة فى العصر البدائى شديدة التشابه من نواح كثيرة . ولا ينطبق هذا على الوظائف النفعية للثقافة فحسب ، بل وعلى وظائفها الجمالية . ومما له دلالته فى هذا الصدد التشابـه المدهش لرسوم العصر الحجرى الحديث المتاخر التى اكتشفت على الصخور فى اراض تنفصل بينها الوف الكيلومترات . وعلى ما يبدو ، لم تكن توجد ، كقاعدة عامة ، اختلافات جوهريـة بين القبائل المتجاورة من الناحية اللغوية ايضا . وتشكل اساسا لهذا الافتراض نظرية ما يسمى بالتواصل اللغوى ، وبناء عليها تفهم كل قبيلة من قبيلتين متجاورتين لغة الاخرى . وهذا التواصل ، كما تشير الدلائل جميعها ، لـم يظهر نتيجة صلة القربى بين اللغات فحسب ، بل ونتيجة الاتصالات الحثيثة بين الناطقين بهـا وعمليات «التبادل اللغوى» .

وفى الوقت نفسه تكون لدى الاثنوسات — القبائل على امتداد الوف السنين من وجود النظام المشاعى البدائى غير قليل من الملامح الخاصة للثقافة الروحية الناشئة تميز كلا منها حتى عن اقرب الجيران اليهـا . هذه الخاصية تتجلى بوضوح ، بين امور اخرى ، فى المعتقدات الدينية ؛ وهذا ما ينطبق سواء على انواعهـا المختلفة (السحر ، الطوطمية ، الارواحية ، عبادة الاجداد ، الخ .) او على اشكال تجليها ، بما فى ذلك التصورات الدينيـة النابعة عنهـا والسلوك الدينى .

فى المجتمعات مـا قبل الطبقية ، وفى عهد الاغريق والرومان كقاعدة عامة ، كان للاديان مغزى محلى فى الغالب . كان الآلهة الذين نشأوا على هذا النحو عند كل شعب على حدة آلهة محليين ، ولم تكن سلطتهم تتجاوز حدود المنطقة الوطنية التى يحمونهـا والتى كان آلهة آخرون يحكمون على جانبها الآخر بلا منازع ، حسب وصف انجلس لديانات العالم القديم ما قبل المسيحية .

وكذلك كان الوعى السلالى لافراد الروابط القبلية فريدا للغاية . وكانت احدى خصائصه تتلخص فى انه (كما تشهد ، مثلا ، المواد المتعلقة بسكان استراليـا الاصليين) يعتبر مجموعته كشىء ارفع من كل الروابط المجاورة . وكان افراد القبيلة يفخرون حتى فى ظل العلاقات الودية بالجيران والزواج المتبادل بتميزهم عنهم ويكنّون لهم العداوة ، ويعزون اليهم احيانا تصرفات غير اخلاقيـة . وبالتالى كان من المميز لهذا العنصر الحتمى للوعى السلالى ، وهـو التعارض بين «نحن وهم» ، ادراج «نحن» فقط ، اى افراد القبيلة وحدهم ، فى عداد الناس «الحقيقيين» . وهذا ما يفسر واقع ان التسمية الذاتية لدى الكثير من الشعوب المتخلفة فى تطورها تعود من حيث اصلها الى كلمتى «الناس» او «جماعتنـا» . يصبح من النموذجى لتلك الاثنونيميكـا عدم حصر مصطلح «الانسان» بالمعنى العشائـرى العام ، بل بمعنى اضيق («انسان» او «اناس» منطقة معينة ، ذوو ملامح ثقافيـة معينة ، الخ .) .

وفى غضون ذلك يمكن لمختلف عناصر الثقافة ، بما فى ذلك الثقافة المادية ، ان تكون اساسا للاثنونيمات . وليس من النادر ان تضطلع بهذا الدور ، مثلا ، الانماط الاقتصادية — الثقافية فى الحالات التى تميز فيهـا اثنوسا عن الاثنوسات المجاورة . وهذا هو شان العديد من الاثنونيمات التى تعنى «اناس الغابة» ، «اناس الجبال» ، «اناس السهب» ، «اناس البحر» وما شابه ذلك .

وكان فى مرحلة التكـون ايضا الوعى الذاتى السلالى لافراد الروابط القبلية .

واضطلع بدور هام فى التجانس السلالى كذلك التصور الموجود عند كل قبيلة (على شكل اسطورة ، عادة) لمنشئها والعبادات المرتبطة بهذا التصور . فى مثل هذه التصورات وما يرتبط بها من تحريم الزواج الداخلى او الزواج الخارجى كان يتجلى الايمان بقرابة كل افراد القبيلة الذى كان يبرز كأهم عامل منظم . وادراك هذه القرابة بالذات كان ذلك النوع الخاص للصلات الاجتماعية الذى تجسدت فيه الرابطة الجماعية

لمصالح افراد القبيلة جميعا ، الرابطة التى اقتضتها خاصية علاقات الانتاج بالدرجة الاولى . وهذه الصلات كانت تنطوى ، طبعا ، على مغزى كبير بشكل خاص بالنسبة الى القبيلة – الاثنوس فى طور التكون ، اما بالنسبة الى القبيلة المتطورة – البنية السلالية الاجتماعية فيضطلع بدور توحيدى هام ما يلازمها من علاقات بوتيستارية ، اى تلك التى تحددها آليتا الادارة والسلطة . (ان تنوع ما يطلق عليه اليوم اسم القبيلة واسع جدا . فهو يشمل سواء اتحادات سكان استراليا الاصليين او قبائل البدو الذين يعيشون الآن فى ظروف الراسمالية رغم بقاء مخلفات الاقطاعية وحتى النظام العشائرى عندهم .)

اشار العلماء الى خاصية عامة للقبائل ، خاصية تميزها عن الروابط السلالية التالية تاريخيا ، الاقوام ، اى عينوا الخط الذى ينصل بين القبيلة والقوم : ان كل قبيلة تتكون من انسباء (حتى وان كانوا وهميين احيانا) قريبين وبعيدين وبعيدين جدا .

تنقسم القبيلة عادة الى عشائر لا يستطيع رجالها الزواج من نساء عشيرتهم ، ولكنهم ملزمون بان يتزوجوا اما من نساء اية عشيرة اخرى ، او من نساء عشيرة واحدة من العشائر الاخرى تحددها عادة صارمة مسبقا . وقد كان الهنود الديلاواريون ، الذين اعجب بهم بطل كوبر «عين الصقر» ، ينقسمون الى ثلاث عشائر : الذئب والسلحفاة والديك الرومى . وكانت سينيكا ، احدى القبائل الايروكيزية مكونة من ثماني عشائر – الدب والذئب والقندس والسلحفاة والايل والشُنْقُب والبَلَشُون والصقر . واحيانا تتحد العشائر داخل القبيلة فى بطون واخويات . والفرد فى احد البطنين ملزم بان يتزوج حتما امراة من البطن الآخر .

ومهما كان الامر ، فان القبيلة ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، اسرة ضخمة يرتبط كل افرادها فيما بينهم باواصر من القربى على هذا النحو او ذاك . وهذا لا يغلق منافذ القبيلة فى وجه افراد القبائل الاخرى ، ولكن عليهم ان يجتازوا طقوسا تعادل

التبنى حاليا . والابن بالتبنى هو اليوم ايضا على مستوى واحد مع الابن بالولادة ، من حيث الحقوق والواجبات التى تربطه بالوالدين .

وهذا ما يقوله عن حالات مماثلة العالم السوفييتى باختا فى كتابه «اوتياروا» ، حيث يتحدث عن تاريخ الماورى ، سكان نيوزيلاندا الاصليين :

«. . . فى داخل البلاد كان الباكيخاماورى ، اى الماورى ذوو الاصل الاجنبى ، الاوروبيين الوحيدين ، اذا استثنينا عدة مبشرين .

كان هؤلاء الناس اوروبيين ، ولكنهم عاشوا وسط الماورى ، ومثل الماورى ، وهذا هو الاهم . لقد قرروا بمختلف السبل – طوعا او قسرا – القطيعة مع الحضارة والاختباء فى المجاهل الموحشة للقرى الماورية . البعض ارغمتهم على هذا يد القصاص للقانون البريطانى ، والبعض ارغمتهم الخدمة القاسية فى السفن ، والبعض قادهم الى هنا الياس او ، فى حالات اغلب ، النزاع الاجتماعى الحاد مع الوسط الذى كانوا يعيشون فيه . . .

كان الغرباء يستوعبون لغة الماورى بالتدريج . . . وغطى الكثير من الباكيخاماورى وجوههم بالوشم ، واستعاضوا عن السترة والبنطال بفوطة ورداء من الكتان النيوزيلاندى ، وحتى انهم صاروا يساهمون فى غزوات «قبائلهم» الحربية» .

وكان الرحل العرب ، حسب علمنا ، لا يضمون فى قبائلهم افرادا من القبائل الاخرى فحسب ، بل يضمون ايضا مجموعات وعشائر باكملها . وكان هذا شرطا لاعلان المنضمين الجدد افرادا فى القبيلة «بالدم وبالاسم» . وعلى ابناء القبيلة الجدد ، كما هو مفروض ، ان يتزوجوا نساء من عشائر معينة فى قبيلتهم الجديدة ويتقيدوا بعاداتها الاساسية ويحاربوا معها ويصبحوا اعداء ألدة لاعداء قبيلتهم والى آخره .

وهكذا ، فان القبيلة عائلة كبرى من نوع خاص . ولكن القبيلة يمكن ان تضم عشرات الالوف من الناس . أليس هذا كثيرا جدا بالنسبة الى عائلة حتى وان كانت «كبرى» ؟ نعم ،

فى زمن السلم ايضا استقلالا متزايدا عن المجلس وسلطة متزايدة فى القبيلة . وتبدأ كل عشيرة بالتدريج تتكون لا من ارباب الاسر الكبيرة وافرادها بقدر ما تتكون من سادة وخدم ، دائنين ومدينين ، ومن ثم من اصحاب عبيد وعبيد .

وفى الوقت نفسه تجرى – الامر الهام جدا – عملية تقسيم العمل . ويغدو افراد العشيرة الواحدة فلاحين وحرفيين وتجارا ، وهذا التقسيم الجديد للقبيلة يزيح التقسيم الى عشائر ويغدو اكثر جوهرية بما لا يقاس . ويمكن للقبائل فى هذه الظروف ان تتحول الى روابط اقليمية من نوع خاص . كان ادراك وحدة القبيلة يتحقق فى السابق عن طريق احساس الفرد بمكانه فى نظام القربى . والآن بالذات تبرز فى المقام الاول ، على ما يبدو ، اللهجة الام او اللغة ونظام العادات والخصائص الثقافية التى تشد الانسان الى هذه الرابطة .

يمكن للقبائل ذات اللغة المشتركة ان تتبادل العداء . وعلى اى حال ، فان القبائل القريبة الى بعضها البعض من حيث اللغة والثقافة اخذت ، على ما يبدو ، تدرك القرابة بينها فى الطور الختامى فقط من تطور المجتمع البدائى .

ان عشرات عديدة من القبائل الجرمانية قد هاجمت فى ازمنة روما القديمة حدود الامبراطورية الرومانية . ولكنها ، كما يمكن الحكم على ذلك ، لم تكن تخمن مجرد تخمين انها «ينبغى» ان تشكل شعبا واحدا .

اما اسم الجرمانيين المشترك الذى بقى الى ايامنا فى جملة من اللغات ، ومن بينها الروسية ، فقد تلقوه ، بناء على قول المؤرخ الرومانى العظيم تاتسيت ، من جيرانهم الكيلتيين ، وقبل ذلك لم تكن عندهم تسمية مشتركة : اى انهم لم يكونوا رابطة سلالية واحدة . اذ ان هذه الرابطة تظهر حينما يبدأ الناس الذين يتكلمون بلغة واحدة ويشغلون اراضى واحدة يدركون وحدتهم . والقبائل التى تتكلم بلغة واحدة تبقى قبل ان تدرك هذا اثنوسات منفصلة .

صار المحراث يقلب المزيد والمزيد من التربة فى القارات

جميعا . وفى الاماكن التى لم يزرع فيها القمح او الشعير او السرغو ، اصبح مربو الماشية يحلّون مكان الصيادين وجامعى النباتات . ان السكان فى اراضى فرنسا الحالية ، مثلا ، ازدادوا ، وفق بعض التقديرات ، الف مرة نتيجة هذه الثورة المسماة بثورة العصر الحجرى الجديد ، اى الانتقال الى الاقتصاد المنتج . لقد كانت قبائل الصيادين وجامعى النباتات قليلة الافراد رغم انفها ، اذ كانت تمارس حياتها الاقتصادية فى اراض شاسعة بحيث انه لم تكن سوى مجموعات متقاربة نسبيا تستطيع المحافظة على الصلة فيما بينها . ومع استيطان اراض جديدة لم تنم القبائل عدديا بقدر ما كانت تتجزأ من جديد وجديد . وبتطور الزراعة وتربية المواشى صارت القبائل اكثر نفرا واغنى .

بيد ان هذا جعلها اقل مناعة : لم يكن عند الصيادين وجامعى النباتات شىء تقريبا يستطيع ان ياخذه العدو ، اما المزارعون ومربو المواشى فكان عندهم ما يفقدونه . ان النزاعات بين قبائل الصيادين وجامعى النباتات كانت تجرى لاسباب مختلفة ، ولكن الحروب كانت تبدأ بسبب الاراضى من حيث الاساس . والانتصار على الاعداء فى المجتمع الاكثر تطورا كان يعطى غنيمة اكبر تضم المهزومين الذين كانوا يحولون الى عبيد او دافعى اتاوات . واصبحت حتى اقوى القبائل واكثرها تماسكا عاجزة فى اغلب الاحوال عن ان تخوض لوحدها حربا هجومية او تحمى نفسها من الهجوم . صارت الظروف الموضوعية تدفعها نحو بعضها البعض . فظهرت تحالفات القبائل . كتب انجلس الذى درس ذلك العصر التاريخى خصيصا ان «كثافة السكان المتعاظمة ترغم على تراص اوثق سواء فى الداخل ، او ازاء العالم الخارجى . ان تحالف القبائل ذات القربى يصبح ضرورة فى كل مكان ، بل يغدو اندماجها ضروريا . . .» (كارل ماركس ، فريدريك انجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ١٦٩) .

قد تظهر تحالفات القبائل فى ازمنة تاريخية مختلفة ، ولكن على مستوى واحد مبدئيا من التطور الاجتماعى ، فى مرحلة

تفكك نظام المشاعية البدائي ، مشكلة عنصرا هاما له .

ان الاسقوثيين ، الذين سكنوا في مساحة شاسعة من جنوب اوربا الشرقية وفي جزء كبير من الاراضي المتاخمة في آسيا منذ الفي سنة تقريبا ، كانوا يشكلون تحالف قبائل بالذات تشغل فيه احدى القبائل (اسمى هيرودوت هذه القبيلة «الاسقوثيين الملكيين») وضعا مسيطرا . وكانت القدرة المشتركة لتحالف القبائل الاسقوثي كبيرة الى درجة انه انتصر في الحرب على احد الحكام الاقوياء في العصور القديمة ، وهو الملك الفارسي داري الذي كانت تمتد ممتلكاته من بحر ايجه الى بامير .

وكذلك نجد في القرون الاولى بعد الميلاد ان السكسون ، الذين تحتفظ سكسونيا في المانيا باسمهم حتى الآن والذين يشار الى صلة الاميركيين والانكليز الحاليين بهم حينما يقال عن هؤلاء واولئك انهم انكلو-سكسون ، لم يكونوا قبيلة ، بل تحالف قبائل . ويكتب المؤرخون عن الهون باعتبارهم شعبا مستقلا ، مدققين ان اتيلا كان رئيس تحالف قبائل الهون الذي كان يضم الاتراك القادمين من آسيا ، والالمان والسلاقيين والكيلتيين والاوغريين .

وحينما حارب يوليوس قيصر الغال ، كانت تلك الحرب من حيث الجوهر ضد تحالف عدة قبائل كيلتية .

في القرن السادس عشر تكون عند الهنود البرازيليين ، الذين كانوا يناضلون ضد المحتلين البرتغاليين ، تحالف ضم قبيلتي التوبينامبا والغايتاكيين وبعض القبائل الاخرى . واطلق التحالف على نفسه اسما يطفح بالاعتزاز : اسياد الارض .

وفي اميركا الشمالية تشكل قبل قدوم المستوطنين الاوربيين مباشرة تحالف من ستة قبائل جبارة ذات قربى : الموغاوكيون والسينيكا والكايوغا والاونونداغا والاونيدا والتوسكارورا . وكان المبادر اليه غايافاتا الاسطوري نفسه ، قائد الموغاوكيين الذي نظمت عنه «اغنية غايافاتا» الشهيرة . وقد اشتهر هذا التحالف باسم رابطة الاروكيزيين .

وعند بدو شمال شبه جزيرة العرب بقيت مجموعات «القبائل الشقيقة» حتى اوائل القرن العشرين .

على اساس تحالف القبائل ، وعند اندماجها ، يظهر القوم ، الطور التاريخي التالي للاثنوس . وطبيعي ان تشكل القوم يجري بسرعة اشد بكثير حينما تكون في التحالف قبائل ذات قربى تتكلم بلغة واحدة . وهذه العملية لتحول القبائل الى قوم تجري بسرعة خاصة ، حينما تساعد على هذا دولة ظهرت ، فهي تمهد لرابطة المصالح الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من المصالح للقبائل المتقاربة ، وتسبغ على تحالفها شكلا راسخا .

ان انتاج الخيرات المادية هو في نهاية المطاف العامل الحاسم للتغيرات بالنسبة الى الكيانات السلالية ، كما بالنسبة الى الانواع الاخرى من التشكيلات الاجتماعية . ويشكل انتاجها جانبا هاما من التعاقب السلالي ، لانها تندرج في ثقافة الشعب الجديدة باعتبارها خصائصها السلالية الجديدة ، ويتجلى هذا على نحو خاص في المراحل المبكرة للتطور التاريخي الاجتماعي . وكلما ارتفع مستوى تطور الانتاج والمجتمع انخفضت الخاصية السلالية في الثقافة المادية .

ان اعادة انتاج الخيرات المادية يقترن عادة ، كاتجاه تاريخي ثابت ، بالتقدم العلمي ، مما يؤدي لا محالة الى تغيرات في مجالات الثقافة المادية الاخرى وفي الثقافة الروحية .

والتأثير الاساسي للقوى المنتجة ، ومن بينها وسائل الانتاج ، في الاثنوس ، كرابطة اجتماعية ، لا يجري بصورة مباشرة ، بل بصورة غير مباشرة ، عبر علاقات الانتاج ، اي العلاقات بين الناس في عملية انتاج وتوزيع الخيرات المادية . وبالنسبة الى مادتنا من الهام قبل كل شيء التأثير عبر الصلات الاقتصادية التي يحتم ضرورتها تعمق تقسيم العمل سواء على اساس مهني او على اساس اقليمي . وتطور هذه الصلات في اراض معينة يتطلب تكامل الثقافة (ولا سيما اللغة) ، ويساعد على هذا التكامل .

مع ظهور علاقات الانتاج الجديدة فى المجتمعات الطبقية المبكرة تباشر الصلات الاقتصادية (مع انها فى البداية ضعيفة التطور نسبيا) الاضطلاع بدور ملحوظ اكثر فى العمليات السلالية . وهـذه الصلات مهدت – الامر الـذى ينطوى على اهمية بالنسبة الينا – لتشكل كيانات سلالية اساسية مغايرة على نحو جوهرى لذلك العصر ، وهى الاقوام ، مساعدة على التقريب الاقتصادى – الثقافى بين المجموعات السلالية التى تكون منها كل قوم من الاقوام ، وعلى نشوء ملامح مشتركة لديها .

ان نمو الصلات الاقتصادية مع نشوء الرأسمالية يؤدى الى تعاظم دورها بشدة فى العمليات السلالية . وانعكس هذا قبل كل شيء على تشكل بنى سلالية اجتماعية ، مثل الامم . وقد نوه لينين بهذا الواقع على نحو خاص ، مبيّنا انطلاقا من مثال تكون الامة الروسية ما ينطوى عليه من مغزى بالنسبة الى عملية التراص القومى التبادل بين المناطق الذى يتزايد فى فترة جينيزيس الراسمالية والتداول البضاعى الذى ينمو بالتدريج واندماج الاسواق المحلية الصغيرة فى سوق وطنية واحدة . واذ يكشف لينين جوهر عملية نشوء الامم اشار الى انه لما كان الراسماليون قادة واسياد هذه العملية ، فان اقامة هذه الصلات القوميـة لم تكن غير اقامـة للصلات البرجوازية .

ان البناء التحتى الاقتصادى – الاجتماعى وعلاقات الانتاج لا تؤثر ، طبعا ، فى الاثنوس منذ لحظة تفكك النظام البدائى فقط . فمع تكون الحضارات القديمة يبدأ هذا التأثير يتحقق كذلك من خلال التقسيم الطبقى للمجتمـع الملائم لاسلوب الانتاج الجديد .

لدى وصف تاثير كل من الطبقات فى الظواهر السلالية ليس من النادر ان تقتصر الادبيات التاريخية – الاثنوغرافية الغربية على الاشارة الى دور الطبقات والشرائح السائدة فى نشوء الاقوام والامم . اما فـى الواقع فان نشاط الجماهير الشعبية هو الحاسم فى نهايـة المطاف بالنسبة الى نشوء

الاثنوسات وديناميتها اللاحقة فى كل مراحل التطور الاجتماعى . مع العلم ان اهميتها لا تقتصر على انها هى بالذات التى تخلق الخيرات المادية ، اذ لا ينبغى نسيان ابداع الجماهير الشعبية فى مجال الثقافة الروحية : المعارف المكتسبة ، النتاج الفنى ، المعايير الخلقية ، العادات الخ . وينبغى التنويه على نحو خاص بان الجماهير الشعبية بالذات هى المبدعة الرئيسية لاهم سمة سلالية ، للغة .

تمارس الجماهير الشعبية تاثيرا معينا فى الاثنوسات من خلال مجال السياسة ايضا . ونضال الشغيلة الطبقى على امتداد كل تاريخ التشكيلات المتناحرة كبح الى درجة معينة هجوم الطبقات السائدة الذى هدد غير مرة مجرد التجدد البسيط للاثنوس .

ولن ننسى ايضا اهمية مساهمة الجماهير الشعبية فى النضال ضد شتى انواع المعتدين بالنسبة الى بقاء الكثير ، ان لم نقل الغالبية ، من الروابط السلالية الموجودة حاليا .

الدولة – حدود الدولة – الاثنوس

خطرت على بال ملك النروج هوكون ، كما جاء فى مسرحية هنريك ايبسين «مم صنع الملوك» ، فكرة ملكية عظيمة . لقد اكتشف ان على ممثلى كل الاتحادات العشائرية القبلية النروجية فى كل ارجاء البلاد ان يصبحوا نروجيين مجرد نروجييـن . ويعظه الدوم سكولى ، منافسه وحموه : «يجب ان تعمـل القبيلة ضد القبيلة ، والمطامع ضد المطامع ، والمدينة ضد المدينة ، والعشيرة ضد العشيرة ، عندئذ يغدو الملك قوة . ان كل قرية وكل عشيرة يجب ان تحتاج الى العرش او تهابه» . ولكن هوكون يجيب : «كانت النروج دولة ، وستصبح شعبا . كان قوم تريندير يعمل ضد فيكفيرينغ ، واغديفرينغ ضد خوردالينديننغ ، وخولوغاليندينغ ضد سوغنديول ، ومن الآن يجب ان يتحد الجميع ويدركوا انهم يشكلون كلا واحدا» .

اليوم قد يبدو هذا شيئا مفروغا منه . ولكن فى اوائل

القرون الوسطى ، العصر الذى كانت لا تزال فيه وفرة من مخلفات المجتمع العشائرى ، كان يمكن اعتبار هذه الفكرة عظيمة بالفعل .

اشار انجلس باحكام شديد الى انه فى عهد نشوء الاقطاعية صارت ترتبط بكل الشعوب الكبيرة تقريبا دول اسستها الفئة المسيطرة لدى هذه الشعوب . وهذا ما ينطبق على شعوب افريقيا واوروبا وآسيا واميركا ، اى حيثما يبلغ التطور الاجتماعى للمجتمع واستقطابه الطبقى الدرجة المطلوبة . وطالما ان الدول قد ظهرت ، فانها تمارس تأثيرا كبيرا للغاية فى تطور الشعوب اللاحق .

ينبغى التنويه قبل كل شىء بانه لما كانت الدولة تظهر حينما يكون تطور المجتمع قد قطع شوطا بعيدا ، فليس من النادر الا تستطيع القبائل المجاورة لها والتى لا تملك مثل هذا الجهاز الجبار للاضطهاد والحرب الصمود امام ضغطها . فبعد الحروب او نتيجة التهديد بها او عن طريق الانتشار السلمى نسبيا للنفوذ الاقتصادى والثقافى يندرج الجيران الضعفاء فى بنية الدولة الناشئة ، اذا لم تحُل دون ذلك بشكل حازم الظروف التاريخية والجغرافية الملموسة . وتتحول الدول فى امد تاريخى قصير الى دولة متعددة القوميات (اذا لم تنشأ بهذه الصفة فورا) .

يمكن ايراد العديد من الامثلة على ذلك . فى اراضى فرنسا فى القرن الخامس عشر كان يوجد ، كما يفترض المؤرخون ، اثنوسان كبيران على الاقل : الاثنوس الفرنسى الشمالى والاثنوس الفرنسى الجنوبى . كان سكان بروفانس فى الجنوب يتكلمون بلغة تختلف اختلافا شديدا عن لغة الباريسيين او سكان بورغوندى فى شمال شرقى البلاد . وعلاوة على ذلك ، كان يعيش فى غرب فرنسا البريتانيون الذين يستخدمون لغتهم العائدة الى الفرع الكيلتى ، لا اللاتينى ، من الاسرة الهندية الاوربية . وفى الجنوب كان يعيش الباسكيون ايضا ... وقد «اخضعت» الدولة الاقطاعية كل هذه الروابط السلالية .

فى الاراضى التى يسكنها الالمان لم توجد طويلا دولة واحدة للشعب بأسره . ان الامبراطورية الرومانية المقدسة قد فرقتها ، رغم تسميتها المهيبة ، الاصطدامات الاقطاعية سواء بين ملوكها ، الكبار والصغار ، او بينهم وبين الملوك المجاورين ، وقسمت الى اجزاء اكثر استقلالا عن السلطة المركزية من الكونتيات والدوقيات الفرنسية الى حد بعيد . ومع ذلك كانت تضم فى بنيتها كذلك اراضى سلافية وايطالية وهنغارية وهولندية وفلامندية وغيرها .

وكانت بولندا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر تضم الاراضى الليتوانية واللاتفية فى الشمال ، والاراضى البيلوروسية والاوكرانية فى الشرق .

ولم تكن روسيا كييف فى الفترة من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر تقتصر على الاراضى التى كان يعيش فيها السلافيون الشرقيون . ان التشود والفيس والقبائل الفنلندية الاخرى فى شمال اوروبا الشرقية وشمال شرقيها ، وعددا من الليتوانيين واللاتفيين والاستونيين فى الشمال الغربى وما لا يحصى من قبائل الرحل التركية «المسالمة» فى جنوب روسيا كييف كانوا يعترفون بسلطة امراء آل ديوريكوفيتش ، وكان المحاربون من هذه القبائل يقاتلون تحت قيادة الامراء الروس سواء ضد اعداء روسيا المشتركين او فى الحروب الداخلية زمن الشقاقات الاقطاعية .

ويمكن القول ان تحول كل دولة قوية تقريبا بسرعة او بالتدريج الى دولة متعددة القوميات هو قاعدة لا شذوذ . وقد جرت هذه العملية بقوة كبيرة فى كل ارجاء الدنيا ، حيثما ظهرت الدولة .

فى الدولة التى شملها نظام واحد للسلطة بدأت ايضا عمليات ادت الى اندماج شعوب مختلفة فى شعب واحد .

تعالوا نتبين ، مثلا ، لماذا اصبح شعب كيتشوا ، الذى كان منذ ستة قرون اكبر شعب هندى فى العالم الجديد قليل العدد للغاية . ان تاريخه مميز ، ولا سيما ان الدولة الواحدة

الكبيرة ، التى سادوا فيها ، لم تبق الا فترة قصيرة جدا وانقرضت منذ اكثر من اربعة قرون .

لقد ارست قبائل كيتشوا فى مستهل القرن الخامس عشر الاساس لتشكيل الدولة الاينكية ، وقد كان الاينكيون المشهورون مجرد قبيلة من القبائل التى تتكلم بلغة الكيتشوا . (وبالمناسبة ، لعل الاينكيين الاوائل انفسهم كانوا يتكلمون بلغة اخرى ، ولكن ما يهمنا هنا بالدرجة الاولى انهم نشروا مع ذلك لغة الكيتشوا ، كحافز جبار على الوحدة السلالية) .

ان دولة الاينكيين هى من اغرب الكيانات السياسية المعروفة للمؤرخين . وربما كانت لهذا السبب تثير اكثر التقديرات تضاربا عند علماء القرن العشرين . احكموا بانفسكم . من جهة ، افترض بعض الباحثين انه لم يكن يوجد جياع فى الدولة ، اذ كان المواطنون جميعا ملزمون بالعمل ، واذا حدث محل تضمن لهم احتياطيات الدولة الغذاء . وكل مواطن يبلغ الخمسين من العمر يحق له ما يشبه الضمان التقاعدى . ولم يكن يوجد عبيد تقريبا : لم يكن سكان المناطق المفتوحة ، كقاعدة عامة ، يحولون الى عبيد ، بل كانوا ينالون على الفور كل حقوق مواطنى الامبراطورية «القدماء» . وفى غضون ذلك كانوا يحاولون اراقة اقل ما يمكن من الدماء فى الحروب ، معتبرين الاعداء الحاليين لقائد الاينكى بمثابة رعايا مقبلين .

اقترح علماء كثيرون الانتباه الى ان كل مشاعية ريفية هى من حيث الجوهر «عبد جماعى» للحكام ، وان القوانين القاسية كانت تجرد من الحرية الشخصية كل السكان عمليا ، باستثناء حفنة من قمة الوجهاء ، وان الدولة كانت تخوض حروب غزو لا تنتهى الخ .

تطلق على الامبراطورية الاينكية احيانا نعوت على غرار تلك التى تصفها بانها امبراطورية «فاشية» . اشار المؤرخ السوفييتى المختص فى الحضارات المبكرة بيريوزكين الى انه ربما كان ثمة ما يستحق طرح سؤال حول ما اذا كان تشكيل هذه الدولة قد حمل طابعا تقدميا من حيث المبدأ . هذا

التصريح يحدث انطباعا قويا بشكل خاص اذا تذكرنا الضحايا البشرية الغفيرة التى يقترن بها اجمالا ظهور الدول الطبقية المبكرة الاولى التى يبدو وكانما لا احد يشك فى تقدمية نشوئها .

بيد ان اغلب الاختصاصيين متفقون على انه كانت تقترن فى الدولة الانيكية على نحو عجيب السمات المميزة للمجتمع العشائرى ، غير الطبقى ، ولدولة الرق مع عناصر النظام الاقطاعى .

ان التوسع الجامح للدولة ساعد على جمع ما لا يمكن جمعه . واذا كان تحول روما الى امبراطورية اقتضى اربعة او خمسة قرون على الاقل من الحروب المتواصلة ، فان الدولة الانيكية شغلت اراضيها الشاسعة فى اقل من قرن .

هذا فى حين ان الظروف الجغرافية لهذه الاراضى ، التى شملت بيرو واكوادور وبوليفيا الحالية ، وشملت جزئيا تشيلى والارجنتين والبرازيل ، قد عرقلت نمو الدولة اكثر مما ساعدت عليه . ولا يسعنا الا الاعتراف بان هذا النجاح لسياسة الاينكيين كان مدهشا . اذ كان عليهم ان يخوضوا الصراع ضد قبائل تحميها ، علاوة على شجاعتها ، جبال يستحيل اجتيازها تقريبا ، ويحميها فى حالات ليست بالنادرة مناخ غير مألوف للغزاة .

هذا النجاح يمكن تفسيره ، بين امور اخرى ، بسياسة الحكام الاينكيين المدروسة جيدا . كانوا يسعون الى ان يدمجوا المهزومين باسرع وقت ممكن ويجعلوهم جزءا من شعبهم ، والا يبيدوا ، بل يمتصوا ويذيبوا فى الاينكيين - الكيتشوا الشعوب الكبيرة والصغيرة فى التخوم التى كانت تبتعد عن المركز مع نجاحات الدولة .

كانت ترسل الى المناطق عقب الاستيلاء عليها مباشرة وحدات عسكرية خاصة تنظم نمط الانتاج والمعيشة الواحد بالنسبة الى الامبراطورية فى الاراضى التى تم اخضاعها .

يقول اول القوانين الاينكية ، كما تشير الكتابات التى

دونت فى اواخر القرن السادس عشر : «يجب على كل رعايا امبراطورية الاينكيين ان يتكلموا بلغة واحدة» .

ولتحقيق هذا طبق نظامان (يسعيان ، بالمناسبة ، الى اهداف اخرى ايضا) . وقد رمز الى الاول بمصطلح «رونا – سيمى» ، ويعنى حرفيا «شفتا الانسان» . اما من حيث المغزى فمن الاصح ترجمته بعبارة «اللغة الحقيقية (البشرية ، العامة)» . وهو ينص على تنظيم تعليم لغة الكيتشوا .

والنظام الآخر ، وهو ميتماك (او «ميتيماز») ، كان اكثر جذرية بطابعه . كانت مجموعات كبيرة من «الرعايا الجدد» تنقل بصورة دائمة او موقتة الى اراض اخرى حيث كان عليهم شاؤوا ام ابوا ان يستوعبوا بسرعة النمط الجديد للاقتصاد او الثقافة الجديدة عليهم ، بما فى ذلك اللغة . وفى غضون ذلك كان على ممثلى الفئات المتميزة ، اذا ارادوا الاحتفاظ بمكانتهم الرفيعة السابقة ، ان ينصهروا بسرعة خاصة . وعلى القادة والزعماء القبليين السابقين ان يمضوا كل سنة عدة اشهر فى كوسكو ، عاصمة الدولة . كان الق البلاط وجبروت الامبراطورية وهيبة اللغة السائدة والثقافة المتطورة نسبيا تعمل فى صالح الحكام الاينكيين .

فى اغلبية اجراءات الاينكيين الملموسة لا يوجد ، والحق يقال ، شىء لم نشاهده على هذا النحو او ذاك فى تاريخ الدول المتعددة القوميات فى العالم القديم . ان الامبراطورية الرومانية فى فترة ازدهارها كانت تضع بين الشروط الالزامية التى تمنح الجنسية فى حال تنفيذها لا اتقان اللغة اللاتينية فحسب ، بل وتحويلها الى لغة تخاطب يومية .

وكان ملوك اشور وبابل وفارس القديمة والحكام الصينيون ينقلون عنوة فى حالات ليست بالنادرة سكان مناطق التخوم الكبرى الى مركز ممتلكاتهم ، وفى حالات اعم الى تخوم اخرى ، حيث كان المتمردون الفعليون والمحتملون السابقون يضطرون الى الدفاع عن مصالح السلطة المركزية لانها اصبحت ، وهم فى ارض غريبة ، سندهم الوحيد .

بيد ان «حالة الاينكيين – الكيتشوا» تتسم هنا بالتنظيم

الرفيع ، وتتسم ، علاوة على ذلك ، بالتفكير المتمعن وبادراك هذه السياسة .

كان قادة الاينكيين يعتقدون بجد انهم ينعمون على «المتوحشين» . اما فى الواقع ، فان فتوحات الامبراطورية جلبت ، بالطبع ، مصائب لا تحصى الى المهزومين . وليس عبثا ان تنهار الامبراطورية العظيمة بمثل هذه السهولة تحت ضربة الغزاة الاسبان الذين استغلوا ضعفها الداخلى (رغم ان الدور الرئيسى اضطلع به ، طبعا ، واقع ان الغزاة كانوا ممثلى مجتمع يشغل درجة اعلى فى تطوره) .

ولكن مهما كان الامر ، فان شعب كيتشوا تمكن حتى لحظة زوال الدولة الاينكية من ان ينمو من الناحية العددية عشرات الاضعاف على الاقل .

واستمرت عملية دمجه للقبائل ، وحتى للاثنوسات الضخمة المجاورة حتى بعد انهيار الامبراطورية . لقد اصبحت اراضيها ملكا لامبراطورية اخرى ، وهى الامبراطورية الاسبانية . ولكن الاسبان ، الذين كانوا يبجلون قوانين الاقطاعية ، والذين حملوها الى الاراضى الجديدة ، اعتبروا الاينكيين ارستقراطية من نوع خاص فى مستعمراتهم الجديدة ، فاخذوا يعززون هيبتهم ، وبالتالى هيبة لغتهم وثقافتهم . وصار اقرباء واعقاب الحكام الاخيرين ينالون حقوقا خاصة وحتى معاشات . وقد ادار الاسبان ممتلكاتهم الجديدة ، مستخدمين الفئات المميزة السابقة التى كان الكيتشوا قد دمجوهم الى درجة كبيرة حتى فى التخوم ، كما سبق القول . وحمل المبشرون الاسبان المسيحية الى بيرو من خلال لغة الكيتشوا فى اغلب الاحوال .

والكن الاينكيين – الكيتشوا قادوا ايضا نضال الهنود التحررى ضد السيطرة الاسبانية امدا طويلا . وقد عاشت ٤٠ سنة دولة توباك – امارو ، القائد الاينكى البارز الذى حاول ان يعيد الى الهنود استقلالهم .

نشير هنا الى ظرف هام جدا بالنسبة الى موضوعنا كله يتسم به تاريخ الشعوب المنقسمة الى شرائح وطبقات ، وهو

ان اصحاب السمة السلالية الواحدة يسعون الى اهداف سياسية متعارضة على طرفي نقيض .

في مثالنا الملموس هذا كانت معرفـــة لغة الكيتشوا ضرورية سواء لمن خضع للاسبان وقرر التعاون معهم ، او لمن ناضل ضد الغزاة .

وهكذا نجد امامنا اليوم هذه اللوحة المدهشة : في عدة بلدان ممتدة على طول جبال الاند ، في اراض تقطعها وهاد وحدود دولية ، يعيش اكبر شعب من الشعوب الهندية . ولا يوجد سوى جزء صغير نسبيا في الاند يشغله شعب هندي كبير آخر ، الايمارا ، الذي يقل عـــن الكيتشوا (حوالى ١٥ مليونا) قرابة ٦ مرات من حيث العدد . ويعيش الكيتشوا ككتلة واحدة عمليا في اراض تمتد من جنوب كولومبيـــا الى شمال تشيلي والارجنتين . وهكذا فان سياسة الاينكييـــن احرزت انتصارا لغويا من نوع خاص على اى حال ...

لقد سعت الامبراطورية الرومانية ، ولا سيما في القرون الاخيرة من وجودها ، الى تحقيق النتيجة نفسها ، اى تحويل السكان جميعا في مناطقها كلها الى شعب واحد . وقد وفر لها التاريخ لتنفيذ هذه المحاولة زمنا اكبر بكثير مما وفره للدولة الاينكية.

كتب انجلس : «في كل بلدان حوض البحـــر الابيض المتوسط مر على امتداد قرون مسحاج الامبراطورية الرومانية الممهد . وفي الاماكن التي لم تبد فيها اللغة اليونانية مقاومة ، كان على اللغات القومية جميعا ان تتنحى عن مكانها للاتينية الركيكة ، فزالت الفوارق القومية كلها ، ولم يعد ثمة وجود للغال والايبيريين والليغوريين والنوريكيين ، واصبحوا كلهم رومانا» (ك . ماركس وف . انجلس . المؤلفات ، المجلـــد ٢١ ، ص ١٤٦) .

ولكن اخذ اللغة وحده – ولعل هذا ما ينبغي التنويه به مرة اخرى هنا – لا يكفي ليصبح المتحدث بها جزءا مـــن الاثنوس المعني . ينبغي اخذ الثقافة ونمط الحياة ، وهنـــا كان الامر اعقد بكثير رغم كل نجاحات «المسحاج الروماني» .

وذلك لان الرومان ، بين امور اخرى ، لم يحاولوا ابـــدا ، خلافا للاينكيين ، ان يجعلوا رعايا الامبراطورية سواء في المتروبول او في الولايات في وضع متساو نسبيا . واضطلع سكان روما نفسها في القرون الاخيرة من وجود الامبراطورية بدور طفيلي جماعي عملاق ينهب الولايات .

لقد نهج اسكندر المقدوني ، كما يبدو ، سياســـة على «النمط الاينكي» ، فعقد بصورة جماعية زواج جنود الجيش اليوناني – المقدوني على الفارسيات والبابليات والباكتريات ، وامر ببناء المدن التي حشد فيها عمدا سكانا مـــن مختلف القبائل ، وخطط لترحيل رعاياه بشكل جماعي من مناطق فـــي الامبراطورية الى اخرى . لعل اسكندر كان يفهـــم (او ان المؤرخين القدماء المتأخريـــن اسبغوا عليه هذا الفهم) ان سياسة تحويل هذا الخليط من الشعوب والجماعات الفائقـــة التنوع الى مجتمع واحد من الناحيتين السلالية والاجتماعية هو وحده الذي كان في وسعه ان يعد بفرص للمحافظة على الدولة حتى بعد وفاة مؤسسها . ولكن التاريخ لم يخصص لدولته حتى عشر سنوات . ومع انهيار سلطتها وحدودها زال تأثيرهـــا ايضا .

في ظروف الاقطاعيـــة النامية صارت حدود الدولـــة (غالبا ما كانت الحدود الجغرافية في تلك الفترة تؤثر فـــي رسمها) تضطلع بدور متزايد بالنسبة الى تشكل الاثنوسات الجديدة .

واحيانا كانت الحدود التي تمر بين جزئي شعب واحـــد تحوله الى شعبين مختلفين . في شبه جزيرة البيرينه في القرن الثالث عشر مرت الحدود بحكم ظروف تاريخية ملموسة بشكل جعل سكان منطقة غاليسيا ، الذيـــن كانوا يتكلمون حينذاك باللغة البرتغالية القديمة ، خارج نطاق المملكة البرتغالية . مرت قرون واصبح اخلافهم الآن ، الغاليسيـــون الحاليـــون ، شعبا خاصا .

وفي الوقت نفسه مارست الجوانب السلالية نفسهـــا تأثيرا معينا في عملية تكون اراضي الدول . وهذا مـــا لفت

نظر انجلس الذى نوه بانه فى اوائل القرون الوسطى فى اوربا الغربية «ما ان ارتسمت المجموعات اللغوية . . . حتى اصبح من الطبيعى ان تغدو هذه المجموعات اساسا معينا لتشكيل الدول . . .» (ك . ماركس وف . انجلس . المؤلفات ، المجلد ٢١ ، ص ٤١٠) .

تغير مع الزمن مغزى حدود دول القرون الوسطى والاقطاعيات الكبيرة بالنسبة الى تكون الشعب . فقد قسمت الاراضى الشاسعة الى عشرات ، واحيانا الى مئات من كيانات الدول المستقلة وشبه المستقلة . وفى غضون ذلك كانت الكبيرة منها ولو بعض الشىء متعددة القوميات ، كقاعدة عامة ، وكانت تتكون احيانا من اراض تفصلها مئات الكيلومترات . من المعروف ان بابا روما كان يملك فى القرن الرابع عشر روما ومنطقتها فى ايطاليا ، وافينيون فى فرنسا . وكان الملك الانكليزى ريشارد قلب الاسد يملك ، شان خلفائه على امتداد عدة اجيال ، دوقية غاسكون فى فرنسا . وكانت اراض غير قليلة فى فرنسا تخضع للتاج الاسبانى وللامبراطور الجرمانى للامبراطورية الرومانية المقدسة . وكانت هولندا تقع وفق قوانين الوراثة او الارغام تحت سلطة دوقات بورغوندى احيانا ، والملوك الاسبان احيانا اخرى .

ولكن فى اغلبية الحالات لم تكن هذه الحدود العديدة ذات النمط الاقطاعى الصرف قادرة على ان تساعد او تعرقل بجد تشكل الشعوب الجديدة (او تفكك القديمة) . نحن لا نعرف شعبا افينيونيا ، ولا يعيش اسبان فى هولندا .

ولم تكن حدود الكيانات الاقطاعية تمنع عادة الصلات الدينية ولا الصلات السياسية . الكاثوليك الانكليز يتوجهون الى اسبانيا لطلب المساعدة ، ويفعل الشىء نفسه كاثوليك فرنسا زمن الحروب الدينية . وقاتل البروتستانت الالمان الى جانب الفرنسيين فى الجيش البروتستانتى لهنرى الرابع المقبل . وتحت شعار حماية البروتستانتية زمن حرب السنوات الثلاثين فى القرن السابع عشر استدعى الاقطاعيون اللوثريون الالمان الملك السويدى للصراع ضد الامبراطور الكاثوليكى .

ان الفارس الفرنسى يخدم الملك الانكليزى بلا تردد اذا كان يعيش فى ممتلكاته الفرنسية . وينبغى القول ان الارستقراطيين فى ذلك الزمن لم يكونوا يميلون اجمالا الى اسباغ اهمية خاصة على انتمائهم الى هذا الشعب او ذاك . ان الاقطاعى الصغير ، سواء فى اوربا او آسيا ، يغدو تابعا للعامل الذى «يمسك» اقطاعيته .

اشار انجلس بحق الى ان سلطة الملك فى عهد الاقطاعية المتاخرة اضطلعت بدور اساسى فى التغلب على التجزئة الاقطاعية : انها ، «اذ اعتمدت على سكان المدن ، حطمت قدرة النبلاء الاقطاعيين وانشات ممالك كبيرة ، قائمة على القومية من حيث الجوهر . . .» (ك . ماركس وف . انجلس . المؤلفات ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٤٥) .

من الواضح ان جوهر الامر يتلخص فى ان الحدود الاقطاعية لم تكن تدعمها لبعض الوقت حدود اقتصادية ، فلم تكن الصلات بين المدن والقرى داخل الممتلكات الاقطاعية اقوى بكثير من الصلات الممتدة عبر الحدود .

يغدو الوضع مغايرا مع تطور اسس النظام الراسمالى داخل المجتمع الاقطاعى . كانت البرجوازية فى البلد الراسمالى الناشىء معنية بان تستغل «شغيلتها» بقواها الخاصة ، «لوحدها» ، اما الشغيلة فكانوا معنيين بان لا يتعرضوا ، علاوة على الاستغلال ، لاضطهاد قومى .

يؤدى قيام الراسمالية عموما الى تحول القوم الى امة .

ان اندماج تطور الدولة السياسى وعملية تشكل الامم امر اشار اليه مرارا لينين الذى عكف طويلا وبشكل خاص على المسالة القومية وفعل ، كما هو معروف ، الكثير لحلها الواقعى ، وقد نوه عام ١٩١٤ فى «موضوعات لتقرير حول المسالة القومية» بان «الدولة القومية **قاعدة عالمية**» فى العالم الراسمالى (لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ٣٨٥) .

فى عصر تطور الراسمالية المبكر يجد ترابط الاثنوس ونظام الدولة لنفسه سندا مباشرا ومتينا فى الاقتصاد .

كتب لينين : «فى العالم كله كان عهد انتصار الراسمالية التام على الاقطاعية مقترنا بالحركات القومية . ان اساس تلك الحركات الاقتصادى يكمن فى ان تفوق الانتاج البضاعى تفوقا تاما يتطلب استيلاء البرجوازية على السوق الداخلية وتوحيد الاراضى التى يتكلم سكانها لغة واحدة فى دولة واحـــدة ، وازالة كل حاجز من شأنه ان يعيق تطور تلك اللغة ورسوخها فى الادب . . . ان وحدة اللغة وحرية التطور هما من اهم الشروط لقيام مبادلات تجارية حرة شاملة حقا تتوافق مـــع الراسمالية الحديثة ولتكتل الناس تكتلا حرا واسعا داخل كل طبقة من الطبقات ، واخيرا لاقامة علاقة وثيقة بين الســـوق وبين كل رب عمل كبير او صغير ، بين السوق وبين كل بائع ومشتر» (لينين . المختارات فـــى ١٠ مجلدات ، المجلد ٥ ، ص ١٤٥ – ١٤٦) . وكما نرى ، فان لينين يعطى هنا تحليلا دقيقا وعميقا للوضع ، ولا يربط بين الاقتصاد والسياسية فحسب ، بل يربط ايضا بين الاقتصاد واللغة ، الاقتصاد والادب .

ان تاثير الدولة البرجوازية فى العمليات السلاليـــة لا يقتصر على دورها فى تكوين الامم ، الامر الذى تحدثنا عنـه منذ قليل . اذ تبرز الدولة البرجوازية منذ لحظة ظهورهـــا عاملا هاما للعمليات السلالية كلها .

بيد ان هذا الاتجاه يكتسب فى ظروف الراسمالية ، ولا سيما فى مرحلتها المتاخرة ، الامبريالية ، طابعا متناقضـا ، تناحريا ، حيث تقترن باقامة وضع متميز ، وبسيطرة مباشرة فى نهاية المطاف لامة على امة . وفى غضون ذلـك تستخدم البرجوازية وعى الشغيلة الوطنى الذى تكون فى خلال النضال فى سبيل قيام دولتهم من اجل تسعير النزعة القومية الضيقة التى توضع فى خدمة مطامعها الامبريالية .

ان الطبقة العاملة وطليعتها الثورية ، الاحزاب الماركسية اللينينية ، ترفض الايديولوجيا الرجعية للظلم القومى وتدعم حركات التحرر الوطنى للشعوب المضطهدة بقدر ما تحتويها من مضمون ديمقراطى عام ضد الاضطهاد . وتنظر الماركسية

الى حركة التحرر الوطنى كعامل لتطورها عمقا ، نحو توسيع نضال الشعوب المضطهدة من اجل الطريق غير الراسمالى للتطور . والى جانب ذلك ، من الواضح تماما للماركسيين انه لا يمكن حل المسألة القومية تماما الا بتصفية الطبقات المتناحرة التى تعتبر مقدمة جذريـــة للقضاء على كل اشكال الاضطهاد والظلم ، بما فى ذلك فى مجال العلاقات القومية . نوه لينين قائلا : «فى ظل الراسمالية **يستحيل القضاء** علـى الاضطهاد القومى (والاضطهاد السياسى عموما) . ولهذا كان من الضرورى القضاء على الطبقات ، اى اقامة الاشتراكية» (لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٦ ، ص ٩٢) .

القسم الرابع

امثلة على النشوء

ننتقل الآن الى الخصائص الملموسة ، من وجهة النظر الاثنوغرافية ، لظهور الشعوب وذلك ، كما سيرى القارىء لاحقا ، على شكل اندماج للاثنوسات السالفة اول الامر ، ومن ثم على شكل تفككها ، الامر الذي يجرى ، فى الحالتين ، تحت تأثير العوامل المكونة للاثنوسات .

فى اواسط الالف الاول قبل الميلاد اصبح الغال لتوهم اسياد الجزء الاكبر من فرنسا المعاصرة . وهناك اختلطوا بالايبيريين ، اقرباء الباسكيين الحاليين والايبيريين الاسبان القدماء الذين يطلق اسمهم الى الآن على شبه جزيرة البيرنيه ، التى تسمى احيانا شبه جزيرة ايبيريا . واختلطوا ايضا بالقبائل الاخرى التى كانت قاطنة فى تلك الاماكن .

ولكن مضت ثلاثة قرون او اربعة ، وفى نهاية القرن الاخير قبل الميلاد ، وكان الغال قد افلحوا فى نقل لغتهم الى العدد الاكبر من الايبيريين الذين اخضعوهم ، خضعوا هم انفسهم للرومان واخذوا لغتهم .

وبعد ثلاثة او اربعة قرون اخرى ، قذفت الهجرة الكبيرة للشعوب قبائل جرمانية غفيرة الى اراضى فرنسا . كانت تأتى الى البلاد واحدة اثر اخرى وتحتل منطقة من مناطقها ، ثم جاءت موجة جديدة من الجرمانيين طردت الموجة السابقة او اخضعتها . جاء الفيستغوطيون والالمان والبورغونيون وقبائل لا عد لها ولا حصر . وكان افراها – وبالتالى آخرها – الفرنكيون . ومنهم اتت التسمية الجديدة للبلاد .

يكفى النظر الى الخارطة لرؤية ان كل اراضى فرنسا تقريبا منفصلة عن البلدان المجاورة بحدود جغرافية واضحة . فى الجنوب البيرنيه ، فى الجنوب الشرقى الالب ، فى الشمال الاردين ، فى الغرب المحيط والمانش . . . فى هذا المربع غير المنتظم الاضلاع جرى التاريخ المتعدد القرون للشعب – الاثنوس الفرنسى . هناك وجهات نظر متعددة متباينة للغاية (لعل هذا الوضع النموذجى بالنسبة الى الاثنوغرافيا المعقدة اصبح مألوفا لدى قارئنا) فى صدد مسألة الزمن الذى تكون فيه او حتى . . . ما اذا كان قد تكون كوحدة متكاملة اصلا . ثمة علماء يفترضون ان هذا اثنوس واحد يتكلم (او كان يتكلم حتى امد قريب) بلغات مختلفة ، لا بالفرنسية وحدها ، بل كذلك بالبروفانسية فى الجنوب ، والباسكية فى الجنوب الغربى ، وبالبريتانية فى الغرب ويعتبر آخرون ان البريتانيين ، مثلا ، يشكلون اثنوسا الى الآن . وهذا ما يشير اليه الكثير من خصائص ثقافتهم الشعبية .

ولكن يعترف على اى حال بان عملية التوحيد السلالية قد بدأت فى فرنسا منذ زمن بعيد .

ومما يؤكد هذا على افضل نحو وبوضوح خاص حركة تحرير فرنسا من الانكليز بقيادة جان دارك الاسطورية . هذه الفتاة البالغة من العمر ١٩ عاما ، ذات الاتقاد الوطنى والمواهب العسكرية البارزة ، ولدت فى لوتارينغيا . بيد ان جان دارك لم تكن تعتبر نفسها لوتارينغية ، بل فرنسية ، اما الذين انضووا تحت رايتها من بسطاء ونبلاء فكانوا يشيرون بهذا الى انهم يعتبرون انفسهم فرنسيين بالدرجة الاولى ، لا بروفانسيين او غسكونيين او بيكارديين .

هذا فى حين انه لو توجهنا الى المصطلح العلمى للاثنوس ، لرأينا ولا شك انه كان يوجد فى اراضى فرنسا فى ذلك الحين (القرن الخامس عشر) اثنوسان كبيران على الاقل ، وذلك دون الحديث عن عدة اثنوسات اصغر نسبيا : الاثنوس الفرنسى الجنوبى والاثنوس الفرنسى الشمالى . وهكذا ، فان المسألة موضع جدال من وجهة النظر العلمية

الصرف . بيد ان الفوارق كانت موجودة وبوضوح كاف من وجهة النظر السلالية . ولعله لا ينبغي التفريط هنا بامكان التوجه الى شهادات الروائيين الفرنسيين ، العارفين طباع مواطنيهم بدقة . وعلاوة على ذلك ثمة علماء يفترضون انه كان يوجد فى القرون الوسطى فى فرنسا المقسمة الى ممتلكات اقطاعية عدد من الاثنوسات او الاقوام المنفصلة يصل الى العشرين . وعلى اى حال كان عدد كبير من اناس كل هذه الاقوام يشعرون بانهم ليسوا مجرد اوفيرنيين او غسكونيين ، بل فرنسيون ايضا .

ان الكساندر دوماس فى «الفرسان الثلاثة» — لعل الكثير من القراء قد قرأوا هذا الكتاب منذ حداثتهم — كان ينوه دائما بان دارتانيان غسكونى حقيقى : مندفع وحذر فى الوقت نفسه ، مقدام وحاد الذكاء (لنتذكر كيف يقول دارتانيان عن نفسه : «ايه ! انا غسكونى شيطان ، سوف اسخر حتى وانا فى جهنم فى المقلاة») .

ان حامى دارتانيان نقيب الفرسان الملكيين دى تريفيل «بدأ طريقه . . . مثل دارتانيان ، اى بدون اى سو فى جيبه ، ولكن باحتياطى من الجراة والذكاء والدهاء ، الذى كان يتمكن بفضله حتى افقر النبلاء الغسكونيين من ان يحقق غالبا اجرأ احلام ابيه . . . » .

ولا ينس دوماس ان يخبرنا بان «بلانشيه الفائق الجدارة» ، خادم دارتانيان ، بيكاردى وينوه لاحقا بحصافته وامانته كخصلتين لبيكاردى بالذات . وخادم بورتوس ، النورماندى — موشكيتون ، يحب الطعام الجيد واللبس الفاخر ، وخادم اراميس بيرى الخ .

اما نماذج البروفانسيين ، مثلا ، فقد اورد الفونس دوديه العديد منها فى مؤلفاته . ويمكن ان نتذكر نموذجا قد يكون اكثر هذه النماذج شهرة ، وهو الخيالى الطيب النية تارتارين من تاراسكون ، واصدقاؤه وجيرانه .

واخيرا ، ان احد ابطال فيكتور هيغو ، وهو بطل سلبى ، والحق يقال ، ونعنى به زعيم المتمردين الملكيين القاسى ،

يلقى هذه الكلمة الحماسية : «ان عبقرية فرنسا تنطوى على الخصال العبقرية للقارة الاوربية باسرها ، وكل اقليم فرنسى يمثل احدى هذه الفضائل الاوربية . لقد ازدهرت الاستقامة الالمانية فى بيكاردى ، وتجلت طبيعة السويديين السمحاء فى شمبانيا ، والقدرة الهولندية على العمل موجودة فى بورغوندى ، والطاقة العملية لبولندا فى لانغيدوك ، والاباء الاسبانى فى غسكون ، والذكاء الايطالى الحاد فى بروفانس ، والدهاء اليونانى فى النورماندى ، والنزاهة السويسرية فى دوفينيه» .

اننا ، طبعا ، لن نخالفه ولن نوافقه ، يهمنا امر آخر ، وهو ان الاختلافات بين سكان كل من مناطق فرنسا واضحة بالنسبة الى الروائى نفسه . وهذا ، كما نعتقد ، يبين بوضوح كاف ان الكثير من الاقوام الاقليمية (او «ما قبل الاقوام») فى فرنسا قد تمكنت قبل اندماجها من اجتياز طريق من التراص ان لم يكن يكفى لكى تتمايز بالفعل الى هذا القدر ، فيكفى على الاقل لكى تكون مثل هذا الرأى الشائع فيها .

حول هذا الموضوع يكتب الجغرافى والمؤرخ المعروف فى القرن التاسع عشر ريكلو : «فى باريس ، العاصمة المشتركة للجميع ، يلتقى ويتبادل التأثير ممثلو فرنسا باسرها : سكان بروفانس او غسكون ذوو النشاط والثرثرة والحركة الدائمة ؛ الناس القادمون من الهضاب العالية الدؤوبون فى العمل والبعيدون عن الاختلاط ؛ سكان ضفاف لوار ذوو النظرة الجريئة والفكر الثاقب والطبع المتزن ؛ البريتانيون ذوو الطبع السوداوى ، الحالمون واصحاب الارادة القوية فى الوقت نفسه ؛ النورمانديون ذوو الحديث البطئ ، والنظرة الفاحصة والعقل الراجح والحذرون ؛ سكان لوتارينغيا وفوغيز وفرانش-كونتيه المتقدون عند الغضب وذوو المراس وروح المبادرة» .

لقد اصبحت فرنسا مثالا نموذجيا لبلد تجمعه سلطة مركزية . هذا ما فعله بثقة ملوكها فى الفترة من القرن الثانى عشر الى القرن الرابع عشر . ثم حلت الفوضى وتشتت البلاد

من جديد تشتتا يبدو اشد من السابق ، وذلك فى فترة حرب المئة سنة مع انكلترا . ولكن نشأت فى البلاد سوق داخلية واحدة رغم كل الخلافات والشقاقات الاقطاعية الكبيرة والصغيرة . وتدعمت الصلات الاقتصادية بين اجزائها . وصارت باريس تجذب التجار والبرجوازيين الصغار بقوة .

ان دور باريس فى تكوين الشعب الفرنسى – وهذا ما ينبغى التنويه به – اكبر من الدور الذى تضطلع به العاصمة عادة فى احوال كهذه . وقد اخذ سكان البلاد باسرها لهجة باريس نموذجا لدى وضع اللغة الموحدة ، فى حين ان لهجة برلين لم تصبح مثالا لالمانيا ، ولا لهجة روما مثالا لايطاليا .

فى انكلترا الصغيرة نسبيا والمجزأة الى عدد من المناطق السلالية اقل بكثير جرى صراع بين اللغتين الفرنسية والانكليزية استمر ٣٠٠ سنة وانتهى بانتصار اللغة الانكليزية فى اواخر القرن الرابع عشر . ومما يبعث على الدهشة الآن ان اللغة الفرنسية كانت تتمتع فى فرنسا فى القرن الثالث عشر ، مثلا ، بنجاح اقل مما فى انكلترا . فى الارض الغريبة كان يقف خلفها وجهاء من احفاد النورمانيين المتفرنسيين الذين استولوا على انكلترا . اما فى فرنسا فان لغة مقاطعة باريس كانت لا تزال تجابه بمعارضة اللاتينية فى المعاملات الرسمية ، وباللهجات المحلية فى كل مكان . وكانت اللغة البروفانسية فى ذلك الحين بعيدة عن الفرنسية بعدها عن الاسبانية .

واستمرت الحال هكذا الى ان اعلن الملك بمرسوم خاص فى عام ١٥٣٩ اللغة الفرنسية لغة رسمية وحيدة تستخدم فى المحاكم والنشاط الادارى ، واصبحت السلطة المركزية تقف بحزم الى جانب هذه اللغة . وانتصرت اللغة ضمن الحدود التى ترسخت فيها هذه السلطة .

الآن يتكلم فى فرنسا بالبروفانسية نسبة صغيرة جدا من الجنوبيين ، وباللغة الالمانية اغلبية الالزاسيين وسكان مقاطعاتها الشرقية ، وبالبريتانية عدد من سكان شبه جزيرة بريتانى فى الشمال الغربى .

وبالمناسبة ليس من قبيل المصادفة ان تبعث تسميته فى الذاكرة كلمة «بريطانيا» .

فى قديم الزمان ، حينما استولت قبائل الانكليين والسكسون على الجزء الاكبر من انكلترا ، رأت بعض قبائل البريتيين القدماء انها لا تستطيع الصمود فى وجه الغزاة ، فانتقلت عبر البحر واحتلت شبه الجزيرة الذى اعطته اسمها . لكم عرف التاريخ حالات كهذه : المهزومون يفرون لينتصروا على آخرين ، المهانون يهينون الآخرين ، من يتعرض للغزو يصبح غازيا .

حافظت بريتانى على لغتها الى القرن العشرين . من جهة ، يتكلم الآن اغلبية سكانها باللغة الفرنسية ، وكل الآخرين يتكلمون سواء بالفرنسية او بالبريتانية . ولكن ، من الجهة الاخرى ، تتحدث الصحف من حين الى آخر عن مظاهرات للقوميين البريتانيين الذين يرفعون شعارات الحكم الذاتى لبريتانى ، او حتى انفصالها عن فرنسا .

منذ مئة وثمانين سنة ، حينما كان اغلب البريتانيين يحسنون لغة اسلافهم ، مع العلم انها كانت اللغة الوحيدة بالنسبة الى الكثيرين ، انتفضت بريتانى ضد الحكومة الفرنسية . كان الناس الذين قاتلوا حينذاك الجيش الحكومى يرتدون الملابس البريتانية ويتحادثون باللغة البريتانية فيما بينهم . لقد قاتلوا الجمهورية الفرنسية ، ولكن من اجل ملك فرنسى . ويبدو ، انه لم تخطر على بال احد من المنتفضين فكرة اقامة دولة مستقلة باية درجة من الدرجات .

اما الآن فان الشباب الذين يرتدون احدث الازياء الباريسية ويتكلمون الفرنسية بلفظ جامعى يطالبون بانفصال بريتانى التى تشكل لغتها بالنسبة اليهم مجرد مادة للتمتع ، لا وسيلة للتخاطب فيما بينهم .

مفارقة ! ولكن هذه المفارقة امر كثير الوقوع جدا فى الحياة المعاصرة للبلدان الغربية .

يرى عدد من العلماء حتى فى انتفاضة بريتانى ضد

الجمهورية منذ قرابة سنة مظهرا للعزلة القومية لهذا الجزء من فرنسا .

كتب فكتور هيغو فى رواية «العام ثلاثة وتسعون» التى يجرى جزء كبير من حوادثها فى بريتانى :

«بريتانى متمردة قديمة . وقد كانت مصيبة فى كل انتفاضة لها فى غضون الفى سنة . ولكنها فى المرة الاخيرة لم تكن على صواب . بيد انها سواء اخاضت الصراع ضد الثورة ام ضد الملكية ، ضد النواب المفوضين ام ضد الدوقات والنبلاء . . . فان ذلك على اى حال حرب بريتانية – حرب الروح المحلية ضد الروح المركزية» .

ولعله يمكن ان نضيف ان الاضطهاد القومي ايضا جعل بريتانى متمردة قديمة بدرجة من الدرجات . ولكن البريتانيين يتحولون الآن ، كما يعتبر الاثنوغرافيون كثيرون ، من شعب منفرد الى مجموعة سلالية فرعية داخل الشعب الفرنسى .

على مقربة من فرنسا تقع دوقية لوكسمبورغ العظمى ، وكانما عمدا لتاكيد اهمية الاستقرار الكبير للاثنوس الراسخ والعوامل السياسية الخارجية والحدود السياسية بالنسبة الى عملية تشكل الشعوب .

تبلغ مساحة الدوقية العظمى قرابة ثلاثة آلاف كيلومتر مربع ويسكنها حوالى اربعمئة الف نسمة . وفى لوكسمبورغ الحالية ، ينتج مقابل كل واحد من هؤلاء الاربعمئة الف انسان – «مقابل كل فرد من السكان» ، حسب تعبير المختصين فى الاحصاء – من الفولاذ وحديد الزهر والمدلفنات اكثر من اى بلد آخر فى العالم . وليس اكثر فحسب ، بل اكثر بنسبة تتراوح ما بين خمس عشرة وعشرين مرة ! و«جريرة» ذلك تقع على مكامن فلزات الحديد الجيدة والكوادر العمالية الرفيعة التأهل .

يمكن اعتبار سكان لوكسمبورغ اصحاب رقم قياسى فى ناحية اخرى ايضا : تتعايش فى الدوقية ثلاث لغات عمليا . وليس فى هذا ، بالمناسبة ، ما يدعو الى الدهشة لو ان كل واحد من سكان البلاد عمليا لم يتكلم هذه اللغات الثلاث

بدرجة واحدة من الجودة تقريبا ، انها دولة متبحرين فى اللغات حقا .

يتكلم سكان لوكسمبورغ بالالمانية ، لانه فى هذه الاماكن بالذات قطن فى وقت مضى الفرنكيون ، اولئك الذين استوطنوا الجزء الاكبر من اراضى فرنسا واعطوها اسمهم دون لغتهم ، ولكن الفرنكيين اقاموا فى لوكسمبورغ اكثر نسبيا واعطوا الكيلتيين المحليين لغتهم . ويتكلم سكان لوكسمبورغ بالفرنسية ايضا لان تأثير فرنسا الثقافى كان اقوى دائما من التأثير الثقافى الالمانى . وكان فى حياة البلدين المتجاورين – الكبير والصغير – الكثير من الامور المشتركة .

الآن تكتب بالفرنسية الاعلانات فى الشوارع – سواء فى المدن او القرى – وبها تجرى المرافعات فى المحاكم ، وفى البرلمان يتكلمون بالفرنسية والالمانية على حد سواء ، ويجرى تدريس كلتا اللغتين فى المدارس الابتدائية . وفى الحياة اليومية يلجأ اغلب سكان لوكسمبورغ الى لغة ثالثة ، وهى اللهجة اللوكسمبورغية . ويمكن اعتبارها من اللهجات الالمانية ، ولكن الالمان لا يفهمون هذه اللهجة تقريبا ، وتصدر الصحف فى لوكسمبورغ بهذه اللغات الثلاث جميعا .

منذ الفى سنة احتل الرومان اراضى لوكسمبورغ ، كما احتلوا اراضى غاليا .

وبعد اربعة قرون قدم الفرنكيون الى هناك . وحينما خرجت المملكة الفرنسية من انقاض الامبراطورية الفرنكية ، ظهرت قربها فى اطراف جبال اردين كونتية ، ومن ثم دوقية لوكسمبورغ . واستطاعت ان تبقى اكثر من خمسة قرون مستقلة فعليا ، بل ان سلالة دوقات لوكسمبورغ قدمت مرارا اباطرة لالمانيا وملوكا للاراضى التشيكية وغيرها .

ثم انقرضت السلالة ، فاصبحت لوكسمبورغ ، وفق قوانين الوراثة فى تلك الازمنة ، وكذلك بسبب النجاحات والاخفاقات العسكرية للدول العظمى ، ملكا لاسبانيا مدة مئة

وثمانين سنة تقريبا ، ثم لفرنسا مدة تقرب من مئة سنة ، ثم لاسبانيا مجددا مدة سبع عشرة سنة ، ثم للنمسا مدة ثمانين سنة ، ثم لفرنسا من جديد مدة عشرين سنة فى عهد نابليون ، وبعد هزيمته نالت لوكسمبورغ استقلالها لان الطامعين فى هذه الارض كانوا كثيرين جدا . انه ، باختصار ، تاريخ عاصف . ولكن الشعب الصغير بقى مخلصا لتقاليده .

فى القرن العشرين ابدى سكان لوكسمبورغ زمن الحرب العالمية الثانية مقاومة لائقة لمحاولات اضفاء الصفة الالمانية والفاشية على بلادهم . والى الآن تشاهد على واجهات الكثير من البيوت كتابات بمثابة رد ابى على النازيين : «نريد ان نبقى كما نحن !»

يشتهر سكان لوكسمبورغ بانهم مزارعو كرمة وموسيقيون . والنكتة المفضلة هناك لها هذا المحتوى تقريبا : «لوكسمبورغى واحد بستانى ، اثنان مناقشة فى المقهى ، ثلاثة اوركسترا» . عندهم فقط – وربما على نطاق العالم باسره – اتسعت الى هذه الدرجة المسيرات الموسيقية الراقصة زمن الاعياد المحلية .

وهكذا فان هذا الشعب الصغير الواقع بين دولتين عظميين (وفى جوار بلجيكا وهولندا ايضا) استطاع ان يحافظ على اصالته الثقافية .

* * *

نشأ القوم الايطالى ، شأن الكثير من شعوب العالم الاخرى ، نتيجة اختلاط الفاتحين (ولا سيما القبائل الجرمانية) والسكان المحليين الذين يعود اصلهم الى الرومان والاثنوسات الخاضعة لهم . ولكن الشعب الذى تعرض للغزو وكان يتمتع بثقافة ارفع بكثير من ثقافة الغزاة استطاع ان يدمج الاخيرين ، ولا سيما من الناحية اللغوية ، اذ ان دمج الثقافة الارفع للثقافة الادنى نسبيا قانون هام شائع للعملية

السلالية التاريخية . وفى خلال الاصطدامات والاختلاطات السلالية العديدة فى الفترة من القرن السادس الى القرن العاشر جرت عملية تكون القوم الايطالى التى اقترنت بتكون اللغة العامية الايطالية . وقد اصطلح على اعتبار ان اواسط القرن الثانى عشر – عصر حروب المدن الايطالية ضد فريدريك الثانى بربروس – كانت زمن نشوء الوعى الذاتى الايطالى العام . وكان نشوء اللغة الادبية الايطالية (ابتداء من القرن الثالث عشر) خطوة هامة فى التراص السلالى للقوم الايطالى . ولكن نظرا للتشتت الاقطاعى بقيت عملية تراصه غير مكتملة زمنا طويلا .

يشهد تشكل القوم الايطالى على ان توحيد الدولة لم يكن مقدمة للتلاحم السلالى لسكان مختلف المناطق ، فقد كان معدوما اصلا فى هذه الحالة ، اذ من المعروف ان ايطاليا لم تتحد ابدا فى القرون الوسطى فى دولة واحدة . ولا يوجد ، فى راى الاختصاصيين ، اساس للافتراض ان الوحدة الايطالية قامت على الصلات الاقتصادية ، لان الصلات الاقتصادية بين كل من المناطق وجمهوريات المدن كانت ضعيفة للغاية ، وكان التنافس والتشتت اكثر بروزا هنا .

ان الدور الحاسم فى تلاحم شعب ايطاليا باسره يعود ، كما تشير الدلائل كلها ، الى عامل سياسى ، هو النضال ضد الغزاة الخارجيين ، وهنا تكمن الخاصية الرئيسية لتشكل هذا الاثنوس .

* * *

نقرأ فى قصيدة روبيرت ستيفنسون «عسل الخلنج» :

اتى ملك سكوتلاندا
الشديد على الاعداء ،
فطرد البيكتيين المساكين
الى الشواطئ الصماء . . .

البيكتيون هم اقدم من نعرفهم من سكان سكوتلاندا . وكانوا يتكلمون ، على ما يبدو ، باحدى اللغات الكيلتية .

في الالف الاول قبل الميلاد كانت الشعوب الناطقة باللغات الكيلتية تعيش في ارجاء شاسعة من اوربا وفي آسيا الصغرى . ولم يكن الكيلتيون في سكوتلاندا ، كما في كل الاراضي التي شغلوها ، اول القاطنين ، فقد قدموا الى هناك في الازمنة القديمة واختلطوا مع السكان الاصليين لتلك المناطق .

وعلى امتداد عدة قرون صد البيكتيون بنجاح كل محاولات الرومان ، الذين كانوا قد احتلوا بريطانيا ، ان يستولوا على بلادهم ايضا . وقد انتقلوا هم انفسهم الى الهجوم مرارا ، وشنوا حملات مدمرة على الممتلكات الرومانية ، وللاحتماء منهم بالذات بنى الامبراطور ادرياتوس سورا للدفاع على الحدود الحالية تقريبا بين سكوتلاندا وانكلترا .

وهكذا فان البيكتيين لم يكونوا اقزاما عاجزين ، كما يصورهم ستيفنسون في قصيدته . تقول الاسطورة انه في القرن الخامس الميلادي دعا البريتيون قبائل الانكليين والسكسون الجرمانية الى جزيرتهم لمساعدتهم ضد البيكتيين بالذات . ان الانكليين والسكسون لم يحطموا البيكتيين نهائيا ، ولكنهم حطموا واخضعوا البريتيين الذين دعوهم . . .

ولكن وجدت قوة انتصرت على البيكتيين . فقد بدأ السكوتيون ، القبيلة الايرلندية القوية ، باقتحام الاراضي البيكتية منذ القرن الرابع . واستمر الصراع الدامي ، الذي انتهى بانتصار السكوتيين ، اكثر من اربعة قرون :

في حقل الخلنج ،
في المعركة الشعواء ،
استلقى الاحياء على الاموات
والاموات على الاحياء .

وعلى الرغم من الاساطير ، لم يقض على البيكتيين تماما ولم يفنوا بلا اثر ، بل اندمجوا في السكوتيين . والشعب السكوتلاندي عبارة عن اتحاد بين المنتصرين السكوتيين الشجعان والمهزومين البيكتيين الذي لا يقلون عنهم شجاعة .

وهذا الاتحاد بين القبائل المتخاصمة سابقا دام قرونا عديدة .

ان الحدود بين انكلترا وسكوتلاندا زمن وجود كل منهما على حدة قد تحركت مرارا الى الشمال ، والى الجنوب . وتمكن الانكليز غير مرة في القرون الوسطى من التسلط على جيرانهم الشماليين . ولكن ذلك لم يكن يستمر عادة سوى عدة سنوات ليطردوا بعدها في حرب جديدة .

في عام ١٦٠٣ ، بعد موت الملكة الانكليزية اليزابيث ، خلفها على العرش الملك السكوتلاندي باعتباره الوريث الاقرب . وبعد بعض الوقت فقدت سكوتلاندا برلمانها . وفقدت لغاتها ، مستعيضة عنها بالانكليزية .

ومع ذلك لا يشك احد في الوجود الفعلي لشعب سكوتلاندي خاص ذي ثقافة خاصة وطابع قومي خاص وشديد المراس جدا .

* * *

مرت شعوب كثيرة عبر آسيا الصغرى التي تشكل جسرا بين قارتين وتقع على مقربة من قارة ثالثة . كانت تقع على الطريق القديم للهنود الاوربيين من اي مكان اتوا والى اي مكان ذهبوا : سواء من آسيا الى اوربا ، او من اوربا الى آسيا . هنا كانت تقع دولة الحثيين العظمى ، منافسة مصر القديمة والتي حاربتها من اجل السيطرة على سورية . وهنا كان ازدهار وسقوط طروادة ، وربما ايضا العشرات من المدن – الدول الاخرى . وصادف ان اتى الى هنا الكيلتيون من وسط اوربا ، والفرس من شمال ايران . وعلى امتداد الثلاثة آلاف سنة الاخيرة تقريبا عاش اليونان والارمن على الاطراف الغربية والشرقية من آسيا الصغرى .

هنا مر اسكندر المقدوني . ومنذ الفي سنة قدم الى هنا الرومان فوجدوا العديد من الممالك والشعوب . واصبحت الممالك على الفور اقل عددا بكثير . ولم ينقص عدد

الشعوب . كانت هناك بيزنطة ، وكـــان يهددها الفرسان الاوربيون من الغرب ، والعرب من الجنوب ، وينقض عليهـا الغزر والايرانيون والاتراك مـــن الشرق . ثم كان الغزو التركى ، وانزل الصليب من على كنيسة القديسة صوفيا فى القسطنطينية ، اكبر معبد مسيحى فى العالم فى ذلك الحين . ولم يعد الناس فى آسيا الصغرى يتكلمون باليونانية ، ولا بالارامية او بالفارسية ، بل باللغة التركية .

ولكن المظهر الخارجى للناس المقيمين فى آسيا الصغرى كان تغيره قليلا الى درجة مدهشة فى خلال عشرات القرون . لقد بقيت فى البلاد وجوه سكانها القدماء ، التى نحتت نماذجها فى الحجر منذ الوف السنين . والاتراك المعاصرون يشبهون هذه الصور كما يشبه الاولاد صور الآباء . كانما لم يقتحم احد وديان وجبال آسيا الصغرى ، وكانما لـــم تسر ابدا الكتائب المقدونية فى طرقاتها ولـــم يرمح عليها الفرسان المرعبون بسيوفهم الحدباء . . .

ولكن كل هذا حدث . كل هذا من وقائع التاريخ ايضا، شأن تلك الوجوه المنحوتة فى الصخور .

فى القرن الحادى عشر ظهرت فصائل الاتراك السلاجقة فى ما وراء القفقاس وشرق آسيا الصغرى ، وفى غضون قرن وصلت الى افريقيا فى الجنوب ، واخضعت ما بين النهريــن فى طريقها . وانتزع قادتها مصر والاراضى المجاورة مــن الخلفاء ، وحاربت الصليبيين بقسوة من اجل اراضى سورية وفلسطين . بدأ الاتراك صراعا ضد بيزنطة استمر قرونـا عديدة وانتهى فى القرن الخامس عشر بتحويـل القسطنطينية الى استنبول ، وكنيسة القديسة صوفيا الى مسجد اياصوفيا .

وقلصوا ممتلكاتها فى آسيا الصغرى خطوة بعد خطوة . وكيلومترا اثر كيلومتر . وفى غضون ذلك اقترح على فلاحى الاراضى المستولى عليها هذا الخيار : الاخلاص للمسيحيـة يجر وراءه الاضطهاد . اعتناق الاسلام يعنى الحرية مع تخفيف الضرائب الى درجة كبيرة .

وجد شهداء . ووجد مناضلــون . ووجد أناس ارادوا

التريث والانتظار . ووجد الزمن الذى عمل لصالح الاتراك . لم يكن سكان الامبراطورية البيزنطية متجانسين . ولم يتكون شعب بيزنطى واحد حتى فى الجزء الآسيوى مـن اراضيها . وحينما استولى الاتراك ، بعد ان اصبحوا اتراكا ، عـلى القسطنطينية ، كان على ابنائهم الذى ولدوا فيها ان يعرفوا ، حسب تأكيد المؤرخين ، اربع او خمس لغات دفعة واحدة . كان الشاب يتكلم مع ابيه بالتركية ، ومع امه باليونانية او الصربية ، وكانت اللغة الارمنية شائعة فى السـوق ، وكان الادب الفارسى يتمتع باحترام كبير لـدى الاتراك ، وكان القرآن العربى كتابهم المقدس .

كانت اللغة اليونانية ، طبعا ، العدو الرئيسى للغـة الدخلاء التركية ، ولكن اللغة التركية انتصرت .

لعل كون عملية الاستيلاء التركـى على آسيا الصغرى امتدت قرونا ، مما وفر للاتراك امكان اخضاع بيزنطة «قطعة قطعة» ، لا دفعة واحدة ، ادى بالذات الدور الحاسم فى تقبل سكان آسيا الصغرى للغة التركية .

ينبغى القول ، بالمناسبة ، انه حتى فى حالة تغيـر اللغة كانت اللغة المهزومة تخلف طابعها الذى لا يمحى على اللغة المنتصرة .

ان اللغويين ، الذين يدرسون اللغة التركية المعاصرة ، يجدون فيها الآن خصائص متزايدة لا تعود الى اللغة اليونانية فحسب ، بل والى لغات الشعوب التى قطنت فى آسيا الصغرى منذ الفين وثلاثة آلاف من السنين . لقد حافظت اللغة التركية على آثار التأثير القديم سواء للارمن او الاكراد او الجورجيين ، وحملت عبر الزمن ذكرى لغتى الحثيين والفريجيين .

تترك القرية قبل المدينة ، وكان اخلاف الغزاة والذين تعرضوا للغزو انفسهم يعتبرون ، على ما يبدو ، الثقافـة البيزنطينية القديمة ارفع من الثقافة التركية الدخيلة . وانعكس هذا على نحو طريف فى معيشة البلاد . ففى الامبراطوريـة التركية الرهيبة ، الممتدة من غرب افريقيا الى ايران ، ومن اثيوبيا الى الدانوب ، بقيت كلمة «تركى» نفسها امدا طويلا

مرادفة لكلمة «الفلاح» او «الدهماوى» ، وكان لها وقع مهين . وفى القرن الثامن عشر كان ساكن استنبول يرد على سؤال الاوربى عما اذا كان تركيا بانه مسلم . وحتى فى القرن التاسع عشر لم يكن سكان المدن الاتراك يرغبون فى اتخاذ هذا الاسم .

يمكن ان نضيف انه ساهم فى تكوين الشعب التركى ، علاوة على الاتراك والسكان غير الاتراك فى آسيا الصغرى ، سكان اليونان والسلافيون . اذ ان الكثير من الوزراء البارزين وقادة الجيش والاسطول المشهورين فى تركيا قد تحدروا من المستعمرات التركية ، ومن بينهم ، مثلا ، الاميرال اليونانى بيرى ريس الذى ذاع صيته منذ امد غير بعيد بسبب الخرائط المحيرة التى يقال انه عثر عليها فى ارشيفه . وثمة حالات ايضا اصبح فيها ، مثلا ، فرنسى اعتنق الاسلام احد اوائل قضاة القسطنطينية – استنبول المستولى عليها .

ولكن حينما كان فى اواخر القرن السادس عشر فى عهد سلطانين على التوالى ثمانية من اصل تسعة اشخاص تعاقبوا على منصب الوزير الاكبر سلافيين متتركين ، فان هذا لا يمكن اعتباره امرا نادرا او محض مصادفة . انه مظهر لسياسة معينة .

كان السلاطين يختارون نخبة جيشهم ، الانكشارية المشهورين ، من المناطق الخاضعة ، حيث كانوا ينتزعون الصبى من أبويه ، ثم يلقنونه الاسلام ويربونه بروح الاخلاص للسلاطين . فى البداية لم يكن يسمح للانكشارية بالزواج ، ولكن ما لبثوا ان صاروا يتغاضون عن زواجهم ، ثم رفع الحظر اجمالا . ودخلت فى عروق الشعب التركى موجة جديدة من الدم السلافى واليونانى والالبانى وغيره .

ينبغى التنويه ايضا بانه يدخل فى قوام اسلاف الشعب التركى الكثير من القبائل التركية التى توغلت فى البلقان فى عهد الانتصارات التركية من الشمال الشرقى ، لا من الجنوب الشرقى . وفى القرن التاسع عشر ، فى فترة انتصارات

السلافيين البلقانيين والرومانيين واليونان فى النضال من اجل التحرر الوطنى ، غادر الكثير من اخلاف الاتراك المسلمين البلقان الى تراقيا الشرقية وآسيا الصغرى ، ولعله كان بين هؤلاء المهاجرين ، وبالمناسبة ، اخلاف السكان المحليين القدماء الذين اعتنقوا الاسلام وكانوا يعتبرون انفسهم اتراكا .

وفى القرن التاسع عشر ايضا رحل الى ممتلكات السلطات مئات الالوف من الجبليين القفقاسيين ، ويعتبر الكثير من اخلافهم اليوم انفسهم اتراكا .

يتحدث الباحث السوفييتى يريمييف ، مؤلف كتاب «اثنوجينيز الاتراك» عن اخلاف اليونان فى آسيا الصغرى الذين جعلوا التركية لغتهم رغم بقائهم مسيحيين .

«. . . مهما كان الشعب الذى اردنا التعمق فى تاريخه ، فلا بد وان نصادف فى كل مكان ما يمكن تسميته بلقاء القبائل والشعوب واتحادها واختلاطها» .

اليكم ما يقوله العالم النمساوى بريستير فى كتاب «موجز تاريخ النمسا» :

«كانت بنية سكان المناطق ، التى شكلت النمسا فيما بعد ، تتسم بتبرقش وتنوع فائقين . وبالمناسبة ، فقد لاحظ الكتاب الرومان مرارا مدى سرعة اختلاط كل هذه القبائل ومدى صعوبة تمييز الدخلاء عن سكان البلاد الاصليين بعد انقضاء امد قصير . تصعب معرفة الشعوب التى تكون منها سكان النمسا المعاصرة من حيث الاساس . لقد التقى هنا الشرق والغرب ، الجنوب والشمال ، ومن هذا الاختلاط للكيلتيين والاتروسكيين والايبيريين والسلافيين والجرمانيين ظهر شىء جديد تماما» .

* * *

تبين لنا اثيوبيا طريقا آخر لتشكل الاثنوس ، وذلك «من الشريحة الى الاثنوس» . ان اكبر اثنوس فيها هو الامهرة . واللغة الامهرية هى اللغة الرسمية فى هذا البلد ،

اقدم الدول المستقلة فى افريقيا وهى لغة التفاهم بين القبائل والاثنوسات فى اراض شاسعة هناك .

ولكن الامهرة ، كما يبين التاريخ ، لم يكونوا منذ امد قريب نسبيا اثنوسا ، بل كانوا محاربين يشكلون شريحة عسكرية فى الامبراطورية الاثيوبية . وقد تلقى الامهرة قطعا من الارض لقاء خدماتهم ، وكان الملوك الاثيوبيون احيانا يقومون بحملات خصيصا للاستيلاء على الاراضى من اجل توزيعها على محاربيهم .

لقد كلفت الشريحة العسكرية فى اثيوبيا بالمهمة نفسها التى نفذتها عند الاينكيين – الذين سبق وتحدثنا عنهم – مفارز خاصة ، وهى مهمة جعل المناطق التى ضمت تندرج فى الدولة فعلا ، تندرج اجتماعيا وثقافيا ، لا سياسيا-اداريا فحسب واذ انتشر الامهرة على نطاق واسع فى الاراضى القديمة والجديدة ، حملوا معهم لغتهم (وهى من الفرع الجنوبى للغات الاثيوبية) وخصائص معيشتهم ودينهم (المسيحية وايديولوجيا خدمة العاهل والدولة ككل) .

ان الكثير من مجموع هذه الملامح الثقافية قد اخذه سواء اناس القبائل التى اصبح جزء من اراضيها ملكا جماعيا للامهرة او الجيران الذين خالطوا هؤلاء المحاربين .

ومن الجهة الاخرى ، فان تقسيم المجتمع الاثيوبى الى شرائح قد شاخ ولا شك فى مستهل القرن العشرين ونسفه تطور البلاد الاقتصادى والاجتماعى . ويشير المؤرخون والاثنوغرافيون بحق الى ان العالم حول الامهرة تغير ، وتغير ايضا مضمون مفهوم «الامهرة» . وحدثت ظاهرة خارقة ولكنها حتمية على الارجح ، حيث ان اتساع وانطماس الاطر الشرحية وانتشار الصفات والسمات التى كانت شرحية صرفا فى السابق (مثل الثقافة والايديولوجيا واللغة وغيرها) الى الجزء الاكبر من المجتمع قد تطابقت زمنيا مع انهيار هذه الشريحة . واكتسبت السمات الاجتماعية طابعا سلاليا بالتدريج ، ولكنها اكتسبته من خلال فناء وزوال الشريحة التى اتت منها .

هل ينبغى النظر الى هذه الحالة لتحول الشريحة الى اثنوس كواقع تاريخى نادر ؟ كلا ، يمكن التذكير بان الشعب ، الذى شكل النواة السلالية لدولة بوغندا الافريقية ، قد ظهر على نحو مماثل . ويمكن تذكر تاريخ ظهور قوم الراجستانيين فى الهند ، وليس من النادر ان يسمى الراجستانيون الى اليوم بالراجبوتيين ، على اسم شريحة اقطاعية ذابت منذ امد بعيد بين فئات السكان الاخرى ، مع العلم ان الراجستانيين جميعا اخذوا جملة من الصفات المميزة لثقافة الراجبوتيين ومعيشتهم .

* * *

انه لطريف انعكاس الاصل المختلط للاثنوسات فى الاساطير . وانها لزيجات غريبة تلك التى يعقدها مؤسسو القبائل والشعوب فى الاساطير والخرافات . لقد جعل التيبيتيون ارومتهم قردا ذكرا وروح الغابة امراة . واعتقد المنغوليون ان اصلهم من الذئب والايل . واعتبر الاتراك القدماء ، الذين اسسوا فى اوائل القرون الوسطى امبراطورية كبرى من البحر الاصفر الى البحر الاسود ، ان جدتهم ذئبة تزوجت انسانا . و«اتى» الاسقوثيون من اقتران هرقل والفتاة الافعى ايخيدنا (وفق الاسطورة اليونانية) ومن زفس وابنة نهر بوريسفين ، الدنيبر (وفق الاسطورة الاسقوثية) .

وما الآلهة والابطال ، الحيوانات والناس الا ذكرى محورة عن التكون القديم للاثنوس الاولى – القبيلة كوحدة داخلية .

نتوقف الآن عند حالة خاصة فى التاريخ ، وهى تكون الاثنوس من «حطام كارثة» بشرى ، من المطرودين والهاربين والمبعدين ، لا من قبائل وجدت سابقا وانتظمت داخليا . والمثال المميز هنا هو ما يمكن تسميته «النموذج الرومانى» .

كان الرومان شعبا أبيا يؤمن ايمانا راسخا بما جاء فى الاساطير حول المنشأ الالهى لسلفيه رومولوس وريموس . ولكن الرواية الاسطورية لتاريخ الشعب الرومانى اوصلت

الينا ، طبعا ، معلومات واقعية تماما عن اصل الرومان .

تقول الاسطورة ، كما نعرف ، ان رومولوس وريموس توأمان ولدتهما كاهنة من اله الحرب . ان عم هذه الكاهنة اموليوس جرد اخاه ، نوميتور ، من سلطته الملكية الشرعية في مدينة البا . وحينما اصبح رومولوس وريموس شابين جمعا جيشا واحتلا على رأسه البا ، واعادوا السلطة الى نوميتور ، اما هما فغادرا المدينة التي استوليا عليها . لماذا ؟ هنا تعطي الاسطورة فجأة ، عوضا عن التفسيرات الخرافية ، تفسيرات تاريخية صحيحة تماما . يتضح ان الجيش الذي احرز النصر كان مكونا من عبيد فارين من شتى القبائل .

يكتب بلوتارك : «كان الشقيقان امام هذا الخيار : اما تسريح العبيد الفارين الذين اجتمعوا حولهما بكثرة ، وبهذا يفقدان ملكهما كله ، واما تأسيس مستوطنة جديدة معهم . في حين ان . . . سكان البا لم يرغبوا في الاختلاط بالعبيد الفارين ولا في منحهم حقوق الجنسية . . . .» فاضطر قائدا الرعاع الى الذهاب مع جيشهما الذي جمعاه «كيفما اتفق» وتأسيس مدينة جديدة ، وهي روما . ثم «انتظم» سكان المدينة واقاموا بنية اجتماعية على غرار المدن التي يعرفونها .

وفي غضون ذلك ، كما يقول بلوتارك نفسه ، اعتبر في عداد الشريحة «النبيلة» للمدينة الجديدة سكانها القلائل الذين استطاع كل منهم ان يسمي والديه وكان يعرف اباه . هكذا صارت تفسر احيانا التسمية التي اعطيت لهؤلاء «الارستقراطيين» ، وهي «باتريسيوس» (من «باتير» — أب) . وتكفي هذه التفاصيل المميزة لتصور من هم الرومان الاوائل عموما .

ما ان تأسست المدينة حتى اعلنت انها مدينة ملجأ : العبد الذي يحتمي فيها لا يسلم الى سيده ، والمدين لا يسلم الى الدائن ، والهارب المخل بالنظام لا يسلم الى من يتعقبه . واعلان المدينة الجديدة ملجأ لا يشكل شيئا خارقا في التاريخ الروماني واليوناني ، بل وفي التاريخ القديم عموما : لقد كان ثيزه ، كما تقول الاسطورة ايضا ، يضع

تحت حمايته في اثينا كل من يلجأ اليه . (ودعا ثيزه مباشرة : «تعالى الى هنا ، ايتها الشعوب جميعا» .)

وهكذا ، فان اساس الشعب يمكن ان يرسيه احيانا اناس يمثلون ، من وجهة نظر «الرأي العام» ، خليطا واضحا لاناس بلا حسب ولا نسب .

ان «حادثة روما» قد تكررت في التاريخ كثيرا . لن نتحدث الآن عن حالات مماثلة اخرى في اليونان وايطاليا ، اذ يكفينا هنا مثال اثينا وروما . سنتوجه الى احداث ابعد واقرب عهدا في مختلف الاراضي .

في الالف الثاني قبل الميلاد ظهر في مناطق السهوب والصحارى الواقعة عند الحدود المشتركة للدول الكبرى حينذاك ، مصر والدولة الحثية وبابل-اشور ، كيان سلالي جديد اطلق عليه جيرانه اسم خابيرو . وقد تكون هذا الشعب من الفارين والمهاجرين من تخوم الدول المجاورة . ان الحروب المستمرة بين الدول الكبرى اثرت اكثر ما يكون ، وهذا امر طبيعي ، في الاراضي القريبة من الحدود . فذهب عدد من سكان سورية وفلسطين وما بين النهرين الى البوادي والصحارى واتحدوا في قبائل ، وهؤلاء «اللاجئون» لم يكونوا «اقرباء» . وبالتدريج قوى الخابيرو الى درجة انهم صاروا يشكلون تهديدا للدول التي هرب اجدادهم منها .

ظهرت في اواسط آسيا في القرن الخامس الميلادي دولة كبرى يسمي المؤرخون شعبها بالجوجانيين احيانا وبالجوان جوانيين احيانا اخرى .

يصف المؤرخ والجغرافي ليف غوميليف ظهور هذا الشعب على النحو التالي : «لم يكن عند الجوجانيين ، كشعب ، اصل سلالي واحد . . . في الازمنة المضطربة كان يوجد دائما اناس حط بهم القدر وتعرضوا للهوان . . . الى السهب . . . كان يهرب الارقاء من جور الاسياد ، والفارون من الجيوش ، والفلاحون المعدمون من القرى الفقيرة . لم يكن يجمعهم الاصل ولا اللغة ولا المعتقد . بل القدر الذي

حكم عليهم بالوجود المعدم والذى كان يرغمهم بقوة على تنظيم انفسهم .

فى خمسينات القرن الرابع حكم بالاعدام على المدعو يوغيويوى ، العبد السابق ، الذى كان يخدم فى خيالة السيانبى . وقد تسنى له الفرار الى الجبال ، فتجمع حوله قرابة مئة فار مثله . وتوفرت للفارين فرصة الاتفاق مع الرحل المجاورين فعاشوا معهم» .

اضطلع بدور جبار فى تكون الشعب الاوكرانى قوزاق زابوروجييه ذوو الشهرة فى تاريخنا الوطنى . لقد كانت زابوروجييه (فى المجرى الاسفل للدنيبر ، قرب ما يسمى بشلالات الدنيبر) احد اهم الحواجز الدفاعية لروسيا وبولندا ، بل يمكن القول لاوربا باسرها ضد الامبراطورية التركية وخانية القرم التترية الجبارتين فى ذلك الحين . واصبحت زابوروجييه فى ذلك الوقت ملجأ لكل من قرر النضال واستطاع الوصول الى شلالات الدنيبر . ولم يات الى هناك الاوكرانيون والروس وحدهم الذين هربوا من الملاك الروس والبولنديين ومن المحاكم والخدم القيصريين والملكيين . بل كان «الزابوروجيون» يقبلون الناس مهما كان اصلهم شريطة ان يكونوا مستعدين لخدمة الوطن الجديد .

وظهر بين القوزاق قادمون من جنوب اوربا ووسطها . وبعثت الجمهورية القوزاقية الاهتمام والامل لدى الكثير من المحرومين من مختلف الشعوب والاديان . وقد كتب السفير البولندى فى عام ١٦٠١ انه يوجد بين سكان زابوروجييه «اناس من كل لغة» .

ما الذى جذب الناس الذين فروا من مواطنهم ، الى المشاعيات القوزاقية ؟ فى الحقيقة ، لم يكن فى الجزء الاعظم من اوربا الشرقية حينذاك مخرج آخر لانسان يرغب فى التحرر من الاضطهاد الاقطاعى .

اضطلع قوزاق زابوروجييه بدور هام جدا فى نضال الشعب الاوكرانى ضد البانات البولنديين الذين كانوا يهددونه ربما بدرجة اكبر من الاتراك والتتر الذين كانت

تهمهم الاتاوة والعبيد قبل كل شيء . لقد اوصل البانات البولنديون اضطهاد القن فى اوكرانيا الى اوجه (اشار المهندس الفرنسى بوبلان الذى بنى قلاعا فى اراضى المملكة بطلب من الحكومة البولندية الى ان الاقنان يعيشون فى اوكرانيا حياة «اسوا من المحكومين بالاشغال الشاقة فى سفن التجذيف») . بالاضافة الى ان البانات كانوا يريدون تجريد الشعب الاوكرانى من ثقافته .

لم يصبح القوزاق شعبا منفصلا ، بل حافظوا على الصلة بوطنهم ، لانهم كانوا ينهلون منه الجزء الاعظم من رافدهم ، ولكنهم اضطلعوا بهذا الدور الهام فى التاريخ الاوكرانى . اذ اصبحت زابوروجييه احد المراكز الايديوجية لتطور وتراص الشعب الاوكرانى وكان وجود زابوروجييه نفسه بالنسبة الى المواطنين الاوكرانيين رمزا يشير الى ان الشعب الاوكرانى يسير نحو التحرر والوحدة .

ينبغى القول ان كلمة «قوزاق» نفسها كانت مغرية بالنسبة الى الغرباء ، ولا سيما الروس والناس القادمين من الشرق التركى . فى حين انها لم تكن قبل ذلك بقليل مدعاة للتمجيد والاطراء ، اذ كانت تعنى مجرد انسان بلا بيت ولا عشيرة .

اتت كلمة «قوزاق» الى اللغتين الاوكرانية والروسية من اللغات التركية ، فمن المعروف انه كان لروسيا منذ القديم الكثير من الجيران الاتراك : الخزر والبيشينغيين والبولوفيين ، بالاضافة الى التتر . . . والقوزاق هو انسان بلا بيت ، شارد ، فقير ، طريد ، هو الذى «لا يملك شروى نقير» . وكلمة «قوزاق» تطابق من حيث معناها الاصلى الكلمة الروسية القديمة «ازغوى» («طريد») ، اى الانسان الذى فقد مكانه فى المجتمع .

. . . كلنا يعرف الآن ان الشعب الاميركى ، شعب الولايات المتحدة الاميركية ، يضم العديد من المجموعات السلالية المختلفة المنشأ . فهناك سويديون وايطاليون

وزنوج ومكسيكيون وصينيون ، او بالاحرى : اميركيون من
اصل سويدى وايطالى وصينى .

ان الشعب الاميركى من وجهة النظر الاثنوغرافية العلمية
شعب «نموذجى» سلاليا بلا استثناء . وهذا ما تمكن رؤيته
بوضوح كاف من خلال ذلك العدد المميز نسبيا من
الاميركيين الذى يرمز اليه بالاحرف الاربعة : WASP – وهى
الاحرف الاولى من الكلمات الانكليزية : «بيض» –
«انكلوسكسون» – «بروتستانت» . حتى الرئيس الراحل
جون كيندى ، مثلا ، لا يمكن ان يعزى اليهم بصفته
كاثوليكيا .

ان التحليل التاريخى : الانتروبولوجى ، السلالى ،
الاجتماعى يبين بوضوح الاصل المختلط لهذه المجموعة
ايضا . مختلط من الناحية الدينية والنواحى الاخرى . تبدأ
بالتدريج من النهاية ، باسلوب علمى صرف . فى ايامنا
ينتقل سنويا ما بين ٣٠ و٥٠ الفا (حسب مختلف التقديرات)
من الخلاسيين ذوى البشرة البيضاء الى الولايات الشمالية ،
حيث يبقى اصلهم مجهولا ، ولذا يعتبرون «بيضا» . هذه
العملية تفسر ، بين امور اخرى تناقضا غير مفهوم للوهلة
الاولى بين حقيقتين احصائيتين صادقتين بالدرجة نفسها .
فمن جهة ، نجد ان ممثلى الاقلية الزنجية (التى يعزى اليها
«حسب التقليد» – فثمة «تقليد» كهذا فى الولايات المتحدة –
حتى الناس الذين فيهم واحد على ١٦ او على ٣٢ «من الدم
الافريقى») يملكون ، وسطيا ، اولادا اكثر مما لدى
الاميركيين «البيض» ، ونجد ، من الجهة الاخرى ، ان نسبة
هذه الاقلية بين سكان الولايات المتحدة لم تزد فى العقود
الاخيرة بالدرجة التى يفترضها الطرح الاحصائى الاولى .
والتناقض فى الاحصاء يزول الى درجة كبيرة بانتقال
الخلاسيين الملونين الى فئة سلالية اخرى ، اى بالتحرك
السلالى الداخلى وبتنوع الاصل السلالى . وقد مضى على هذه
العملية اكثر من مئة وخمسين سنة بكثير . ويمكن ان
نتذكر كشرح سافر لهذا الموضوع احدى روايات سينكلير

لويس . احد الاميركيين الناجحين الفاضلين من فئة WASP
المزعومة اياها يتعمق فى نسبه ليستوضح ما اذا كانت
كنيته النبيلة الى اقصى حدود ستشير الى ان اصل اسرته
من الملوك . ولكن عوضا عن ان يمتد جذر شجرة نسبه الى
ملك بريطانيا ، او الى اميرة فى اسوأ الاحوال ، اتضح انه
يمتد الى زنجى ليس وجيها بالمرة .

اذا اخذنا فى الاعتبار انه فى خلال فترة تقرب من مئتى
سنة يمكن لاب ثلاثة اولاد يغدو اخلافه جميعا آباء لثلاثة
اولاد وسطيا ، ان يصبح سلفا لستة آلاف شخص ونيف ،
وفى غضون ثلاثمئة سنة يغدو سلفا لمئة وخمسين الفا ،
يسهل ادراك ان زواجا مختلطا واحدا يؤدى ، من وجهة نظر
العنصريين ، الى آثار مروعة تماما .

ولكن ليس الزنوج وحدهم فى اميركا هم خارج WASP .
ان الزواج بالايرلنديين والايطاليين واليهود والفرنسيين
والسلافيين والالمان كان اقل صعوبة بما لا يقارن من
الزواج بالزنوج (او انه لم يكن صعبا على الاطلاق) . لنتوجه
الآن الى المسألة من وجهة نظر «نقاء الدين» .

ان اولاد هذه الزيجات كانوا يعتنقون بغالبيتهم دين
احد الابوين الاكثر امتيازا ، فكانوا ينتقلون الى فئته على
نحو تلقائى تقريبا . وكان يعزى الى الانكلوسكسون
البروتستانت منذ البداية البروتستانت السكوتلانديون
والبروتستانت الايرلنديون ، مع ان هؤلاء واولئك ليسوا
انكلوسكسونا . واخيرا ، فحتى الانكليز «الاصلاء» الذين
قدموا الى اميركا هم اخلاف شعوب كثيرة اضطلعت بدورها
فى التاريخ السلالى لجزيرة بريطانيا .

ان اولى المستوطنات فى شمال الولايات المتحدة الحالية
اسسها البوريتانيون – اتباع احد المذاهب البروتستانتية
التى كانت تتعرض للملاحقة فى انكلترا . واستيطان الانكليز
فى ولاية بنسلفانيا دشنه المهتزون الذين كانوا يلاحقون
بقسوة فى انكلترا وخارجها .

ان فلاحى ايرلندا المحرومين من الارض والحرفيين

والعمال والفلاحين المعدمين من المانيا والسويد والنمسا – المجر كادوا ان يشكلوا فى القرن التاسع عشر نصف السكان الجدد فى الولايات المتحدة . وآمال هؤلاء الناس جميعا فى الحرية والحياة الجديدة بالانسان غالبا ما كانت هنا ايضا سرابا خادعا . ويعرف القرن التاسع عشر فى اميركا مذابح للايرلنديين والصينيين واليابانيين وغيرهم .

لقد تحدثنا اعلاه عن نموذج تشكل الشعوب من سكان يختلفون سلاليا اشد الاختلاف ارغمتهم على الاتحاد الظروف الاجتماعية الناشئة . بيد ان التاريخ قلما يصادف تجسدا لنموذج نظرى محتمل بشكله الصرف . يتكون اساس سكان البرازيل من المستعمرين البرتغاليين والزنوج الذين جلبوا الى البلاد كعبيد والهنود – السكان الاصليين . بيد ان موضع اعتزاز البرازيليين الوطنى هو ان بلادهم كانت منذ القدم تستقبل فى اراضيها الشاردين والمحرومين من كل ارجاء الدنيا . ينبغى هنا ان نفى البرازيل حقها من التقدير كبلد قلصت فيه التطاحنات القومية ، ولا سيما اذا قورن بالولايات المتحدة الامريكية ، الى الحد الادنى . هناك لا يشكل التعليم المختلط بين «البيض» و«السود» معضلة ، ولا توجد هناك القاب ازدراء للمجموعات السلالية من هذا المنشأ او ذاك .

وصف الكاتب الكوبى اليخو كاربنتيير فى روايته «تقلبات الطريقة» بلدا اميركيا لاتينيا نموذجيا . حتى حكامه الموغلون فى الرجعية يقفون شاؤوا ام أبوا ضد العنصرية ، ولو لهذا السبب البسيط ، وهو ان مظهرهم الخارجي ينم ، كقاعدة عامة ، عن اصل مختلط .

اما كيف تتحد القبائل فامر تمكن رؤيته انطلاقا من مثال تاريخ الرومان المتواصل . ان العبيد الفارين ، الذين منحوا رومولوس وريموس القوة ، اصبحوا بلا نساء . ووجدوا المخرج فى غزو قبيلة السابينيين المجاورة وسبي الفتيات السابينيات . وردا على ذلك يبدأ السابينيون الغاضبون المهانون حربا على الرومان ، وقد مالت كفتهم فى

المعركة وكان يبدو ان الرومان مقضى عليهم بالهزيمة . . . فى هذه اللحظة تندفع السابينيات بين المتقاتلين . لقد احببن ازواجهن واردن ان يصلحن بينهم وبين ابائهن واشقائهن . فى ميدان المعركة عقد اتفاق ودى على توحيد اللاتين والسابينيين فى شعب واحد يجب ان يتكلم اللاتينية ، ولكن عليه ان يتخذ احدى تسميات السابينيين اسما له . واصبح اللاتين كويريتيين .

هذه الواقعة «الرومانية» تشبه الى درجة مدهشة الحوادث التى جرت فى مستهل القرن التاسع عشر فى افريقيا ، فى كينيا . هنا تعيش فى جبال مارسابيت قبيلة دينديلي . انها تعرف اصلها تماما . منذ خمسة اجيال قدمت الى هنا عبر ارض يسكنها المزارعون «المبرو» ومجموعة محاربين من الصومال ابعدها عن الوطن جيران اقوياء . وقد سبى الهاربون بالقوة زوجات لهم من المير (سابينيات !) واستوطنوا على حدة ، فظهرت قبيلة جديدة .

ان هؤلاء «المنشقين» ، وقد اصبحوا فى ارض غريبة ، يمكن لهم ، طبعا ، ان ينصهروا فى سكانها ، ولكن ثمة احتمالات اخرى ايضا . من المميز جدا مصير النروجيين فى القرون الوسطى ، اخلاف الذين غادروا يوما وطنهم الى الابد . فى وقت مضى كان الفيكنغ النروجيون يبثون الرعب فى اوربا وافريقيا الشمالية وآسيا الغربية . ثمة اقاصيص مدهشة عن جراة وقوة وقسوة قراصنة البحر هؤلاء ، الذين كانوا يحسنون القتال فى البر ايضا . كان طاقم سفينة واحدة ينطلق احيانا الى القتال ضد جيش باكمله .

ولكن لا تهمنا الآن بسالة النروجيين القدماء بحد ذاتها ، بل كونها قادتهم الى انكلترا وشمال غرب فرنسا وصقلية وارض كثيرة اخرى ، من ايرلندا الى بيزنطة ، حيث لم يكن من النادر ان يستوطن الفيكنغ فيها الى الابد . لقد اسسوا ممالك وامارات ودوقيات . . . ولكن اينما استوطن النورمانديون وسط الشعوب الاخرى ، كانوا فى نهاية المطاف يندمجون مع هذه الشعوب فى كل واحد . نورماندى

اليوم مجرد منطقة فى فرنسا ، ولا شيء فى صقيلة او ايرلندا يذكر بان النورمانديين حكموا جزءا كبيرا منهما . ان القبائل والشعوب التى اخضعوها فى الازمنة الغابرة كانت فى «بيتها» على اى حال ، وحتى الجدران كانت تساعدها . لقد احرز المهزومون النصر ايضا على المنتصرين حينما اصبحت اللغة والثقافة سلاحا وميدان معركة .

ولكن فى الجزيرة الشمالية ايسلاندا لم يقابل النورمانديون شعبا يستطيعون اخضاعه ، ليصبحوا جزءا منه فيما بعد .

* * *

نسمح لنفسينا هنا باستطراد من نوع خاص للحديث عن حالة نادرة للغاية : يعرف المؤرخون بدقة انسانا محددا اصبح «ابا مؤسسا» لشعب كامل . هذا المحظوظ يدعونه انغولفور ارنارسن (اى ابن ارنار) . لقد انتقل مع اولاده واسرته – كملاح نروجى حقيقى – فى اواخر القرن التاسع الى بلد بعيد ، الى ايسلاندا . وحسب عادة النروجيين حينذاك اخذ معه فى جولته البحرية عمودين مقدسين كانا ينتصبان فى بيته عند مقعد الشرف ، ولدى الاقتراب من ساحل الارض الجديدة قذفوا بالعمودين الى البحر وقرروا الاستقرار فى الشاطئ الذى تقذف اليه الامواج العمودين . بعد ثلاث سنوات وجد مرافقو انغولفور هذين العمودين بعيدا عن مكان الاستيطان الاولي . ولكن انغولفور انتقل الى المكان الذى وجدوا فيه العمودين : وهما لا يزالان باقيين الى اليوم فى شعار العاصمة الايسلاندية ريكيافيك الذى ينتصب مكان استيطان انغولفور ارنارسن .

ان «كتاب استيطان البلاد» الايسلاندى يذكر ايضا اربعمئة من المستوطنين الاوائل اللاحقين ويتحدث عن حياتهم .

وتضم الطبعة الايسلاندية ذات الشعبية «ساغات عن الايسلانديين» و«قصص عن الايسلانديين» اثنى عشر مجلدا .

وفيها ذكر لقرابة سبعة آلاف شخص عاشوا بين عامى ٩٣٠ و١٠٣٠ .

يكتب الاختصاصى السوفييتى فى الشؤون السكاندينافية ستيلبين – كامينسكى : «ان «ساغات عن الايسلانديين» تشكل معا ما يشبه «كوميديا انسانية» يكاد ان يكون فيها دور او ذكر لكل «المواطنين النشاط» فى ايسلاند فى القرن الاول من «السلطة الشعبية» ، او ، بتعبير آخر ، كل ايسلاندى ذلك العصر ، باستثناء العبيد والخدم والحشم» .

وهكذا يشكل الايسلانديون حالة فريدة من ناحية اخرى ايضا . ولعلهم الشعب الوحيد الذى نستطيع ان نعرف اسلافه بالاسم على امتداد احد عشر قرنا بمثل هذا العدد . لا نستطيع ، طبعا ، ان نعرف الاسلاف كلهم ، ولكننا نعرف نسبة عالية منهم بحيث يشكل التاريخ الايسلاندى مستودعا دائما بالنسبة الى الاثنوغرافيين والارخيولوجيين والاختصاصيين فى الادب . ويعتبر انه يعيش الآن فى ايسلاند الجيل الثانى والعشرون او التاسع والعشرون للشعب .

لقد اوردنا امثلة على نموذج تشكل الشعوب والاثنوسات الذى سمحنا لنفسينا بتسميته بالنموذج «الرومانى» ، نموذج تشكل الاثنوس فى الغالب من ادنى المجموعات والفئات المختلفة سلاليا واجتماعيا التى تضطرها الى الاتحاد عوامل تاريخية ملموسة ، اقتصادية فى اساسها .

قواعد الانقسام

ان كل الفصول التى قرأتموها كانت تنظر من حيث الاساس فى «امثلة تكون» الاثنوسات . ولكن ثمة دور لا يقل عن ذلك اهمية فى العمليات السلالية تضطلع به عوامل التمايز السلالى ، انقسام الاثنوسات وتفككها الى عدة اثنوسات اخرى ، وكذلك انفصال مجموعات من الناس عن الاثنوس ليشكل اخلافهم اثنوسا جديدا فيما بعد . (بالمناسبة ، لن ننسى ، طبعا ، سواء فى عرضنا هذا او فيما بعد ان العمليات

السلالية ذات الطابـــع الانقسامى تقترن عادة بعمليـــات توحيدية) .

ان اغلب سكان الارجنتين هم احفـــاد للاسبان ، ويمكن اعتبار الشعب الارجنتينى متفرعـــا من الشعب الاسبانى . ويرتبط اليافوتيون من حيث المنشأ بقبائـــل غدت الاساس للشعب البورياتى المعاصر . ان جزءا من هذه القبائل تحرك منذ سنوات عديدة الى الشمال ، مخلفا وطنه الاصلى «وراء الجبال والغابات» . والاستراليون هم اخلاف الانكليز الخ .

الترحال والتجوال . . . لكم كانا كثيرين فى التاريخ .

. . . عاش ثلاثة اخوة : ليخ وتشيخ وروس . تكاثرت ذريتهم وضاق بهم المكان ، فقرروا التفرق الى اراض جديدة وقطعوا على انفسهم عهدا بتذكر القربى . وكانما جرى حينذاك انقسام الشعب السلافى الواحد . هذه الاسطورة الفت بعد الحدث نفسه بمئات السنين ، ولكن هذا التفسير ، المألوف والبسيط للوهلة الاولى ، لا يزال مع ذلك يشرح شيئـــا للسلافيين وغيرهم .

هذه الاسطورة تشبه اسطورة اخرى من الكتاب المقدس عن افتراق ابى المؤمنين ابراهيم وابن اخيه لوط . عند مربيى الماشية هذين تكاثرت المواشى ، فاخذ رعاتهما يختلفون على المراعى . وفى نهاية المطاف قال ابراهيم للوط : «لا تكن مخاصمة بينى وبينك وبين رعاتى ورعاتك ، لاننا نحن اخوان . اليست كل الارض امامك ؟ . . ان ذهبت شمالا ، فانا يمينا ، وان يمينا ، فانا شمالا» .

نعم ، حينما تكون الارض الخالية او الخالية نسبيا شاسعة تنقسم العشائر والقبائل وتفترق الى مختلف الجهات كما تريد وبدون تعقيدات خاصة : «اليست كل الارض امامك ؟»

ولكن هذه الامثلة كلها على ظهور شعوب جديدة نتيجة تفرق الاثنوسات الاقدم ، ومن بينها مثل الكتاب المقدس ، تبدو قريبة العهد اذا تذكرنا ان هذا الانقسام كان فى المجتمع البدائى منذ اقدم الازمنة الطريقة الرئيسية لتشكل الاثنوسات الجديدة .

كانت المجتمعات البشرية الاولى تنقسم الى اجزاء تتفرق الى مختلف الجهات لكى تسكن الكوكب فى نهاية المطاف . وكل جزء من الوحدة السابقة كان يزداد اختلافا عن الآخر بالتدريج ، سواء من حيث اللغة او الثقافة ، ولا يعود الناس المنتمون الى كل جزء يعتبرون اقرباءهم البعيدين منهم . . .

هذه العملية تجرى منذ زمن بعيد جدا ، وهى لم تنته فى العصور اللاحقة .

لعل من الامثلة الكلاسيكية على التمايز السلالى تاريخ ظهور الشعوب السلافية الشرقية الكبيرة الثلاثة ، الروسى والاوكرانى والبيلوروسى ، على اساس الشعب الروسى القديم ، ومن ناحية اوسع : تشكل الشعوب السلافية كلها .

وكما يفترض علماء اللغة ، كانت القبائل التى ينبغى ان ينشأ منها فيما بعد الجرمانيون والسلافيون والبلطيون تعيش معا منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف او اربعة آلاف او خمســـة آلاف سنة فى اراض صغيرة نسبيا وتتكلم بلهجات لغـــة واحدة . وفيمـــا بعد «تفرقت» اللهجات واصبحت لغات منفصلة ، وظهر الجرمانيون والسلافيون والبلطيون لاول مرة . اى اننا هنا امام حالة انطلاق تاريخية نموذجية للشعوب – الاثنوسات جميعا ، وهى تشكل القبائل – الاثنوسات الاولى فى اقدم الازمنة .

كتب المؤرخ الروسى البارز كلوتشيفسكى يقول : «ان الاثنوغرافيا التاريخية التى درست اصـــل كل هذه الشعوب (القديمة – ى . ب ، ر . ب) قد حاولت استيضاح اى منها كان ينتمى الى قبيلة كيلتية وايها الى قبيلة جرمانيـــة او سلافية . يبدو ان ثمة شيئا من الخطأ من الناحية المثودولوجية فى مثل هذا الطرح للمسألة . هذه المجموعات القبلية التى تقسم اليها السكان الاوروبيين الآن ليست تقسيما ازليا بدائيا للبشرية ، بل ان كلا منها تكون واستقر تاريخيا فى حينه» .

لم يكن فى وسع احد فى «زمنه البعيد» ذلك ان يشير فى الخارطة ، التى لم يكن يوجد من يضعها ، الى المكان الذى يعيش فيه السلافيون او الجرمانيون او الكلتيون ، مثلا . . .

بعد مضى الوف السنين اصبحت مسألة وطن السلافيين الاول واحدة من اعقد المسائل .

يعيش السلافيون الآن من بحر الادرياتيك فى الجنوب الغربى الى بحر البلطيق والمحيط المتجمد فى الشمال ، ومن الاودير فى الغرب الى المحيط الهادى فى الشرق . ويشكل السلافيون قرابة ثلاثة ارباع سكان الاتحاد السوفييتى ، وكذلك فان الجمهوريات الاشتراكية بولندا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وبلغاريا يسكنها السلافيون من حيث الاساس . وعند برلين مباشرة ، على نهر شبريه ، استطاع شعب اللوجيتشانيين السلافى الصغير ان يحافظ على اصالته .

ينبغى القول على الفور ان مسألة اصل السلافيين كانت على امتداد مئات السنين معقدة جدا ولا تزال . ولعله يبدو من الصفحات السابقة فى هذا الكتاب مدى صعوبة حل ألغاز الماضى بالنسبة الى المؤرخين . وليس ثمة ما يدعو الى العجب ان للرد على هذا السؤال اشكالا متعددة .

. . . بين الذين تفرقوا عن برج بابل الذى لم يكتمل بناؤه نجد فى الشكل الروسى القديم لهذه الاسطورة الايليريين – السلافيين عوضا عن الايليريين . وقد جاء فيها ان الايليريين – السلافيين تنقلوا اول الامر فى ما بين النهرين ، ثم وصلوا عبر بلاد الكلدانيين وآسيا الصغرى الى بحر مرمرة وعبروه الى البلقان واستقروا هناك على الدانوب . ومن الدانوب تفرقت بعض الفروع السلافية الى اراضيها .

لم تكن الشعوب السلافية تذكر «البلبلة البابلية» الا نادرا ، ولكنها بقيت طويلا تعتبر اراضى الدانوب وطنا للسلافيين . وتربط الاساطير المتاخرة بمختلف النقاط فى وادى الدانوب (وكذلك ، بالمناسبة ، بمختلف النقاط على شاطئ الادرياتيك ، وفى تاترا والكربات) حكاية الاشقاء الذين تفرقوا الى مختلف الجهات : تشيخ وليخ وروس الذين سبق وتحدثنا عنهم ، والذين ينحدر منهم التشيك والبولنديون والروس .

كل هذا ممتع جدا وهام جدا لفهم مصائر السلافيين . . .

ومع ذلك فان اغلب المؤرخين مجمعون الآن على ان وادى الدانوب لم يكن وطن السلافيين الاول . ومن الحجج الدامغة كون الرومان لم يعرفوا شيئا عن السلافيين على الدانوب . هذا فى حين ان الرومان استولوا فى مستهل القرن الاول الميلادى على الجزء الاعظم من منطقة الدانوب .

احيانا يعتبر الكربات وطن السلافيين الاول . وهناك ايضا يتناقلون الاساطير عن افتراق الاخوة ، مؤسسى القبائل . والامر الرئيسى هو ان الكربات يبدو مغريا جدا على خارطة اوربا كمركز جغرافى للاراضى السلافية . الى الشرق منه يعيش السلافيون الشرقيون ، والى الغرب السلافيون الغربيون ، والى الجنوب السلافيون الجنوبيون .

يميل زملاؤنا اللغويون الى نفى فكرة ان الكربات كان وطن السلافيين الاول ، فللكثير من النباتات المميزة للكربات تسميات غير سلافية .

لقد بحث عن اسلاف السلافيين ايضا على شاطئ بحر البلطيق ، بين مصبى نيمان ودفينا الغربى . وبذلت محاولات لايجاد خط مستقيم يصل السلافيين باسقوثيى منطقة البحر الاسود الفلاحين ، الذين كانوا يزودون اثينا القديمة بقمحهم . وهذه الرواية لم تحظ ايضا بدعم واسع .

لقد وجه علم اللغة ضربة ساحقة الى الكثير من الفرضيات . لم تكن توجد فى اللغة السلافية القديمة ، كما يبدو ، كلمات تعنى اعشاب السهوب او الشعاب الجبلية او الكثبان الساحلية او امواج البحر . ولكن لماذا ؟ من الواضح ، لعدم الحاجة اليها ، اى ان اقدم السلافيين لم يعيشوا فى السهوب والجبال ، ولم يكن وطنهم الاول واقعا على البحر . ولكن لغتهم كانت حافلة بوفرة من الكلمات التى ترمز الى الغابات والسهوب ذات الاحراج ، الى اعشابها واشجارها وحيواناتها وحشراتها . ولا بد ان الارض السلافية القديمة كانت غنية بالانهار والبحيرات والمستنقعات .

يكتب المؤرخ والارخيولوجى السوفييتى سيدوف : «ينبغى الافتراض ان السكان السلافيين الاوائل قد استخدموا فى

الفترة الاولى من تاريخهم التسميات السابقة (الهندية الاوروبية والاوروبية القديمة) للمياه . ولا شك فى ان نشوء لغة السلافيين اقترن بايجاد تسميات جديدة للمياه . وبالتالى ينبغى البحث عن الوطن السلافى الاول لاقدم العهود فى ميدان التسميات الاوروبية القديمة للمياه . ففى عملية استيطان الاراضى الجديدة فقط اخذ السلافيون يطلقون تسميات سلافية خاصة على الانهار والبحيرات» .

ثمة فى اللغة السلافية القديمة كلمات ذات اصل ايرانى (اسقوثى – سارماتى) وبلطى . اى ان الايرانيين والبلطيين كانوا جيرانا للسلافيين . ولكن لا توجد كلمات ايرانية فى اللغات البلطية . فمن فصل البلطيين عن الاسقوثيين والسارماتيين ؟ الجواب يفرض نفسه : السلافيون .

وهذه سلسلة اخرى من الحجج اللغوية .

يبدو للوهلة الاولى ان فى الوطن الاول لهذا الشعب او ذاك ، عند منابعه ، كما يقال ، يجب ان تبقى الخصائص القديمة نسبيا للتراكيب اللغوية ، ويجب ان يصادف هنا المزيد من التسميات التى تنطوى على النعوت المرتبطة باسم هذا الشعب .

ولكن الوضع عكس ذلك فى الواقع . فى ياقوتيا كانوا حتى امد قريب يتكلمون فى الحياة اليومية مستخدمين تراكيب القرن السابع عشر وبعض الكلمات المنسية منذ زمن بعيد فى موسكو او فى منطقة الفولغا . وهذه القاعدة الغريبة تنطبق على كل اللغات . اذ ان اللغات ، لدى انتقال عدد من الناطقين بها ، تصبح فى المكان الجديد كشىء محنط . ففى جزيرة بيكتيرن فى المحيط الهادئ ، الجزيرة التى استوطنها فى القرن الثامن عشر بحارة بريطانيون فارون ونساء بولينيزيات ، يتكلم السكان الآن بلهجة مهجورة من لهجات اللغة الانكليزية .

وينطبق هذا على الكلمات ومفردات اللغة . اما الخصائص القديمة للفظ (نظام اللغة الفونيتيكى حسب المصطلح العلمى) فتبقى على نحو افضل ، كقاعدة عامة ، فى اقدم الاراضى :

فى مناطق الاستيطان الجديدة يتجلى تاثير لغة سكانها الاوائل بقوة فى اللفظ .

وهكذا ، فحسب معطيات اللغوى مارتينوف ، تلاحظ ملامح اللفظ السلافية الاولى بشكل خاص فى وسط بولندا ، وتتجلى الى الشرق على نحو اضعف ، وتزول اطلاقا عند الشعوب السلافية الجنوبية على الدانوب وفى البلقان . ولكن بقيت فى اللغات السلافية الشرقية والجنوبية عناصر اقدم للمفردات . وينجم عن هذا ان وطن السلافيين الاول يقع فى منطقة فيسلا . ان تحليل الوسط الجغرافى لسكنى السلافيين جعل جملة من الباحثين يستنتجون ان اقدم ارض سلافية هى الواقعة بين نهرى فيسلا واودير .

ولكن لا يوجد اجماع على هذا الاستنتاج . ومع ذلك فان الاستنتاجات العامة لفقه اللغة حول منشأ السلافيين يمكن صياغتها على النحو التالى .

منذ الالف الاول ، وربما منذ نهاية الالف الثانى قبل الميلاد (ثمة خلاف على تحديد المواعيد) بدأ تمايز اللغة السلافية الاولى عن اللغة الاوروبية القديمة المرتبط بانفصال السلافيين الاوائل عن الكيلتيين الأوائل والجرمانيين الاوائل والايطاليكيين الاوائل . ويفترض بعض الباحثين انه انفرزت اول الامر لغة بلطيقية – سلافية انقسمت بدورها منذ الفين وخمسمئة سنة تقريبا الى اللغتين السلافية الاولى والبلطيقية الاولى .

بقيت الوحدة اللغوية السلافية الاولى حتى بداية هجرة السلافيين الواسعة فى الفترة من القرن الخامس الى القرن السابع بعد الميلاد . ويفترض لغويون مرموقون آخرون ان تفكك الوحدة اللغوية السلافية جرى فى فترة اقرب الى زمننا ، فيعتبرون انه لم يبدأ قبل القرن التاسع الميلادى .

ومهما كان الامر ، فان الوحدة السلافية قد تفككت بعد ان تقدم السلافيون فى الغرب الى نهر الالب ، بل حتى بعد ان عبروه ووصلوا الى المجرى الاعلى للدانوب فى الشمال

والشرق ، وشغلوا الجزء الاكبر من سهل اوربا الشرقية الكبير ، واستوطنوا فى الجنوب كل شبه جزيرة البلقان تقريبا ، مع العلم ان المستوطنات السلافية فى اوائل القرون الوسطى ظهرت سواء فى آسيا الصغرى او القفقاس او ايطاليا ، او حتى فى اسبانيا .

والاختصاصيون مجمعون نسبيا فى صدد الثقافات القديمة التى ينبغى اعتبارها سلافية ، ولا سيما فى فترة الالف والخمسمئة سنة الاخيرة . وعلى اى حال ، فان جملة من المعطيات الارخيولوجية تؤكد الفرضية اللغوية القائلة بان وطن السلافيين الاول يقع بين نهرى فيسلا واودير . ولكن النتائج الاخرى للحفريات تشير الى جنوب وجنوب شرق هذه الاراضى .

ادى الانتروبولوجيون قسطا كبيرا فى معالجة هذه القضية . وهذا القسط قيم بشكل خاص لانه مرتبط باقدم فترة لظهور السلافيين ، ولانه كان من عادة الكثير من ثقافات اوربا الشرقية والوسطى حرق جثث الموتى ، ولذا لا يوجد تحت تصرف العلماء الا مواد قليلة للغاية .

فى عام ١٩٧٣ صدر مؤلف اليكسييفا «انتوجينيز السلافيين الشرقيين حسب معطيات الانتروبولوجيا» . ولكن الكتاب اوسع من تسميته . تبذل هنا محاولة لاستيضاح منشأ السلافيين عموما ، وتسعى الانتروبولوجية الى تعيين وطنهم الاول بطرائق علمها . «بينت نتائج تحليل المادة الكرانيولوجية العائدة الى مختلف المجموعات السلالية فى اوربا تشابها كبيرا للبنية الانتروبولوجية للمجموعات السلافية واختلافها عن الجرمانيين وتشابهها من بعض النواحى مع الشعوب الناطقة باللغات البلطيقية والفنلندية . عندنا كل المسوغات لاستنتاج وجود رابطة انتروبولوجية معينة للسلافيين تكونت فى منطقة ذات ارتباط بالاراضى التى كانت تسكنها الشعوب الناطقة باللغات البلطيقية والفنلندية» .

ينبغى القول ان هذه الاستنتاجات ليست هامة فحسب ، بل هى ايضا مفاجئة الى درجة كبيرة . ففى كل انتوس تقريبا

توجد ، كما سبق القول ، نماذج انتروبولوجية مختلفة ، ولا بد من تحليل دقيق جدا لكى يمكن ايجاد سمات مميزة فى المظهر الخارجى لانتوسين قريبين جغرافيا وانتروبولوجيا .

فى القرن السادس الميلادى (وربما قبل ذلك) بدأ السلافيون بهجمات على الامبراطورية البيزنطية الرهيبة . وقد ارسل الامبراطور يوستينيان فى مستهل القرن السادس جيشا ليحمى منهم المعابر على الدانوب ، اذ يبدو ان السلافيين فى ذلك الوقت كانوا قد شغلوا بثبات الاراضى الواقعة شماله . ثم ضعفت قوى الامبراطورية ، فصار السلافيون يشنون المزيد والمزيد من الغارات على اراضى الامبراطورية ، ثم بدأوا بالاستقرار فى البلقان . واقامت بيزنطة لحماية عاصمتها اسوارا طويلة ، او «منطقة محصنة قوية» ، حسب التعبير المعاصر . بقيت القسطنطينية آمنة ، اما السلافيون الباقون هنا فتحركوا الى الجنوب ، والى الغرب ، والى الشمال على طول الشاطىء الغربى للبحر الاسود الذى لم يكونوا قد «قبضوا على ناصيته» بعد . وفى الغرب وصل السلافيون الى بحر الادرياتيك . وفى الجنوب احتل السلافيون جزءا كبيرا من اليونان .

فى القرن السابع ظهرت فى البلقان اول دولة للسلافيين ، على ما يبدو ، وهى سلافينيا . لقد كانت امارة ذات اراض قليلة نسبيا ، وحافظت على استقلالها امدا قصيرا نسبيا . ولكن الدولة السلافية – البلغارية التى ظهرت فى اواخر القرن السابع تعيش الى الآن (مع بعض الانقطاعات والحق يقال) على الرغم من الغزاة الذين لا عد لهم ولا حصر .

ان اخضاع السلافيين للبلقان لم يرض ، طبعا ، السكان المحليين فى هذه المناطق . بيد ان البيزنطيين لم يكونوا يشيرون عادة الى قسوة السلافيين ، بل ، على العكس ، الى حبهم للسلام مقارنة بالبرابرة الآخرين . وكان السلافيون فى الغالب «يستقرون» فى الارض فورا فى المناطق التى يحتلونها ، ولم يكونوا يسعون الى مجرد الغزوات لنيل الغنائم . وفى ذلك الوقت كانت مناطق كثيرة من البلقان قد

اصبحت خالية من الناس بعد حملات الغوطيين والهون .

وفي الفترة نفسها كانت تجرى فى اوربا الشرقية عملية تكون الشعب الروسى القديم التى استمرت قرونا . وهنا ايضا لم يؤد تنقل السلافيين الا الى اصطدامات مسلحة قليلة نسبيا مع الذين كانوا يسكنون هذه المناطق فى السابق . اولا ، تغلغل السلافيون ، ولا سيما فى الشمال والشمال الشرقى ، فى اماكن قليلة السكان نسبيا . والسلافيون انفسهم تنقلوا بمجموعات صغيرة . وعلاوة على ذلك ، كانوا فلاحين بالدرجة الاولى ، وحاجة الفلاحين الى الارض اقل بكثير من حاجة الصيادين او مربى الماشية الرحل .

ان الالف الاول الميلادى هو زمن التطور العاصف للتكنيك والثقافة عند الكثير من الشعوب . لقد جلب القادمون السلافيون معهم منجزات التكنيك والثقافة : من الطراز الجديد لعدة الخيل الى الحرف الجديدة التى كان يجهلها بعض الجيران . واضطلع بدور هام ايضا كون الحبوب الجديدة ، الجودار ، صارت مع قدوم السلافيين تزرع بنجاح فى مناطق شاسعة من سيبيريا الشرقية .

لقد ظهر السلافيون فى اراض عانت الكثير تقع شمالى البحر الاسود ، وكانت على امتداد الف سنة طريق الرحل الممهد من آسيا الى اوربا ، فقفر من الناس تقريبا الكثير من اراضى اوربا الشرقية . ولعل كل هذا يفسر كذلك استيطان السلافيين لهذه الاراضى بدون اراقة دماء تقريبا . واتخذت عشرات عديدة من القبائل غير السلافية الثقافة السلافية ومعها اللغة السلافية . وليس من النادر ان يجد الارخيولوجيون فى قبور اوربا الشرقية العائدة الى اواسط ونهاية الالف الاول الميلادى ادوات تشهد بوضوح على درجة رفيعة من الاتصالات بين الثقافات ، وعلى تكاملها التدريجى .

هكذا تقريبا جرى – كما يفترض الكثير من الباحثين – تكون الشعوب – الاثنوسات السلافية .

اذ ننهى هنا عرض موضوعاتنا عن ظهور السلافيين وتمايزهم وتوزعهم ، ينبغى الاشارة بشكل خاص الى ان

التحرك السلافى بدأ حينما كانت هجرة الشعوب الكبرى فى اوجها . ولعل هذا التحرك كان اضطراريا ، فمن الصعب والصعب جدا المحافظة على الارض حينما تاتى من المعمورة كلها قبائل وشعوب مجهولة جديدة وجديدة . ففى القرن الرابع وصلت قبائل الغوطيين الجرمانية ، مثلها ، الى منطقة البحر الاسود والقرم . وما كان لغزوة الهون الرهيبة الا ان تمس الاراضى السلافية .

وفيما بعد نشأ الاثنوس الروسى القديم من القبائل السلافية فى السهل الروسى الكبير . ويوفر تاريخه لنا مثالا لاحقا لدى عرض موضوعة مغزى التمايز فى العمليات السلالية .

انطوى على مغزى فائق الاهمية بالنسبة الى تشكل الاثنوس الروسى القديم وجود دولة كييف الموحدة فى الفترة من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر ، وهى دولة كبرى كانت تضم العديد من الاتحادات القبلية .

حينما تفككت روسيا كييف فى عصر التجزئة الاقطاعية التى بدأت قبل الغزو المغولى بأمد طويل الى امارات منفصلة ومستقلة الى درجة كبيرة ، كان ذلك امرا حتميا وما كان له ، على الارجح ، ان يؤدى بحد ذاته الى تجزئة «الاثنوس الاول» . ولكن غزوة المغول وضعت الاراضى الروسية الشرقية تحت سلطة الارطة الذهبية . اما المناطق القريبة من روسيا فبقيت قرونا ضمن الدولة البولندية – الليتوانية .

قادت موسكو مقاومة المغول . ونشأ اثنوس روسى جديد فى الدولة الكبيرة الجديدة . واصبحت لهجة موسكو نموذجا للغة هذه الاراضى بأسرها .

لم يكن ثمة مركز موحد كهذا لدى المناطق السلافية الشرقية التى دخلت بنية المملكة البولندية – الليتوانية فى القرن الخامس عشر .

كانت اراضى بيلوروسيا الحالية تملك منذ زمن روسيا القديمة خصائصها المعاشية واللغوية الموروثة من نواح كثيرة عن قبائل الدريغوفيتشيين والكريفيتشيين

والبولوتشانيين والراديميتشيين التى عاشت هناك منذ مـا قبل توحيد البلاد حول كييف . ولكن ادى دورا هاما بشكـل خاص فى تكون الشعب البيلوروسى نضاله ضد ارغامه عـلى ان يصبح بولنديا وكاثوليكيا . واحرز الشعب النصر فى هذا النضال ، عـلى الرغم من الاضطهـاد السياسى والقومى . وساعدت عزلة بيلوروسيا سياسيا عـن الاراضى الروسية القديمة الاخرى على تحول اللهجات المحلية الى لغة مستقلة .

وبالنسبة الى اوكرانيا كانت زابوروجييـه مركزا هاما ، بل يمكن القول مركزا ايديولوجيا ، حيث جسدت – كما سبق وتحدثنا حلم الشعب فى الحرية والاستقلال .

ان جسد الشعب الاوكرانى قد مزقتـه الحدود مرارا . فقد وصل الاتراك الى فوليـن . واحتل الهنغاريون ما وراء الكربات مئات السنين . وبقى جزء مـن الاراضى الاوكرانية امدا طويلا ضمن مولدافيا . وكـان الامراء الترانسيلفانيون والملوك التشيك وخانات القرم يخضعون مـن حين الى آخر هذه المناطق او تلك من مناطق استيطان الاوكرانيين . ولكن الشعب حافظ رغم الحدود المتغيرة سواء على وحدته نفسهـا او على تصوره لوحدتـه ، اى على وعيه الذاتـى الشعبى المشترك .

لا بد من القول ان الارثوذكسية اضطلعت بدور هام فى تاريخ تكون الشعب الاوكرانى ، حيث ان اسلاف الاوكرانيين المعاصرين عاشوا فى دول كان يسودها دين آخر . لقـد فصلت الارثوذكسية الاوكرانيين عن البولنديين والهنغاريين الذين كانوا كاثوليكيين ومنعت الزيجات المختلطة وساعدت على صيانة اللغة والثقافة . بيد انه لا يجوز المبالغة فى دور الارثوذكسية . فليس عبثا ان البيلوروسيين المجاوريـن للاوكرانيين فى اطار الدولة البولندية – الليتوانية ذاتهـا اصبحوا شعبا منفصلا ، مع انهم كانـوا ارثوذكسيين ايضا . لقد كانت اللغة اهم من الدين لدى تشكل الشعبين .

مصائر مختلفة

فى وطن البشرية . ظهرت فى وادى النيل دولة ، ربمـا كانت اقدم دولة فى كوكبنا ، وهى مصر . وبالمناسبة ، فقد نشأ هناك ، كما نعرف ، الكثير من هذه الـدول ، العشرات منها ، ومرت قرون كثيرة الى ان تقلص عددها الى اثنتين ، ومن ثم الى واحدة .

فى ذلك الحين كان يعيش فى مصر ملايين الناس ، ربما اكثر مما فى بقية القارة كلها . نعم ، اكثر . مع كل خصـب وادى مصر فان الطعام فيه ما كان ليكفى الا لبضعة آلاف ، ربما لعشرات الآلاف من الصيادين وجامعى النباتات . ولكـن درجة تطور الزراعة وفرت الامكان لنيـل طعام من الاراضى نفسها اكثر بمئات والوف المرات .

بقيت مصر فترة قصيرة تاريخيـا الدولة الوحيدة فى افريقيا . وظهرت فى جنوبها مملكة النوبـة . ونشأت دولة ايضا فى النتوء الشرقى لافريقيا ، فـى اتجاه شبه جزيرة العرب . وفيما بعد ظهرت دول قوية فى غرب القارة . بعضها لم يصمد فى وجه ضربات القوات العربية . وقضى الغزو على بعضها الآخر فى ازمنة اقرب الينا .

. . . افريقيا الجنوبية . بداية القرن التاسع عشر . فـى عام ١٨١٥ انتهت بمعركة واترلو ملحمة امبراطور فرنسا . وفى عام ١٨١٦ اصبـح «نابليون الاسود» ، اولو تشاكا ، زعيما لقبيلته بالوراثة (وملكا من حيث السلطة) . لقد ورث

عن ابيه ارضا تقرب مساحتها من ٢٥٠-٣٠٠ كيلومتر مربع . ونتيجة لحملات رائعة ازدادت ممتلكات تشاكا اكثر من الف ضعف ، وبسط نفوذه في افريقيا على اراض اكبر بعشرة اضعاف تقريبا .

بدأ بتوحيد القبائل الزولوسية زعيم (ملك) قبيلة اخرى من هذه القبائل ، حامي تشاكا ، رجل الدولة البارز دينغيسفايو . وبالمناسبة ، كان دينغيسفايو ، خلافا لتشاكا الصارم ، القاسي ، لين العريكة وطيب القلب . موت دينغيسفايو جعل تشاكا يشغل المرتبة الاولى في البلاد . وفيما بعد انفصل عن تشاكا محبوبه مزيليكازي ، وانطلق مع جيشه الى الشمال الغربي .

في الطريق دمر في البداية كل المستوطنات التي صادفها ، لكي يجعل الارض المحروقة حاجزا يقيه من انتقام تشاكا . ثم صار «يقتصر» على اخضاع الشعوب التي يقابلها ، فيدرج محاربيها في قوام جيشه . وبالمناسبة كان تعداده لحظة الهرب لا يتجاوز ثلاثمئة شخص .

وفي نهاية الطريق اصبح مزيليكازي حاكما لاراض تربو مساحتها على مليون ونصف مليون كيلومتر مربع تضم ملايين عديدة من السكان . وعلاوة على ذلك بدأ يتكون في هذه الاراضي من القبائل المحلية والزولو الذين استوطنوا فيها مع مزيليكازي والذين انضموا اليه فيما بعد شعب جديد كامل لا يزال موجودا الى اليوم ، وهو شعب الماتابيلي . . .

في تاريخ توحيد القبائل الافريقية من القسوة ما لا يقل عما في تاريخ توحيد اية قبائل اخرى . ولكن ذلك كان يجب ان يسفر عن ظهور دول قومية . وقد بدأت بالظهور ، ولكن اتى المستعمرون الى اراضي الزولو والماتابيلي والباسوتو والشعوب الاخرى . اتوا الى اراضي كل شعوب افريقيا .

وقد برروا قدومهم بقسوة الزعماء ايضا . ولكن تاريخ فرنسا كان يعرف حتى ذلك الحين ليلة «الخناجر» التي دبرها كارل التاسع ، وكان تاريخ اسبانيا يعرف الفظائع الرهيبة لمحاكم التفتيش ، وتاريخ اوربا الوسطى يعرف اهوال حرب

الثلاثين سنة في القرن السابع عشر التي نقص بعدها عدد سكان المانيا الى النصف . وليس المستعمرون الاوربيون ممن يحق لهم ان يظهروا امام اي كان بمظهر المدافع عن العدالة .

لقد اعاد الاستعمار تفصيل الخارطة السياسية لافريقيا بالحديد والنار . ولا يزال اثره المشين في الجنوب الى الآن .

. . . استمر تقارب القبائل في افريقيا الجنوبية حتى تحت النير الهولندي – البوري والانكليزي . وظهرت هناك شعوب جديدة ايضا . ان مئات الالوف من سكان جمهورية جنوب افريقيا الحالية هم اخلاف زيجات مختلطة بين البيض والزنوج . وفي الوقت الذي كانت فيه افريقيا الجنوبية ضمن الامبراطورية البريطانية قدم اليها (او جلب قسرا) هنود من العمال والحرفيين والتجار . ويعيش هناك ايضا ملايين البيض ، اخلاف الهولنديين والانكليز من حيث الاساس .

لقد فصلت سلطات جنوب افريقيا بالقوة الناس من مختلف الالوان عن بعضهم البعض ، واقامت في الارض الواحدة مدنا منفردة وقرى منفردة وبلدات منفردة ، ومن ثم مناطق منعزلة كبيرة . الزنوج يعيشون وسط الزنوج ، والبض بين البيض ، والهنود بين الهنود ، والخلاسيون بين الخلاسيين . ومن المفهوم بداهة ان افضل الاراضي والمدن والقرى هي للبيض . ولكن البلاد تحولت الى برميل بارود . ولا يزال يتسنى احيانا تحريض الزنوج على الهنود ، واثارة الخلاسيين على الزنوج . ولكن المضطهدين سيتحدون عاجلا او آجلا – وقد بدا هذا الاتحاد – وستنتسف الدولة العنصرية . وليس ثمة سبيل آخر .

. . . تقع في شمال افريقيا دول مستقلة ، مثل المغرب ، موريتانيا ، الجزائر ، تونس ، ليبيا ، مصر (جمهورية مصر العربية) ، السودان .

لمصر ، كما سبق ونوهنا ، اقدم تاريخ بين هذه الدول ، وقد تناوله علماؤها والعلماء الاجانب بالدراسة

الجيدة اكثر من غيره . قبل قدوم العرب عاشت مصر القديمة فى تاريخها الطويل المديد مئتى سنة تحت حكم الهكسوس القادمين من آسيا الغربية ، ثم تحررت فعاشت عدة قرون تحت سلطة فراعنتها احيانا والقادمين من ليبيا والنوبة احيانا اخرى ، واستولى عليها الآشوريون . تحررت مصر وبعد بعض الوقت تم احتلالها من جديد ، من قبل الفرس هذه المرة . ثم اتى اليها اليونانيون بقيادة اسكندر المقدونى . وصار يحكم مصر اخلاف بطليموس ، احد قادة اسكندر . وبعد اليونانيين اتى الرومان . وبعد ذلك ، زمن الهجرة الكبرى للشعوب . ظهرت فى شمال افريقيا القبائل الجرمانية التى اتت اليها عبر شبه جزيرة البيرينه ، ولكن لم يصل الى مصر الا القليل من الجرمانيين . بعد ستمئة سنة من قدوم العرب استولى على السلطة فى مصر المماليك — البولوفيون الذين كانوا يشكلون حرس الحكام المصريين . وقد الحق المماليك الهزيمة بالمغول حينما حاولوا الاستيلاء على مصر . وبعد المماليك — البولوفيين استولى على السلطة المماليك — القفقاسيون . ثم استولى على مصر الاتراك ، وبعدهم الانكليز .

. . . ومع ذلك يرى الانتربولوجيون الى اليوم الكثير من ملامح المصريين القدماء فى مظهر فلاحى وادى النيل .

ينبغى القول ان الشعوب الافريقية هى اجمالا — كما يعتبر العلماء — «الاكثر اصالة» ، ان صح التعبير ، بين كل شعوب كوكبنا .

اولا ، كانت افريقيا ضمن المنطقة التى وقف الفرد فيها على رجليه وتعلم نصب قامته ورأسه والنظر الى السماء ، المنطقة التى اصبح فيها يشحذ الحجارة ثم يربطها الى العصى ، فلم يعد قردا ، والتى عاش فيها انسان جاوه وتياندرتال واصبح ، اخيرا ، يشبه الناس المعاصرين . (حتى ان بعض العلماء يعتبرون ان افريقيا وحدها هى الوطن الاول للانسان ، المكان الذى «نجم» فيه عن انسان نياندرتال انسان عاقل) .

ثانيا ، تتبع الانتروبولوجيون التعاقب بين الناس الذين

عاشوا هناك منذ عشرة آلاف سنة والذين يعيشون الآن ، فوجدوا التعاقب واضحا رغم كل الغزوات من قارات العالم الاخرى .

يبدو ان الافارقة توغلوا بعيدا الى الشمال منذ اقدم الازمنة . فآثارهم موجودة فى ايطاليا وفرنسا وايرلندا .

. . . كان الافارقة البوشمينيون اول من اكتشف واستوطن مدغشقر — الجزيرة الكبيرة عند ساحل افريقيا الشرقى . ولكن فيما بعد قدم الى هناك على سفن تبحر الى مسافات بعيدة الملاياويون وسكان اندونيسيا ، وهم اناس من العرق المغولى . كانت تلك رحلة عظيمة ، او على الاصح رحلات عظيمة كثيرة ، لان قاهرى البحار آتوا الى هناك من الشرق البعيد عدة موجات على امتداد بضعة قرون (ربما ساعدتهم على اجتياز هذا الطريق والاستراحة فى خلال السفر جزر فى المحيط اختفت حاليا من بقايا ليموريا شبه الاسطورية) .

جلب الملاياويون الى الجزيرة لغة تتخللها الى الآن كلمات من السنسكريتية (اللغة المقدسة للهند القديمة) . وقد شكل البوشمينيون ، وهم اناس من قبيلة البونتو (انسباء الزولو) والملاياويون تلك السبيكة التى يتكون منها اليوم المالغاشيون ، سكان مدغشقر الاساسيون . ويشكل الملاياويون اكبر نسبة فى هذه السبيكة .

عرفت كل القارات والكثير من العصور هجرة الاثنوسات . جرى فى افريقيا على امتداد الالفى سنة الاخيرة على الاقل توزع واسع للشعوب الناطقة بلغة البانتو . فى وقت مضى كان اسلاف هذه الشعوب يعيشون فى مناطق صغيرة نسبيا تقع فى اراضى نيجيريا الحالية ، كما يرى بعض العلماء ، وفى اراضى زائير الحالية ، كما يرى غيرهم ، وتعتبر مجموعة ثالثة من الباحثين ان وطن البانتو الاول يقع بعيدا فى الشمال ، فى الصحراء الكبرى . منذ الفى او الفى وخمسمئة سنة جرى هناك بسبب التضلع من انتاج محاصيل زراعية جديدة ، اكثر مردودا انفجار ديموغرافى ، اذ ازداد عدد

سكان البانتو الاوائل ، فاصبحوا فى غضون ذلك اكثر تطورا من جيرانهم من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية . وتحرك قسم من الاثنوس واحتل فى خلال قرون مناطق جديدة وجديدة ، مختلطا بالاثنوسات الاخرى ومخلفا لهجاته للاعقاب المشتركين .

ان تاريخ الاثنوسات الافريقية ليس ابدا اقل امتاعا من تاريخ شعوب اوربا وآسيا . ولكن معرفتنا لهذه الشعوب اقل بكثير . سنتحدث بالتفصيل عن واحد منها على الاقل ، وهو ليس اكبرها (مع انه ليس صغيرا ابدا) ، ولكنه ربما كان اكثرها غموضا .

شعب الفولبى . ليس ثمة من لم يسمع بالنروجيين مع انهم فى حدود الاربعة ملايين لا اكثر ، وبالايسلانديين الذين لا يتجاوزون بضع مئات من الالوف . . . ليس من النادر ان يعرف غير الاختصاصيين تاريخ حتى الشعوب الاوربية الصغيرة اكثر مما يعرفون تاريخ شعوب افريقية او آسيوية اكبر .

ان شعب الفولبى الافريقى هو ، مثلا ، اكبر من التشيك او الهنغاريين او الصربيين او السويديين . وهم يعيشون فى ستة عشر بلدا افريقيا على الاقل ، ويشكلون فى غينيا خمس السكان ، اى انهم اكبر شعب فى الجمهورية . كلمة فولبى تعنى ، فى رأى بعض الاختصاصيين ، «المنتشرون» ، «المبعثرون» وتذكر بواقع انهم مشتتون فى اراض شاسعة ، وثمة تفسير آخر يترجم هذه التسمية الذاتية بمثابة تعريف للون البشرة ، بني فاتح ، احمر ، خلافا لتسمية اثنوس افريقى آخر ، الفولوف ، ومعناها «الاسود» .

فى اواخر الالف الاول الميلادى كان الفولبى ينتقلون فى اراض صغيرة نسبيا تقع غرب مناطق الصحراء الكبرى والاراضى المتاخمة . ولكن العرب والبربر فى شمال افريقيا ، وقد اتقنوا تربية الابل ، تحركوا فى ذلك الحين الى الجنوب ، فازيح الفولبى بالتدريج من اراضيهم السابقة . وفى غضون عدة

قرون انتشر الفولبى فى جزء شاسع من افريقيا الاستوائية ، مؤسسين فى خلال ذلك دولا لهم فى مختلف الاراضى .

يمكن القول ان تنقلات الشعوب فى افريقيا فى الالف سنة الاخيرة امر عادى . واذا كان الفولبى يتميزون بشىء هنا ، فبكونهم بقوا بدرجة من الدرجات منفردين بين الشعوب الافريقية . هذا مع العلم ان عددا كبيرا من الفولبى ، اجمالا ، لا يختلفون الآن كثيرا عن اناس الشعوب الافريقية الاخرى التى يعيش الفولبى بينها . ولغتهم قريبة من لغتى جيرانهم السيريرو والفولوفيين . ولكن ثمة بين الفولبى غير قليل من الناس ذوى البشرة الصفراء مع شىء من الاحمرار والوجه الاقرب الى النمط الهندى الاوربى : بيضوى ، رقيق الشفتين بانف دقيق ، مستقيم او معقوف قليلا . وشعر هؤلاء الناس متموج قليلا (وليس اجعد) . ويمكن النظر الى هذا النمط كنمط اولى لم يمسه الاختلاط .

درست العالمة الفرنسية ليسكى فى الخمسينات بطريقة بيو – انتروبولوجية ، ان صح القول ، ما تحويه اجسام اناس اجناس مختلفة من بعض العناصر الكيماوية . وتبين انه يوجد لدى الافارقة كالسيوم ونحاس اكثر مما لدى الهنديين الاوربيين ، وكلور وصوديوم اقل . وبين تحليلها البيوكيماوى ان الفولبى من هذه الناحية قريبون الى الهنديين الاوربيين لا الى الافارقة . لقد قدموا الى افريقيا الوسطى ولكنهم يتكلمون بلغة قريبة من اللغات التى يتكلم بها السكان الاصليون فى المناطق اياها . فهل غيروا لغتهم ؟ مثل هذا يمكن ان يحدث فى غضون قرون عديدة ، والتاريخ يعرف مئات الامثلة على هذا . فهل اخذ الفولبى لغة السيريرو ؟ بيد ان الانتقال الى لغة جديدة له ، كقاعدة عامة ، تفسيرات ملموسة : اقتصادية ، اجتماعية ، سياسية . هنا لا يستطيع المؤرخون العثور على تفسيرات كهذه ، جدية بما يكفى على الاقل .

يبدو وكأنما يمكن العثور فى لغة الفولبى على كلمات قديمة من اللغات السامية لها نظائر فى اللغة البابلية القديمة ولهجات جنوب شبه جزيرة العرب .

ان لغز الفولبى اثار اجرأ الفرضيات حول اصلهم ، بما فيها فرضيات خيالية تماما . لقد ارجعوا اصل الفولبى الى مصر والهند وحتى الهند الصينية ، وجعلوهم اقرباء للبريتانيين القدماء والغجر والاشوريين وعشرات الشعوب الاخرى القديمة الى هذه الدرجة او تلك . وكانت هناك فرضيات جدية ايضا ، ولكن لكل منها نقطة ضعفها .

كرس المؤرخ والاثنوغرافي السوفييتي كوزلوف مؤلفا كبيرا لشعب الفولبى ، ولا سيما لجزئه الذى يعيش فى جمهورية غينيا . انه ، من غير ان يدعى حل معضلة الفولبى ، يرى مفتاحها فى معضلة تاريخية – جغرافية اخرى . من المعروف ان الصحراء الكبرى لم تكن دائما (او على اى حال ، لم تكن دائما فى كل اراضيها الحالية) اراضى خاوية مقفرة . ان مجارى الانهار الجافة تشهد على ان المياه هنا كانت كافية فى وقت مضى . وقد عثر فى الصحراء على آثار غنية للثقافات القديمة ، بينها فريسكات تاسيلي الرائعة . وقد عاش هنا ايضا ، كما تشهد الحفريات ، اناس من النمط الاوربى اختلطت دماؤهم بدماء الافارقة فى احيان كثيرة . وهنا ايضا ، فى الصحراء ، ارسيت اسس ثقافة الكثير من الشعوب الافريقية التى انتقلت فيما بعد الى الجنوب والشرق . ولعل الصحراء الكبرى كانت احد المراكز التى تشكلت فيها ، من جهة ، الرابطة اللغوية الافريقية الآسيوية (السامية – الحامية) ، ومن الجهة الاخرى رابطة البانتو اللغوية ، وربما اسر لغوية اخرى . وقد غادر الصحراء الكبرى عدد لا يستهان به من القبائل ابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد ، حينما بدأت دورة جديدة لتردى المناخ فى شمال افريقيا ، ولكن غرب الصحراء بقى لمدة طويلة خصبا نسبيا . والى هناك تراجعت قبائل الفولبى الاوائل التى احتفظت لغتهم بذكرى الاتصالات القديمة بين الاسر اللغوية .

وترى باحثة سوفييتية اخرى ، بيرزينا ، وطن الفولبى فى اراض اخرى تماما ، فى افريقيا الشرقية ، على مقربة من حدود اثيوبيا المعاصرة . وفى رأيها ان الفولبى كانوا غرباء

فى الصحراء ايضا ، مع العلم انهم لم يأتوا الى هناك الا فى القرن السابع الميلادى . ومن الحجج الرئيسية التى تشير الى ظهورهم فى الصحراء الكبرى فى القرن السابع فقط اجناس الماشية التى يربيها الفولبى . انها هجين من البقر الهندى والثيران الافريقية ذات القرون الطويلة . وهذا الجنس ما كان يمكن ان يظهر ، فى رأى بيرزينا ، الا فى شرق افريقيا ، وليس قبل القرن السابع الميلادى نتيجة اشتداد الصلات بالهند . وهناك ، حيث يعيش الفولبى الآن ، لا تربى الثيران ذات القرون الطويلة .

واذ يعترض كوزلوف على بيرزينا ، يذكر بان هذه الثيران كانت ثيران داجنة فى الصحراء الكبرى منذ القدم ، وكان فى وسع الفولبى تهجينها مع البقر الهندى وهم فى اراضيهم الحالية .

وثمة ، اخيرا ، رأى مفاده ان منشأ الفولبى قديم «شأن منشأ الكون ، ويبقى مجهولا . . .» .

من الاورال الى الاطلسي . منذ ثلاثين او اربعين الف سنة وصل الانسان العاقل الذى كان قد ظهر قبل ذلك بقليل الى انكلترا قبل ان تصبح جزيرة على ما يبدو . وفى الوقت نفسه وصل الانسان فى اوربا الغربية والشرقية على حد سواء الى التخم الجنوبى للمنطقة المتجمدة . ولم يكن عند اسلافنا ، طبعا ، ما يفعلونه فى المنطقة المتجمدة نفسها ، ولكن تجمد اوربا الكبير انتهى وابتعد الجليد ، فسار الانسان «على اعقابه» مباشرة . منذ ثلاثة وعشرين الف سنة كانت حافة المنطقة المتجمدة الكبيرة تقع فى مكان ما وسط السهل الروسى ، عند فلاديمير . وقد عثر هنا ، عند نهر سونغير ، على بقايا اناس ماتوا منذ اكثر من مئتين وثلاثين قرنا . كانوا يرتدون ملابس شبيهة جدا بالملابس القومية لشعوب الاركتيكا المعاصرة – الا انها موشاة كلها بخرز من عظم الماموث .

منذ عشرة آلاف سنة ابتعد الجليد عن الدانمارك الحالية ، واتى مكانه الدانماركيون الاوائل . تباطأ الجليد ،

فكان ابتعاده مسافة مئة كيلومتر يستغرق مئة سنة كاملة . ومنذ تسعة آلاف سنة سكنت فنلندا ، وبعد الف سنة اصبحت السويد والنروج ماهولتين (الارقام تقريبية ، طبعا) . ولا يستبعد انه حتى الجزيرة الشمالية شبيتسبيرغن قد سكنت حينذاك ، او بعد ذلك بقليل . ولكنها فيما بعد فرغت من السكان مجددا ، ولم يكتشفها ثانية الروس — البومورويون ، سكان شاطئ البحر الابيض ، الا منذ ثمانية قرون . وفي الوقت نفسه تقريبا اكتشفوا زيمليا الجديدة .

. . . لا يستطيع العلماء بشكل من الاشكال ان يتفقوا نهائيا على تعيين مظهر اقدم سكان اوربا . ويفترض الكثير من الاختصاصيين ان اقل تغيير في الوف السنوات المنصرمة طرا على شعب سآمي الصغير الذي يعيش عندنا في جزيرة كولا وفي فنلندا . يشبه السآمي المغول والاوربيين دفعة واحدة . لعلهم احتفظوا بمظهر الجنس المشترك لاسلاف المغول والاوربيين في ذلك الزمن ، حينما كان هذا الجنس الواحد موجودا (ثمة علماء يصرون على ان هذا الجنس الاوراسي المشترك كان موجودا) . او لعل السآمي احفاد شعبين مغولي واوربي التقيا يوما .

اما لدى الانسان السونغيري ، فتسود الملامح الاوربية بوضوح . وبالمناسبة ، فقد عثر في اماكن غير بعيدة عن سونغير على جماجم تشبه جدا الجماجم الافريقية . اما ان اسلافا للزنوج شديدى المراس بشكل خاص قدموا الى هنا ، واما ان هذا اثر لذلك الزمن حينما لم تكن الاجناس قد انفصلت بعد نهائيا .

ان تاريخ اوربا قبل السنوات الثلاثة او الاربعة آلاف الاخيرة غامض بالنسبة الينا . نحن نعرف ، والحق يقال ، ان الكثير من سكانها كانوا يتكلمون منذ قرابة ثمانية آلاف سنة بلغة اوربية قديمة مشتركة (او بلغات اوربية قديمة مختلفة ، ولكن متشابهة) ولم يبق في اللغات الاوربية المعاصرة الا حطام من تراث الاسلاف القديم هذا .

ولا يوجد الآن في اوربا الحالية الا لغة واحدة ربما

تكون قد اتت من اللغة الاوربية القديمة مباشرة . ويتكلم بها الباسكيون جيران الفرنسيين والاسبان ، والذين يعيشون في جبال شبه جزيرة البيرينية . وكثيرا ما يشكو الفرنسيون والاسبان مدى صعوبة استيعاب لغة هذا الشعب . يقول الفلاحون الفرنسيون ان الشيطان ذات مرة عكف على دراسة اللغة الباسكية . وقد تعلم في غضون سبع سنوات كلمتين وبشكل غير صحيح .

يعزو اللغويون اللغات الالمانية والايطالية والانكليزية وغيرها من لغات اوربا مع الكثير من اللغات الهندية الى المجموعة الهندية الاوربية . فاما كانت هناك لغة هندية اوربية اولى ، واما تكونت دفعة واحدة مجموعة كاملة قديمة من هذه اللغات منذ خمسة او ستة او سبعة آلاف سنة . اين ؟ غير معروف على وجه الدقة . ربما ضفاف الدانوب او الكربات او المجرى الاوسط لفيسلا او سهوب شمال البحر الاسود او الشاطئ الجنوبي لبحر البلطيق او آسيا الوسطى او الزاوية الشرقية لشبه جزيرة آسيا الصغرى الخ . . الخ . اينما حصل ذلك ، فان سكان تلك الاماكن كانوا ، على ما يبدو ، كثيرى التنقل .

منذ اربعة او خمسة آلاف سنة ظهرت في جزيرة كريت في البحر الابيض المتوسط اول حضارة اوربية نعرفها . وقد عثر الارخيولوجيون هناك على اطلال قصر فيه الكثير من الغرف والممرات والعطفات والاقبية والمستودعات . وهذا القصر اصبح متاهة في الحكايات . وتقول الاساطير اليونانية بان المتاهة بناها المهندس العظيم ديدالس بامر من مينوس ملك كريت . وصنع ديدالس بارادته اجنحة له ولابنه ايكار . . . وقد وضعت الاساطير اليونانية في وسط المتاهة انسانا مريعا براس ثور . وكانت اثينا اليونانية ، الخاضعة لكريت ، ترسل لطعامه اتاوة حية مروعة ، سبعة شباب وسبع شابات كل تسعة اعوام الى ان قتله الامير الاثيني المقدام تيسيوس .

لم يكن ثمة وجود لديدالس وايكار ، ولكن كان هناك

البحارة الكريتيون الذين اخضعوا البحر الابيض المتوسط باسره . كانت هناك مملكة فرضت ارادتها على الكثير من الاراضى الواقعة على شواطئ هذا البحر .

هذه المملكة سقطت بعد انفجار بركان فى جزيرة فيرا الصغيرة ، قرب كريت ، فغمر الغبار مدنها . وخلف الكريتيين فى اوربا اليونانيون القدماء ، وهم متوحشون اقتحموا شبه جزيرة البلقان من الشمال منذ اقل من اربعة آلاف سنة بقليل .

يبدو ان الحيثيين قدموا من اوربا الى آسيا ، الى سواحل تركيا الحالية . وكانت الشعوب الاسيوية ، بدورها ، تتغلغل فى اوربا باستمرار . وكانت عدة طرق تاريخية قديمة تخدم هذا الغرض . ومن بينها بوابة فريدة بين قزوين وسلسلة الاورال الجبلية ، وهى طريق ازلى للرحل . وقد اجتازها منذ قرابة ثلاثين قرنا الاسقوثيون ، وبعدهم بعدة قرون السرماتيون ، وبعدهم بقليل الهون ، ثم — على التوالى — البولغار والافاريون والبيتشنيغيون والبولوفيون والتتر — المغول . . .

الاكبر . آسيا اكبر قارات المعمورة . وكان فيها دوما مكان لممثلى كل الاجناس الكبيرة الثلاثة للبشرية ولا مجال للحديث عنها جميعا .

. . . اذا كان المغول قد ظهروا فى اوربا بمثابة ضيوف اجمالا ، فان الاوربيين ظهروا فى آسيا منذ اقدم الازمنة ، وفى اواسط آسيا كان يعيش الى جانب الصينيين منذ الوف السنين الدين — لينيون ذوو البشرة البيضاء الذين كان مظهرهم ، حسب قول مدونى الاسفار الصينيين ، يثير اشد الاشمئزاز . وحيث ان مدونى الاسفار لم يتحدثو عن شعورهم فحسب ، بل وصفوا ايضا هذا «المظهر المريع» ، فاننا نعرف معرفة راسخة ان الدين — لينيين كانوا مجرد اوربيين .

فى خلال الحفريات فى مدينة موهينجو — دارو فى الهند عثر على رفات اناس من الاجناس الثلاثة جميعا . ويعيش حتى

الآن فى آسيا عشرات الملايين من الدرافيديين الزنوج ومئات الملايين من الجنس الاوربى .

ولكن العدد الاكبر من سكان آسيا هم من الجنس المغولى . فيها نشأ هذا الجنس ، فشغل اول الامر جزءا كبيرا من الصين ومنغوليا والتيبت . وفى عشرات الوف السنين الاخيرة سكن المغول سيبيريا . وفى آلاف السنين الاخيرة استوطنوا الاركتيكا فى اقصى الشمال واكتشفوا «اقصى شمال اميركا» ، غرونلاند مع الجزر المجاورة . وقدم المغول الى بعض الاراضى الاخرى التى كانت مأهولة باناس من الاجناس الاخرى . ان سكان جنوب الصين الحالية اكثر سمرة بكثير من جيرانهم الشماليين ، ووجوهم اقل تفلطحا ، وشفاههم سميكة . وهذه السمات هى مخلفات الشعوب القريبة من الجنس الزنجى التى عاشت هناك . وكانت انطلاقة المغول الى الجنوب ابعد . وهم يشكلون الآن الجمهور الاساسى لسكان الهند الصينية واندونيسيا .

. . . منذ الفى سنة ونيف فقط اجتاز المغول من كوريا المضيق الضيق ووطئت اقدامهم ارض اليابان . وقبل ذلك وصل الى هناك الاينيون القدماء ، ومن ثم قبائل من اندونيسيا . واليابانيون الحاليون هم اخلاف المجموعات الثلاث معا . ومنذ ذلك الحين لم تجر هجرات الى اليابان . هذا مع العلم ان امبرطور الصين المغولى منذ حوالى سبعمئة سنة انتابته رغبة عارمة فى ان يضم هذه الجزر الى ممتلكاته ، بحيث حاول مرتين ان يقوم بانزال فيها . وفى المرة الاخيرة قرر ان يغطى المضيق بين كوريا واليابان بجسر من سفن منبسطة السطح متصلة فيما بينها . وكان على الخيالة المغول الرهيبين الا يقوموا بمجرد العبور ، بل ان يرمحوا على هذه السطوح من شاطئ الى آخر . ولو حدث هذا لكتبنا الآن عن هجرة الشعوب الرابعة الى اليابان . . . ولكن عاصفة انقذت البلاد من الغزو . وقد اسمى الشعب اليابانى العاصفة الرهيبة التى اوصلت اسطول الغزاة الى الدمار بالريح الالهية (كاميكادزى) . وبقى الخيالة فى الصين .

. . . بقى بعض العلماء امدا طويلا يعتقدون ان اليابان كانت منذ عدة الوف من السنين المنطقة التى تكون فيها شعب الاسكيمو الشمالى . وفى اليابان يعثرون منذ القدم لدى الحفريات على تماثيل فخارية ، دوغو ، صنعت هناك منذ ٤-٥ آلاف سنة . كانت للدوغو فى عهودها المتأخرة عيون جاحظة كبيرة فى وسطها شق . هذه العيون ذكرت العالم اليابانى تسوبوئى على الفور بالنظارات الواقية من الثلج لدى الشعوب الشمالية . وهى تصنع من الجلد او لحاء الشجر مع شق فى وسط «الزجاجة» .

كان تسوبوئى مصيبا ومخطئا فى الوقت نفسه . مصيبا لان الاسكيمو عاشوا فى اليابان . ومخطئا لأن الدوغو لا تمت بصلة للنظارات الواقية من الثلج وللاسكيمو . كل ما فى الامر ان التجويفين فى الفخار اللذين يرمزان الى العين فى الدوغو المبكرة تحولا فى خلال مئات السنين ، بناء على قوانين الفن والميثولوجيا ، الى نتوئين كبيرين نسبيا لجفنين نصف مغلقين بينهما شق .

وتسوبوئى على اى حال مخطئ اكثر مما هو مصيب ، لان الاسكيمو ظهروا فى اليابان فى زمن متأخر بعد تكونهم . وبعد ذلك رحل بعض الاسكيمو واختلط البعض الآخر بالاينيين . كانت اماكن اخرى وطنا للاسكيمو : اماكن اخرى ومناطق اخرى ومناخ آخر .

اية مناطق ؟ الاراضى الواقعة حول خليج بهرنغ . ان اسلاف الاسكيمو لم يختاروا لانفسهم افضل الاراضى ، يبدو ان قبائل اخرى ازاحتهم الى هناك ، حيث الليل القطبى الذى يستمر شهورا عديدة والصقيع القارس والتوندرة والجليد الازلى .

لقد استطاع الاسكيمو ان يحولوا التوندرة والجليد والبحر الى مصدر دائم للغذاء . واصبحت الحيتان والدببة البيضاء والمورس والفقم والايائل الشمالية والثعالب البيضاء والطيور طريدة دائمة لهذا الشعب الذى يقطن فى اقصى الشمال . ولكن الاسكيمو لم يعيشوا فى «خمول» . فقد ابدعوا ثقافة غنية .

ابتكر الاسكيمو زورقا رائعا . ان كاياكاتهم ، وهى قوارب لشخص او شخصين ، كانت تصنع من جلد يشد على هيكل القارب . يجلس المجذف (وهو صياد ايضا) كما لو كان فى زورق خفيف - الا ان حواف الثغرة الوحيدة فى الجلد المشدود بقوة موصولة وصلا محكما بحزام الصياد . يمكن للكاياك ان ينقلب بفعل موجة قوية او حركة شديدة من الشخص نفسه ، ولكن ليس فى هذا ما يدعو الى القلق ، اذ ان جسم الصياد يمنع باحكام دخول الماء فى القارب ، ومن السهل اعادة الكاياك الى وضعه الطبيعى بحركة دقيقة متقنة .

فى الصيف كانوا يعيشون فى اخصاص مغطاة بلحاء او بجلد . وفى الشتاء كانوا يأوون فى مساكن محفورة فى الارض . وكانوا ينامون فى هذه البيوت على ارضية خشبية . وحينما وصل الاسكيمو فى تحركهم الى اماكن من الاركتيكا يستحيل فيها ان يحفروا الى الارض شتاء ، وحينما اقاموا فى غرونلاند حيث يغطى الارض درع جليدى سمكه عدة امتار ، جعلوا من الثلج اداة تقيهم من البرد . ان ايغلو (كوخ) الاسكيمو عبارة عن نصف كرة ، او قبة تبنى عقودها من قوالب الثلج . ان بناء كهذا ليس بالامر السهل . لا بد ، مثلا ، من معرفة اختيار ثلج مناسب ، متراص بما فيه الكفاية ومضغوط ، ولكن غير متجلد تماما . ومن الداخل يفرش الجلد ويعلق فى الايغلو . وكان يدفأ ويضاء بسرج يشعل فيها شحم الفقمة .

لقد كانت ملابس الاسكيمو ناجحة الى درجة اقتبس منها ، فى راى بعض العلماء ، الطقم الرجالى الذائع الصيت فى العالم كله تقريبا والمكون من ثلاث قطع : البنطال ، الصدرة ، الجاكيت .

ان الملامح الاولى لثقافة الاسكيمو المعقدة قد ظهرت ، على ما يبدو ، منذ قرابة ثمانية آلاف سنة . وتكونت نهائيا منذ ثلاثة آلاف سنة . ولكن قبل ذلك بالف سنة استوطن الاسكيمو كل جزر الاركتيكا الاميركية تقريبا . ومنذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة اتجهت من اميركا بضع مجموعات من الاسكيمو الى الغرب واكتشفت جزر اليوسيان واستوطنتها .

وبعد الف سنة او الفين انتقل الاسكيمو من جزر اليوسيان او من الاسكا الى اليابان . . .

فى اميركا قابل الاسكيمو الهنود واختلطوا بهم جزئيا . اما فى آسيا فتعرض الاسكيمو لهجوم اسلاف التشوكتشيين والكورياكيين . ان التشوكتشيين والكورياكيين القدماء ، وقد احتلوا شبه جزيرة تشوكوتكا ، ادرجوا فى قبائلهم الكثير من عشائر الاسكيمو واسرهم المشتتة . وفى غضون ذلك استخدم التشوكتشيون الكثير من اكتشافات الاسكيمو واختراعاتهم وعاداتهم .

ينبغى القول ان انتشار التشوكتشيين فى سيبيريا لم ينته الا فى القرن الماضى . وكذلك لم يصل الايفينكيون الى حدود ممتلكاتهم الحالية الا فى القرن الماضى . ان تاريخ انتشار الايفينكيين يذكر بما قام به البولينيزيون من «مسيرات بحثا عن وطن» . لقد فتح البولينيزيون جزرا وسط الاوقيانوس العظيم ، اما الايفينكيون فاستولوا على اراض فى الارجاء المترامية لسيبيريا كانت تستثمرها الشعوب الاخرى استثمارا ضعيفا . كان «بحر التايغا الاخضر» الذى تنقل فيه الايفينكيون يمتد (مع التوندره) مساحة تقرب عشرة ملايين كيلومتر مربع . ونصف اراضى الاتحاد السوفييتى تقريبا اصبح مأهولا بهذا الشعب الصغير . رغم انهم ، طبعا ، لم يكونوا وحدهم . لقد انطلق الايفينكيون من ضفاف امور ليقوموا بمسيرتهم فى ارجاء سيبيريا ، وعلى هذا الطريق الطويل ادرجوا فى قوامهم العديد من القبائل التى عاشت قبلهم هناك .

يعتبر اليوكاغيريون الآن اقدم شعب فى سيبيريا . وهم يعيشون حاليا بين كوليما وايندبغيركا . ويبلغ مجموع اليوكاغيرين قرابة اربعمئة شخص . ولكن هذا الشعب ، الذى هو احد اصغر شعوب سيبيريا ، كان يوما قويا وكبيرا . الى الآن يقول الياقوتيون ، اذ ينظرون الى ما يسمى «الق الشمال» : هذا بصيص مواقد اليوكاغيريين . واليوكاغيريون ايضا يتذكرون الازمنة التى كانوا فيها كثيرين ، ويقولون

لاولادهم : «كان عددنا كعدد نجوم السماء فى ليلة دهماء» .

فما الذى اباد الجزء الاكبر من هذا الشعب ؟ هل قتله الاعداء ؟ او حصدته الاوبئة المروعة التى كانت تنشب من حين الى آخر حتى وسط السكان القلائل فى التايغا والتوندره؟

يبدو ان الامراض وهجمات الاعداء وتردى ظروف المناخ المحلية قد اضطلعت بدورها هنا على حد سواء . ولكن لا يجوز اعتبار ان هذا الشعب قد فنى وانقرض . وليس ذلك لمجرد انه بقى اناس يسمون انفسهم يوكاغيريين ، بل ولان اليوكاغيريين اصبحوا جزءا من شعوب اخرى – من التشوكتشيين فى اقصى شمال شرق آسيا الى البورياتيين فى وسط آسيا ، وربما ايضا الفينيين فى شمال شرق اوربا .

يرى الانتروبولوجيون ان ايفينكيى بايكال يشبهون اليوكاغيريين جدا . وفى ثقافة الايفينكيين المعاصرين الكثير ايضا مما هو موروث عن اليوكاغيريين . ولكن اللغة مغايرة . فهم من حيث اللغة بالذات ايفينكيون .

ينجم تناقض طريف جدا بين معطيات علمين يعملان يدا بيد عادة – الانتروبولوجيا والاثنوغرافيا .

يتحدث الانتروبولوجى ريتشكوف على اساس معطيات علمه عن ان ايفينكيى بايكال يعودون الى اقدم الازمنة . فقد لاحظ العلماء منذ زمن بعيد انه فى كل جيل يتناقص فى الشعوب الصغيرة عدد الناس ذوى فئة الدم التى كانت قليلة منذ البداية . وحتى انه حسب بدقة مدى السرعة التى تزول فيها فئة الدم النادرة هذه . وهذا يتوقف قبل كل شىء على عدد الشعب . وهكذا ، نجم عن الحسابات ان مجموعة الايفينكيين تعيش على مقربة من بايكال منذ ستة عشر الف سنة تقريبا ! وفى خلال كل هذه القرون المئة والستين والاجيال الستمئة والاربعين لم تختلط تقريبا بالشعوب الاخرى ، والا لادخلت هذه الشعوب فى دم السكان المحليين كمية جديدة من العامل الدموى القابل للزوال .

ستة عشر الف سنة امد طويل جدا . فى ذلك الزمن السحيق فى القدم لم تكن قد روضت الايائل ، ولا حتى

الكلاب ؛ ذلك العصر يطلق عليه كلمة «الباليوليت» التي تعني عصر اسلاف القرد الشبيه بالانسان (على الرغم من انه يوجد ، طبعا ، فرق شاسع جدا بين الباليوليت المتاخر والباليوليت المبكر) .

ولكن الاثنوغرافيين يعلنون بصورة قاطعة ان الايفينكيين يعيشون في سيبيريا منذ الفين او ثلاثة آلاف سنة كحد قصى . وبالفعل ، يتكلم الايفينكيين باحدى اللغات التي ظهرت في سيبيريا في وقت متاخر نسبيا . وثقافتهم مرتبطة في الكثير من ملامحها بتلك التي ظهرت على ضفاف امور بعد الميلاد ، ونمط اقتصادهم ليس ابدا قديما الى هذه الدرجة .

اي من العلمين هو المصيب ؟ كلاهما . ان تاريخ مجموعة الايفينكيين الذي بحث فيه ريتشكوف مثال رائع على ان الشعب يستطيع ان يغير نمط حياته ولغته بدون ان يغير مظهره الخارجي وبدون ان يتلقى تقريبا دما «غريبا» . للناس ، الذين يجري الحديث عنهم ، المظهر والدم الذي كان لدى اقدم مستوطني سيبيريا ، اما اللغة والنمط الاقتصادي فهما كما لدى القادمين الحديثي العهد .

اقام انسباء الايفينكيين القريبون – من حيث اللغة ومن حيث الدم – منذ قرابة الف سنة دولة الشورشينيين الجبارة على ضفاف امور التي انتصرت على الصين بعد صراع طويل واخضعت جملة من مناطقها وفرضت الاتاوة على مناطق اخرى ، ثم انهارت تحت ضربات مغول جنكيز خان .

منذ عهد قريب ظهر في سيبيريا شعبان كبيران ، وهما البورياتيون والياقوتيون .

البورياتيون اسلاف السكان القدماء لما وراء بايكال والمغول الذين قدموا الى هذه الاماكن زمن حملاتهم الكبيرة . ان عددا من القبائل التي استقرت عند بايكال انطلق لاحقا بعيدا الى الشمال واختلط ايضا وايضا بالسكان المحليين القدماء ، مما شكل بداية نشوء الشعب الياقوتي .

. . . ان اي سرد للقبائل والشعوب التي ساهمت في تشكيل اغلبية الشعوب على الارجح قد يبدو قصيرا اذا قورن

بانساب شعوب آسيا الوسطى . لقد كانت غنية بحيث كانت تجذب دائما الضيوف والفاتحين على حد سواء .

تقع آسيا الوسطى على الطريق الازلي من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق . ولم يعرض عنها الملوك الفرس ، ولا اسكندر المقدوني ، ولا العرب ، ولا الصينيون ، ولا الهون ، ولا الاسقوثيون . وكان هناك ايضا الغزو السلجوقي وغزوات اخرى . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كان طريق الكالميكيين يمر عبر آسيا الوسطى . والى الآن تسمى هنا باصرار القبور القديمة ، التي مضى عليها احيانا آلاف السنين بالقبور الكالميكية . (كما تسمى القبور القديمة في ضواحي موسكو وغربيها بالقبور الفرنسية .)

وطبيعي ان هذه الشعوب جميعا لم ترحل بقضها وقضيضها . فقد بقي بعضها لا في الارض فحسب ، بل على الارض ايضا . ان سيماشكو ، الكاتب من الما – اتا الذي خط قلمه قصصا رائعة ، يصف باسلوب لا يخلو من الفكاهة المدينة النموذجية في آسيا الوسطى على النحو التالي :

«لقد وجد اسكندر المقدوني هناك حضارة ارفع واعرق من تلك التي خلفها في اليونان . انه ، وقد استولى على خاناباد بعد حصار طويل وعنيد ، بنى فيها قلعته وترك فيها حامية وتابع مسيرته . وكم كانت دهشة اسكندر المقدوني كبيرة حينما راى في طريق العودة ان جنوده اصبحوا خانابادين حقيقيين ! وكانوا جميعا يرتدون سراويل ضيقة وقمصانا مبرقشة على الطريقة الخانابادية ، واللغة التي كانوا يتكلمون بها لم تعد اللغة الكلاسيكية الصافية التي تعلموها في المدرسة . ولكن الاهم ، هو انهم تخلقوا بالاخلاق الخانابادية التقليدية . . . وفيما بعد تطور تاريخ خاناباد على هذا الشكل الفائق البساطة . ان ايا من الفاتحين العظام في الجنوب والشمال والغرب والشرق لم يعف عن خاناباد بسبب موقعها الجغرافي المؤاتي ، في وسط الارض . . .» .

من آسيا الى اوربا

فى عام ١٨٤٨ ، عام النهوض الثورى العاصف فى كل بلدان اوربا تقريبا ، انتفض الهنغاريون (الذين يسمون انفسهم بالمجريين ، كما هو معروف) ضد الملكية النمساوية المتحكمة فى اراضيهم . وقد قمعت الثورة الهنغارية رغم المقاومة البطولية للمدافعين عنها . ومن مدينة احتلها الجنود النمساويون هرب حدث يعرج وينعت هؤلاء المقاتلين بالجلادين بكل اللغات التى يعرفها . وكان يعرف الكثير من اللغات ، لانه درسها منذ طفولته . هذا الصبى الاعرج المشرد اسمه ارمينى فامبيرى . وهو اسم احدث دويا ، وذلك على الاقل بالنسبة الى الجغرافيين والمؤرخين والمستشرقين واللغويين فى العالم بأسره . لقد قام ارمينى فامبيرى ، اللغوى الرائع والباحث المتقد ، برحلات مدهشة ، متنكرا بزى درويش عربى احيانا ، وبزى تركى او فارسى احيانا اخرى ، وادهش بمعارفه الوزراء الغربيين والامراء الشرقيين . . .

اما حينذاك . . . فقد «قابل فى حقل عند الدانوب عدة جنود نجوا من الاسر .

كانوا غبرا ، وقد ارتسمت الهزيمة على وجوههم .

قالوا :

– انتهى كل شيء ، سوف نستلقى ونموت . ضاعت حريتنا !

عندئذ نهض راع مسن وقال لهم بصوت ابح ومتهدج من الشيخوخة :

على مهلكم ، يا شباب ! فى كل مرة نقع فى مصيبة يأتى الى نجدتنا المجريون القدماء من آسيا : فنحن اخوان ، اطمئنوا ، لن ينسونا الآن ايضا» .

هكذا وصف الشاعر والناثر السوفييتى نيقولاى تيخونوف هذا المشهد فى قصته الرائعة المؤثرة . بالنسبة الى الاثنوغرافيين – المؤرخين على الاقل ، «فامبيرى» .

حاول ارمينى فامبيرى ان يجد فى جولاته فى آسيا الوسطى ، وفى اواسط آسيا ، فى اماكن تكتنفها الاسرار ، ومحظورة على الاوربيين غالبا ، ان يجد اولئك «المجريين القدماء من آسيا» التى كانت ذكراهم حية فى قلب الراعى الهنغارى المسن .

تتحدث الاساطير الهنغارية القديمة عن المجريين كاقرباء للهون وتؤكد ان انسباء آخرين للمجريين يعيشون فى فارس .

من المفهوم ان كلمة «فارس» يمكن لها الا تعنى بالنسبة الى راوى اخبار قديم مجرد البلد الذى نعرفه بهذا الاسم ، بل قد تعنى ايضا جزءا كبيرا من آسيا .

ان الاخوين الاسطوريين خونور ومجر خطفا فى خلال جولاتهما ابنتى ملك قبيلة الالانيين ، احدى القبائل السارماتية التى عاشت فى الفترة من القرن السادس الى القرن الرابع قبل الميلاد فى الاراضى الممتدة من الاورال الى الفولغا ، ومن ثم شمالى البحر الاسود . ومن هاتين المرأتين نشأ – كما تقول الحكاية – الهون كلهم ، وهم الهنغاريون انفسهم .

فى هنغاريا بقى العلماء ، وكذلك الناس البسطاء وحتى الحكام فى حالات ليست بالنادرة ، مئات عديدة من السنين يتذكرون قدوم اسلافهم الى هنا من بعيد ، من الشرق ، من آسيا ، ولم يكونوا يتذكرون فحسب ، بل كانوا ايضا يربطون آمالهم الخاصة بالوطن البعيد والاقرباء المجهولين . لعل ذلك لان المجريين – الهنغاريين هم الشعب الوحيد فى وسط اوربا الذى ينتمى الى الاسرة اللغوية الاوغرية – الفنلندية . والجزيرة المجرية يكتنفها «البحر الهندى الاوربى» من كل الجهات . من جهة يعيش السلافيون ، ومن جهة اخرى الالمان والنمساويون ، ومن الجهة الثالثة الرومانيون . . .

كان الانتروبولوجيون واللغويون والارخيولوجيون الهنغاريون يذهبون المرة تلو المرة الى الفولغا والاورال ومنطقة القطب وسيبيريا الغربية وآسيا الوسطى ، راغبين فى ان يعثروا على آثار اسلافهم ويدرسوا على نحو افضل

اقرباءهم الاكيديين والمحتملين . ولعل رحلة الراهب الدومينيكاني يوليان الى الشرق كانت اعجب بعثات «البحث عن الاجداد» هذه . كانت مأثرة ومغامرة دفعة واحدة . فقد كان يوليان يتسم بالفضول والعناد على حد سواء .

سار مجتازا اراضي اشتعلت بحروب مدمرة جديدة وقاطعا سهوبا تعج بقطاع الطرق ، او ، بتعبير ادق ، برحل لا يفوتون فرصة للاغتناء . فقد في الطريق مرافقيه وجرد من نقوده ، ولكنه ، وقد اصبح ضعيفا وحيدا ومعدما ودون حماية ، بقي يسير ويسير الى الشرق . ولكي يجد يوليان ولو شيئا من الحماية والطعام ، كان ينضم الى القوافل ويخدم اصحابها ، مرغما نفسه على العمل وقانعا بالذل لينهل القوة من اجل متابعة المسير .

وعلى الفولغا ، عند البولغار قابل يوليان مجرية آسيوية متزوجة ببولغاري . وبمساعدة منها ومن اقربائها اكتشف في الاورال «هنغاريا الكبرى» ، الوطن الاصلي لشعبه وسمع اللغة المجرية وحدث هؤلاء الاقرباء الجدد بالدولة الهنغارية الجبارة على مجرى الدانوب الاوسط ووعظهم . . .

ولكن هذا الاكتشاف الرائع ، الذي تحقق منذ سبعمئة سنة ونيف ، كان متأخرا تقريبا . لقد عثر المجريون الغربيون على «هنغاريا الكبرى» الشرقية ، وكانما ليعرفوا قريبا انه لم يعد لها وجود . اذ ان ضربة التتر – المغول وغزوة باتو الرهيبة انهالتا ايضا على ارض المجريين الاوراليين .

ينبغي التنويه بان التتر بعد الغزو مباشرة ادرجوا المحاربين المجريين ، حسب تقليدهم القديم ، في عداد جيشهم . وبقيت لبعض الوقت في الارطة الذهبية التترية وحدة مجرية بين غيرها من الوحدات «القومية» ، ان شئنا استخدام تعبير عصري .

ان المجريين المهزومين والمشتتين اختلطوا في نهاية المطاف ، على ما يبدو ، بالشعوب المجاورة ، ولا سيما بالبشكيريين . (ونشير الى ان بعض الرحالة العرب في القرن الثاني عشر ، اي قبل حملة باتو بقرن ، كانوا يعتبرون

ان هؤلاء البشكيريين بالذات هم المجريون الأسيويون) .

تؤكد التسميات الجغرافية مرة اخرى صلة المجريين بالاورال . يوجد في بشكيريا ، مثلا ، نهر ساكمارا رافد الاورال . وهذه الكلمة نفسها ، التي تستخدم اسما للنهر البشكيري ، تتكرر مرارا على خارطة هنغاريا المعاصرة . وعلاوة على ذلك ، فان ثلاثا من اصل اثنتي عشرة عشيرة بشكيرية اساسية يعرفها التاريخ كانت تحمل الاسماء نفسها لثلاث قبائل مجرية من اصل سبع قدمت الى الدانوب .

ولكن المجريين اتوا الى الاورال من مكان ما ايضا . ان آثار المجريين الاوائل هؤلاء ، يبحث عنها في سيبيريا الغربية ، وفي كازاخستان ، وفي اوزبكستان .

اكتشفت مؤخرا مقبرة مجرية قديمة على ضفة كاما اليسرى ، في مجراه الاسفل . وفي راي عالمة الآثار خاليكوفا ان اراضي هنغاريا الكبرى كانت تشمل الضفة اليسرى لكاما الاسفل وجنوب الاورال الامامي ، وكذلك منحدرات الاورال الشرقية جزئيا . وتعتبر خاليكوفا ان الهنغاريين الاوائل ظهروا في جنوب الاورال الامامي في اواخر القرن السادس ، ربما بعد ان انتفض بعض القبائل الاوغرية في الخاقانية التركية ومنيوا بهزيمة ساحقة . وقد شملت هذه الانتفاضة منطقتي آسيا الوسطى وكازاخستان .

وقبلها كان أسلاف الهنغاريين القدماء ، كما تفترض خاليكوفا ، «في النصف الثاني من القرن السادس . . . جزءا من الخاقانية التركية الغربية وادوا بالاشتراك مع التركيوتيين دورا كبيرا في الحياة السياسية لآسيا الوسطى وايران الساسانية . وقد خلف هذا العصر اثرا قويا على الثقافة اللاحقة للهنغاريين القدماء : اذ ان المواضيع والحبكات الايرانية سائدة في مختلف عناصر الميثولوجيا والفن التشكيلي فيها» .

وصل اسلاف الهنغاريين القدماء الى آسيا الوسطى وكازاخستان ، في راي خاليكوفا ، منذ القرن الرابع

الميلادى ، حينما سلخهم سيل الرحل الذى اجتاح سيبيريا الجنوبية عن اقربائهم ، اوغريى اوب .

وتشير خاليكوفا بشكل خاص الى ان هنغاريا الكبرى الاورالية عقدت من اواخر القرن السادس الى بداية القرن التاسع صلات بالسهوب ذات الغابات فى غرب سيبيريا وشمال كازاخستان ، حيث بقيت القبائل الاوغرية وثيقة القربى بالهنغاريين القدماء . وهذا ما تشهد عليه باقتناع مواد حفريات فى الاورال تؤكد تبادل الحاجيات بين هاتين المنطقتين المتباعدتين .

اننا نعرف عن المجريين الذين رحلوا من الاورال الى الغرب اكثر بكثير ، وان كانت معرفتنا ايضا قليلة نسبيا .

يبدو ان عددا من القبائل المجرية الاورالية غادرت مناطقها الام فى اواسط الالف الاول . ربما دفعت المجريين الى هذا موجة جديدة من الهجرات الكبرى للشعوب .

فى اواسط الالف الاول الميلادى صار المجريون يعيشون فى حوض الفولغا ايضا . وهذا البلد المجرى الجديد الواقع على ضفة الفولغا اليمنى يحمل اسما جميلا ، كما يبدو لنا ، وهو ليفيديا ايتيلكوزا . وما لبثت قبائلهم المحلية ان اعترفت بسلطة الخاقان الخزرى الذى كان حينذاك حاكم دولة كبرى تشمل شمال القفقاس وجزءا من منطقة الفولغا والاراضى المجاورة . فى ذلك الحين انضمت الى الاتحاد المجرى واخذت اللغة المجرية عدة قبائل خزرية كانت تنتقل فى الجوار .

يبدو انه فى ذلك العهد اضيف الى تسمية «المجريين» الذاتية القديمة اسم سلالى جديد ، وهو الهنغاريون المأخوذ من اسم شعب الاونوغوريين التركى الذى عاش المجريون قرابة قرن فى اراضيه .

انتقل مركز اقامة المجريين الى الغرب بالتدريج . وصارت ليفيديا الجديدة تقع على جانبى الدون . وعاش المجريون بين القبائل السلافية ، بل ربما بشكل متداخل معهم . واقام اتحاد القبائل المجرى علاقات ودية ببيزنطة ، وكانت هذه الدولة

تجر الرحل الى حروبها ، فغيرت بشدة فى نهاية المطاف حياة سكان السهوب الطلقاء .

واذ نفذ المجريون اتفاقية مع بيزنطة ، وجهوا فى القرن التاسع ضربة قوية الى المملكة البلغارية فى مجرى الدانوب الاسفل . ان البلغار الذين منيوا بهزيمة نكراء ردوا بعد عدة سنوات بحملة لا هوادة فيها على ليفيديا . وهذه الحملة نفذتها بصورة رئيسية قوى البيتشينيغيين الذين ظهروا قبل ذلك بامد قصير فى السهوب المتاخمة للبحر الاسود ، حيث كان يعيش المجريون . وقد اختار البلغار والبيتشينيغيون لحظة مناسبة جدا للهجوم . اذ كان الجيش المجرى وكل الرجال القادرين على حمل السلاح فى حملة بعيدة حينذاك . وكانت ليفيديا بلا حماية . وحينما عاد الجيش الى الوطن ، رأى انه بقى . . . بلا شعب .

غادر المجريون هذه الارض . وتقول الحكايات ان الهجرة لم تكن عفوية . ويبدو ان «العنوان» حدد مسبقا : البلاد الواقعة فى المجرى الاوسط للدانوب ، مكان الاقليم الرومانى بانونيا .

ومهما بدا الامر غريبا ، فان اسطورة على وجه التحديد قادت المجريين الى بانونيا ، وهذه الاسطورة تقول بان اصلهم يعود . . . الى اتيلا . ولا يزال يعيش الى الآن وسط الشعب الهنغارى تقليد مفاده ان اصل المجريين يعود الى الهون . وردا على ذلك يهز المؤرخون عادة اكتافهم ويقولون ان عددا من القبائل الاوغرية قد انجر طبعا الى الهجرة الكبرى للشعوب ، وان جيوش اتيلا كانت تضم مجريين على الارجح ، ولكن الهون وقادتهم لم يكونوا مجريين ، بالتأكيد .

ينبغى القول انه بعد موت اتيلا وهزيمة جيوشه ذهبت فلول الهون تحت قيادة واحد ممن سموا من ابناء الملك الرهيب الى شمالى البحر الاسود . وعاشوا هناك كقوم منفصل قرابة قرنين الى ان ذابوا نهائيا فى سكان هذه المناطق حينذاك . وكان فى وسع الهون ، الامر الذى لم يبرهن عليه ، والحق يقال ، ان يقابلوا المجريين فى منطقة البحر الاسود

ويختلطوا هناك بهم بالذات . ولا يستبعد ان يكون هـذا اساس اسطورة القربى بين الهون والمجريين .

ونضيف ان بعض العلماء الهنغاريين يفترضون الآن ان المجريين الاوائل ظهروا فى الكربات وغربه منذ القـرن السابـع . واذا كان الامر كذلك ، فان جمهـور المجريين الاساسى قد انطلق فعلا فى اواخر القرن التاسع الى الغرب على الطريق الذى مهده اقرباؤهم .

ويفترض الارخيولوجى الهنغارى لاسلو ان الاتـراك الاونوغوريين هم الذين اتوا الى الدانوب فى حوالى سنة ٦٧٠ ميلادية مع الاتراك البولغار . وقد اخذ هؤلاء الانوغوريون اللغة الهنغارية فيما بعد .

ان الاسفار المجرية فى القرون الوسطى تقول مباشرة ان المجريين ذهبوا الى الدانوب ليتملكوا ارث اول زعيم لعشيرة الموش (الموس) اتيلا . وفى غضون ذلك يعلن ان الموش من اخلاف «الملك ماجوج» . غالبا ما كان اسما الجبابرة يأجوج وماجوج يطلقان فى القرون الوسطى على القبائل الرحل التى كانت تبعث الهلع فى الاوروبيين المتحضرين . وقد ربطت الاسطورة ماجوج بالهون ، وعكس مدون التاريخ ، الذى يفخر باصله الهونى ، التقليد الهنغارى المتبع فى زمنه الذى كان يعتبر ماجوج موضع اعتزاز ، لا مصدر رعب .

ان رحيل المجريين عن الدون حصل فى عام ٨٩٥ تقريبا . لقد اجتاز الرحل الممرات الجبلية فى الكربات ووصلوا الى رحاب بانونيا . وكانت قوتهم الرئيسية مكونة من القبائل السبع التى اتينا على ذكرها ، وبينها القبائل ذات التسميات «البشكيرية» : اليورماتيون ، الكيسى ، البينيه . وربط الزعماء السبعة لهذه القبائل انفسهم وقبائلهم بمعاهدة تحالف ابدية دعموها بالدم .

تقول اسطورة هنغارية ان المجريين اشتروا بانونيا من الامير السلافى مورافيا بجواد ابيض وسرج ولجام ، ولكن الامير اخل بالمعاهدة فيما بعد ، فاضطر الهنغاريـون الى الاستيلاء عليها .

فى الارض الخصبة عند الدانوب وجد مكان للقبائل الجديدة التى استقرت فى الارض بسرعة . واختلط المجريون بالسكان المحليين ، ولا سيما بالسلافيين ، ولم يكن عند القادمين من الدون خيار آخر فى الواقع ، حيث ان المجريين بقوا بلا نساء، تقريبا بعد الضربة التى تلقوها من البلغار والبيتشينغيين . وينبغى القول ان الكلمات التى تخص فى اللغة الهنغارية المسكن والطعام والزراعة وبناء الدولة هى برمتها تقريبا من اصل سلافى .

ولا بد من التنويه بان حفريات القبور الهنغارية العائدة الى القرن العاشر فى الدانوب الاوسط بينت ان المجريين القدماء كانوا فى ذلك الزمن يشبهون جدا من الناحية الانتروبولوجية السرماتيين الذين عاشوا فى مستهل القرن الاول الميلادى فى منطقة مجرى الفولغا الاسفل واوكرانيا وعند الشواطئ الجنوبية لبحر ارال . اى ان المجريين وصلوا الى الدانوب كاوروبيين نموذجيين . هذا فى حين ان الاوغريين ، الذين انطلقوا من سيبيريا الجنوبية ، كان عندهم الكثير من الملامح المغولية . وبالتدريج فقد الاثنوس المجرى اغلبها ، حيث اختلط فى طريقه الى الغرب بقبائل اوروبية بمظهرها .

وهكذا اصبحت بانونيا – الى الابد هذه المرة – وطنا جديدا للمجريين .

ان ارباد بن الموش ، قائد قبيلة المجر ، اقوى القبائل السبع ، اسس سلالة الاربادبين ، وتسمى الشعب بـأسره باسم قبيلته .

ولكن تأسيس المملكة الهنغاريـة لم يضع حدا لهجرة قبائل جديدة وجديدة الى ارض بانونيا .

فى القرن الحادى عشر استقبل الهنغاريون فى ارضهم الاتراك – البيتشينيغيين الذين طردهم من شمالى البحر الاسود اقرباؤهم البولوفيون ، وهم اتراك ايضا من حيث اللغة . وبعد مئتى سنة استقبل وادى الدانوب المضياف موجة جديدة من البولوفيين الذين هربوا من الغزو المغولى

الى الغرب . والى الآن تبرز بين الشعب الهنغارى مجموعة اخلافهم المباشرين من البالوتسيين .

لعل الرحل كان يجذبهم السهب الهنغارى الشهير ، اما الملوك الهنغاريون فكانوا بحاجة الى محاربين لمقاومة الضغط الالمانى من الشمال والغرب ، وللصراع ضد اتباعهم . ومن قرن الى قرن كانت هذه الاراضى الخصبة على الدانوب الاوسط تحافظ على جاذبيتها بالنسبة الى المزيد والمزيد من الشعوب . فكم من الدروب الشاقة كانت تنتهى هنا ، فى وسط اوربا !

فى مستهل القرن السادس عشر وقع جزء من هنغاريا تحت سلطة الامبراطورية التركية ، وفيما بعد دخلت بأسرها فى بنية الدولة الهابسبورغية مع النمسا والاراضى التشيكية وسلوفاكيا وكرواتيا وجزء من اوكرانيا وجزء من الصرب الخ . ، ولم يكن للمجريين وطن بمثابة دولة . . .

سلطة العادات . سنتحدث هنا بمزيد من التفصيل عن شعب اسيوى الاصل ، ولكنه الآن مبعثر فى ارجاء شاسعة من الارض . ونعنى الغجر (مع انه ينبغى القول ان الكثير من العلماء متفقون الآن ان الغجر قد انقسموا الى عدة اثنوسات – وفق المناطق الكبيرة التى يعيشون فيها) . ان عدد الغجر فى كوكبنا لا يتجاوز بضعة ملايين ، ولكن ينبغى التحدث بمزيد من التفصيل عن اصل هذا الشعب الذى يشكل منذ قرون عديدة لغزا محيرا سواء بالنسبة الى الناس الذين عاشوا بينهم ، او بالنسبة الى العلماء . ومن الهام ايضا التحدث عن هذا لان الغجر هم الشعب الوحيد الذى قدمته الهند الى اوربا (فى السنوات الثلاثة آلاف الاخيرة على اى حال) مقابل الكثير من الشعوب التى اتت من اوربا الى الهند . وبالمناسبة ، يعيش الكثير من الغجر فى الهند الى الآن ، كما يعيشون فى كل بلدان العالم تقريبا .

احدث الغجر انطباعا شديدا فى اوربا فى القرن الخامس عشر . لقد قابلهم بطل والتر سكوت ، الباحث الشاب عن المغامرات كوينتين دوروارد . انهم يبدون للشاب اقرب الى

ابناء جهنم ، رغم انه يشير بشكل عملى الى انهم «سود الوجوه كالافارقة ، وللكثير من الرجال لحى متجعدة سوداء» . وكان على كوينتين بمشيئة الملك ان يتجول مع الغجر طويلا .

يسأل كوينتين دوروارد غجريا : «ما هى موارد عيشك ؟» .

«اكل حينما اجوع ، واشرب حينما اشعر بالعطش ، وليست عندى اية موارد للعيش الا ما يبعثه القدر مصادفة» ، ولكن «عندى حريتى . . . انا لا احنى هامتى امام احد ، ولا اعترف باحد . اذهب الى حيث اريد واعيش كما استطيع واموت حينما تحل ساعتى» .

ينبغى الاعتراف بانه مهما كانت حياة الغجر رومنتيكية ، فان والتر سكوت يبالغ فى هذه الرومنتيكية . كان رئيس العشيرة ، الشيخ ، يتمتع عند الغجر بسلطة كبيرة . وكانت سلطات البلدان ، التى يظهر فيها الغجر ، تجعله يفهم بسرعة ان حرية الرحل ليست سوى شئ نسبى .

قدم الغجر الى اوربا (كما قدموا الى آسيا الغربية والوسطى ، والى افريقيا الشمالية) فى القرون الوسطى ، فى وقت غير مناسب بالمرة لظهور هؤلاء الغرباء المشبوهين . كانت بشرتهم السوداء تشير بوضوح الى صلتهم بابليس ، اما معتقداتهم الغريبة ، التى لم يكن الغجر يفلحون دوما فى اخفائها ، فكانت تثبت عليهم نهائيا خدمة كل الشياطين . وكان ميل الغجريات الى قراءة الكف مجرد ذريعة اضافية للملاحقات .

كان الكثير من الرجال الغجر حدادين ممتازين . وفى ذلك الحين كانوا يعتقدون بجد انه يصعب على الحداد العمل بدون ان يتفق مع الشيطان . وحتى انهم كانوا تحفظا لكل طارئ يطلبون من الحداد فى الورش الاوربية فى القرون الوسطى ان يقسم الا يعقد اتفاقا كهذا .

وخلاصة القول ، كان الغجر مقضيا عليهم بالملاحقات . وقد بدأت هذه الملاحقات . لم يبد منشأ الغجر غامضا للغاية آنذاك . فقد تحدث الناس الذين يؤمنون بالخرافات على نحو خاص عن جهنم ، واحيط كل الآخرين علما باحاديث الغجر

انفسهم عن انهم اتوا من مصر او من مصر صغرى ما .

ومنذ ذلك الحين يسمى الهنغاريون الغجر بالشعب الفرعوني ، ويسميهم الانكليز بجيبسي ، والاسبان بغيتانوس . وكل من «جيبسي» و«غيتانوس» مشتق من كلمة «مصر» بلفظها الانكليزي والاسباني .

. . . كان شمال غرب الهند على الدوام مكانا ياتيه الغزاة في احيان كثيرة جدا . وغالبا ما كانت تجرى فيه ايضا نزاعات بين الاقطاعيين المحليين والقبائل الحرة . منذ الف سنة ونيف ، في خلال جولة جديدة من الحروب والنهب تحركت احدى القبائل المتجولة من مكانها ورحلت . ولعلها لم تكن قبيلة واحدة ، بل عدة قبائل . والارجح انه انفصلت وانطلقت في سفر بعيد مجموعات كبيرة من اناس مختلف القبائل ، لاقبائل باكملها . ولم يجر هذا مرة واحدة ، بل عدة مرات – على امتداد بضع مئات من السنين .

لقد تحدثنا كثيرا عن تنقلات الشعوب ، بحيث يمكن التعود على «السهولة» في تحرك مئات الالوف والملايين من الناس . اما اسلاف الغجر فكان تحركهم سهلا بشكل خاص . فمنذ ان كانوا في الهند كانوا من قبائل الرحل ، وحتى القبائل الجوالة . والمهن التي اشتهر بها الغجر كانوا قد استوعبوها في الهند منذ القدم . ولا تزال قبيلة الناتيين الجوالة تعيش في وطنها القديم الى الآن . يشتري الناتيون الجياد ويبيعونها ، ويعرضون شعوذاتهم في ساحات الاسواق ، ويسوقون الدببة والقرود المروضة لعرضها .

لقد نشأ في الهند القديمة نظام فئوي للمجتمع . واصبحت لمجموعات كبيرة من السكان اختصاصات معينة دائمة . وكان افراد الفئة الواحدة يستطيعون ان يصبحوا ابا عن جد وعلى امتداد عشرات عديدة من الاجيال مزارعين فقط ، او دباغين فقط ، او حتى كناسي شوارع فقط . وقد حاول حكام وكهنة الدول الهندية ان يحشروا ايضا القبائل الجوالة الحرة في هذه الاطر الصارمة . وهكذا ظهرت عند الغجر المقبليين تشكيلة حرفهم – من العاب السيرك الى الحدادة . وكانت

تشكيلة واسعة فالقبائل التي ينتسب اليها الغجر الذين انطلقوا الى الغرب كانت على اى حال اكبر من ان يعين لها تخصص مشترك ضيق للغاية .

وهذه التشكيلة ترسخت بحيث اصبحت لدى كل مجموعات الغجر في كل البلدان الحرف نفسها تقريبا . وحمل الغجر معهم من وطنهم القديم ، علاوة على المهنة ونمط الحياة ، موقفا طائشا لا يصدق (من وجهة نظر جيرانهم الموقرين) ازاء الكثير من الاشياء الجدية ، ومن بينها الملكية .

يرتبط «طيش» الغجر بما بقي في مجتمعهم من رواسب خلفها الصيادون وجامعو النباتات البدائيون . وقد لاحظ الباحثون خصالا مماثلة ايضا لدى القبائل التي لم تمارس الزراعة بعد . المزارعون يحرثون اولا ، ثم يبذرون ، ثم ينتظرون المحصول ، ثم يجنونه . انهم يتعلمون مرغمين حساب ما عندهم وما سيكون عندهم ، يتعلمون التفكير في الغد . اما الصيادون وجامعو النباتات فاقل اكتراثا . لا مجال لحفظ اللحم ولا الثمار طويلا ، فلا بد من العيش وفق مبدأ – لكل يوم رزقه . وهكذا يبدو الغجر الرحل طائشين مقارنة بالفلاحين الصارمين .

في القرن الثالث عشر ظهر الغجر في اليونان . وقد عاش الغجر هناك طويلا ، ودخل اللغة الغجرية الكثير من الكلمات اليونانية . وفي القرن الخامس عشر اصبحوا في رومانيا . وفي عام ١٥١٧ غادر الغجر رومانيا ليتنقلوا في كل ارجاء اوربا . مضت ثلاثون سنة وصار الغجر يعيشون في فرنسا وفي اسبانيا وفي انكلترا على حد سواء . وكان عددهم كبيرا في هنغاريا بشكل خاص . وقدم عدد من الغجر الى روسيا من رومانيا مباشرة ، وقدم عدد آخر بطريق غير مباشرة ، عبر هنغاريا والمانيا وبولندا .

تكشف اللغة الغجرية المعاصرة للعلماء كيف تجول اصحابها . وكان الكلمات المتطفلة عليها من اللغات الاخرى معالم طريق . فالغجر الاسبان ، مثلا ، غالبا ما يستخدمون الى الآن كلمات يونانية وسلافية ورومانية .

منع الملوك الاسبان والاباطرة النمساويون الغجر تحت طائلة الطرد ، واحيانا الاعدام ، من العيش على النمط القديم وامروهم بالاقامة فى المدن . وحول البويار والاديرة فى رومانيا الغجر الى عبيد – لهم او للدولة . ولكن اشنع الاخطار لم تات على اى حال الا فى القرن العشرين ، بعد ظهور الفاشية . كانت هناك حاجة ماسة الى الغجر : انهم حدادون وسكابون ممتازون ، وكانوا يزودون الجيش بالسلاح ويدفعون ضرائب كبيرة الى الخزينة . (ثمة اماكن كثيرة يتحدثون فيها عن الحداد باحترام كبير : «اتقن المهنة على نمط غجرى» . وحتى ان عالم آثار غلبته الحماسة المفرطة اكد ان الغجر ظهروا فى اوربا منذ قرابة اربعة او خمسة آلاف سنة ، وانهم نشروا صنعة الحدادة فى كل ارجاء العالم) .

ان كون الغجر رحلوا من الهند امر ليس فيه ما يدعو الى العجب . وليس ثمة ايضا ما يدعو الى العجب فى انتشارهم فى ارجاء العالم كله . يبقى شيء واحد يدعو الى العجب : لماذا لم يذب الغجر فى الشعوب الاخرى ؟ فقد حدث هذا مرارا سواء لشعوب اكثر عددا او لشعوب اكثر تطورا من الناحية الثقافية .

فى بلغاريا ، والحق يقال ، صار الغجر يعيشون حياة حضرية منذ زمن بعيد ، وحتى انهم نسوا لغتهم . ولكن الكثيرين جدا – فى كل اوربا وافريقيا الشمالية وآسيا الغربية – تمسكوا سواء بلغتهم او بعاداتهم .

لم يستطع الدين ان يضطلع هنا بدور خاص . فى البلدان الاسلامية اعتنق الغجر الاسلام فورا ، وتنصروا فى البلدان المسيحية . وهذا لم يمنعهم ابدا من البقاء متمسكين بخرافاتهم على الطريقة الهندية فى القرون الوسطى .

ان تعلق الغجر بنمط الحياة المتنقلة المتجولة ابقاهم متماسكين . فهل انتقل هذا التعلق بالوراثة ؟ كلا ، طبعا . التربية هى التى قررت هذا . ان القبائل الغجرية ، التى خرجت من الهند ، كانت لا تزال من نواح كثيرة فى المرحلة العشائرية من تطور المجتمع . كانت سلطة الكبار فى الاسرة

على الصغار ، والاباء على الاولاد ، والزعماء والشيوخ على الافراد البسطاء جبارة عند هؤلاء الناس الاحرار ظاهريا . وهى سلطة لا تعتمد على القوة بل على الهيبة والوقار ! والشيء الذى استطاع هذا المجتمع البدائى ان يفعله على نحو باهر هو تربية الاجيال الجديدة على نمط الكبار وشاكلتهم ، على الاخلاص للعادات وقواعد الحياة المتعارف عليها . ولعل هذه القدرة على التربية كانت الشيء الرئيسى فى حفظ الذات لدى الغجر على امتداد مئات عديدة من السنين .

مصير مكتشفى اميركا الاوائل . منذ ثلاثين الف سنة تقريبا وصل اناس قبيلة مجهولة الى مضيق بهرنغ . وبالمناسبة ، ربما لم يكن لهذا المضيق وجودٌ اصلا فى ذلك الحين . وكان مكتشفو اميركا الاوائل قلائل . كان على الناس البدائيين ان يعيشوا مجموعات صغيرة جدا ويمارسوا الصيد وجمع النباتات ليقتاتوا بشكل من الاشكال . عشرة رجال متجهمين ، جائعين يحملون فؤوسا حجرية وهراوات ومزاريق ، وعشر نساء ينقلن على اكتافهن المؤونة الشحيحة والاطفال الرضع . لقد وصل الاميركيون الاوائل الى ارضهم على الجليد شتاء اذا كان المضيق موجودا ، وفى اى فصل من فصول السنة على اليابسة اذا لم يكن موجودا . وكانت ارضا مقفرة .

كان فى انتظار القادمين مصير عظيم . ففى خلال ثلاثين الف سنة استوطن اخلافهم قرابة اربعين مليون كيلومتر مربع ، اى اميركا كلها باستثناء المناطق القطبية فى اقصى الشمال .

لقد حدث الكثير فى غضون ثلاثمئة قرن ، على امتداد الف ومئتى جيل . ومن قبيلة صغيرة واحدة بزغت مئات ومئات من القبائل . وانقسمت اللغة التى كانت تتكلم بها القبيلة الى عشرات اللغات ومئات اللهجات . والى الآن يتناقش العلماء : هل وصل هؤلاء الناس الاوائل وحدهم الى اميركا ؟ الم تكن هناك موجات عارمة اخرى من القادمين الى القارة الاميركية ؟ ان الامر يستحق النقاش .

ان اهم حقيقة تدعم فكرة الاصل الواحـــد ، المشترك للهنود هى التشابه الشديد بين مختلف القبائل من حيث توزع فئات الدم .

. . . لقد حاول الاطباء منذ مئات والوف السنين شفاء المرضى بحقن دم جديد مأخوذ من الناس فى عروقهم . ولكن هذا غالبا ما كان يقتل عوضا عن ان يشفى . لماذا ؟ لانه يمكن ان توجد فى الدم «الغريب» مواد تقتل كريات الدم الحمراء فى المريض . وقد اكتشفت هذه المواد ، وسميت بحرفين لاتينيين : العامل A والعامل B .

من الواضح ان الدم ذا العامل A او العامل B لا يمكن نقله الا الى من يوجد عنده هذا العامل ، وكان عاملـــه المالوف . ووفق العاملين B,A يمكن بسهولة تقسيم الناس جميعا الى اربع فئات رئيسية . فى دم الفئة الاولى ينعدم العاملان كلاهمـــا . فى دم الفئة الثانية لا يوجد الا العامل A ، وفى دم الفئة الثالثة لا يوجد الا العامل B، وفى دم الفئة الرابعة يوجد B,A على حد سواء .

. . . لا يوجد بين هنود اميركا من عنده دم فيـــه العامل B . ومن رأس الاسكا الى برزخ بنما لا يعيش الا اناس من ذوى فئتى الدم الاولى والثانية . وحتى انه فـــى جنوبى هذا البرزخ – سواء فى ادغال اميركا او فى الصحراء الباردة لارض النار – لايوجد الا اناس من ذوى فئـة الدم الاولى . ليس ثمة اناس هنا من ذوى العامل B ، ولا من ذوى العامل A.

ما معنى هذا ؟ معناه انه لم يكن بين اسلاف الهنـــود ايضا اناس من ذوى العامل B . ويمكن لهـذا ان يحدث اذا كان المستوطنون الاوائل قلة ، ولم تات بعدهم موجات جديدة من المستوطنين .

ان غياب العامل A فى اميركا الجنوبية كانما يدعم ايضا الفرضية القائلة بقدوم موجة واحدة من آسيا . لقد احتاجت هذه الموجة الى الوف مؤلفة من السنيـــن لتجتاح

اميركا الشمالية باسرها ، من الاسكا الى المكسيك ، وتصل الى «الخصر» النحيل للقارة الاميركية ، الى برزخ بنمـــا . ولعله تكررت هنا القصة القديمة : لم تعبره الا مجموعـة صغيرة من الناس الذين اصبحوا اسلاف كل هنود اميركـا الجنوبية . ولم يكن بين هؤلاء الناس – بمحض المصادفة ، طبعا – من يحمل العامل A .

ان العامل B (وحده او مع العامل A) موجود فـى دم اثنى عشر فى المئة من الانكليز وخمس مجموع الالمان . وفى شرقى آسيا ، مثلا ، يشكل الناس من ذوى فئتى الدم الثالثة والرابعة معا قرابة نصف السكان .

ومن شان اى مهاجرين ان يغيروا نسبة فئات الدم فى اميركا . ولكنها بقيت . وهذا معناه . . . نعم ، يبدو وكان الامر هكذا . ولكنالعلماء انفسهم الذين يدرســون توارث فئات الدم ، يتحدثون ايضا عما يلى . اذا كانت نسبة الناس الذين يحملون عاملا معينا من الدم قليلة ضمن مجموعـــة متعزلة ، فثمة فرص كثيرة جدا لزوال عامل الدم هذا مـع الزمن اجمالا . اى انه ربما كان بين القادمين الاوائل اناس من فئة الدم الثانية ، ولكنهم كانوا قلائل . وربما اتى فيما بعد مهاجرون من فئة الدم نفسها . ولكن لا بد وانهم كانوا قلائل جدا ، بحيث ان القادمين الجدد ذابوا فى الهنود الذين كانوا قد تكاثروا قبل قدومهم .

اما انه اتى على اى حال قادمون جدد فيما بعد ، فامر يمكن التاكد منه . وهذا مثال ربما لم يكن اهم الامثلة ، ولكنه اكثرها مدعاة للثقة . فى اراضى اكوادور الحاليـــة كانوا يصنعون منذ بضعة آلاف من السنين سيراميكا رائعا . وغالبا ما كانوا يزينونه ، حيث يضغطون حبلا مجدولا على الفخار وهو لا يزال رطبا . ولكن هذه «الزخرفة بالحبال» والكثير من التفاصيل الاخرى للقدور الاكوادورية رآهـــا العلماء فى مكان آخر تماما ، فى اليابان .

فمن علم من صنع القدور : الهنود علموا اليابانيين ،

او بالعكس ؟ لا مجال هنا للخلاف . ان السيراميك اليابانى العريق اقدم من السيراميك الاكوادورى بكثير .

فهل كانت هناك صلات قديمة بين اليابان واميركا الجنوبية ؟ كلا ، هذا مستحيل . ان المحيط الكبير او الهادى كبير فعلا ، ولكنه ليس هادئا بالمرة . وتنطوى التيارات والرياح على اهمية فائقة بالنسبة الى من يمخر عبابه . ان التيارات الرئيسية والرياح الدائمة هنا تتجه من الشرق الى الغرب . وليس عبثا ان تور هييردال قد عام من الشرق الى الغرب – من بيرو الى بولينيزيا – على طوفه الشهير . وليس عبثا ، على الارجح ، ان الرحلات الاولى حول العالم ، بدءا بماجلان ، قد اقلعت من اوربا ، ثم من اميركا الى الغرب ، قاطعة المحيط الهادىء فى انسب اتجاه ، وان كان ذلك من غير معرفة . اما محاولات اجتياز اكبر المحيطات من الغرب الى الشرق فبقى الاخفاق مصيرها امدا طويلا .

لهذا يمكن افتراض ان قوارب الصيادين الهنود قد انجرفت مرارا الى الفيليبين او اليابان . ولكن هذا لم يسفر ، كما يبدو ، عن آثار تاريخية .

ولكن حينما انساق قارب يابانى بمحض المصادفة الى اكوادور ، اقتبس الهنود من اصحابه الفن الجميل لصنع القدور شيّها . ولكن هذا «الاستيطان الياباني» حدث منذ عهد قريب نسبيا ، حينما بلغ عدد سكان اميركا الملايين ، ولم يكن فى وسع اثنين او ثلاثة او حتى عشرين من اليابانيين (وكم يمكن ان يكون عددهم فى قارب ؟) ان يغيروا فى بنيتهم .

يؤكدون انه عثر فى اميركا الوسطى على عملة رومانية قديمة . ويتحدثون عن آثار للثقافات المصرية القديمة والفينيقية ، ولليهودية القديمة احيانا عند بعض القبائل الهندية سواء منها المنقرضة او الحية الى الآن . لا توجد براهين دامغة على هذا ، ولكن من الممكن جدا ان سكان شواطىء البحر الابيض المتوسط ، كانوا يصلون الى

الشاطىء الغربى للاطلسى من حين الى آخر . بيد انهم لا يعثرون هنا على آثار انتروبولوجية – فى مظهر الهنود – للجنس الاوربى .

اقام فى اميركا الشمالية بعد الميلاد البحارة الايرلنديون القدماء (وهذا ما برهن عليه تقريبا) ، ومن ثم النورمانيون (الامر الذى برهن عليه نهائيا) . ويحاول بعض الانتروبولوجيين الاميركيين العثور على علامات للتأثير النورمانى فى مظهر هنود السيو .

ولكن ربما كانت ملحوظة اكثر لدى بعض قبائل اميركا الجنوبية سمات قربها من الافارقة ، واحيانا من الاستراليين : البشرة القاتمة نسبيا والشفاه الغليظة .

كيف استطاع الافارقة او الاستراليون الوصول الى اميركا ؟

يمكن ، طبعا ، تذكر المحاولة المتهورة للملاحة الكبرى التى قام بها فى القرون الوسطى حاكم احدى دول افريقيا الغربية . لقد اقلع الى المحيط مع جيش جرار فى بضعة آلاف من السفن الكبيرة . . . وفى وسعنا ان نحكم بناء على تصميم السفن ان اغلبها على الارجح لم يتحمل الرحلة . وربما ينطبق هذا على السفن جميعها بلا استثناء . ولكن عددها كان كبيرا جدا . . . ولا يستبعد ان البعض قد وصل على اى حال سالما الى الشواطىء الاميركية . وثمة استنتاج طبيعى آخر : الملك الذى كان يحب الرحلات قد علم من مصدر ما بوجود ارض فى الغرب البعيد . وكان يمكن للزنوج ايضا ان يصلوا الى اميركا مع المصريين القدماء ، اذا كان هؤلاء ، قد ابحروا الى هناك ، طبعا ، ولكن هذا لا يزال موضع نقاش .

فى القرن الخامس عشر اكتشفت اميركا تماما . وعلى الرغم من انه ابحر او وصل الى هناك قبل كولومبوس الاسيويون القدماء والبولينيزيون والنورمانيون والاسكيمو ، وربما الفينيقيون والرومان والافارقة والمصريون ، وحتى الاستراليون ، فان هذا كان مع ذلك اكتشافا على وجه

التحديد . ولاول مرة بعد اقدم انتقال عبر مضيق بهرنغ تعرض سكان القارة لتاثير اجنبي جدي .

استعمر الانكليز والفرنسيون اميركا الشمالية . واستعمر الاسبان والبرتغاليون اميركا الوسطى والجنوبية .

في اميركا الشمالية سلم بعد الحروب مع الدخلاء والابادة المتعمدة ما لا يتجاوز بضع مئات الآلاف من الهنود . اما في اميركا الوسطى والجنوبية فيبلغ عدد الهنود الملايين ، رغم انهم اقل بكثير مما يفترض ان يكونوا . كانت عهود الاستعمار مروعة بالنسبة الى سكان اميركا الاصليين .

. . . يشكل اعقاب الزواج المختلط اغلبية السكان في كل بلدان اميركا اللاتينية تقريبا . لقد اختلط دم الهنود بدم الاوروبيين ، وفي احيان كثيرة بدم الافارقة الذين بقوا امدا طويلا يجلبون الى هناك كعبيد .

لكل جمهورية هناك تاريخها وقوام سكانها . واذا كان الارجنتينيون ، مثلا ، اخلافا للاوروبيين قبل كل شيء ، فان المكسيكيين يعتبرون انفسهم بحق ورثة الاتستيكيين والمايا القدماء بالدرجة الاولى . واغلب سكان باراغواي هنود اقحاح ، اما في البرازيل فلم يبق من وجود للقبائل الهندية الا في الاصقاع النائية .

ولكن سكان البرازيل والمكسيك وكولومبيا وفنزويلا على حد سواء يعتبرون انفسهم ، بغض النظر عن الاصل ، اخلافا للهنود . ان تاريخ اميركا الوسطى والجنوبية مستمر ، ولم يبدأ من جديد .

الابعد . يستحيل ، للاسف ، تكرار القول عن التاريخ المستمر حينما يجري الحديث عن استراليا . ان تاريخ اصغر قارات الارض منقسم الى جزئين . اولهما دشنه ظهور الانسان في استراليا ، وثانيهما استيطان الاوروبيين لاستراليا .

ان اقدم بقايا للانسان عثر عليها في استراليا عبارة عن جمجمة يعود عهدها الى ثمانية عشر او تسعة عشر الف

سنة . وهكذا يعيش هناك على امتداد ثمانمئة جيل تقريبا اناس ملتحون سمر طوال القامة ذوو شعر متموج وانف مفلطح . ولعلهم عاشوا امرا اطول . فقد عثر منذ عدة سنوات في ساحل استراليا الشمالي الشرقي على اثر غريب – وقديم جدا ، كما تسنى التاكد من ذلك – في ارض تصلبت منذ ذلك الحين . لقد بين هذا الاثر بوضوح ان احدا جلس هنا . ولكن من ؟ انسان او كنغر ؟ هذا ما لم تتسن معرفته .

اذا كان هذا الاثر لاحد المستوطنين الاوائل ، وقد جلس مادا رجليه المنهكتين بعد رحلة طويلة ، فيجب ان يضاف الى جملة الاجيال البشرية التي عاشت في استراليا مئة جيل آخر او اكثر .

لقد اتى الناس الاوائل الى استراليا – وثمة مسوغات كثيرة لهذا الافتراض – من جنوب شرقي آسيا . . . ربما من الهند الصينية الحالية عبر اندونيسيا . ثمة بين الشعوب القاطنة في فيتنام وكمبوديا شعوب تتجلى فيها بوضوح سمات القربى بينها وبين الاستراليين . وتوجد ، في رأي الكثير من الانتروبولوجيين ، ملامح تشابه بين الاستراليين واقدم سكان الهند ، الدرافيديين ذوي البشرة القاتمة ، وكذلك شعوب مجموعة المونداكول . لقد استوطن الدرافيديون في وقت من الاوقات الهند بأسرها . وعلاوة على ذلك ، توجد آثارهم في ايران وما بين النهرين وشبه جزيرة العرب ، وحتى في مصر . ولكن ليس واضحا متى ومن اين بالذات ظهر اسلاف الدرافيديين في هذه الاماكن . في فترة من الفترات كانت تتمتع بنجاح كبير فرضية تقول بانه كانت توجد في المحيط الهندي قارة قديمة اطلق عليها اسم ليموريا ، وفيها اصبح الانسان عاقلا لاول مرة ومنها انطلق ليستوطن الاراضي المجاورة . كتب الشاعر الروسي فاليري بريوسوف :

اثار عمالقة ليموريا العابسون
مشعل كلمات قدسية

تألقت به السنون ،
فلمع في الناس التفكير
كنور توهج في الاثير .

ان اساطير التاميليين ، الشعب الدرافيدي الكبير ، وضعت الاسلاف الاوائل للتاميليين حيث تتلاطم الآن امواج المحيط الهندي . وقد تحدث الجيولوجيون كذلك عن قارة قديمة في هذه الاماكن . ولكنهم يؤكدون تأكيدا قاطعا انها غرقت قبل ظهور الانسان بملايين عديدة من السنين . وفي العقود الاخيرة انبعثت فكرة ليموريا بمظهر جديد . ان اعتراض الجيولوجيين على وجود القارة لا ينطبق على الجزر الصغيرة مقارنة بها . ومن الممكن ان ليموري كانت ارخبيلا .

ويبدو ان الجميع متفقون الآن على ان مستوى الاوقيانوس العالمي قد ارتفع في فترة العشرة آلاف او الخمسة عشر الف سنة الاخيرة . ومن المعروف ، مثلا ، ان سكان استراليا القاتمي البشرة لم يكونوا في الالوف الاولى من سنوات حياتهم فيها منقطعين تماما عن العالم الآخر ، وذلك بفضل «جسر من الجزر» بين استراليا واندونيسيا . ولولا هذا الجسر لما استطاع الاستراليون ان يصبحوا استراليين ويصلوا الى القارة الخامسة في العالم : فمنذ ٢٠ الف سنة لم يكن الانسان سيد البحار ابدا . وبعد ذلك – منذ ١٢-١٣ الف سنة – ارتفع مستوى الاوقيانوس العالمي وغاب الجسر .

بعد زوال جسر الجزر الموصل الى اندونيسيا انقطع سكان القارة الخامسة في المعمورة عن العالم باسره ، الى ان اخترع «المواطنون» القريبون والبعيدون سفنا بحرية . وظهر بولينيزيون في استراليا . ومن المؤكد انه زارها بحارة من اندونيسيا . ومنذ امد قريب نسبيا اكتشفت على ساحل استراليا رسوم تشبه الرسوم المصرية القديمة الى حد بعيد ! امن المعقول ان رسل الفراعنة الرهيبين وصلوا الى

هنا ؟ هذه الرسوم لا تزال تثير شكوكا كبيرة . والمؤرخون لا يؤمنون بحقيقتها . وليس ذلك لان استراليا بعيدة جدا عن شمال افريقيا فحسب . فقد جرت فعلا بتكليف من الفراعنة رحلات بحرية جبارة على غرار اول ابحار في التاريخ حول افريقيا . ولكن لم يكن المصريون انفسهم ينفذون هذه المهمات ، بل الفينيقيون الذين كانوا خاضعين لهم في ذلك العهد ، والذين كانوا ملاحين مشهورين في الزمن القديم . فلماذا تحمل الرسوم طابعا مصريا قديما بوضوح . طبعا ، كان يمكن ان يبحر المصريون ، ممثلو الفراعنة ، مع الفينيقيين . وعلى اي حال ، فليس المصريون وحدهم على مايبدو قد خلفوا في هذه الحالة اثرهم في الارض الغريبة .

في القرن السابع عشر ظهر عند سواحل استراليا اوائل الاوربيين من اسبان وهولنديين وانكليز . وبعد قرن اقرت الحكومة الانكليزية الغرض الذي تصلح له الارض الجديدة : يمكن ان يرسل اليها المخلون بالقانون . بهذا بدأ الاستيطان ، ثم اندرج فيه افقر الناس ، واتى المبشرون ، واتت السلطة الغريبة ايضاً .

في روايات دانييل ديفو والكثير من الكتاب الانكليز الآخرين وصولا الى ديكنز ، تستخدم كلمة «استراليا» على الاغلب ، شأن تسميات بعض الخلجان والمستوطنات هناك ، مرادفة لتعبيري «المنفى» و«الاشغال الشاقة» .

ارسلت اوربا مجرميها الى شعب ربما كان من نواح كثيرة انبل من في الارض . وهل يمكن للمشهد التالي ان يحدث في اي مكان آخر ؟ رأت مجموعة من السكان الاصليين فصيلة كبيرة من البيض فقررت مهاجمتها : كانت لهؤلاء السكان الاصليين حساباتهم مع الاوربيين . ولكن . . . البيض كانوا بلا اسلحة . واعتبر الاستراليون من واجبهم ان يسلحوا العدو قبل المعركة . حتى روايات الفروسية لاتستطيع ان تتباهى بنماذج مشرفة كهذه .

هنا ، كما في كل مكان من العالم ، اباد المستعمرون مئات الالوف من الناس بهذه الوسيلة او تلك . ولم يبق

فى استراليا الآن من السكان الاصليين سوى بضع عشرات من الآلاف . والمئات منهم فقط حافظوا بدرجة من الدرجات على نمط الحياة والثقافة السابقين . واصبح الآخرون فى وضع افقر الفئات واكثرها تعرضا للاضطهاد والازدراء بين السكان الذين يشكلون بينهم اقل من واحد فى المئة بكثير .

اغلب الاستراليين من اصل اوربـــى . وهـــم من حيث الاساس اخلاف للانكليـــز والسكوتلانديين والايرلنديين . وهناك ايضـــا اخلاف للفرنسيين والسويديين والبولنديين والروس . وكان هناك مستوطنون قلائل من آسيا وافريقيا . وقد وضعت القوانين العنصرية العراقيل فى وجه انتقال غير الاوربيين الى هناك ، وحتى انها حدت من قدوم ممثلى بعض الشعوب الاوروبية كالايطاليين ، مثلا .

ولكن ثمة من اتى الى هنـــاك من آسيا على اى حال ، كالافغان ، مثلا ، الذين «جلبوا» الى استراليا بمثابة جمالين : ففى استراليا صحارى كثيرة ، واتضح ان الابل ضروريـــة هناك .

بمثل هذا الحرص يتقى الاختلاط بأناس القوميات الاخرى الاخلاف المباشرون للصوص والنهابين والقتلة ، فمنهم بالذات يتحدر الكثير من الاستراليين البيض .

وعلى اى حال يمكن ان نستخلص من تاريخ استراليا هذا الاستنتاج الهام : رغم تأكيدات بعض «الاختصاصيين» ، لا يغدو الناس مجرمين بالوراثة – التفاحة تسقط بعيدا عن شجرة التفاح ، وابن السارق وحفيده لايسرقان اذا عاشا فى ظروف اخرى . ونسبة ارتكاب الجريمة فى استراليا ليست ابدا اعلى مما فى انكلترا ، التى كانت يوما تطهر نفسهـــا بنشاط من «العناصر الضارة» بابعادها الى استراليا نفسها .

بلاد السود . كلا ، لن يكون الحديث عن افريقيا ، على الرغم من انه يصعب حتى على الانتروبولوجى ان يميز سكان هذه البلاد عن الزنوج الافارقة . لهذه البلاد اسم جميل ،

ملانيزيا . ومعناها جميل ايضا : الجزر السوداء . واكبر هذه الجزر غينيا الجديدة .

هنا – وفى عدة جزر اصغر – يعيش البابواسيون الذين اتى اسلافهم الى هنا منذ قرابة ثلاثين الف سنة ، اى فى ذلك الوقت تقريبا حينما قام اسلاف الهنود فى الطرف الآخر من المعمورة بالتوغل فى اميركا .

مضى مئتا قرن او مئتان وخمسون واتى الى غينيا الجديدة من اندونيسيا اقرب اقرباء البابواسيين ، اسلاف الملانيزيين . يبدو ان لقـــاء الاقرباء اسفر عن حرب ضروس . وانتصر الدخلاء . واختلط عدد من البابواسيين بهم ، وتراجع الآخرون الى عمق غينيا الجديـــدة والجزر الاخرى . وتحرك اسلاف الملانيزيين قدما . كانوا ملاحين جيدين ، فاستولوا على المئات من الجزر التى لم تكن مأهولة قبل ذلك .

وكانت تلك مأثرة : فهم لم يكتشفوا الجزر فحسب ، بل بقوا ليعيشوا فيها . هذا فى حين ان مناخ ملانيزيـــا وظروف العيش فيها لم تكن سهلة . نترك الحديث لجاك لندن :

«. . . الى الآن تجتاح السكان هناك الحمى الاستوائية والدوسنطاريا ومختلف الامراض الجلديـــة . والهواء هناك مشبع بسم يتسرب فى خدوش وتسلخات الجلد فيحولها الى قروح متقيحة بحيث يندر ان يستطيع احد الخروج من هناك حيا سليما ، وحتى اكثر الناس قوة وعافية غالبا ما يعودون الى الوطن حطاما بشريا بائسا» .

«هناك» ، اى جزر سالومون ، احدى اجزاء ملانيزيا ، التى عاد منها جاك لندن نفسه حاملا مرض عضالا مضنيا .

ان البابواسيين والملانيزيين ، خلافا للاستراليين ، كانوا قد اصبحوا حين قدوم الاوربيين مزارعين ومربى ماشية . كانوا يربون الخنازير والدجاج والكلاب ، وكلها للحصول على اللحم . وكانوا لامر ما يقدرون فى الخنازير انيابها بشكل خاص . كانوا يستطيعون ان يجعلوا الانياب تنمو بحيث تكون طويلة على نحو خاص ومعقوفة . وكلما كان الناب اطول كان

اغلى . وكانت الخنازير شيئا بمثابة العملة : كانوا يقدرون ثمن البيت بالخنازير ويدفعون مهر العروس بالخنازير او انيابها .

لقد اتى البابواسيون والملانيزيون الى غينيا الجديدة من اندونيسيا .

ولم يتضح الى الآن ما اذا كانت اندونيسيا وطنهم او انها مجرد محطة عابرة على طريقهم الطويل . ان الملانيزيين اشبه ما يكونون بالافارقة ، يشبهونهم بحيث يوجد من وقت الى آخر علماء يبدأون من جديد بالبحث عن طرق لوصل افريقيا بملانيزيا . وهنا يمكن ، طبعا ، ان تهب جزيرة ليموريا للمساعدة . فهي ان لم تكن موطنا للشعوب ذوى البشرة القاتمة ، فجسر بين افريقيا واندونيسيا التى تقع على مرمى حجر من ملانيزيا .

وبالمناسبة ، حتى بدون ليموريا الاسطورية ، وبدون افريقيا الواقعية ، ولكن البعيدة جدا يوجد للملانيزيين اناس اشد قرابة فى جزر اندامان عند سواحل الهند ، وفى شبه جزيرة ملقة ، وفى جنوب الهند .

يبدو ان البابواسيين هم الاشقاء الكبار للاستراليين . وفحوى الامر ان غينيا الجديدة كانت ، فى الغالب ، تقع على طريق المهاجرين الى استراليا .

ينبغى القول الآن ان ملانيزيا كانت محظوظة من ناحية واحدة : ان مناخها حار وارطب ومزعج جدا من وجهة النظر الاوربية . وبسبب المناخ بالذات بقيت ملانيزيا طويلا من غير ان تحظى باعجاب الاوربيين . وفى القرن التاسع عشر فقط احتلت انكلترا وفرنسا وهولندا والمانيا الجزر السوداء .

الجزر الكثيرة . الجزر الكثيرة هى ترجمة كلمة «بولينيزيا» . بين اقصى جنوب اراضى بولينيزيا ، نيوزيلاندا ، واقصى شمالها ، جزر هاواى ، يمتد طريق فى المحيط طوله ٧٥٠٠ كيلومتر . وتفصل مسافة ٥٨٠٠ كيلومترا من المحيط بين جزيرة الفصح فى اقصى شرق بولينيزيا وجزر تونغا فى

اقصى الغرب . واذا قسنا المساحة العامة التى تشغلها فى المحيط بلاد الجزر هذه ، يتضح ان بولينيزيا احد اكبر البلدان فى العالم . ومع كل هذا ، ففى تلك الارجاء الشاسعة التى تبلغ ملايين الكيلومترات المربعة لايتجاوز مجموع مساحة الجزر المبعثرة فيها ٢٧٠٠٠ كيلومتر مربع (اذا لم نحسب نيوزيلاندا التى تبلغ مساحتها وحدها عشرة اضعاف كل الجزر الاخرى فى بولينيزيا معا) .

وكل هذه الجزر الكثيرة يسكنها ، على الرغم من المسافات الهائلة ، شعب واحد من حيث الجوهر . او بتعبير ادق ، اثنوسات شكلت اثنوسا واحدا منذ عهد قريب جدا . وعلى اى حال ، يعتبر اغلب الباحثين ان سكان هاواى فى الشمال والماؤورى فى الجنوب وسكان جزيرة الفصح فى الشرق والتونغاويين فى الغرب يتكلمون بلهجات لغة بولينيزية واحدة .

وهكذا ، فان تفرق البولينيزيين عن بعضهم البعض مئات والوف الكيلومترات قد جرى منذ اجيال ليست كثيرة جدا ، ثم انهم استطاعوا ، رغم المسافات الشاسعة ، اقامة الصلة فيما بينهم .

من الواضح ان اسلاف البولينيزيين كانوا حتى قبل قدومهم الى هذه الجزر جوالين كبارا و«مولعين بتغيير الامكنة» . فقد افلحوا فى اجتياز اراض كثيرة ومقابلة شعوب كثيرة . شفاه البولينيزيين غليظة بعض الشىء كما لدى الزنوج وشعرهم اسود ومستقيم الى حد بعيد مثل شعر المغول وبشرتهم سمراء ، وانوفهم قريبة من انوف الاستراليين ، ولكن فيها مايشبه انوف الاوربيين . ومن الطريف ان سكان كل القارات يعترفون بجمال البولينيزيين بسهولة .

كان جنوب شرقى آسيا المكان الذى تكون فيه القوم البولينيزى الاول قبل الانطلاق الى المحيط . ولكن الهنود الاميركيين اقاموا ايضا فى بولينيزيا على مايبدو . ان العالم كله ضج بخبر ابحار ستة باحثين يترأسهم تور هيبردال على طوف من اميركا الى بولينيزيا . لقد قام الرحالة النروجى

بجولته هذه ليبرهن انه جرى استيطان جزر المحيط الهادى هذه من الشرق .

رحلة رائعة ! ماثرة ! ولكنها وحدها لاتكفى للبرهان على هذا . اليكم هذا المثال البسيط . ثمة الآن فى كل سنة رياضيون يقطعون سباحة المضيق بين انكلترا وفرنسا (ثلاثون كيلومترا ونيف) .

اظهر تور هييردال انه ليس اهلا للماثرة فحسب ، بل وللعمل العلمى الدؤوب . لقد استطاع ان يقنع الكثير من العلماء (وان لم يكن كلهم) ان دما هنديا يجرى فى عروق البولينيزيين . ولكن ليس الدم الهندى وحده . اذ ان تور هييردال نفسه وجد براهين جديدة على ان هذه الجزر سكنها قادمون من آسيا ايضا .

«عوالم مفقودة» . لعل الجميع يعرفون خوزيه المقدام والتراجيدى ، عاشق وقاتل الغجرية كارمن الجميلة فى قصة بروسبير ميريميه . احداث القصة تجرى فى اسبانيا ، ولكن خوزيه ليس اسبانيا . اسمه الكامل دون خوسيه ليسارّا بينغوا . وهو باسكى .

لخوسيه نافارو (كما يسميه الاسبان) شعر اشقر وعينان زرقاوان ووجه اسمر و«اسم باسكى لانستطيع لفظه بشكل من الاشكال» ، كما قال لبروسبير ميريميه راهب من معارفه . وللعلماء ايضا رأى مماثل حول صعوبة اللغة الباسكية .

وليس مصادفة ان يكون الامر صعبا بالنسبة الى اللغويين ، والى الفرنسيين والاسبان عموما . فالباسكيون يتكلمون بلغة لاتشبه اللغات الاخرى فى اوربا . لا تشبهها الى درجة ان اللغويين اخذوا يتحركون من جهة الى اخرى بحثا عن لغات قريبة . تحركوا بعيدا : نحو الغرب الى القبائل الهندية فى اميركا ، نحو الشرق الى جبال القفقاس . وحتى ان البعض انتهز الفرصة ليذكر باتلانتيدا الاسطورية ، ومن حسن الحظ ان بلاد الباسكيين ليست بعيدة ابدا عن الامكنة التى يبحثون فيها عن الجزيرة التى وصفها افلاطون . وليس من

النادر ان ينسبوا هذه اللغة الى سكان اوربا القدماء التى ازاحت لغات الهندبين الاوربيين الدخلاء لهجاتهم فى كل مكان باستثناء هذه البقعة .

استطاع الباسكيون مجابهة الرومان القدماء ، اى انهم خضعوا لسلطتهم ، ولكن التأثير الرومانى لم يمس الا قليلا لغة وثقافة اسلاف الباسكيين (خلافا لاسلاف الفرنسيين) . ان الهجرة الكبرى للشعوب – الغوطيون ، الفاندال وغيرهم ممن اجتاحوا اوربا ، ومن بينها البيرينه – لم تستطع ازالة الشعب الصغير الصامد . وهذا مالم يتسن ايضا للفاتحين بعدهم .

ومما يثير المزيد من الاعجاب ان الدول الباسكية المستقلة نادرا ما كانت تعيش طويلا . وكانت دولتهم قبل الاخيرة هى المملكة النافارّية زمن الريكونكيستا التى ادرجت فى الدولة الاسبانية فى نهاية المطاف . زالت المملكة وبقى الشعب .

للباسكيين اهمية خاصة بالنسبة الينا باعتبارهم سكان اقليم منفصل عن المناطق المجاورة بحدود جغرافية بارزة .

. . . لايستطيع حيوان ولا انسان ارتقاء الجوانب الشاقولية لهضبة مبيل – وايت التى وصفها ارثر كونان دويل فى قصته الخيالية «العالم المفقود» . فى هذه الهضبة ، كما يقول كونان دويل ، ازدهر «عالم مفقود» احتفظ بحيوانات وطيور الازمنة الغابرة ، ابتداء بعظاءات العصر الوسيط ، ومن بينها العظاءات الطائرة .

لم تكتشف بعد زواحف مجنحة فى المعمورة . اما «العوالم المفقودة» المنعزلة عن باقى الكوكب بصخور عمودية وتيارات جارفة وكتل جليدية قارسة الصقيع وصحارى حارة وغابات كثيفة فقد وجدت فى افريقيا واميركا الجنوبية ، فى الهند والصين ، فى سيبيريا والقفقاس ، وفى جبال تيان شان وبامير . هناك ، يمكن لاناس شعب واحد قطنوا فى شعبين متجاورين الا يلتقيا ولو مرة واحدة مدى الحياة . هناك يتطلب الانتقال من عشيرة صيادين الى اقرب عشيرة اخرى رحلة على النهر تستغرق اسابيع كاملة .

وان الاراضى الباسكية كانت بمعنى من المعانى «بلد مبيل

وايت» ايضا . فلتكن جبال نافارا غير مرتفعة ، ولكن بقى الشعب دون ان يختلط بالجيران تقريبا . هذه المناطق المنفردة يسميها العلماء الانتروبولوجيون بالمنعزلات . وقد وصف جاك لندن ، الذى سبق واستشهدنا به ، منعزلة كلاسيكية فى روايته «القلوب الثلاثة» . يا لفظاعة «وادى النفوس الميتة» الذى لم يستطع فى غضون ثلاثمئة سنة ان يقتحمه اى باحث عن المغامرات !

لقد ادى هذا فى رواية جاك لندن الى نتيجة فاجعة . ان وجوه افراد قبيلة «النفوس الميتة» كانت ، باستثناء قلة زهيدة ، وجوها بليدة تحمل طابع الانحطاط والانقراض . (فى ذلك الحين برهن العلم على ضرر الزواج بين الاقرباء ، ولعله فعل هذا بحمية مفرطة .)

ان شيئا من هذا لم يحدث فى المنعزلات الحقيقية . وما جزيرة بيتكيرن فى المحيط الهادى الا شاهدة على قبر فكرة انحطاط الشعب فى المنعزلة .

لقد مر تاريخ الجزيرة فى القرون الاخيرة على مرأى من البشرية . واسلاف كل سكانها هم المستوطنون البولينيزيون وبحارة سفينة «باونتى» الانكليزية المتمردة . وسبقت هذا حرب ضروس ودامية بين المستوطنين الاوائل . وبقى بعد هذه المعركة عشرة اشخاص ونيف ، اغلبهم من النساء ، وهم الاسلاف المشتركون للبيتكيرنيين الحاليين . وماذا كانت النتيجة ؟ اليكم ما كتبه مارك توين فى اقصوصة «ثورة عظمى فى جزيرة بيتكيرن» :

«يقول غريب ، مثلا ، لاحد سكان الجزيرة :

— انتم تقولون عن هذه الصبية انها ابنة عمتكم ، وقد قلتم مؤخرا انها عمتكم .

— نعم ، انها عمتى وابنة عمتى فى الوقت نفسه . وهى ايضا اختى من ابى وابنة اختى وابنة ابن عم خالتى ونسيبتى من الفخذ الثالث والثلاثين واختى من الدرجة الثانية والاربعين واخت جدتى وابنة عمى الارملة ، وستصبح فى الاسبوع القادم زوجتى» .

لم يحدث اى شىء مرعب لهذا الشعب . ولكن الفضل فى هذا للظروف التى لم تجعل بين المستوطنين الاوائل احدا يحمل مرضا وراثيا .

وينبغى القول ان مثل البيتكيرن يدحض الفكرة القائلة بان الاولاد الذين ينجبهم ازواج من مختلف الاجناس ينحطون اذا لم يتلقوا رافدا جديدا من «دم نقى» .

وبيتكيرن توجه ضربة الى «نظرية» توارث الميول الاجرامية . لقد كان عند اسلاف البيتكيريين من الآثام والجرائم ما يفوق «المعدلات» جميعا . اما البيتكيريون الحاليون فهم من اكثر الشعوب تمسكا بالجانب الخلقى .

ولكن فلنعد الآن الى منعزلات اقدم لاتقع فى ركن ناء من المحيط الهادى ، بل فى الاتحاد السوفييتى . ان كل منعزلة تشكل مادة جذب شديد للانتروبولوجيين . فهم هنا امام تجربة انتروبولوجية «صرف» اجراها التاريخ والجغرافيا .

تتحرك الشعوب حول المنعزلات ، ويمر قربها ، مثلا ، الهون فى طريقهم من منغوليا الشرقية الى اوروبا الغربية . الوف القبائل تغير امكنة اقامتها واسماءها ، تختلط وتتفرق ، تهجم وتتراجع . طبيعى ان الاعداء يخترقون احيانا شعاب بامير الضيقة ، وطبيعى ان الايفينكيين يدفعون من وقت الى وقت الاتاوة الى الامبراطور الصينى احيانا ، والى القيصر الروسى احيانا اخرى . ولكن اذا كان الدم «الغريب» يتسرب فى هذه «العوالم المفقودة» ، فان نسبته اقل من ان يؤخذ اعتبار لها . وينظر الانتروبولوجيون باهتمام بالغ الى هؤلاء الناس الذين لم يعقدوا زواجا مختلطا على امتداد الوف السنين ، الناس الذين تمكن مراقبة اية تغيرات تطرأ عليهم بدون شروط مسبقة وتحفظات من المحتمل أن يفرضها تأثير الدخلاء .

ما الذى يجرى للناس فى ظروف كهذه ؟ ان كل منعزلة كانت تشغلها يوما مجموعة صغيرة من الناس . وحينما يكون الاسلاف قلائل ، فان اية مصادفة فى قوام المجموعة تنطوى على اهمية بالنسبة الى الاخلاف .

مثلا ، كانت للاسر الثلاث او الاربع الاولى ، التى سكنت

الشعب ، فئة دم واحدة . وبالمناسبة ، ليس هذا الامر مصادفة تماما . غالبا ما تكون هذه الاسر مرتبطة ، على الارجح ، باواصر القربى «مسبقا» . وليس عبثا انها تجولت معا . والتباين فى فئات الدم عند الاقرباء هو ، طبعا ، اقل مما فى مجموعة من الناس الغرباء عن بعضهم البعض . وبالنتيجة ، غالبا ما يعيش فى شعاب پامير او داغستان اناس متشابهون جدا . ولكن فى الشعب الشرقى ، مثلا ، تتغلب فئة الدم الثانية ، وفى الشعب الغربى فئة الدم الاولى .

يرى علماء كثيرون انه تؤثر ايضا فى «تماثل» الدم فى المنعزلة عملية جينية خاصة ، اى مرتبطة بالوراثة ، وهى الترحال الجينى . ويتلخص مغزى هذا «الترحال» فى ان فئات الدم الموجودة لدى اقل عدد من الناس تزول بالتدريج ، تاركة مكانها للمجموعات الاكثر «شعبية» .

تسنى (وهذا مافعله الاميركى رايت) وضع صيغة رياضية دقيقة لسرعة زوال هذه الفئات من الدم الملازمة لاناس قلائل فى طيات الماضى . كلما كان عدد سكان المنعزلة اصغر ازداد عدد حالات الزواج بين الاقارب ، وبالتالى اصبحت هذه السرعة اعلى .

يسهل عكس هذه الصيغة . وعندئذ يصبح من الممكن ان نعرف بواسطتها مدة سريان عملية «الترحال الجينى» ، وبالتالى مدة وجود المنعزلة والزمن الذى مضى على سكانها دون ان تدخل فى دمائهم دماء من شعوب اخرى .

المنعزلات بالنسبة الى الانتروبولوجيين المعاصرين تجربة اجراها التاريخ . ولكن المنعزلات القديمة بالنسبة الى التاريخ مراكز لولادة الاجناس الكبيرة منها والصغيرة . فحينما تتقابل الشعوب غالبا مايجرى بينها زواج مختلط و«تتبادل الدم» ، وحتى افراد القبيلة الواحدة لايتشابهون كثيرا . اما المناطق التى يصعب الوصول اليها فامر آخر .

ياتى الى المنعزلة مصادفة اناس اغلبهم من ذوى البشرة القاتمة او الانف المعقوف او العيون الزرق . فيظهر الى الوجود على نحو متزايد اطفال كان اجدادهم وآباء اجدادهم

من جهة الاب والام ذوى عيون زرق (او بشرة قاتمة او انف معقوف) . وفى هذه الحالات غالبا ماتسبغ قوانين الوراثة هذه الخصائص نفسها على الاولاد .

فى المنعزلة لايغير التاريخ ، طبعا ، حركته الصاعدة ، اذ تجرى اكتشافات واختراعات جديدة (وان كانت القديمة تنسى احيانا) ، وتتغير القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . ولكن عملية التقدم تتباطأ بشدة على اى حال . ان قوة البشرية فى قوة كل انسان على حدة ، فى كون مايكتشفه الفرد يصبح فى متناول الآخرين . اما فى المنعزلة فيضطر الشعب الى الاتكال على افراده وحدهم تقريبا . (تقريبا ، لان منجزات الشعوب الاخرى تتسلل فى حالات نادرة الى «العوالم المفقودة» ، فقد اطلع الايفينكيون على تربية الايائل) .

تنال الشعوب الاخرى بفضل تطور التكتيك ووسائط النقل فرصة التغلغل فى المنعزلة (السفن ، مثلا ، وفرت لكولومبوس هذه الفرصة) .

ستحل عاجلا او اجلا اللحظة التى يخرج فيها الشعب المنعزل موقتا من «قوقعته» . والاسباب التى تؤدى الى هذا متنوعة اشد التنوع . مثلا ، يزداد عدد الناس بحيث لا يستطيعون تامين قوتهم فى نطاق المنعزلة . او تجف المستنقعات التى كانت تغلق احد المنافذ الممكنة ، او تصبح المضائق الجبلية سهلة الاجتياز بفضل بعض التقدم العلمى — التكنيكى ، او يتوغل شعب ما فى المنعزلة فياخذ بالتضييق على سكان «العالم المفقود» الاصليين .

ومهما كان الامر ، يخرج الناس منها الى رحاب كوكبنا الواسعة وينطلقون (بعضهم ، طبعا ، لا كلهم) الى البحث عن اراض جديدة لاستيطانها . وينصب دمهم فى دم الشعوب الاخرى ، وهم انفسهم يدخلون فى قوامهم اناسا من الاجناس و«الاجناس الفرعية» الاخرى . وهكذا ينتهى تاريخ المنعزلة . لقد غادر خوسيه ليسارا بينغوا وطنه ، كما يحدثنا ميريميه . ويعيش الآن مئات الوف الباسكيين فى الارجنتين وغيرها من بلدان اميركا . والباسكيون فى وطنهم يتعاشرون مع الجيران

برغبة واتساع اكثر من السابق ، ويتزوجون زواجا مختلطا بسهولة اكثر .

اخذت المنعزلات فى القرون الاخيرة تزول بصورة اكثر من السابق ، وليس ذلك نتيجة لاسباب داخلية ، بقدر ماهو ناجم عن اسباب خارجية . فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم تعد اميركا منعزلة ، وفى القرن الثامن عشر تبعتها استراليا ، وفى القرن العشرين غينيا الجديدة . وعلى مرأى العين يفقد صفة «العوالم المفقودة» بعض شعاب هيمالايا والقفقاس وبامير وتيان – شان ، وتايغا سيبيريا الشرقية ، وتوندره الاركتيكا . وهذه عملية طبيعية وحتمية .

الاسلاف يعيشون فى الاخلاف . نحن نتحدث عن ولادة وحياة الشعوب – الاثنوسات . ولابد فى غضون ذلك من تذكر الشعوب المنقرضة ايضا . فاين البيكتيون الذين كانوا يوما احد عناصر الشعب السكوتلاندى ؟ لا وجود فى الارض للبابليين ، كما لا وجود للايطاليكيين وبولغار الفولغا . . .

ولكن البشرية سلسلة حلقاتها الشعوب ، ولايمكن لهذه الحلقة ان تنقطع . والتاريخ ايضا سلسلة لاتستطيع اية حلقة فيها ، وان كانت منسية ان تختفى . لاننا جميعا ، نحن المنتمين الى الشعوب الحية ، ورثة لاولئك الذين عاشوا قبلنا .

ان الشعوب المنقرضة – الشعوب بالذات ، لا صفوتها المحاربة – تبقى فى الارض على اى حال : تبقى فى تقاطيع الوجوه التى تنتقل الى الشعوب الاخرى ، فى اصوات وكلمات اللغات الغريبة ، فى الاكتشافات والاختراعات التى تصبح جزءا من الثروة المشتركة للبشرية .

انها باقية رغم انقراضها . ومما يبرهن هذه الحقيقة مصير شعب فنى تماما ، بحيث ان هذا الفناء اصبح مثلا منذ الف سنة ونيف .

فى القرن السادس الميلادى اقتحم اوربا الافاريون الذين تراسهم زعماء ذو نزعة عدوانية . وقد استطاع الافاريون ،

حتى بعد الهون والفاندال ، ان يبدو مرعبين بشكل لم يعهد له مثيل . وبعد عدة قرون وصف مدون اسفار روسى بهلع كيف كان الافاريون (وهو يسميهم بالاوبريين) يقرنون بعرباتهم نساء قبيلة الدوليبيين السلافية .

فى الوقت الذى كتب فيه مدون الاسفار هذه الملاحظة كان الروس قد رأوا الغطرسة البيزنطية ، فكانوا من حين الى آخر يحدون من غلوائها بسيوفهم المستقيمة . وكانوا يعرفون ايضا عجرفة الكونونغيين السكاندينافيين الذين كانوا يحاربون روسيا احيانا ، ويخدمونها احيانا اخرى .

ولكن غطرسة الوجهاء الافاريين كانت اشد واقوى . لان مدون الاسفار الروسى اياه وجد ان هذه الكبرياء بالذات جلبت على الافاريين نقمة القدر فلم يبق منهم اسم ولا خلف .

طبيعى ان الافاريين – الاوبريين لم يزولوا من على وجه الارض من تلقاء ذاتهم . ان دولتهم التى شملت جنوب شرق ووسط اوربا قد اعدت لنفسها الهلاك ، حيث ساعدت رغما عنها على تكاتف القبائل السلافية الخاضعة لها ، والتى كانت قبل ذلك مشتتة ، فاضطرت الى الاتحاد .

ان اول انفجار للسخط – انتفاضة السلافيين الشرقيين – تسنى لاسياد الدولة قمعه . وقد اعدم ثلاثون زعيما انتيا وقعوا فى الاسر ، وحطم اتحاد القبائل الانتى .

ولكن اخفاق المنتفضين الاوائل لم يثبط عزم رعايا الافاريين وتلقت الدولة ضربة جديدة من السلافيين الغربيين . فقد انتفض التشيك وشكلوا دولتهم الاولى التى تراسها تاجر متجول اسمه سامو .

وكذلك كانت القبائل السلافية المتحدة فى شرق البلقان توجه الضربة تلو الضربة الى الاعداء المقيتين . وكانت الدولة الجديدة التى ظهرت هناك – بلغاريا – تزداد قوة وتهجم نحو الشمال بحزم متعاظم ، مضيقة الخناق على الاوبريين . واخيرا ، ظهرت بعيدا الى الغرب من البلقان دولة الفرنكيين الموحدة التى اصبحت امبرطورية فى عهد كارل الاكبر . وبين منجزات كارل العسكرية الهجوم الحاسم على الخاقانية الافارية

التى انتهت بهزيمة الافاريين الساحقة . وقد اندمجوا بكتلة الشعوب الاخرى قبل ان يشرف القرن التاسع على الانتهاء .

لم يرغب وجهاء الخاقانية الافارية الجبارة مصاهرة سكان البلدان المفتوحة . وكانوا يبرزون سلطتهم بكل السبل ، والحديث المر الذى اورده مدون الاسفار عن ان الاوبربين اذ كانوا ، وهم فى اراضى الدوليبيين ، ينوون الذهاب الى مكان ما ، لم يكونوا يقرنون الى العربة جوادا او ثورا ، وانما النساء الدوليبيات ، هو تذكير بالقسوة ، والقسوة من وجهة نظر زعماء الفاتحين ليست ابدا بلا معنى . يبدو ان هذا كان احدى وسائل التنويه بالمسافة بين القاهرين والمقهورين ، احد مظاهر الكبرياء المقيتة للوجهاء الافاريين التى اثارت سخط القبائل البعيدة والقريبة . وكان من اسباب انهيار الدولة الافارية .

لم يصبح الافاريون اساسا لاى شعب كان او حتى لاية فئة اجتماعية فيه . لقد تبدد الافاريون الذين كان يقودهم الزعماء ذوو النزعة الحربية فى اوربا المتعددة القبائل ، كما يتبدد النهر فى الرمال .

ومع ذلك فاننا لم نتحدث عبثا عنهم ، عنهم كشعب . لقد استطاع الانتروبولوجيون فى ايامنا ايضا ان يلحظوا المجرى الجاف لهذا النهر . يرى العلماء الهنغاريون بعض السمات الموروثة عن الافاريين فى مظهر عدد من سكان بلادهم ، وكذلك لدى الهنغاريين الترانسيلفانيين المقيمين بين الرومانيين . وهذا شيء طبيعى ، ففى تلك الاماكن بالذات كان مركز الدولة الافارية فى وقت من الاوقات .

اى انه بقى فى الارض اناس يسرى فى عروقهم الدم الافارى ، وان لم يكن افاريا صرفا . بقى اعقاب وورثة نسوا تماما ، للاسف ، هذا الجذر لشجرة نسبهم . وبالمناسبة ، لاينبغى لومهم كثيرا على هذا ، اذ ان لشجرات النسب فى الغالب جذورا اكثر بكثير مما لدى الشجر العادى . وكل جذر تاريخى كهذا تقريبا يبدو نفسه فى انظار الباحثين شجرة لها جذورها الخاصة .

من هم الافاريون ؟ من اين اتوا الى اوربا ، وكيف كان مظهر هؤلاء الناس الذين هبوا عاصفة هوجاء على شعوبها لمدة قرن او قرن ونصف ؟ ان مسالة اصلهم لم تحل نهائيا .

لعله اتحدت فى الشعب الافارى ، كما يعتبر غوميليف ، قبيلتان فى منطقة الفولغا حطمهما الاعداء . واحدى هاتين القبيلتين تتحدر من السرماتيين ، السكان القدماء للسهوب المتاخمة للبحر الاسود . وكانت الاخرى اوغرية من حيث اللغة ، اى قريبة للهنغاريين الحاليين بالدرجة الاولى .

ويرى عدد من المؤرخين الآخرين ان الافاريين هم فلول شعب الجوجانيين . لقد اقام الجوجانيون فى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد دولة كبرى فى اواسط آسيا . وكان الجوجانيون يتلقون الاتاوات من الاباطرة الصينيين وشعوب الطاى وجزء من آسيا الوسطى . ولكن دولتهم تحطمت فى القرن السادس الميلادى . واذهرب الجوجانيون ليتخلصوا من المنتصرين ، اجتازوا ، بناء على هذه الرواية ، الوف الكيلومترات من وسط آسيا الى الفولغا وعبروه وهم يحملون اسم الافاريين .

ومهما كان الامر فان الافاريين ، كائنا من كانوا ، قد ضموا فى طريقهم ممثلى الكثير من الشعوب . وفى هنغاريا الآن يعثرون فى القبور القديمة عند الحفريات على عظام تشير الى انه كان بين الافاريين اناس لمظهرهم الخارجى ملامح اوربية وآخرون ذوو ملامح مغولية . ولكن هناك امر حتمى : كلما كان القبر اغنى ازدادت فرص ان يكون صاحبه ذا ملامح مغولية . اى ان الوجهاء الافاريين لم يختلطوا عمليا بالغرباء، وحملوا الى وسط اوربا مظهرهم الآسيوى الاولى .

وهكذا ، فان اخلاف الافاريين بقوا فى الارض على اى حال . ولكن تصعب الآن معرفة ما خلفوه للبشرية علاوة على ذلك . ماهى ملامح الثقافة الافارية التى اخذها السلافيون او الجرمانيون ؟ وما هى الكلمات التى اخذها من لغتهم الهنغاريون او الشعوب الاخرى التى قابلها الافاريون فى طريقهم ؟ لا احد يعرف . ولكن لا بد وان يكون شيء افارى قد دخل معيشة

الشعوب المقهورة . ولو بضع كلمات ، ولو عادة من العادات المحلية .

ان اسم الافاريين كتسمية لشعب لا يشاهد الآن الا فى الاسفار والمؤلفات التاريخية . ولكن يشبهه جدا اسم الافارتسيين الذى يطلقه على الشعب الداغستانى جيرانه القريبون والبعيدون ، اما هو فيطلق على نفسه اسما آخر تماما ، المآرولال .

وعلى اى حال ، ففى القرن الثانى الميلادى ، قبل قدوم الافاريين – الاوبريين الى اوربا بامد طويل ، كتب العالم اليونانى القديم بطليموس عن السافيريين القفقاسيين الذين عاشوا فى المكان نفسه تقريبا الذى يعيش فيه الافارتسيون الحاليون . وفيما بعد تحول السافيريون – وفق قوانين اللغة على ما يبدو – الى سافاريين ، ومن ثم الى افاريين . وبالمناسبة ، تفترض احتمالات اخرى لاصل هذا الاسم . ويأتى احدها على ذكر الافاريين – الاوبريين ، وهذا الاحتمال يعطيه سفر جورجى يقول ان افارتسيى شمال شرق القفقاس هم الافاريون الذين حطمهم الملك الجورجى غورام واسرهم واسكنهم فى داغستان . بيد ان العلماء يعتبرون هذا الخبر اسطورة .

ولكن لماذا بقى هذا الاسم ، مع انه لاينطبق مع تسمية الشعب الذاتية ، كل هذه القرون فى القفقاس ؟ ان القوانين التى تحتفظ الشعوب بناء عليها بالاسماء القديمة وتكتسب اسماء جديدة ليست بالبسيطة . لعله اضطلع بدور فى تثبيت تسمية الافارتسيين فى القفقاس الشهرة الكبرى التى كانت عند «سمييهم» .

يزداد اليوم باستمرار حاملو هذا الاسم ، لا لان الافارتسيين يحبون انجاب الكثير من الاولاد فحسب ، بل ولان اربعة عشر اتنوسا آخر من الاتنوسات الداغستانية الصغيرة جدا صارت تعتبر نفسها افارتسية فى العقود الاخيرة . وقد اصبحت الثقافة الافارتسية جزءا مكونا هاما لثقافة الشعب السوفييتى باسره . ان اشعار الافارتسى رسول حمزتوف

المترجمة الى اللغة الروسية اصبحت حدثا بارزا فى الادب الروسى ، واشعاره مترجمة الى الكثير من اللغات الاخرى بالاضافة الى لغات شعوب الاتحاد السوفييتى .

وهكذا ، بقى فى الارض اسم الافاريين – الاوبريين ، رغم ان هذا الاسم لايحمله اخلافهم ، وبقى اخلافهم رغم انهم يحملون اسما آخر . فهل يدعو الى الحزن او الى السرور واقع ان المثل الذى يعود عهده الى الف سنة خلت لم يكن صحيحا تماما ؟ من جهة ، كان يبدو لمدون الاسفار ان مصير الافاريين شاهد على وجود العدالة فى الارض . ومن الجهة الاخرى ، لا يحدث ان يستحق شعب كامل الفناء والنسيان تماما بسبب النزعة الحربية لزعمائه .

فى زمن اقرب الينا حل بالهنود الانتيليين مصير آخر ، ولكنه تراجيدى ايضا .

جزر الانتيل . . . كوبا ، هايتى ، بورتو ريكو ، جامايكا ، باهاما . انها مكتظة بالسكان فى ايامنا ايضا . ولكنهم ليسوا هنودا .

لقد حل مصير قاس بالسكان الاصليين لهذه الاراضى . اذ فنى الشعب او بالاحرى الشعوب التى كانت تقطن فى الانتيل . لم يعد ثمة وجود فى الارض للقبائل الهندية التى كانت اول من قابل الاسبان : لقد ابادها الاستعمار .

ولكن فى كوبا وهايتى . وباهاما وبورتوريكو تعيش فى اللغة تسميات للحيوانات والنباتات موروثة عن السكان الاصليين . يطلق على الكثير من الجزر تسمياتها القديمة ، وتحمل مئات القرى التسميات التى اطلقتها عليها الاتنوسات الهندية المنقرضة .

ليست جزر الانتيل الكبرى هى وحدها التى تحتفظ بذكرى من لم يعد لهم وجود . ففى هذه الاماكن بالذات شاهد الاوربيون الذرة لاول مرة ، ومن كوبا اتت الى العالم الكلمة الهندية «مائيس» («الذرة») . وانكم ، اذ تستلقون فى الارجوحة الشبكية (الهامل) ، تتمتعون بارث خلفه الهنود

الانتيليون ، ارث حافظ على تسميته السابقة . والتبغ ، بالمناسبة ، كلمة انتيلية ايضا .

ثمة خلاف حول عدد الهنود الذين كانوا يعيشون فى هذه الجزر . وتذكر ارقام متباينة اشد التباين : من بضع مئات من الالوف الى عدة ملايين . وقد خلفوا ارثا لمليارات الناس . ومن مفارقات التاريخ ، وهى مفارقة ليست بالنادرة ، ان الشعوب الحالية لجزر الانتيل ، وهى بالدرجة الاول من اخلاف الغزاة الاوربيين والعبيد الذين جلبوا من افريقيا ، وكذلك المهاجرين الذين اتوا بعد ذلك ، تجل ذكرى الهنود وتعتز بنضالهم من اجل الحرية ، وتدرجهم عن وعى فى عداد اسلافها ، وذلك فى الغالب خلافا للحقائق المؤسفة . ولكن يمكن ان نرى فى هذا انتصار العدالة التاريخية .

. . . ينبغى القول لكى تكتمل اللوحة ان تلك اللغة الكاريبية (الهندية) التى كانوا يتكلمون بها فى جزر الانتيل الصغرى لم تختف نهائيا . ففى القرن الثامن عشر نقل من احدى هذه الجزر الى اميركا الوسطى اخلاف الهنود والعبيد الافارقة الفارين . وهؤلاء «الكاريبيون السود» محتفظون باخلاصهم للغة اسلافهم الهنود . . .

ان اثنوسات الماضى تتابع العيش فى الشعوب الحالية ، كما يتابع الوالدان العيش فى اولادهما .

واذا كان الافاريون – الاوبريون والانتيليون قد خلفوا آثارا يصعب تمييزها ، فثمة مثال على اثنوس فنى ايضا ، ولكنه ترك لاعقابه الكثر ارثا فائق الغنى ونقل اليهم غنى لغته وتقاليده الثقافية الكثيرة ، واحيانا اسمه .

الحديث يجرى عمن اسماهم مدونو الاسفار الروس بالبولوفيين . ويعرف هذا الشعب كذلك باسم الكيبتشاكيين والكومانيين .

لقد ظهروا فى القرنين العاشر والحادى عشر فى آسيا الوسطى واوربا وشغلوا ارجاء شاسعة من بحيرة بلخش الى الدانوب . وكان يسيطر الكيبتشاكيون على جزء كبير لحزام

واسع من السهوب والبوادى والصحارى يمتد عبر اوراسيا باسرها تقريبا . وبقى الشرق كله تقريبا على مدى قرون عديدة يطلق احد اسمائهم على السهوب الممتدة من جنوب اوكرانيا الحالية الى الطاى تقريبا ، فيدعوها الارض الكيبتشاكية ، ديشت – اى – كيبتشاك .

كان البولوفيون – الكيبتشاكيون – الكومانيون جزءا من موجة جديدة للاتراك الرحل الذين تحركوا الى الغرب من اواسط آسيا وآسيا الوسطى . واقرباؤهم البعيدون الجنوبيون – الغز – اسسوا فى الوقت نفسه تقريبا الدولة السلجوقية الكبرى فى اراضى آسيا الصغرى وايران وجنوب آسيا الوسطى وجزء من ما وراء القفقاس .

حارب الروس البولوفيين وعقدوا معهم احلافا ، واخضعوهم بالتدريج لنفوذهم الثقافى . وطبيعى ان تتسرب الى الثقافة الروسية بعض عناصر الثقافة البولوفية ، ولا تزال بعض الكلمات من لغة البولوفيين مستعملة فى اللغة الروسية الى الآن . بيد ان تأثير الروس كان ، كما تشير الدلائل كلها ، اقوى بكثير .

فى لحظة قدوم الجحافل المغولية الى روسيا كان الامراء الروس والخانات البولوفيون حلفاء اجمالا . وفى المعركة المروعة على نهر كالكا قاتل الروس كتفا لكتف مع الاعداء القريبى العهد ضد الاعداء الجدد ، المشتركين ، الارهب . وقد هزموا وكانت حملة باتو مأساة مشتركة للروس والبولوفيين .

بقيت السهوب البولوفية سنوات طويلة حمى للخانات والقادة المغول يأخذون منه فى فترات «الضائقات المالية» العبيد للبيع . كان البولوفيون بضاعة رائجة . كانوا يعتبرونهم وسيمى الطلعة ويقدرون قوتهم ، واصبح اقتناء عبد بولوفى شيئا على الموضة فى الكثير من بلدان اوربا وآسيا وافريقيا . ان البولوفيين الذين جلبوا كعبيد كانوا يذوبون بالتدريج وسط سكان الكثير من بلدان العالم .

ولكن ما هو مصير الذين استطاعوا الافلات من السيف

والوهق المغوليين ؟ لقد استطاع عشرات الالوف من الرحل مغادرة الوطن الى الغرب عبر الطريق القديم ، ووصلوا الى الدانوب ، حيث قبلهم الشعب الهنغاري واصبحوا جزءا منه في نهاية المطاف . والكثير من الكيبتشاكيين ذهبوا بعد نزاع دام مع الوجهاء المجريين ووصلوا الى بلغاريا التي كان البولوفيون مرتبطين بها منذ امد بعيد بالاحلاف احيانا ، وبالعداوة احيانا اخرى ، وحتى ان سلالة تيرتيروفيتش البولوفية الاصل حكمت بلغاريا ردحا من الزمن .

واضطلع بدور لا يقل اهمية عن ذلك في تاريخ اوراسيا السلالى كيبتشاكيو منطقة البحر الاسود الذين انسحبوا من سهوبهم المكشوفة على العدو الى غابات منطقة الفولغا والاورال في الشمال والشمال الشرقي ، والذين ابتعدوا الى القفقاس في الجنوب والجنوب الشرقي ، والذين بقوا يعيشون في سهوب آسيا الوسطى .

ان التتر - المغول انفسهم في جزء كبير من الاراضي الكيبتشاكية تبددوا وذابوا ضمن اسياد السهوب الاقدم . واصبحت الكيبتشاكية اللغة الرسمية للارطة الذهبية .

لقد دخلت كلمة «كيبتشاك» بثبات في الكثير من التسميات العشائرية - القبلية في اراضي البشكيريين والكازاخيين والقيرغيزيين والكوميكيين والتركمان والالطائيين . . . ويسري دم الكيبتشاكيين ، وان لم يكن وحده ، في عروق كل شعوب منطقة الفولغا تقريبا : التشوفاشيين والبشكيريين والتتر والماريين . . . وفي جنوب غربي الفولغا ، في القفقاس ، اعطوا لغتهم للكوميكيين وسكان داغستان . ان الكازاخيين هم الورثة الشرعيون للكيبتشاكيين ، وكذلك التركمان وان كان ذلك بدرجة اقل .

وهرب عدد من الكيبتشاكيين الى منطقة ايلبروس واختلطوا بالالانيين المقيمين هناك وببعض القبائل الاخرى . وكان ذلك ، في رأى العلماء ، اهم خطوة على طريق ظهور القومين القره تشاييفي والبلقاري الحاليين . . .

ثمة ضمن اللغات التركية مجموعة كيبتشاكية خاصة ، وتعود اليها لغات البشكيريين وتتر الفولغا والنوغائيين والقره تشاييفيين - البلقاريين والكوميكيين في القفقاس ، والقرهايميين في القرم ، والكازاخيين والقرهقلبقيين في آسيا الوسطى . ولكن ثمة عناصر موروثة عن لغة الكيبتشاكيين ايضا في اللغات التركمانية والاوزبكية والقيرغيزية .

الاسلاف يعيشون في الاخلاف .

* * *

في بداية نصنا ، في قسم «علم الشعوب» ، وضعنا كمهمة للاثنوغرافيا من الدرجة الاولى دراسة ما هو خاص وفريد في الشعب - الاثنوس ، مع العلم ان المقصود بذلك الفريد هو قسط الشعب في الثقافة البشرية العامة .

وفي القسم الذى عرضناه اعلاه سعينا الى شرح هذه الموضوعة بامثلة من مختلف الشعوب في مختلف القارات ومختلف الاوضاع التاريخية .

الاثنوسات اليوم

ان عدم اتساق التطور الاقتصادى – الاجتماعى لشعوب العالم فى عصر الراسمالية اوجد تنوعا كبيرا للعمليات السلالية ووتائرها وانماطها وانواعها .

لفهم جوهر هذه العمليات ينطوى على مغزى من الدرجة الاولى ، حسب قناعتنا العميقة ، المفهوم الذى وضعه لينين حول وجود اتجاهين فى المسالة القومية فى ظروف الراسمالية . وقد نوه فى هذه الصدد بان «الراسمالية تعرف فى تطورها اتجاهين تاريخيين فى المسالة القومية : الاول هو استيقاظ الحياة القومية والحركات القومية ، والنضال ضد كل اضطهاد قومى ، وانشاء دول قومية . والثانى ، تطور شتى العلاقات بين الامم وتكاثرها المتزايد وهدم الحواجز القومية ، وانشاء وحدة الراسمالية العالمية ووحدة الحياة الاقتصادية بصورة عامة ووحدة السياسة والعلوم ، الخ .» (لينين . المختارات فى ١٠ ، مجلدات ، المجلد ٥ ، ص ٦٧) .

ان تفاعل هذين الاتجاهين يشمل كل مجالات وجود الامم الاجتماعى ، ومن بينها الظواهر السلالية بالذات .

فى ظروف الراسمالية كان الاتجاه التوحيدى فى العمليات السلالية يتجلى فى قيام ومن ثم تعزز مقاييس الاقسام السلالية الاساسية . وهكذا ، فان بعض الروابط السلالية نتيجة لاسلوب التطور الراسمالى فى الغالب تعد الآن

بالمئات ، واحيانا بعشرات الناس فقط ، فى حين ان الاثنوسات – الامم الاخرى تضم ملايين عديدة . ان ١١ شعبا فقط تشكل قرابة نصف عدد البشرية ، فى حين ان عددا كبيرا من الشعوب الصغيرة التى لا يتجاوز تعداد كل منها ١٠٠ الف نسمة تشكل اقل من ١٪ من سكان الارض .

ان عدم اتساق التطور التاريخى لشعوب العالم تجلى على نحو خاص فى البنية السلالية السياسية للبشرية المعاصرة . فكل الشعوب القاطنة فى كوكبنا تدخل قوام اكثر من ٢٠٠ بلد بقليل (من الدول والاراضى التابعة) ، واغلبية الدول المعاصرة متعددة الاثنوسات . ومن المعروف جيدا انه توجد دول كهذه سواء بين البلدان الاشتراكية (مثلا ، الاتحاد السوفييتى ، يوغسلافيا ، فيتنام) ، او بين البلدان الراسمالية المتطورة (بريطانيا ، كندا ، بلجيكا) . والدول المتعددة الاثنوسات امر مميز بشكل خاص للبلدان النامية . ففى افريقيا ، مثلا ، يتكلم السكان الاصليون ، حسب المعطيات التى فى حوزتنا ، بلغات يبلغ عددها ٧٣٠ لغة .

بيد انه من التبسيط ، طبعا ، تصور البلدان الوحيدة الاثنوس بمثابة كيانات متجانسة على نحو مطلق من الناحية السلالية (فمثل هذه الدول لا وجود لها فى الواقع) . ولهذا نقترح فى عرضنا اللاحق اطلاق صفة الدول الوحيدة الاثنوس على تلك التى تنتمى اغلبية سكانها الساحقة (٩٥٪ على الاقل) الى رابطة سلالية واحدة اساسية ، كما هو شان اكثر الاقطار العربية وبنغلاديش والبرازيل والاردن وايطاليا ومدغشقر والنروج وبولندا والبرتغال والمانيا الاتحادية واليابان الخ .

ان عمليات التكتل السلالى هى الاساسية عادة فى الدول الوحيدة الاثنوس . وان مقاييس العمليات وشدتها وطابعها بشكل خاص تتوقف كثيرا وقبل كل شىء على مستوى التطور الاقتصادى – الاجتماعى للبلد المعنى ، وكذلك البنية السلالية المتكونة تاريخيا .

والتكتل بين الاثنوسات امر نموذجى بشكل خاص للبلدان النامية التى تحررت من التبعية الاستعمارية مؤخرا .

وهكذا ، فان القبائل العديدة فى جنوب شرق نيجيريا (الاباجا ، الافكا ، الايغفا ، الايكا وغيرهم) التى تتكلم بلهجات لغة الايبو تندمج بسرعة فى قوم يحمل الاسم نفسه . والاثنوسات ذات القربى فى كينيا التى تعيش على الضفتين الشمالية والشرقية لبحيرة فكتوريا بدأت منذ اواسط القرن العشرين تتكتل فى قوم اللوخيا الواحد . وفى تنزانيا يتحد النيامفيزى والنياتورو والمبوغفى المتقاربون فى اثنوس واحد اطلق عليه اسم النيامفيزى ، احد العناصر السلالية المساهمة فى هذه العملية . وفى بتسوانا تتحد قبائل المانغفاتو والكفينا والايغفاكيتسى والتافانا والكفاتلا والماليتى والرولونغ والتلوكفا والكالاغادى فى شعب تسفانا الواحد . وعمليات التكتل بين الاثنوسات امر نموذجى ايضا بالنسبة الى البلدان الاخرى فى افريقيا الاستوائية .

ان العمليات المماثلة تشغل حيزا كبيرا كذلك فى مناطق اخرى من العالم النامى . ففى كاليمانتان فى اندونيسيا ، مثلا ، يبدى ما يسمى بالاثنوسات الداياكية اتجاها معينا نحو الاندماج فى شعب واحد . وفى جنوب ملانيزيا ، فى كاليدونيا الجديدة ، يلاحظ طور مبكر للتكتل السلالى بين ثلاثين اثنوسا ملانيزيا فى قوم ملانى كاليدونى جديد واحد . وفى بولينيزيا الشرقية ، فى جزر كوك ، يلاحظ طور اعلى المتلاحم السلالى بين كل السكان الاصليين فى الجزر (واروتونغا ، مانغايا ، مانيخيكى – راكاخانغا ، تونغاريفا وغيرها) .

تنطوى عمليات التلاحم بين الاثنوسات احيانا على طابع متدرج ، وكانها تجرى على مستويين . ويمكن ان نورد مثالا على هذا رابطة الاكان السلالية اللغوية المتعددة الملايين التى تضم من حيث اللغة والثقافة مجموعة اثنوسات فى جنوب ووسط غانا ومناطق كوت ديفوار المجاورة (ساحل العاج) . ان تشابه لغات الاكان يساعد على التقارب السلالى الثقافى سواء فى اطار الرابطة السلالية اللغوية الواسعة كلها ، او على مستوى الاقسام السلالية (مثل الاشانتى والفانتى والاكيم الخ .) .

ان عمليات التراص الداخلى مميزة ، وان كانت بشكل آخر ، لاثنوسات البلدان المتطورة من الناحية الاقتصادية . ويستمر حتى الوقت الحاضر تراص شعوب اوربية كبرى ، مثل الفرنسيين والاسبان والايطاليين . وتتجلى هذه العملية فى الزوال السريع للفوارق بين المجموعات المحلية للاثنوسات المعنية . وهكذا ، مثلا ، يتقارب على نحو متزايد البييمونتيون واللومبارديون والليغوريون والتوسكانيون والكالابريون والصقليون والمجموعات الاقليمية الاخرى فى ايطاليا التى كانت منذ امد قريب مختلفة كل الاختلاف من الناحية السلالية الثقافية .

اما فى خصوص عمليات الاندماج ، فانها فى البلدان المتعددة الاثنوسات تنطوى ، كقاعدة عامة ، على مقاييس اوسع مما فى البلدان ذات الاثنوس الواحد . وشدة هذه العمليات تتوقف كثيرا على البنية السلالية المتكونة تاريخيا فى هذه البلدان . ويساعد عليها ولا شك وجود روابط سلالية كبيرة وصغيرة ولا سيما اذا كانت مشتتة ، فى اطار الدولة الواحدة. ويلاحظ كذلك ان الاندماج يجرى بفعالية خاصة ايضا حينما تتجاور شعوب مختلفة بشكل ملحوظ من حيث مستوى التطور الاقتصادى الاجتماعى ، وكذلك اللغة والمنشأ التاريخى . وهذه الاتصالات كثيرة ، مثلا ، فى افريقيا الاستوائية : غينيا ، نيجيريا ، توغو ، كينيا ، رواندا ، بتسوانا . وفى هذا الصدد يمكن الاستشهاد كذلك بعمليات الاندماج الجارية فى الهند المعاصرة . ان بعض مجموعات الشعوب الصغيرة هناك (البيرهوريين ، البهيليين ، الكولى ، الغونديين ، الدوبلا وغيرهم) تفقد فى خلال هذه العمليات لغتها وتتحول فى بنية الشعوب الهندية الكبرى الى اقسام او مجموعات اثنوغرافية لها . وهذه الاخيرة ، وقد استوعبت لغة الشعب الكبير المحيط بها ، تتابع فى الوقت ذاته المحافظة على عناصر متميزة للثقافة ، وعلى بعض ملامح الاقتصاد الخاصة .

فى تلك الحالات ، حينما يكون الاثنوس الصغير فى

مجال تأثير عدة روابط سلالية كبرى ، يندمج فى وقت واحد فى كل من هذه الروابط (ولا سيما اذا كانت بشى سلالية اجتماعية راسخة) . ان عددا من السآميين ، مثلا ، يذوب فى الاثنوسات الاساسية للنروج والسويد وفنلندا .

يتعرض المهاجرون كذلك للاندماج الى جانب ممثلى الروابط السلالية الاصلية . وقد ازداد عددهم كثيرا فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية فى الكثير من البلدان المتطورة صناعيا فى اوربا الغربية ، وكذلك فى الولايات المتحدة وكندا . وفى الوقت الحاضر يبلغ عددهم فى المانيا الاتحادية ، مثلا ، قرابة ٣ر٥ مليون شخص ، وفى فرنسا قرابة ٣ ملايين ، وفى بريطانيا قرابة ١ر٥ مليون ، وفى سويسرا قرابة ٨٠٠ الف . والكثيرون منهم متحدرون من بلدان اوربية ذات تطور اقل نسبيا من الناحية الاقتصادية تتسم بنمو طبيعى مرتفع للسكان (ايطاليا ، اسبانيا ، البرتغال ، اليونان) ، وكذلك من بلدان افريقيا الشمالية . ويزداد عدد من يسمون «المهاجرين الملونين» . ومن بين بلدان اوربا الغربية تبرز بريطانيا بشكل خاص من هذه الناحية ، حيث انتقلت اليها بعد الحرب العالمية الثانية جماعات كبيرة من زنوج ويست انديا ، وكذلك من الهنود والباكستانيين من المستعمرات البريطانية السابقة فى شرق افريقيا وجنوب آسيا . ويعيش مستوطنون كثيرون من الهند وباكستان كذلك فى مختلف بلدان آسيا نفسها . ويشكل المتحدرون من الصين — الهواتسياو مجموعة خاصة من المهاجرين . ويربو عددهم على ٢٠ مليون نسمة . ويعيش الجمهور الاساسى من الهواتسياو فى بلدان جنوب شرقى آسيا ، ومن بين مناطق العالم الاخرى تبرز فى هذا الخصوص اميركا الشمالية ، ولا سيما الولايات المتحدة . وانتقل الى القارة الاميركية مهاجرون كثيرون من اليابان وتايلاند وبلدان اخرى فى آسيا . وفى سنوات ما بعد الحرب صار القادمون من بورتوريكو يشكلون فى الولايات المتحدة مجموعة سلالية كبيرة جديدة من المهاجرين .

لعملية اندماج المهاجرين جوانب مختلفة . اهمها اندراج المهاجرين فى البنية الاقتصادية والاجتماعية للبلد الذى استقبلهم . ومن المميز وجود تخصص مهنى معين لدى المجموعات السلالية المختلفة . ففى الولايات المتحدة يوجد بين القادمين من بورتوريكو الكثيرون جدا ممن يمارسون اعمالا لا تتطلب مهارة خاصة ، وثمة بين الالمان الكثير من المزارعين الصغار ، وبين القادمين من بريطانيا الكثير من عمال التعدين ، وبين الايطاليين الكثير من البنائين ، وبين اليونانيين الكثير من صانعى الحلويات ، وبين البولنديين الكثير من عمال صناعة السيارات . ورغم ان هذا واضح بما فيه الكفاية ، الا اننا نلفت الانظار الى ان المهاجرين بجمهورهم الاساسى هم دوما من فئات السكان الكادحة المستغلة .

يمارس التمييز العنصرى والتحامل السلالى التقليدى تأثيرا كبيرا وسلبيا بشدة فى عمليات اندماج المهاجرين السلالى . ومن المميز فى هذا الخصوص مصير الاوربيين انفسهم ، شأن الايرلنديين فى انكلترا ، مثلا . يبدو ان على الايرلنديين ، بسبب لغتهم الانكليزية وقربهم الثقافى من الانكليز ، ان يتكيفوا بسهولة مع حياة الاخيرين . ولكن على الرغم من ان الايرلنديين كانوا من اوائل مجموعات المهاجرين الى انكلترا ، فانهم لا يزالون بسوادهم الاعظم متقوقعين يقفون فى اسفل السلم الاجتماعى الى الآن .

ولا ضرورة فى هذه الحالة للحديث عن ظروف المعيشة الشاقة بشكل خاص للقادمين من البلدان النامية ، فهذا الواقع معروف جيدا .

من الآثار السلالية للهجرة ازدياد التنوع السلالى للكثير من البلدان .

ان المانيا الاتحادية ، مثلا ، تحولت فى العقود الاخيرة نتيجة جلب القوة العاملة الرخيصة اى المهاجرين باعداد غفيرة من دولة ذات قومية واحدة عمليا (قبل عام ١٩٦٠ كان الالمان يشكلون ما يزيد على ٩٩٪ من مجموع السكان) الى بلد ذى

بنية سلالية معقدة ونزاعات سلالية حادة ، اذ يوجد فيها حاليا تسع مجموعات قومية يربو تعداد كل منها على ١٠٠ الف شخص .

وتجرى عمليات سلالية توحيدية على اساس المهاجرين فى الولايات المتحدة الاميركية ايضا التى كانت تدعى على امتداد تاريخها بأسره دور «ارض الميعاد» . لقد كانت الولايات المتحدة بوتقة صهر كان القادمون من مختلف بلدان العالم «يذوبون» فيها ويصبحون جزءا من اتنوس واحد . ولكن فى القرن العشرين اصبح واضحا بشكل خاص انه صارت «تسقط رواسب» بصورة متزايدة فى هذه «البوتقة» . والتناقضات الطبقية المتناحرة لاتمكن من تخفيف التناقضات السلالية والعنصرية ، بل على العكس تؤدى الى احتدامها الشديد .

لم يشأ المجتمع الاميركي ، ولم يستطع من حيث الجوهر ، ان يدرج فى ذاته على قدم المساواة الزنوج والمكسيكيين والبورتوريكيين وغيرهم . ويتعرض لتمييز قاس اخلاف القادمين الى الولايات المتحدة من الايطاليين والعرب واليابانيين وممثلى الكثير من الشعوب الاخرى . كل هذا يجعل الامة الاميركية ميدانا ليس فقط للقوى الجاذبة ، بل لقوى نابذة ايضا .

ان الاندماج السلالى يتجلى عادة ، كما سبق ونوهنا ، فى ذوبان الاتنوس الاصغر فى الاكبر ، اى انه ينطوى على طابع وحيد الجانب . ويلاحظ هذا لدى الذوبان السلالى سواء للمهاجرين او للاتنوسات الصغيرة . وهذا الطابع الوحيد الجانب للاندماج السلالى ليس امرا مطلقا ، بالطبع . احيانا يحدث العكس ، اذ يمكن لرابطة سلالية صغيرة ان تدمج بعض ممثلى رابطة اكبر . ولدى تفاعل رابطتين سلاليتين كبيرتين على حد سواء يجرى عادة اندماج ثنائى : ان جزءا من كل من الاتنوسين المتفاعلين يندمج فى الاخر فى الوقت نفسه .

حينما يكون للاندماج طابع ثنائى يبرز الزواج المختلط من

الناحية السلالية ، كما فى العمليات الاندماجية الاخرى ، كقناة من اهم الاقنية . وليس من النادر ان يجرى الاندماج السلالى الثنائى كذلك فى مجال التفاعل اللغوى الثقافى «الصرف» . وهذا ما تساعد عليه بشكل جوهرى احيانا المعايير القانونية السارية فى ميدان اللغة . وهكذا ، فبناء على المعايير القانونية المرعية فى سويسرا ينبغى لكل مواطن ينتقل من منطقة ذات لغة اخرى ان يعرف اللغة المحلية . وهذا ما يحث اندماج السويسريين الناطقين بلغة مغايرة ويصون اللغة والثقافة المحليتين .

ثمة فى العالم المعاصر عمليات اندماجية من نوع آخر فى ميدان الثقافة . اذ تزداد نسبة عناصر الثقافة التى تنتشر فى ارجاء العالم كافة بهذه الدرجة او تلك . لقد كانت المدن الاماكن الاساسية لتشكل عناصر الثقافة هذه ، وكان التطور الصناعى الاساس التكنيكي الاقتصادى لظهورها . وتجلى هذا قبل كل شيء فى ميدان الثقافة المادية ، وفى الانتشار الواسع سواء فى مجال الانتاج او فى مجال المعيشة لمختلف السلع الصناعية ذات المواصفات الموحدة : من السيارات الى الاكسسوارات المعاشية اليومية (الملابس ، الاثاث ، الطعام وما شابه ذلك) . وتكتسب بعض قوالب السلوك اليومى ايضا طابعا امميا متزايدا (مثلا ، قواعد حركة المرور وغيرها) . واثرت الاتجاهات التكاملية فى مجال الثقافة الروحية ايضا . وينطوى على مغزى خاص فى هذا الصدد التطور العاصف فى ظروف الثورة العلمية التكنيكية لوسائل الاتصال العامة : السينما ، الاذاعة ، التلفزيون . وهذا ما جعل من الممكن انتشار العناصر المتشابهة المتولية للثقافة الروحية بمقاييس شاملة : من مؤلفات الفن والادب الى العروض الجماهيرية والسياحة .

ينبغى القول ان «الاستبليشمنت الامريكى» وهو ، «فئة الامة العليا» المتميزة ، التى من المبديهى ان تفهم جيدا الطابع الموضوعى ، «التكنيكى» الحتمى لنمو «الثقافة الجماهيرية» المعاصرة ، رفعت عمليا الى مصف سياسة للدولة

استخدام هذه «الثقافة الجماهيرية» في اهدافها المغرضة . وهي تجرى تحت ستارها «دمجا ثقافيا» مكثفا وقسريا من حيث الجوهر للسكان ، ولا سيما في تلك البلدان التي يتبع زعماؤها نهجا مواليا لاميركا . وهكذا – كما يعتبر الكثير من الساسة والعلماء ، وبينهم مؤلفا هذا الكتاب – يخلق معضلة شاملة جدية اخرى ناجمة عن الهجوم المتزايد للدعاية الى نمط الحياة البرجوازي الاميركي على الثقافة الروحية لشعوب العالم .

ان العمليات الجارية في ايامنا للتكامل والاندماج السلاليين والثقافيين تتسم بالتنوع الشديد لاشكالها ووتائرها ، ولطابعها نفسه ، كما سبق ونوهنا . وطبيعي ان ينطوي على مغزى حاسم في هذا الخصوص ، حسب قناعتنا ، التقسيم المبدئي للاندماج الذي وجه لينين انتباهه اليه في مؤلفاته حول المسألة القومية ، التقسيم الى اندماج طبيعي وآخر قسري في ظروف الراسمالية .

في افريقيا نجد ان التكامل بين الاثنوسات في شكله «الكلاسيكي» يجرى قبل كل شيء ، حسب تصورنا ، في منطقة غرب افريقيا ، حيث تعيش اثنوسات تختلف اختلافا شديدا من حيث اللغة . وتنشأ روابط سلالية انتقالية في كل بلدان غرب افريقيا تقريبا : السنغال ، غينيا ، مالي ، غانا ، وسكان كل من هذه البلدان لم يعودوا يسمون انفسهم ممثلين لاقوام وقبائل معينة فحسب ، بل يسمون انفسهم ايضا سنغاليين وغينيين وماليين الخ .

وفي آسيا نتيجة للعمليات الاقتصادية الاجتماعية التكاملية وما يرافقها من عمليات تكامل بين الاثنوسات تتشكل روابط سلالية انتقالية عملاقة تعد بعشرات او حتى بمئات الملايين من الناس . وهذا ينطبق قبل كل شيء على الهنود والباكستانيين والاندونيسيين والفيليبينيين .

وتبدأ بالانتشار عمليات التكامل بين الاثنوسات في بعض بلدان اوقيانوسيا المتعددة الاثنوسات التي حازت استقلالها مؤخرا .

ان تفاعل الاثنوسات سواء في الماضي او في الظروف المعاصرة لايقتصر على تشكيل الروابط السلالية الانتقالية او الاثنوسات الفرعية . ففي ظل ظروف معينة يؤدي هذا التفاعل – الامر الجوهري بشكل خاص – الى ظهور اقسام سلالية جديدة من «المستوى الاساسي» ،اي الشعوب بكل ابعادها الاجتماعية السلالية . وثمة امثلة كثيرة على هذا تعطيها العمليات السلالية في اميركا اللاتينية ، وهي امثلة واضحة للغاية ، اذ يساهم ممثلو مجموعات عرقية مختلفة ، كقاعدة عامة ، في عمليات ظهور الاثنوسات الجديدة ، الامم الاميركية اللاتينية المعاصرة . وهكذا ، ففي اميركا الوسطى ، كالسلفادور ، مثلا ، حيث عمليات الاختلاط السلالي بين الاشخاص ذوي الاصل الاوربي والهنود قطعت شوطا كبيرا بشكل خاص ، كان الهجناء («اللادينو») في مستهل القرن التاسع عشر يشكلون ٥٤٪ من مجموع سكان البلاد ، وصاروا في ثلاثينات القرن العشرين يشكلون اكثر من ٧٥٪ ، وهم الآن ٩٠٪ . وتلاحظ لوحة مماثلة في هندوراس ، حيث كان اللادينو يشكلون في الخمسينات والستينات ٩١٪ والهنود ٦٪ ، والزنوج ٢٪ ، والبيض ١٪ . والى جانب ذلك فان عملية «التهجين» في جملة من بلدان اميركا اللاتينية لا تزال بعيدة عن الانجاز . ويمكن لغواتيمالا ان تكون مثالا على ذلك ، حيث كان الهجناء والكريبوليون يشكلون الاقلية في اواسط القرن العشرين (٤٦،٤٪ في عام ١٩٥٠) . ومع ذلك كانوا هم بالذات يمثلون الرابطة السلالية الآيلة الى التكون والنامية ، اي الامة الغواتيمالية .

تقترن العمليات السلالية المعاصرة ، ولاسيما في القارة الافريقية ، بجملة من المهمات الاجتماعية الجدية التي تتطلب الحل .

حتى عام ١٩٥٧ لم يكن يوجد في افريقيا الاستوائية سوى بلدين (اثيوبيا وليبيريا) كان فيهما «الزنوج خاضعين وحاكمين على حد سواء» . والآن يوجد العشرات من هذه البلدان . لقد ذهبت ازمنة الاستعمار بلا عودة بالنسبة الى

الجزء الاعظم من «افريقيا السوداء» . وفلول الامبرطوريات الاستعمارية لا تشغل سوى نسبة هزيلة من القارة . ولكن الاستعمار ، خلف للبلدان المتحررة بعد مغادرته العديد من المعضلات .

وتشغل المعضلات السلالية حيزا لا يستهان به بين هذه المعضلات . ان كل دولة عمليا من الدول الافريقية الجديدة ، بغض النظر عن حجمها ، تمثل غالبا اتحادا لعدة اثنوسات على شكل قبائل واقوام ، وتمثل احيانا روابط سلالية فى مرحلة التكون فى امم . واذا كان فى زائير (الكونغو البلجيكى سابقا) بسكانها الذين يربو عددهم على ٢٠ مليونا يوجد من هذه الاثنوسات اكثر من مئة بكثير ، ففى جمهورية الكونغو الشعبية المجاورة (قرابة مليون نسمة) لا يوجد «سوى» بضع عشرات . وفى كينيا توجد ستة شعوب على الاقل يضم كل منها اكثر من نصف مليون شخص ، بالاضافة الى عشرات الاقوام ومئات القبائل .

لقد ورثت الدول المستقلة حدودها عن الممتلكات الاستعمارية للدول الاوربية ، وكان الامبرياليون الانكليز والفرنسيون وغيرهم يهتمون اقل ما يهتمون بتنظيم مستعمراتهم وفق المبدأ السلالى .

حينما كانت عملية تصفية الاستعمار فى افريقيا قد بدأت لتوها ، توقع الكثير من العلماء والمؤرخين والاثنوطرافيين ، شأن الكثير من الشخصيات السياسية ، قيام دول جديدة هناك وفق المبدأ السلالى ، وافترضوا انه ستهدم فى غضون ذلك وتفصل من جديد شبكة الحدود التى نشأت فى خلال استيلاء الدول الامبريالية على افريقيا ، بيد ان هذا لم يحدث.

فى غضون مئة سنة (تزيد او تنقص) اصبحت كل مستعمرة سابقة ، بحكم التطور الطبيعى ، تشكل الى حد بعيد كلا اقتصاديا وغير اقتصادى .

ينبغى الافتراض ان منظمة الوحدة الافريقية لم تعلن من قبيل المصادفة مبدأ الابقاء على الحدود بين البلدان ، اذ ان خرقها فى الظروف الملموسة لافريقيا المعاصرة يؤدى الى

الفتن ، فى رأى قادة منظمة الوحدة الافريقية . وثمة امثلة على هذا ، وذلك مثلا ابان النزاع الصومالى – الاثيوبى ، وقبله النزاع الصومالى الكينى وغيرهما .

وفى الحدود الحالية لكل بلد تجرى عمليات سلالية على نحو عاصف وبسرعة لا يكاد التاريخ يعرف لها نظيرا . واذا كانت البنى العشائرية القبلية فى اوربا قد تحولت الى اقوام على مدى قرون ، فان هذه العملية تتطور باندفاع فى افريقيا ، على امتداد العقود الاخيرة .

ان اكبر شعب فى كينيا – كيكويو – يجمع حوله شعوب الايمبو والميرى والمبيرى والتاراكا وشعوبا اخرى صغيرة جدا . وتسعى حكومة كينيا ، شأن سلطات عدد من البلدان الافريقية الاخرى ، الى حث العمليات السلالية اكثر واكثر ، واضعة هدفا لها تشكيل امة كينية واحدة . وفى عام ١٩٦٣ ، بعد نيل الاستقلال مباشرة ، طرحت مهمة التوحيد هذه ورفع شعار «خارامبيى» – «سنعمل معا» ، وفى عام ١٩٦٨ اضيف شعار جديد : «لا توجد قبائل ، بل كينيون» . ولكن لعل التسرع الشديد جدا هو بالذات الذى ادى فى عام ١٩٦٩ الى سلسلة من النزاعات بين بعض اقوام كينيا ، نزاعات وصلت احيانا الى صدامات مسلحة . ومع ذلك استطاعت الدولة الخروج من هذه النزاعات .

منذ عدة سنوات اعلن جوليوس نيريرى ، رئيس تنزانيا ، ان الحزب الحاكم الذى يترأسه وضع امامه مهمة تشكيل امة من اكثر من ١٢٠ قبيلة ، من اناس ينتمون الى مجموعات دينية واجتماعية مختلفة . كتب نيريرى : «نريد ان تعيش الامة اجمالا كاسرة واحدة . هذا هو اساس الاشتراكية» .

لا يشكل سكان تنزانيا امة واحدة بعد . ولكن تنزانيا ذات وضع مؤات نسبيا من الناحية اللغوية ، اذ ان ٩٧ بالمائة من سكانها يتكلمون بلغات البانتو ، وهى لغات ذات بناء نحوى واحد وذخيرة مفردات واحدة من حيث الاساس ، وهذا ما يساعد على تقارب المجموعات السلالية . وفى رأى الاختصاصية السوفييتية فى الشؤون الافريقية اسماعيلوفا ،

وهو رأى لا يسعنا الا الموافقة عليه ، انه «من غير المستبعد امكان نشوء امة تنزانية واحدة فى مستقبل قريب على قاعدة مختلف العناصر السلالية» . اما الآن فيجرى هناك بالدرجة الاولى ، كما فى كينيا ، التفاف القبائل الصغيرة ، الامر الذى سبق واشرنا اليه ، حول عدة اقوام كبيرة .

ان دور الدولة فى تطوير العمليات السلالية كبير جدا فى افريقيا . فحيثما يسعون هناك ، مثلا ، الى جعل الاعياد الدينية – للمسيحيين والمسلمين والديانات المحلية – اعيادا على نطاق الدولة بأسرها يحتفل بها المواطنون جميعا مهما كان دينهم ، فان هذا مثال على عمل مبرمج من اجل «بناء الامة» .

فى افريقيا بأسرها تقريبا تؤدى المدن دور «مخابر» تجرى فيها العمليات السلالية بصورة متسارعة . وفى رأينا ان اسماعيلوفا كانت على صواب اذ نوهت فى كتابها «القضايا السلالية لافريقيا الاستوائية المعاصرة» بانه «تتكون فى الحياة اليومية ، ولدى الاختلاط الدائم خصال جديدة لدى الافارقة المنتمين الى مجموعات سلالية مختلفة . وطبيعى ان الناس من مختلف المجموعات السلالية ، اذ يعملون فى مؤسسة واحدة وتكتنفهم ظروف متشابهة ، يتقاربون ويتقطعون عن قبيلتهم شيئا فشيئا وتتسع مداركهم وتنمحى الاختلافات القبلية بينهم» .

وهذه العملية سارت بعيدا بحيث انه لا يتسنى غالبا لدى اجراء الاحصاء فى مدن تنزانيا تحديد الانتماء القبلى لعدد كبير من السكان ، وفقدان الصلة بالقبيلة يبلغ حده الاقصى .

اعلنت الحكومة الحالية في زائير «القومية الزائيرية حقا» سياسة لها . والصحافة الزائرية ، التى تصدر بلغات مختلفة ، لا تذكر على اى حال ان شعوبا مختلفة تعيش فى زائير ، بل تؤكد انه توجد امة زائيرية . ولكن من الواضح انه لا تزال معضلات كثيرة جدا تعترض هذا الطريق ، اذ يستحيل حل المسألة القومية بالاعلان ان لاوجود لها وكفى .

للدول التى نشأت مكان المستعمرات السابقة الكثير من

المهمات السلالية الاجتماعية المتشابهة المشتركة ، سواء اكانت هذه الدول فى افريقيا ام اميركا اللاتينية ام آسيا .

لدى وضع الحدود بين الدولتين الجديدتين ، الهند وباكستان ، اخذ فى الاعتبار قبل كل شيء الانتماء الدينى لاغلبية سكان هذه المنطقة او تلك . هذا فى حين ان المسلمين وغير المسلمين كانوا يعيشون بصورة متداخلة . ان الكثير من المسلمين الذين اصبحوا داخل حدود جمهورية الهند ، شأن الكثير من البوذيين والسيخ والهندوس الذين كانوا يعيشون فى الاراضى التى اصبحت جزءا من باكستان ، قد فضلوا الانتقال الى اراضى ابناء ملتهم . وكل من سيول المهاجرين هذه كان يصل حتى بداية الستينات الى ١٠ ملايين شخص كحد ادنى .

ينبغى التنويه بان اقرار اللغة التى يتكلم بها اكثر الشعوب عددا بمثابة لغة للدولة ليس من النادر ان يثير امتعاض ممثل الاثنوسات الاخرى ويجابه بالمقاومة .

فى مستهل الستينات بذلت فى الهند محاولة لجعل اللغة الهندية الزامية فى الدراسة ومؤسسات الدولة . وجوبهت هذه المحاولة باحتجاج شديد ولا سيما فى المناطق الجنوبية من البلاد التى يتكلم سكانها باللغات الدرافيدية . ان الانكليزية ، التى اضطلعت قبل ذلك الوقت بدور لغة للدولة ، كانت غريبة عن كل شعوب الهند على حد سواء . ولو صارت الهندية اللغة الرسمية فى الهند ، لنال الناس الذين كانت لغتهم الام ، على ما يبدو ، الافضلية لدى الالتحاق بعمل فى الدولة ، مثلا . ووصل الامر الى اشتباكات مسلحة دبرتها القوى الرجعية ، ولكن الرجعية استطاعت هنا الاستفادة من صعوبات قائمة فعلا . ووجد الحل باعطاء اللغات الاثنتي عشرة الاكثر انتشارا صفة لغات رسمية .

يسير بمزيد من السرعة عادة انتشار تأثير اللغة المحايدة ، ان صح القول . ان البنجابيين هم اكثر الشعوب عددا فى باكستان ، حيث يشكلون قرابة ٦٠ فى المئة من

سكان البلاد ،في حين ان الاردو اصبحت لغة الدولة ولغة التفاهم بين الاثنوسات .

اثبت الاختصاصيون في اواسط السبعينات ان اكثر من ٣ ملايين شخص في باكستان اعتبروا الاردو لغتهم الام ، ولكنهم لا ينتمون بعد الى اية رابطة سلالية معنية . لا يوجد شعب ناطق بالاردو ، ولكن يوجد اشخاص فقط يعتبرون الاردو لغتهم الام ، واغلبهم من البنجابيين والقادمين من الهند . والناس الناطقون بالاردو متركزون قبل كل شيء في كراتشي ولاهور ، اهم مركزين اقتصاديين في البلاد . ويصدر بالاردو العدد الاكبر من الجرائد والمجلات ، وتشغل المكانة الاولى في طبعات الكتب والبث الاذاعي والافلام السينمائية .

ان اللغة التي لا يقف خلفها شعب ظاهرة جديرة بالاعتبار .

وبالمناسبة ، ينبغي الافتراض ان هذه اللغة ستنال شعبها ، ان صح التعبير . وثمة مسوغ للافتراض ان السياسة الحكومية الهادفة الى تدعيم مواقع لغة الاردو ستؤدى الى ظهور رابطة لغوية يترأسها البنجابيون . ولا شك في ان لغة الاردو ستساعد على تقارب شعوب باكستان . في كل بلد افريقي يوجد عدد كبير من القبائل داخل الحدود العامة للدولة ، ولهذا فان قضية اللغة المشتركة اصبحت احدى اهم القضايا في كل مكان من افريقيا تقريبا . وفي حالات كثيرة تبقى لغة الاسياد المستعمرين القريبي العهد ، اي الانكليز والفرنسيين بالدرجة الاولى ، هذه اللغة المشتركة . ولكن لا يعرفها غير الموظفين والمثقفين الذين لا يزالون قلائل . ومن الواضح ان هذا ليس حلا نهائيا للمسألة .

في افريقيا الشرقية يرى عدد من البلاد المخرج في نشر اللغة السواحلية . وقد برزت منذ امد بعيد الى حد ما في بعض مناطق القارة كوسيلة للتفاهم بين القبائل ، ومن افضلياتها ان الانتقال الى هذه اللغة لا يمكن له ان يعتبر امرا يوفر امتيازات لشعب كبير ما : فمنذ امد غير بعيد كانت السواحلية اللغة الام لبضع عشرات الالوف من الناس فقط .

في عام ١٩٧٠ قرر الحزب الحاكم في كينيا ان السواحلية يجب ان تصبح لغة الدولة . وافترض انها ستزيح حتى عام ١٩٧٤ اللغة الانكليزية من الحياة الادارية والاجتماعية . ولم تستطع السواحلية احراز هذا الانتصار . بيد ان ٨٠ في المئة من سكان المدن يتقنون السواحلية ، وتعتبر في الكثير من مناطق البلاد لغة التخاطب بين القبائل . ويبدو انها ستحرز النصر في نهاية المطاف .

وجدت اندونيسيا – بعد التحرر من التبعية الاستعمارية مباشرة – حلا ناجحا للمعضلة اللغوية .

في العالم المعاصر بلدان قليلة يربو عدد سكانها على مئة مليون . ومن بينها اندونيسيا ، بلد لها الالوف من الجزر التي يعيش فيها عشرات الشعوب الكبيرة والصغيرة التي تتكلم في الحياة العادية بعشرات اللغات . ويشكل الجاويون اكبر اثنوس هناك . كان يبدو ان اللغة الجاوية بالذات يجب ان تصبح لغة التفاهم بين القوميات على نطاق اندونيسيا باسرها . ولكن هذا لم يحدث . وشغل مكانها بهذه الصفة وبصفة اللغة الرسمية الوحيدة ما يسمى «باخاسا اندونيسيا» التي كانت اساسها لغة ملايويي وسط وجنوب سومطرة .

ان اللغة الملايوية تستخدم منذ مئات السنين في جزر اندونيسيا بمثابة لغة وسيطة . وفي القرون الوسطى نشرت الدول الملايوية نفوذها الى جزء كبير من البلاد ، واضطلع التجار الملايويون بدور هام في الصلات الاقتصادية بين الجزر ، واستقر المستوطنون الملايويون في جاوا وبورنيو وسولاويسي وجزر اخرى . وجلبوا معهم لغتهم لتسيطر في الاراضي الجديدة .

وقد «عملت» ظروف كثيرة في تقدم اللغة الملايوية في الجزر الاندونيسية . فبها بالذات جرت ، مثلا ، الدعوة الى الاسلام في جملة من المناطق . وكان اعتناق الاسلام في تلك الفترة يعني بالنسبة للكثير من الوثنيين ان يصبحوا ملايويين . وكذلك قام المبشرون المسيحيون بدعوتهم باللغة الملايوية بالدرجة الاولى .

لدى الصراع فى هذا البلد او ذاك بين لغتين تضطلع الخصائص النحوية البحث لكل منهما بدور من الدرجة الثالثة عموما . ولكن هذه القاعدة العامة لم تكن ذات شأن لدى التقاء اللغتين الملايوية والجاوية . فاللغة الجاوية فى غاية التعقيد ، وقد خلف فيها ماضى الجزيرة الاقطاعى اثرا قويا جدا . وعلى الجاويين لدى الحديث ان ينتبهوا بعناية لكل عبارة فى اللغة ، لانها تراعى حسب التقليد الوضع الاجتماعى للمتكلم وللمخاطب وللمستمعين . ويفترضون انه لا توجد لغة اخرى يمكن ان تسيء بمثل هذه السهولة للجليس لمجرد عدم استخدام كلمة ما بدقة . وعلاوة على ذلك ، فان السؤال البسيط «كيف الاحوال ؟» يصاغ على نحو متباين لدى التوجه الى من هو «اعلى مقاما» او «ادنى مرتبة» . وحتى مفاهيم مثل «المسكن» و«البيت» يفترض ان تسمى بكلمات مختلفة لدى الحديث مع الند ، ومع من هو ادنى من حيث الوضع الاجتماعى ، ومن هو اعلى . وهذا ما ينطبق على الكثير من المفاهيم الشائعة الاستعمال . ان اللغة الجاوية مشبعة بمثل هذه «الدقائق» بحيث ان السلطات الهولندية فى عهد الاستعمار اضطرت لهذا السبب ، بين اسباب اخرى ، الى ان تامر الموظفين القادمين بالا يتحدثوا مع الارستقراطيين الجاويين باللغة الجاوية ، بل باللغة الملايوية . والا بدات نزاعات هم «فى غنى عنها» .

والجاويون انفسهم يفضلون ان يتكلموا بالملايوية فى الاجتماعات وفى خلال كل الفعاليات الاجتماعية تقريبا ، وهذه اللغة شائعة جدا فى المعامل والمؤسسات . وهى تغدو اللغة الوحيدة المقبولة من الجميع فى اندونيسيا .

اما فى ماليزيا المجاورة ، حيث يتقن الملايوية ٩٠٪ من السكان الاصليين ، فان هذه اللغة ، على العكس ، تزاح بسرعة من مجال التعليم والاعلام . تزيحها اللغة الانكليزية ، ربما لانها ايضا واسعة الانتشار بين المهاجرين الصينيين والهنود الذين يشغلون مواقع اقتصادية هامة فى البلاد .

ان ايجاد لغة وطنية عامة وارساء اسس الثقافة الوطنية

العامة باعتبارهما اهم عناصر الوحدة السلالية هما بالنسبة الى البلدان النامية مهمة واقعية ، ولكنها معقدة .

علاوة على القضايا السلالية التى ذكرناها توجد فى العالم قضايا ملحة اخرى فى غاية الحدة . ولعل الشرق الاوسط وافريقيا الجنوبية هما «احمى منطقتين» فى العالم .

ان القضية الفلسطينية مقلقة للغاية . فمنذ اربعين سنة تقريبا اتخذت منظمة الامم المتحدة قرارا ينبغى بناء عليه ان تظهر فى هذه الارض العريقة دولتان مستقلتان : عربية ويهودية . وقد ظهرت الثانية . اما الاولى فلم تظهر الى الآن . والفلسطينيون ، بلا ادنى شك ، اثنوس له من الحقوق ما لكل الاثنوسات الاخرى . ويملك الشعب الفلسطينى حقا عادلا ليس دون حق اى شعب آخر فى تقرير المصير ، وفى اراضيه . هذا فى حين ان السياسة الامبريالية للولايات المتحدة الاميركية والاعمال العدوانية المرتكبة فى مجرى هذه السياسة والتى تنهجها الاوساط الحاكمة فى اسرائيل ادت الى ان يعيش جزء من الفلسطينيين فى جو من الارهاب تحت الاحتلال الاسرائيلى ، وان يتشتت جزء فى العالم العربى باسره ، وان يحشر جزء فى مخيمات اللاجئين .

والوضع السلالى فى جمهورية جنوب افريقيا متوتر الى الحد الاقصى . هناك تقبض الاقلية «البيضاء» على زمام السلطة منذ الازمنة الاستعمارية ، اما المنتمون الى الاثنوسات المحلية ، وكذلك المتحدرون من الهند وباكستان والخلاسيون ، فهم الاغلبية المضطهَدة ، المحرومة من حقوق الانسان . ان كل القوى الديمقراطية فى العالم الآن هى الى جانب الشعوب المناضلة ضد الابرتهيد ، ضد كل اشكال العسف العنصرى والسلالى .

من التجربة القومية للاشتراكية

ان القرن العشرين نفسه ، الذى اتسم بتسارع وتاثر العمليات السلالية وتزايد المجابهة الاجتماعية داخلها ، اعطى ،

من الجهة الاخرى ، امثلة على تطور وازدهار الحياة القومية .

كان ظهور اشكال جديدة للاثنوسات ، الامم الاشتراكية ، احد الآثار الجوهرية لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عام ١٩١٧ التى اطاحت بالطبقات المستغلة فى روسيا .

قبل هذا الفاصل التاريخى كانت شعوب العالم كلها والامم كلها تنقسم الى مضطهِدة ومضطهَدة . هذا التقسيم فى ظروف السيطرة المطلقة للتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الرأسمالية هو التقسيم الاهم والاساسى من وجهة نظر العلاقات القومية .

فى عام ١٨٤٨ كتب ماركس وانجلس فى «بيان الحزب الشيوعى» : «ازيلوا استثمار الانسان للانسان ، تزيلوا استثمار امة لاخرى .

وعندما يزول تناحر الطبقات فى قلب كل امة يزول فى الوقت نفسه العداء والحقد بين الامم» (ماركس وانجلس . «بيان الحزب الشيوعى» ، القاهرة ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية ، سنة ١٩٧٠) .

يؤكد تاريخ بلادنا صحة هذه الكلمات التى قيلت منذ قرابة قرن ونصف .

ان جواهرلال نهرو ، الزعيم العظيم لحركة التحرر الوطنى الهندية ، الذى كان يعرف بلادنا جيدا ، قال مقدرا المغزى «السلالى الصرف» لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى كتابه «نظرة الى التاريخ العالمى» : «ان اكثر . . . ما يدعو الى الدهشة يتلخص فى ان الروس كانوا يُعتبرون فى كل مكان ، وثمة مسوغات لهذا ، كسالى وجهلة ومتخلفين وغير قادرين على القيام بجهود جدية . الحرية هى عادة ، واذا حرمنا منها طويلا تنساها . لقد كانت عند الفلاحين والعمال الروس الاميين امكانات قليلة ليطوروا هذه العادة فى انفسهم . . . فى تلك الايام قاد روسيا اناس (يقصد البلاشفة – الشيوعيين بقيادة لينين – ى . ب . ، ر . ب .) استطاعوا ان يحولوا هذه المادة البشرية الفقيرة الى شعب قوى ومنظم ، مفعم ايمانا برسالته وثقة بنفسه» .

تنقسم كل امة برجوازية الى معسكرين طبقيين متعادين

على نحو تناحرى – طبقة اصحاب وسائل الانتاج وطبقة العمال المأجورين : وتتكون الامة الاشتراكية من طبقات متساوية متعاونة توحدها ايديولوجيا مشتركة ، طبقات موحدة خلقيا وسياسيا .

لقد ناضلت شعوب وطننا معا من اجل انتصار الثورة الاشتراكية وحاربت معا ضد الرأسماليين والملاك والمتدخلين الانكليز والفرنسيين والامركيين وغيرهم من المتدخلين الاجانب فى الحرب الاهلية اعوام ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، وذادت معا عن الوطن المشترك فى الحرب الوطنية العظمى اعوام ١٩٤١ – ١٩٤٥ ضد الفاشية ، وتعاونت وتتعاون معا زمن السلم . فى كل منشأة من منشآتنا ، وفى كل مصنع من مصانعنا يعمل اناس من مختلف القوميات .

هذا التنوع تمكن مشاهدته فى بعض البلدان الرأسمالية ايضا . فى المانيا الاتحادية يعيش مئات الالوف من الايطاليين واليونانيين والاتراك . ان الجديد عندنا لا يقتصر على كون الناس من مختلف القوميات يعيشون ويعملون كتفا لكتف ، بل لقد اصبحت تربية اناس مختلف الشعوب على الايمان بالمساواة المطلقة فيما بينهم هى شعار الدولة الذى ينفذ على الدوام منذ لحظة تأسيسها .

ويترسخ فى غضون بناء المجتمع الجديد نظام جديد من الآراء ازاء المسألة القومية ، الا وهو الاممية الاشتراكية .

لقد حدثت فى الاتحاد السوفييتى فى خلال ٧٠ سنة من وجوده تغييرات ملحوظة فى البنية السلالية للبلاد . بيد انه ينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار انه لا يزال فى بلادنا عدد كبير من الشعوب وفوارق كبيرة فى عدد افراد الشعوب على حدة . يبرز من حيث العدد الروس (١٣٧,٣ مليون شخص) والاوكرانيون (٤٢,٣ مليون شخص) ، وكانوا يشكلون معا فى عام ١٩٧٩ اكثر من ثلثى سكان البلاد ، وهناك ايضا ١١ قومية يربو عدد كل منها على مليونى نسمة ، و٩ شعوب يزيد عدد كل منها على مليون شخص . اما الاغلبية الساحقة من الشعوب فتضم عددا اقل بكثير ، بما فى ذلك ٥٠ شعبا

يبلغ تعداد كل منها اقل من ١٠٠ الف شخص ، وحتى ان بعض الشعوب (اليوكاغيريين ، النغاناسانيين ، النيغيداليين) يبلغ عدد افراد كل منها اقل من الف شخص .

ان التغيرات الجارية في البنية السلالية للاتحاد السوفييتي ناجمة عن عمليات سواء داخل القوميات او بين القوميات .

من المتعارف عليه ، كما سبق القول ، ان تعزى الى العمليات السلالية داخل القوميات والتي لها طابع تلاحمي عمليات اندماج بعض الوحدات السلالية ذات القربى من حيث الثقافة على نمط الاثنوسات الفرعية (او المجموعات الاثنوغرافية) في اطار قسم سلالي اساسي . وفي خلال هذه العمليات زمن السلطة السوفييتية اصبحت امم كثيرة اشد تراصا . وبالتدريج تندمج مجموعة السيتو السلالية الفرعية في الاستونيين الآخرين ، واللاتغاليون في اللاتفيين ، وتنمحي بسرعة الاختلافات بين المجموعات الاثنوغرافية داخل الشعوب البيلوروسي والجورجي والاوزبكي وشعوب اخرى .

تضطلع العوامل الاجتماعية الثقافية بدور هام في عمليات التلاحم السلالي . نورد مثال الاراضي الاوكرانية الغربية بعد دخولها قوام جمهورية اوكرانيا الاشتراكية السوفييتية في عام ١٩٣٩ . في هذه الاراضي لم يكن من النادر سابقا ان تغدو وسيلة لنزع قومية مجموعات الاوكرانيين الاثنوغرافية ، مثل الغوتسوليين والليميكيين والبويكيين . وبعد اعادة التوحيد نال السكان الاوكرانيون المحليون الحق في مدرستهم القومية وتطوير ثقافتهم باللغة الام ، ونتيجة لهذا الاجراء ذي الطابع المبدئي تجلت عملية التراص على نحو ملموس في التقلص التدريجي للهجات الاقليمية وانتشار اللغة الادبية الاوكرانية في الحديث الشفوي العامي .

والى جانب ذلك وفرت التحولات الاقتصادية الاجتماعية الاشتراكية في بلادنا ظروفا مؤاتية للتطور العاصف لعمليات التراص بين الاثنوسات . ففي مناطق تخوم البلاد التي كانت

متخلفة في تطورها تجلت هذه العمليات في اتحاد الروابط السلالية المتقاربة من حيث اللغة والثقافة في اقوام كبيرة وامم . واكتمل تشكل الكثير من امم آسيا الوسطى ، مثل الامة التركمانية التي تكونت من المجموعات القبلية لليموديين والتيكي والغيكلينيين وغيرهم . ونتيجة لعمليات التراص تشكلت شعوب كثيرة اخرى ، مثل الالطائيين (جنوب سيبيريا) الذين انضم الى قوامهم الالطاي-كيجيون والتيلينغيتيون والتيليوتيون وقبائل واقوام صغيرة اخرى . وبالنتيجة تقلص كثيرا التبرقش السلالي في بلادنا .

لقد مضت في الوقت الحاضر فترة النشاط الاشد لعمليات التلاحم بين القوميات وداخلها ، ومن الجهة الاخرى لم تكتمل بعد تماما عمليات التراص السلالي الداخلي .

ان التراص الثقافي الداخلي للروابط السلالية لا يقتصر على اندماج المجموعات الاثنوغرافية . ومما ينطوي على اهمية كبيرة بالنسبة الى تراص الامم السلالي المعاصر في ظروف الاشتراكية تزايد تجانسها الثقافي نتيجة التبدد المطرد للفوارق الطبقية وتقارب العمل الذهني والعضلي وظروف حياة المدينة والريف .

ان احصاءات السكان التي اجريت في بلادنا كانت تبين دائما تغيرات ملحوظة في تراص توزع مختلف القوميات . بين الشعوب الاساسية للجمهوريات المتحدة انخفض من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٧٩ تراص الروس اكثر من غيرهم : في عام ١٩٢٦ كان يعيش في نطاق روسيا الاتحادية ٩٣,٤٪ من مجموع السكان الروس في البلاد ، وتقلصت هذه النسبة في عام ١٩٧٩ الى ٨٢,٦٪ . وهذا ناجم عن هجرة الروس الواسعة الى خارج جمهوريتهم . وانخفض بعض الشيء التراص السلالي لدى البيلوروسيين والجورجيين (كان عند الاخيرين اشد تراص بين شعوب الجمهوريات المتحدة بناء على احصاء عام ١٩٧٩ : كان يعيش خارج جورجيا ٤٪ فقط من مجموع الجورجيين) . وعند الاوكرانيين والمولدافيين واللاتفيين والاذربيجانيين ازداد تراص التوزع بالتدريج من عام ١٩٢٦

الى عام ١٩٧٠ ، ثم تقلص بعض الشىء . وهذا التراص كان ينمو باستمرار لدى الارمن والليتوانيين والاستونيين (ما زال الارمن يتسمون كالسابق باقل تراص للتوزع بين شعوب الجمهوريات المتحدة) .

ترتبط تغيرات معينة فى البنية السلالية فى الاتحاد السوفييتى بعمليات الاندماج . ويشهد على الصفة الطبيعية لعمليات الاندماج السلالية فى الاتحاد السوفييتى واقع ان قناتها الرئيسية هى الزواج السلالى المختلط ، حيث يختار الاولاد الانتماء السلالى لاحد الوالدين ، قاطعين بهذا الخط السلالى للآخر . غالبا ما يعقد الزواج المختلط بين القوميات فى ثلاث مناطق للاتصالات السلالية . المنطقة الاولى هى الفناء الخلفى لاقامة الشعب ، منطقة الحدود السلالية . والمنطقة الثانية هى المدن الكبرى وورشات البناء الجديدة فى سيبيريا – والاراضى البكر المستصلحة فى كازاخستان . وتشمل المنطقة الثالثة التداخل القومى الغريب الذى يخرق تراص توزع اثنوس معين .

ان ما جرى فى سنوات السلطة السوفييتية من تطور العلاقات السلالية الودية وتقلص الحواجز الدينية ادى الى جانب اشتداد اختلاط الاثنوسات الاقليمى ، ولا سيما فى المدن النامية بسرعة ، الى زيادة كبيرة لحالات الزواج هذه . اذا كانت حالات الزواج المختلط سلاليا على نطاق البلاد باسرها قد بلغ فى عام ١٩٢٥ نسبة واحد على اربعين ، فان هذه النسبة وصلت فى اواخر الخمسينات الى العشر ، وفى بعض المدن الكبرى الى الربع . وتستمر بالتزايد نسبة الاسر التى ينتمى فيها الازواج والزوجات الى اثنوسات مختلفة . واذا كانت هذه الاسر فى عام ١٩٥٩ تشكل فى كل ارجاء البلاد ١٠,٢٪ من عدد الاسر الاجمالى ، فان نسبتها ارتفعت فى عام ١٩٧٠ الى ١٣,٥٪ ، ويعطى احصاء عام ١٩٧٩ النسبة نفسها تقريبا .

ان اتجاه عمليات الاندماج يتوقف كثيرا على الآثار السلالية لهذا النوع من الزواج المختلط قوميا . وثمة فى

غضون ذلك اختلافات اقليمية ملحوظة فى تعيين الاحداث الذين ترعرعوا فى اسر مختلطة لانتمائهم السلالى ، وفى تكون وعيهم الذاتى السلالى . وهكذا ، ففى منطقة البلطيق ، فى الاسر المكونة من زوجين احدهما ينتمى الى الاثنوس المحلى (الاستونى ، اللاتفى ، الليتوانى) والآخر روسى ، يحدد نصف الاحداث انتماءهم الى الروس ، والنصف الآخر الى الاثنوس المحلى . اما فى تشوفاشيا فان قرابة ٩٨٪ من اولاد الاسر التشوفاشية – الروسية يسمون انفسهم روسا . ونجد وضعا مغايرا فى تركمانيا . هناك يعتبر اغلب الاحداث من الاسر التركمانية – الروسية انفسهم تركمانا .

ننوه هنا بان الاندماج فى الاتحاد السوفييتى – كما فى اغلبية البلدان الاخرى – لا يمارس تأثيرا ملحوظا نسبيا الا فى عدد افراد الشعوب المبعثرة اقليميا ، وكذلك المجموعات السلالية الموجودة فى اراض يشغلها اثنوس آخر من حيث الاساس .

يتجلى التكامل السلالى قبل كل شىء فى تقارب ثقافات مختلف الشعوب ، وفى تكوين «شريحة ثقافية» واحدة من حيث المضمون (ولكنها متنوعة من حيث الشكل) وملامح مشتركة فى نمط الحياة . وقاعدة العمليات من هذا النوع تشكلها الرابطة الاقتصادية الاجتماعية والفكرية السياسية للامم والاقوام فى اطار الدولة الاشتراكية الواحدة .

ان ممارسة التعاون بين القوميات وتبادل الكوادر على نطاق واسع يوفران الجو الاجتماعى الخلقى الذى يساعد على استيعاب افكار الاممية .

وتنطوى على مغزى جوهرى بالنسبة الى التقارب السلالى تنقلات السكان الكبرى التى تؤدى الى النمو التدريجى للتعدد السلالى فى الكثير من مناطق البلاد . وهكذا ، فاذا كان عدد الناس الذين ينتمون من حيث قوميتهم الى شعوب اقامت جمهورياتها المتحدة وذات الحكم الذاتى ، ولكنهم يعيشون خارجها قد بلغ فى عام ١٩٥٩ قرابة ٣٦,٥ مليون شخص ، اى ١٧,٥٪ من سكان البلاد ، وهو مؤشر هام بحد ذاته ، فان

عددهم وصل فى عام ١٩٧٩ الى قرابة ٤٩ مليون شخص ، اى ١٨,٧٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفييتى . ان سكان اغلبية المدن ذوو بنية قومية معقدة بشكل خاص . وتحولت المدن الكبرى الى مراكز للاتصالات السلالية الحثيثة .

يقترن التكامل السلالى اوثق اقتران بعملية اوسع ، عملية ظهور وتطور رابطة تاريخية جديدة ، وهى الشعب السوفييتى الذى يمثل اول كيان فى تاريخ البشرية متعدد الاثنوسات (القوميات) نشأ على قاعدة الاشتراكية .

ان ما يكمن فى اساس تشكل هذه الرابطة الامية من تقارب بين الامم فى الميادين الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والايديولوجى قد اقترن بنمو رابطتها فى المجال الثقافى الذى يشكل المضمون الاساسى لعمليات التكامل السلالى نفسه . وفى غضون ذلك فان اتجاه التقارب يقترن دياليكتيكيا باتجاه تطور الثقافات القومية . وطبيعى الا يتجلى هذان الاتجاهان على نحو واحد فى مختلف عناصر الثقافة .

ان العمليات التكاملية ، كما هو معروف ، مميزة بشكل خاص لمجال الثقافة المادية . وبالنسبة الى خصائص الجوانب السلالية للثقافة المادية ، فانها تبقى فى المظهر الداخلى للمسكن امدا اطول مما فى عمارة المسكن نفسها ، وتبقى فى زخرفة الملابس امدا اطول مما فى الملابس نفسها ؛ والخاصية السلالية راسخة جدا فى الاطعمة .

والى جانب ذلك يلاحظ فى بلادنا فى الوقت الحاضر اتجاه ثابت لان تحظى بعض العناصر التقليدية للثقافة التى يحضرها هذا الشعب او ذاك (او عدة شعوب فى منطقة جغرافية معينة) بانتشار واسع فى ربوع الاتحاد السوفييتى باسره ، وذلك مثل سجاد آسيا الوسطى والقمصان الرجالية الاوكرانية ومصوغات منطقة البلطيق المصنوعة من المعدن والكهرمان وبعض الاطعمة القفقاسية والاوكرانية والروسية الخ .

من المعروف جيدا ان الخاصية السلالية فى مجال الثقافة الروحية تتجلى منذ قديم الازمنة وبوضوح خاص فى الفن الشعبى .

تتسم الحياة الثقافية المعاصرة فى الاتحاد السوفييتى بنمو ثابت للاهتمام بالاشكال الامية لموسيقى المنوعات والموسيقى السمفونية . ومن التقليدى فى الوقت نفسه توجه الناس الى الاغانى الشعبية فى ساعات الراحة ، وفى الاعياد . وفى خلال الاستطلاعات السلالية السوسيولوجية الاخيرة بين الاوزبكيين ، مثلا ، اجاب اكثر من ٩٠٪ من سكان الريف وما يربو على ٧٠٪ من سكان المدن (بمن فى ذلك ٥٢٪ ممن تتراوح اعمارهم بين ٢٠ و٢٤ سنة) انهم يفضلون الموسيقى القومية . وبين المولدافيين فضل الرقص والموسيقى القوميين اكثر من ٦٠٪ لا من عداد العمال والمستخدمين فحسب ، بل بين المثقفين ايضا ، وبلغت هذه النسبة لدى الاستونيين قرابة ١٠ فى المدن وقرابة ٢٠٪ فى القرى بين الشبيبة ومتوسطى الاعمار ، واكثر من ٣٠٪ فى المدن و٧٠٪ فى القرى بين الكبار فى السن . ولكن اداء الاغانى الشعبية هو ، بالطبع ، اوسع من تفضيلها . اذ يمكن للمرء ان يحب الموسيقى السمفونية اكثر ، ولكنه يغنى الاغانى الشعبية اكثر وسط الاسرة ومعشر الاصدقاء . وحتى الذين كانوا يفضلون المنوعات لوحظ فى اواخر السبعينات نمو اهتمامهم بالموسيقى الفولكلورية .

ومن المميز فى صدد موضوعنا هذا تطور الحرف الفنية كذلك . ومصنوعات هذه الحرف تحافظ ، كقاعدة عامة ، على خاصية سلالية عالية . وحتى ان هذه المصنوعات تتحول احيانا – كما هو معروف جيدا – الى رموز سلالية من نوع خاص ، وان لم يكن ذلك داخل رابطتها السلالية بقدر ما هو فى نظر ممثلى الروابط الاخرى . وفى الوقت نفسه ، فان الاسرة المعاصرة من اية قومية (ولا سيما فى المدن) لا تتفرج على البرامج التلفزيونية او تستمع الى البث الاذاعى من الجمهوريات الاخرى او تقرأ الكتب المترجمة من لغة اخرى فحسب ، بل وتجمع على نحو خاص تفاصيل البيت الداخلية : سيراميك اوكرانيا او منطقة البلطيق ، المسكوكات الجورجية ، السجاد الاوزبكى او التركمانى ، التطريز الروسى الخ . ويمكن ان تستخدم لاغراض نفعية او تزيينية .

وتقارب شعوب بلادنا يتجلى بشكل فعال فى التأثير والاغناء المتبادلين بين اللغات وتقاربها . (لا مجال ، طبعا ، حتى لمجرد الحديث عن اندماج اللغات ولو فى المستقبل البعيد .) وقد ظهرت وتنمو ثروة من الكلمات مشتركة للغات القومية كلها ، واحتياطى مشترك من المفردات . وهذه الظاهرة كذلك ملحوظة عندنا بوضوح كاف .

ان ثمانى فى المئة من كلمات اللغة الطاجيكية الادبية المعاصرة مفهومة عمليا لكل انسان مثقف ، وعدد هذه الكلمات اكثر بمرتين فى اللغة الكبردينية . وفى غضون ذلك فان الكلمات المشتركة ، كما تبين الاستقصاءات ، هى فى اللغة العامية اكثر بكثير مما فى اللغة الادبية ، كقاعدة عامة .

تشكل اللغة الروسية المصدر الرئيسى للكلمات المشتركة ، ومن خلالها تدخل المفردات الدولية فى اللغات القومية الاخرى . كتب الاكاديمى فينوغرادوف ، اكبر خبير فى هذه المسألة : «تتجلى نقاط التشابه والتطابق فى لغات بلاد السوفييت الناجمة عن تاثير اللغة الروسية : ١) فى اتساع مجال تأثير التعابير الروسية ، ولا سيما الجديدة ، السوفييتية ، فى نقلها عن طريق الترجمة الحرفية ؛ ٢) فى الانتشار المتدفع للكلمات المعبرة عن الواقع السوفييتى ، فى حركتها من لغة الى اخرى ؛ ٣) فى استيعاب الذخيرة الاساسية للمفردات العالمية عبر واسطة اللغة الروسية ؛ ٤) فى الاتجاه المتزايد نحو التدويل اللغوى عامة ، والتدويل اللغوى السوفييتى خاصة» .

اصبحت اللغة الروسية اللغة الثانية لاغلب اناس القوميات الاخرى فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن هذا لم يضعف لغاتهم الام نفسها . لقد اظهر احصاء السكان الاخير فى عام ١٩٧٩ ان العدد الاجمالى لمن يتكلم اللغة الروسية بطلاقة او يعتبرها لغته الام فى الاتحاد السوفييتى يبلغ ٨ و٢١٤ مليون شخص (فى عام ١٩٧٠ كان عددهم ١٨٣ مليون نسمة) ، او ٩ و٨١٪ من مجموع السكان (٧٦٪ فى عام ١٩٧٩) . وفى غضون ذلك تعتبر اللغة الام بالنسبة الى ١٣٧,٢ مليون روسى

(١٢٨,٨ مليون فى عام ١٩٧٠) ، وبالنسبة الى ١٦,٣ مليون شخص من القوميات الاخرى (١٣ مليونا فى عام ١٩٧٠) ، واللغة الثانية بالنسبة الى ٦١,٣ مليون نسمة (٤١,٩ مليون فى عام ١٩٧٠) .

وطبيعى ان اللغات الاخرى ايضا تؤدى قسطا خاصا ، وان كان اقل ، فى ذخيرة مفردات عموم الاتحاد السوفييتى .

ان القراء الروس والاوكرانيين والجورجيين والليتوانيين يشعرون بان القيرغيزى جنكيز ايتماتوف كاتبهم ، والافارتسى رسول حمزتوف شاعرهم . وتعرض مسرحيات الكاتب المسرحى المولدافى يون دروتسى فى موسكو وتالين ومينسك . وهذه امثلة مألوفة عندنا .

الى جانب الروسية تنتشر على نطاق واسع فى البلاد لغات اخرى لشعوب الاتحاد السوفييتى بمثابة لغات ثانية . وحسب احصاء عام ١٩٧٩ يتكلم هذه اللغات بطلاقة ١٢,٣ مليون شخص ، او ٤,٧٪ من سكان البلاد (٦,٢ مليون فى عام ١٩٧٠ ، اى ازداد عددهم الى الضعف) ، واكثر اللغات انتشارا بينها هى الاوكرانية والبيلوروسية والاوزبكية والتترية والمولدافية والاذربيجانية والطاجكية والجورجية .

ينبغى التنويه الى جانب ذلك بان الاستخدام الواسع للغات التخاطب بين القوميات يقترن فى بلادنا بالمحافظة الراسخة على تصور الانسان للغته الام كلغة لقوميته . وفى سنوات السلطة السوفييتية لم يتغير هذا المؤشر تقريبا . كما تشير الاحصاءات : كان يعادل ٩٤,٢٪ من سكان البلاد فى عام ١٩٢٦ ، و٩٤,٣٪ فى عام ١٩٥٩ ، و٩٣,٩ فى عام ١٩٧٠ ، و٩٣,١٪ فى عام ١٩٧٩ .

ان الثقافة السوفييتية العامة تتجسد فى جزء كبير من مجالها بالكثير من لغات شعوب الاتحاد السوفييتى ، وتعدد اللغات هو صفتها المميزة الهامة .

ان المصلحة المتبادلة فى التعاون على قدم المساواة والاهداف المشتركة تكتل شعوب الاتحاد السوفييتى . والعلاقات الودية التى نشأت على هذا الاساس بين الناس من

مختلف القوميات تتجلى سواء فى التصرفات ، او فى الامزجة والتوجهات .

يمكن ان نورد لقرائنا امثلة كثيرة : ان الالوف من الشبان والشابات الروس والاوكرانيين والجورجيين والارمن قد ذهبوا طوعا لتعمير طشقند ، عاصمة اوزبكستان السوفييتية ، التى دمرها الزلزال ، ولبناء محطة نوريك الكهرمائية فى طاجيكستان السوفييتية . ومن الامثلة الحية على التعاون الاخوى بين الشعوب ورش بناء مثل خط بايكال – آمور ومحطة سايانوشوشينسكايا الكهرمائية ومصنع اتومماش ، وبالمناسبة ، فقد عمل فى هذه المشاريع متطوعون شباب كثيرون من البلدان الاشتراكية الاخرى .

مما يشهد ، بوضوح كاف فى رأينا ، على اممية السوفييتيين موقفهم العاطفى من الاختلاط بين القوميات ، الامر الذى اكدته ابحاث سوسيولوجية خاصة . ففى مدن مولدافيا ، مثلا ، يبدى بنشاط قرابة ٩٠٪ من المولدافيين والروس موقفهم الايجابى من العمل فى جماعات انتاجية متعددة القوميات ، واعرب ما يربو على ٩٠٪ من المولدافيين والروس فى المدينة وحتى ٨٠٪ فى الريف عن موقفهم الايجابى ازاء الزواج المختلط بين القوميات ، وبلغت هذه النسبة اكثر من ٧٠٪ فى لاتفيا السوفييتية ، ويقف ٨٤٪ من اللاتفيين موقفا ايجابيا ازاء العمل فى جماعات متعددة القوميات . وينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار فى غضون ذلك ان اغلبية العدد الباقى من الذين استطلع رأيهم اشخاص يقفون موقفا محايدا ازاء الاتصالات القومية فى العمل . وقلائل هم الناس الذين يقفون موقفا سلبيا ازاء مختلف انواع الاختلاط القومى المباشر . ففى تتريا ، مثلا ، لم تتجاوز نسبتهم بين سكان المدن والريف ٢–٤٪ (بين التتر والروس) ، مع العلم انهم ، عادة ، اشخاص لا يحسنون لغة ثانية . ان صحة السياسة القومية الاشتراكية تؤكدها بين امور اخرى ، وهذا واقع هام ، طبعا ، الطروحات الاكثر اممية لدى الناس من مختلف الاعمار .

ان البناء الاشتراكى وظهور وتطور ازدواجية اللغة ، واخيرا تشكل النظام السوفييتى المشترك للثقافة الروحية امور يمكن تقديرها كعملية لاعادة التوجه الثقافية وتكون رابطة ثقافية تاريخية سوفييتية مشتركة . رابطة لا تجمع فى ذاتها ما نصطلح على تسميته بالتقاليد الثقافية «الغربية» و«الشرقية» بقدر ما تجمع الملامح الراسخة الجديدة التى تكونت فى سنوات السلطة السوفييتية .

ان الشعب السوفييتى رابطة سلالية جديدة ، وصفته هذه تفترض جانبين اكيدين على الاقل : فهو ، من جهة ، رابطة متعددة القوميات والاثنوسات ، وهو ، من الجهة الاخرى ، ذو طابع قومى مشترك وسلالى مشترك . لا يتمتع الشعب السوفييتى باراض واحدة واساس اقتصادى واحد فحسب ، بل يتمتع كذلك بثقافة مشتركة ووعى ذاتى مشترك . ولا ينبغى نسيان ان وحدتنا فى مجال الثقافة لم تولد من تلقاء ذاتها ، بل صنعت فى النضال من اجلها ، وهو نضال واع ، على اساس برنامج الدولة الاممى الذى يراعى بجدية تامة التقاليد الاممية العميقة لشعوب بلادنا . وهذا ما كتبه الاكاديمى كونراد عن اتحاد الثقافات الشعبية فى بلادنا :

«لم تضع ثورتنا امامنا مهمة اقامة نظام اجتماعى جديد تاريخيا فحسب ، بل واقامة نظام للثقافة يناسبه . وينبغى لهذا النظام ان يكون واحدا لمجتمعنا باسره وان يراعى فى الوقت نفسه ان كل شعب فى اتحادنا ملك ويملك تقاليده الثقافية الخاصة ، والكثير من هذه الشعوب يملك تاريخه الثقافى الكبير ، المديد ، الخاص .

لنحاول المرور على حدود اتحادنا ، متوقفين فى غضون ذلك عند القطاعات الكبيرة وحدها ، اى عند كل من الجمهوريات على حدة . فى اقصى شرقنا نرى بورياتيا ، وقد كانت ثقافة الشعب البورياتى فى السابق مرتبطة ارتباطا مباشرا بثقافة منغوليا ، ومن خلالها بثقافة التيبت . وفى آسيا الوسطى تقع طاجيكستان وتركمانستان وقيرغيزيا واوزبكستان وكازاخستان . وكانت ثقافة هذه الجمهوريات فى الازمنة

السابقة ، ولا سيما في القرون الوسطى ، تدخل دائرة ثقافات الشعوب الايرانية والتركية في الشرق الاوسط ، ومن خلالها كانت تتشابك مع ثقافة شمال غرب الهند ، وحتى انها كانت تتشابك قديما مع ثقافة مملكة كوشان ، ومن خلال باكتريا مع ثقافة الهيلينية . وذلك دون الحديث عن التشابك المعقد لثقافة الايرانيين والاتراك مع ثقافة العرب .

ننتقل الى ما وراء القفقاس . هذه اذربيجان التركية : علاوة على كل الصلات المشار اليها ادت دورا في تاريخها الصلات بجورجيا وارمينيا المجاورتين ، اما في خصوص ثقافة الشعبين الجورجي والارمني فانها ، كما تعلمون ، لم تكن تنفصل في السابق ، ولا سيما في ارمينيا ، عن الثقافة الايرانية والتركية والعربية ، وعن ثقافة الشرق المسيحي باسره ، ومن خلاله بيزنطة ايضا ، وكذلك العالم اللاتيني قديما .

نتحرك من القفقاس الى اوربا . هذه اوكرانيا ، روسيا كيف سابقا : في ذلك الماضي كانت من ناحية الثقافة جزءا من منطقة شاسعة لا تضم السلافيين الشرقيين وحدهم ، بل تضم السلافيين الجنوبيين كذلك ، والغربيين جزئيا . ان ثقافة بيلوروسيا كانت في السابق ، شأن تاريخها ، تتشابك مع تاريخ وثقافة ليتوانيا والشعب البولندي . ويرتبط الشعب اللاتفي في تطوره الثقافي سواء بالشعوب السلافية او بالشعوب الجرمانية . ويرتبط الاستونيون بثقافة السلافيين والسكاندينافيين على حد سواء . انا لا اتحدث عن ثقافة الشعب الروسي التي ترتبط ارتباطا مباشرا وغير مباشر بثقافة الجزء الاكبر من العالم . وهكذا ، فقد اندمجت في مجرى ثقافة بلادنا تيارات ثقافية مختلفة اشد الاختلاف . ولعلنا مدينون لهذا جزئيا بشعورنا الحاد على نحو خاص بوحدة البشرية ...» .

لم تفقد ثقافة شعوب بلادنا غناها وتنوعها ، ولكن الملامح الاممية المشتركة هي على اى حال اهم وابرز ما في هذا التنوع .

الف الكاتب اللاتفي ايمانت زيبدونيس مع الكاتب

الاوكراني فيتالي كوروتيتش كتابا عن طاجيكستان . يكتب المؤلفان باسلوب عاطفي ومجازي في مقدمة هذا الكتاب : «كل شعب لا يختلط بالشعوب الاخرى يغدو وحيدا . انه وحيد لا يعرف شيئا عن ضباب البحار الاخرى ، عن ضحك الاطفال الغرباء ، وحكمة الشعوب الاخرى . . . والقومية ، البرجوازية او الاقطاعية ، هي ايضا عزلة ، عزلة بالاكراه ، عزلة يكال لها المديح او تكيله لذاتها . العزلة علامة لسوء التفاهم بين الشعوب . وراية الصداقة لا تحمل علامة كهذه» .

بيد ان اتحاد شعوب بلادنا وتعاونها وصداقتها الاخوية لا يمكن ان تشكل بالنسبة الينا مسوغا لطمأنة الذات ، ناهيكم عن اطراء الذات . ان المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذي عقد في شباط - آذار (فبراير - مارس) عام ١٩٨٦ قد اشار بشكل خاص الى ان «منجزاتنا لا ينبغي ان تخلق انطباعا بانعدام المعضلات في العمليات القومية» ، والمعضلات من هذا النوع تتجلى في مختلف المجالات . ويمكن ان تعزى اليها الفوارق الكبيرة بين الجمهوريات المتحدة في وتائر نمو انتاجية العمل في الصناعة في المدة الاخيرة . وهكذا ، ففي السنوات الخمس عشرة الاخيرة (حتى عام ١٩٨٤) كانت وتائر هذا النمو في اذربيجان وبيلوروسيا اعلى بمرة ونصف مما في طاجيكستان . وفي اواخر السبعينات ومستهل الثمانينات «اخذ» في كازاخستان دخل وطني من وحدة ارصدة الانتاج الاساسية اقل مما في الاقتصاد الوطني عموما بمقدار الثلث . وفي تركمانيا لم تبد انتاجية العمل الاجتماعي نموا في خلال الفترة نفسها . ومن المفهوم ان هذه فوارق ملحوظة في ميدان ديناميكية الثقافة المادية .

من القضايا الجديدة ، التي اخذت تزداد حيوية في السنوات الاخيرة ، الوضع الديموغرافي المتوتر الذي نشأ في جملة من مناطق بلادنا . ان لوحة تجدد السكان في الاتحاد السوفييتي عموما المرضية لنا نسبيا صارت في المدة الاخيرة تتكون الى درجة كبيرة على حساب مؤشرات تجدد الشعوب الاصلية في آسيا الوسطى والكازاخيين والاذربيجانيين الذين تبلغ وتائر

نموهم ثلاثة اضعاف متوسط وتائر النمو على نطاق الاتحاد السوفييتي .

ان عدم انتظام العمليات السلالية الديموغرافية فى اقترانه بتباين وتائر نمو انتاجية العمل قد رافقه فى السبعينات ومستهل الثمانينات تمايز الجمهوريات من حيث تطور بعض عناصر الهياكل الارتكازية الاجتماعية العامة فيها ، بما فى ذلك المساكن والخدمات العامة وقاعدة النشر . وفى تلك الفترة نفسها برزت وسيطرت فى بعض الاماكن امزجة محلية ، اقليمية . وقد عرقلت تبادل الكوادر بين المناطق ، وتبادل العاملين الضليعين بين الجمهوريات والمركز ، بين مناطق البلاد ومدنها . هذا وغيره من التعقيدات فى العلاقات القومية تؤدى فى بعفى الاماكن الى ظواهر سلبية .

فى هذه الحالات يتوقف درء وازالة الظواهر المرفوضة فى الاختلاط بين القوميات على التغيرات الجذرية فى تسوية القضايا الاجتماعية ذات الحيوية بالنسبة الى المرحلة المعاصرة من تطور المجتمع : فى تسوية ميزان العرض والطلب لاصناف معنية من العمل ، وفى البناء السكنى على الرغم من شدة وتيرته الآن اكثر مما فى اى بلد آخر ، وفى الارشاد المهنى للشبيبة ، وفى تحسين الخدمات العامة الخ .

ان السيكولوجيا الوطنية هى فى المرحلة المعاصرة مجال هام لتطور الاتجاهات الامية . اذ ان حب الانسان لشعبه ولاراضيه السلالية يقترن عند السوفييتيين بشعور اوسع بالانتماء الى الشعب السوفييتي ، بالوطنية السوفييتية المعتمدة على اساس الامية ، على افكار المساواة والرابطة الوثيقة بين شعوب بلادنا .

ان اتجاهات تطور الامم وتقاربها الملازمة للعمليات القومية فى الاتحاد السوفييتي لها نظائرها ايضا فى بلدان الاسرة الاشتراكية الاخرى . وفى غضون ذلك ينبغى ، طبعا ، ان يؤخذ فى الاعتبار ان الكثير من هذه البلدان وحيدة الاثنوس : فى المانيا الديمقراطية يشكل الالمان ما يربو على ٩٩٪ من مجموع السكان ، وفى هنغاريا يشكل الهنغاريون

٩٨،٦٪ ، وفى بولندا يشكل البولنديون ٩٨،٤٪ . تتسم يوغسلافيا بين البلدان الاشتراكية باكبر تنوع سلالى بعد الاتحاد السوفييتي : ٤٠،٩٪ من سكانها صربيون ، ٢١،٨٪ كرواتيون ، ٨،٢٪ سلوفانيون ، ٨،٢ بوسنيون («مسلمون») ، ٦،٨ البانيون ، ٥،٩٪ مقدونيون . وتعتبر تشيكوسلوفاكيا ثنائية الاثنوس اساسا ، حيث يشكل التشيك ٦٤،٠٪ من السكان ، والسلوفاك ٣٠،٣٪ . وتتسم الفيتنام ببنية سلالية فريدة جدا . ففيها الى جانب اكبر الاثنوسات ، الفيت او الكين الذين يشكلون قرابة ٨٧٪ من سكان البلاد ، ٥٣ شعبا آخر اكبرها (التاى والميونغيون والخميريون) اقل من مليون نسمة (٨٥٠ الفا ، ٧٠٠ الف ، ٦٨٠ الفا على التوالى) ، واصغرها لا تتجاوز عدة مئات من الناس (مثلا ، يبلغ عدد كل من الروابط السلالية للبراو والرمام والاودو ٢٠٠ شخص تقريبا) .

تستمر فى البلدان الاشتراكية ، سواء منها الوحيدة الاثنوس او المتعددة الاثنوسات ، عمليات التلاحم السلالى القومى الداخلى . فمثلا ، تلاحظ بوضوح فى زمننا عمليات من هذا النوع عند الامة الكرواتية التى تمحى لديها على نحو متزايد فى خلال هذه العمليات الفوارق الثقافية المعاشية لكل من المجموعات الاثنوغرافية والاثنوسات الفرعية . وينطوى على طابع قومى داخلى كذلك التلاحم التدريجى للمجموعات السلالية الاقليمية فى اطار الامة السلوفاكية ، وتتمحى فى تشيكوسلوفاكيا الفوارق بين التشيك المقيمين فى الاراضى التشيكية ومورافيا ، وكذلك بين المجموعات الاثنوغرافية فى مورافيا ، مثل اللاخيين والهوراخيين والهاناكيين وغيرهم . ويندرج بنشاط متزايد فى الامة البولندية الكاشوبيون الذين يعتبرهم بعض الباحثين اثنوسا مستقلا ، ويعتبرهم آخرون مجموعة اثنوغرافية (اثنوسا فرعيا) للشعب البولندى (وبالتالى يعتبرون اللغة الكاشوبية لهجة بولندية) .

وتجرى فى البلدان الاشتراكية ايضا عمليات اندماج سلالى ، ويبرز الزواج المختلط سلاليا كقناة رئيسية لها . فى

هذا الخصوص تنطوى على دلائل كبيرة جدا المعطيات حول هذا النوع من الزواج فى يوغسلافيا المعاصرة . ومن المميز قبل كل شئ، ان حالات هذا الزواج قد ازدادت بشكل ملحوظ فى البلاد فى السنوات الخمس والعشرين الاخيرة . وهكذا ، فاذا كانت حالات الزواج المختلط من الناحية القومية تشكل ٩,٣٪ فى عام ١٩٥٦ ، فقد وصلت الى ١٢,٤٪ فى عام ١٩٦٣ ، والى ١٣,٥٪ فى عام ١٩٧٤ . فى اغلب الحالات يجرى عقد الزواج المختلط اكثر مما يجرى حينما يعيش ممثلو القومية غير الرئيسية مشتتين . فى صربيا نفسها ، مثلا ، كانت نسبة الزواج المختلط الذى عقده الرجال الصربيون فى عام ١٩٦٣ لا تتجاوز ٣,٧٪ من مجمل حالات الزواج الذى عقده الصربيون ، اما فى الجمهوريات الاخرى ، حيث يشكل الصربيون اقلية ، فتلاحظ لوحة مغايرة ، اذ تبلغ هذه النسبة فى كرواتيا ٣٣,٣٩٪ ، وفى مقدونيا ٥٦٪ ، وفى الجبل الاسود ٥٧,٥١٪ ، وفى سلوفانيا ٧٦,٢٦٪ . وتوجد ايضا ظواهر ذات طبيعة اخرى . فالالبانيون نادرا ما يعقدون زواجا مختلطا ، حتى وان كانوا فى وسط قومى مغاير ، وذلك ناجم بصورة رئيسية عن الفوارق اللغوية والثقافية الدينية الاشد .

يوجد فى البلدان الاشتراكية المتعددة الاثنوسات اتجاه نحو التكامل السلالى . مع العلم انه لا يتجلى بوضوح شديد الى الآن . وحتى فى يوغسلافيا التى تتجلى فيها هذه الاعراض باوضح ما يكون ، لا يمكن التحدث ، كما يبدو ، الا عن بداية نشوء رابطة سلالية شاملة على نطاق البلاد باسرها نتيجة لهذه العمليات . وقد وجدت هذه الظاهرة تعبيرها الذاتى فى الاتجاه نحو تكون وعى ذاتى يوغسلافى عام . وتطرح بصورة متزايدة مسألة مفادها ان مصطلح «يوغسلافين» (يوغسلافى) يمكن الا يعنى الجنسية فقط ، بل كذلك الانتماء القومى لسكان يوغسلافيا . والشبيبة هى انشط من يقف الى جانب استخدام هذا المصطلح للاشارة الى الانتماء القومى اجمالا (عوضا عن التسميات السلالية السابقة : صربى ، كرواتى ،

سلوفانى وما شابه ذلك) ؛ وكذلك تناقش هذه المسالة على نطاق واسع فى الادبيات الاجتماعية السياسية فى البلاد . ولكن ثمة فى يوغسلافيا غير قليل من المعارضين لهذا الاقتراح الذين يشيرون الى ان استخدام هذا المصطلح من شانه ان يوقف بشكل مصطنع المسيرة الطبيعية لتطور امم يوغسلافيا واقوامها . ومع ذلك فمن المميز ان احصاء السكان الاخير فى يوغسلافيا (عام ١٩٨١) يشهد على ازدياد عدد الاشخاص الذين سموا انفسهم يوغسلافيين لدى تحديد انتمائهم القومى (السلالى) . وهكذا ، ففى كرواتيا ، مثلا ، ازداد عدد هؤلاء الاشخاص فى الفترة بين عامى ١٩٧١ و١٩٨١ من ١٥,٥ الفا الى ٣٧٩ الفا (٨٪ تقريبا) .

ان عمليات التقارب السلالى بين الشعوب لا تنحصر فى ظروف الاشتراكية ضمن اطار كل دولة على حدة . فقد شملت الى هذه الدرجة او تلك كل اسرة البلدان الاشتراكية . وفى غضون ذلك انطوت رابطتها الروحية على مغزى خاص . واضطلع بدور من الدرجة الاولى فى هذا الخصوص نمو المستوى الثقافى للجماهير الشعبية الواسعة ، بما فى ذلك ارتفاع مستوى التعلم الذى يبرز كأهم اداة لازالة انعدام المساواة الثقافية الموروث عن الماضى . وفى عملية اعادة بناء نظام التربية والتعليم وترسيخ المساواة فى ميدان الثقافة فى البلدان الاشتراكية الاوربية يمكن (مع كل الاختلافات فى مستوى الانطلاق فى كل منها) ابراز عدة مراحل مشتركة . بدات المرحلة الاولى عقب انتصار الثورات الاشتراكية فى الاربعينات مباشرة واستمرت حتى اواسط الخمسينات ، حينما اجريت فى كل مكان اصلاحات اساسية للمدرستين الثانوية العامة والعليا . لقد صفيت فى هذه المرحلة امتيازات التعليم البرجوازية والغيت الاقساط الدراسية ، ووفر بناء المساكن العامة والاقسام الداخلية ظروفا متكافئة لمدارس المدن والريف ، حيث قلص عدد الاولاد خارج المدرسة الخ . وفى خلال اجراءات المرحلة الثانية (فى الخمسينات والستينات) ادخلت تعديلات جدية فى

البرامج التعليمية للمدارس والمؤسسات الدراسية العليا تخضع لمهمة تقريب التعليم من الممارسة الاقتصادية ؛ وفي المرحلة الثالثة ، التي بدأت في النصف الثاني من الستينات وما زالت مستمرة الى اليوم ، تدخل في النظام المتكون تعديلات تمليها مقتضيات الثورة العلمية التكنيكية .

ان المبادئ الديمقراطية الجديدة في مجال التعليم وجدت تعبيرها كذلك في تطور شبكة المدارس الثانوية العامة للاقليات القومية . وهكذا ، فقد افتتحت في تشيكوسلوفاكيا ، الى جانب المدارس التشيكية والسلوفاكية ، مدارس تعلم باللغات البولندية والهنغارية والاوكرائية . وفي بولندا بدأت تعمل مدارس ابتدائية ومدارس وليسيهات ثانوية عامة للسكان الاوكرائيين والبيلوروس والروس والليتوانيين .

وجرت اجمالا تغيرات ملحوظة في مجال التعليم العالي ، الامر الذي اقترن ، بين امور اخرى ، بنمو عدد الطلاب . ومن المميز ، مثلا ، ان نسبة الاختصاصيين ذوي التحصيل العلمي العالي والمتوسط العاملين في الاقتصاد الوطني لبلدان مجلس التعاضد الاقتصادي الاوربية قد ازدادت من ١٢ الى ٢٣٪ في الفترة من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٧٩ .

كان تطور التعليم العام في البلدان الاشتراكية عاملا هاما لاتساع الابحاث العلمية الذي اقترن بالنمو العددي للكوادر العلمية وازدياد مخصصات الدول في العلم . وبالنتيجة وصلت الابحاث العلمية في الكثير من الميادين في البلدان الاشتراكية جميعا الى مواقع متقدمة في العالم .

بيد ان ترسيخ الثقافة الجديدة والقيم الثقافية الجديدة لا يجري في بلدان الاشتراكية من تلقاء ذاته ، بل يقترن بالنضال ضد الاتجاهات القديمة للقيم . فلا يزال يصادف هناك ، مثلا ، تركيز وحيد الجانب على الخصائص القومية المميزة في تطور كل من البلدان الاشتراكية ونظرة الى هذا التطور بمعزل عن المهمات الاممية وحاجات التقدم الاجتماعي . وكان يتجلى احيانا سعى الى التوحيد المصطنع للاقليات القومية التي تجزأت تاريخيا وتعيش في اوطان اشتراكية

مختلفة ، مما يشهد على نسيان اولوية التناول الاجتماعي الطبقي للقضايا القومية .

للتغلب في ظروف الاشتراكية على هذه المظاهر للضيق والانانية القوميين ينطوي على مغزى خاص ، كما تشهد التجربة التاريخية ، قيام الاحزاب الحاكمة بالتطبيق الثابت لمبادئ الاممية ، ولا سيما ضمان الجمع المتسق بين مصالح كل امة ومصالح الاسرة الاشتراكية باسرها . ومن الهام كذلك في هذا الخصوص دور القيام في بلدان الاسرة الاشتراكية بنشر وترسيخ المعارف والقناعات الماركسية بما في ذلك في ميدان الآراء القومية . ومع كل خاصية هذه العملية في كل من البلدان الاشتراكية الاجنبية ، فقد ادت جميعها في سنوات ما بعد الحرب مهمات مشتركة في هذا الميدان . وفي المرحلة الاولى للبناء الاشتراكي كانت مهمة استيعاب الجماهير الشعبية الواسعة للايديولوجيا الماركسية واحدة من هذه المهمات . وقد حلت هذه المهمة عن طريق اقامة نظام متطور للتوعية الحزبية من مختلف الدرجات وادخال مادة الفلسفة الماركسية اللينينية في المؤسسات الدراسية العليا والمتوسطة والتنظيم الدوري للمحاضرات والندوات الخاصة الخ . وفي المرحلة التالية ينتقل مركز الثقل من الاستيعاب البسيط للمعارف الماركسية الى تطبيقها المباشر في كل مجالات الحياة الاجتماعية . والانتقال الى مرحلة قيام الاشتراكية المتطورة طرح مهمة تحويل العقيدة الماركسية الى اساس للنشاط الاجتماعي والابداعي للفرد .

لتدعيم الخصال الاممية في الحياة الروحية لبلدان الاسرة الاشتراكية ينطوي تعاونها في هذا المجال على مغزى خاص . ويسري بينها اكثر من ٧٠ اتفاقية تشمل مجموعة من المسائل المرتبطة بالتعاون الثقافي بين الدول ، وقد عقد ما يربو على ٢٠٠ اتفاقية ومعاهدة خاصة تنظم التبادل الثقافي (جولات العلماء ، والطلاب ، تبادل الفرق المسرحية والافلام السينمائية الخ .) . ويجري ، مثلا ، تعاون على نطاق واسع بين البلدان

الاشتراكية فى ميدان التربية والتعليم . ويشغل هنا اعداد الكوادر لكلا الجانبين المتعاقدين حيزا كبيرا .

واكتسب التعاون بين البلدان الاشتراكية مقاييس كبيرة فى ميدان من الثقافة ، هو العلم . ويمكن الاصطلاح على ابراز ثلاث فترات فى هذا التعاون . الفترة الاولى (اعوام ١٩٤٥–١٩٥٧) تتسم عموما بقيام النمط الجديد للصلات العلمية الدولية وببداية تطور التعاون الثنائى على اساس جديد ، اشتراكى . والفترة الثانية (اعوام ١٩٥٨–١٩٧٠) هى زمن التطور الحثيث للاتصالات الدولية الثنائية فى ميدان العلم وبداية تطور التعاون المتعدد الاطراف . والفترة الثالثة (منذ مستهل السبعينات) تتسم بالتعاون الواسع الثنائى والمتعدد الاطراف على اساس طويل الامد . واتسع الى حد بعيد فى الوقت نفسه تبادل المعلومات العلمية التكنيكية بين البلدان الاشتراكية . ولهذه الاغراض اقيم خصيصا نظام اعلامى دولى.

ويعود دور هام فى تقارب الحياة الروحية فى البلدان الاشتراكية الى اللقاءات الابداعية بين الكتاب والفنانين والنقاد الفنيين ، والى مهرجانات مختلف انواع الفنون ، والى المعارض وايام الثقافة والبث الاذاعى والتلفزيونى المشترك المنتظم وما شابه ذلك .

وهذه الاتصالات كلها تساعد كثيرا سواء على تقريب المستويات الثقافية ، او على تدعيم الرابطة الفكرية فى الحياة الروحية لبلدان الاسرة الاشتراكية . ويزداد فى غضون ذلك دور التخطيط المشترك فى جملة من ميادين العلم والتعليم .

ان تزايد الصلات الامية ، القائمة على المساواة المبدئية بين الامم جميعا ، فى ميدان الثقافة المادية والروحية على حد سواء هو اتجاه جوهرى بين بلدان الاسرة الاشتراكية .

* * *

نحن ، الاثنوغرافيين ، تتوفر لنا فى بلادنا ظروف ملائمة وتنطلق من منطلقات تجعل مادتنا تراعى لدى اداء

الكثير من المهمات الاقتصادية الخطيرة . فمهما تطور التكنيك يبقى الانسان بتجربته ومهاراته قوة الانتاج الرئيسية فى المجتمع . واستخدام الخاصية السلالية فى الممارسة الاقتصادية والاجتماعية الفعلية هو ، كما يبدو لنا ، السمة المميزة الهامة لتجربة الاتحاد السوفييتى .

جاء فى خطتنا الخمسية الاولى التى اقرت فى عام ١٩٢٩ :
«. . . لا يستطيع الاتحاد السوفييتى ان يبنى ويطور اقتصاده الوطنى الا بالمراعاة الكاملة لكل الخصائص الطبيعية والاقتصادية والقومية لوحدته الشاسعة المترامية الاطراف وبتخصص اجزائها المكونة» . وللخصائص السلالية صلة مباشرة بهذا التخصص . وهكذا ، مثلا ، فان الايقاع المألوف للعمل – وهذا ما نراعيه ايضا فى توصياتنا – هو متباين فى وسط روسيا وفى اوزبكستان : ان صيف آسيا الوسطى ارغم المزارعين مدة قرون على «فرصة غداء» كبيرة فى اكثر ساعات النهار حرارة ، وعودهم على العمل برتابة ، اما الصيف الشمالى المتقلب فكان ، على العكس ، يرغم الفلاحين على العمل بنشاط شديد فى الطقس الجيد ، حيث «اليوم الواحد يطعم سنة» . ان تجربة العمل والخبرات المهنية تتصل مباشرة بالتقاليد القومية . ويقسم اقتصاديونا فى مصلحة التخطيط الجمهوريات المتحدة الى جمهوريات ذات فائض فى القوة العاملة واخرى ذات نقص فيها . ويعزون الى الفئة الاولى آسيا الوسطى وكازاخستان ومولدافيا وما وراء القفقاس . ويوصون ، مثلا ، بتطوير الصناعتين الخفيفة والغذائية هناك . ولكن هذه التوصية عامة . فيضيف الاختصاصيون – الاثنوغرافيون ان المؤسسات الكبيرة الجديدة لهذين الفرعين لا تستطيع ان تحل هناك قضية تشغيل السكان ، فمن الواضح ان آسيا الوسطى بعائلاتها الكبيرة تقليديا تحتاج الى معامل نسيج صغيرة تقوم بتشغيل القوة العاملة على نطاق القرية او الحى بحيث يكون الوصول اليها متيسرا وسهلا بالنسبة الى الامهات الكثيرات الاطفال ، والى الفتيات .

ان تكييف الانسان مع عمل معين امر هام ، ولكن من

الواضح ان تكييف العمل مع الانسان لا يقل اهمية من نواح كثيرة . تجذب اللاتفيين والاستونيين فروع الصناعة التحويلية ، مثل صناعة بناء الاجهزة . اما فى آسيا الوسطى ومولدافيا فيفضلون الصناعتين الخفيفة والنسيجية . لا ينبغى ، كما ينصح الاثنوغرافيون ، لدى التخطيط الطويل الامد ستراتيجيا لتوزيع المؤسسات التصرف فى طاجكستان كما فى لاتفيا ، وفى اذربيجان كما فى استونيا .

اننا ، اذ نبحث فى ما هو خاص فى ثقافات مختلف الشعوب ، ندرس كيف تحل على نحو خاص القضايا البشرية العامة فى داخلها ، من تربية (وحتى ارضاع) الاطفال الى مؤازرة الشيوخ ، ومن رعاية الصحة الى بناء المساكن ، وكذلك فان ايقاع النشاط المألوف وطابع الاشغال المفضلة واشكال الاستراحة والتسليات وخصائص الطب الشعبى والفن الشعبى تدخل ايضا فى عداد الابحاث العملية للاثنوغرافية فى بلادنا .

وهذا مثل من الامثلة . تبين للباحثين السوفييت ان انظمة استخدام النباتات الطبية لا تتطابق الى حد بعيد لدى ثلاثة من شعوب آمور المتجاورة : الاوديغيين والناناى والاولتشيين . فالناناى يسبغون اكبر اهمية على جذور الاشجار ، والاوديغيون يستخدمون بصورة رئيسية فى العلاج الاغصان والثمار والاوراق ، اما الاولتشيون فيقدرون فى الشجرة اجزاءها الواقعة فوق الارض ، وفى النباتات العشبية اجزاءها التى تحت الارض . هذا فى حين ان الاوديغيين والناناى والاولتشيين يعيشون فى ظروف جغرافية واحدة ، ويحيط بهم عالم نبات واحد . وهذا بالنسبة الينا برهان على ان كل شعب يؤدى المهمات العامة بطريقته الخاصة ، وبالنسبة الى الموضوع الذى تطرقنا اليه الآن ينطوى على اهمية خاصة كون الاطباء يجدون مصادر لينهلوا منها عقاقير ناجعة جديدة . بديهى الا تكون كل الاكتشافات والاختراعات المحلية من هذا النوع ناجعة وقادرة على منافسة غيرها ، فلا بد ، طبعا ، من ابحاث

واختبارات طبية دقيقة ، يجب الاختيار والانتقاء ، ومهمتنا هنا مساعدة الاطباء على ايجاد ما ينبغى اختياره .

وحتى فى الحالات التى تكون فيها بعض الوصفات الدقيقة للطب القديم مفقودة ، يمكن بعثها من جديد . ويكفى مجرد الانطلاق من الحيوانات والنباتات والمواد المعدنية التى يعتبرها هذا الشعب او ذاك ذات خصائص سحرية او حتى مقدسة . من المعروف ان الافعى كانت مقدسة فى اماكن كثيرة ، وكانت تمارس فى الشرق الاقصى عبادة الدينشين ، اما الخانتيون والمانسى فكانوا يعبدون القندس . وليس بالضرورة ان يكون هذا التاليه مرتبطا حتما باستخدام الحيوان او النبات فى الممارسة ، ولكن هذا يمكن ان يساعد على معرفة اين ينبغى البحث .

اجرى مؤخرا علماء بيولوجيون واطباء وانتروبولوجيون وسوسيولوجيون واثنوغرافيون بصورة مشتركة بحثا شاملا فى نظام تامين الحياة ونمطها لدى الابخازيين ، الشعب الذى يعيش فى ما وراء القفقاس ويشتهر بنسبة عالية من المعمرين ، وكان معهد الاثنوغرافيا لاكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى المنظمة الرئيسية بين المنظمات المساهمة فى هذا العمل . وتثير الانتباه فى هذا الصدد الاساليب التربوية السلالية الخاصة : فليس من المألوف هنا معاقبة الاطفال او حتى توبيخهم ، انهم يتلقون المديح فقط ، وينظر الاطفال الى الامتناع عن مدحهم كلوم صارم . يعتبر الابخازيون ان اكبر مصيبة هى ان يكون الانسان وحيدا ، انهم يستقبلون المسنين الوحيدين فى اسرهم كاجداد وجدات ، وكلما كان الانسان اكبر سنا ازداد اقرباؤه وساعده هذا اكثر واكثر على الاحساس بالاطمئنان النفسى .

ان الكثيرين على قناعة بان خصائص التغذية تضطلع بالدور الحاسم فى طول العمر ، اما اغلب الاثنوغرافيين فيعتبرون ان لخصائص التربية مغزى لا يقل اهمية . اننا ، طبعا ، ندرس فى عداد خصائص الشعوب كيفية غذائها ونوعيته . (وبالمناسبة ، يقول المثل الشعبى الابخازى :

اذا اردت ان تعيش حياة اطول فاشرب المزيد من الحليب الرائب) وباختصار ، ان استنتاجات العلم غالبا ما تتطابق مع استنتاجات التجربة الشعبية .

طبيعي ان النداءات ذات الصفة العامة التى تدعو كل سكان المدن الى الاقتداء بمثال فلاحى السفوح الابخازية لا تنطوى على مغزى عملى . ولكن الاطلاع على هذه الوقائع – ومذا ما ندعو اليه – امر هام لكل انسان يمعن التفكير . ان بعض الاساليب الملموسة للتربية القومية ، والتى يدرسها الاثنوغرافيون ، يمكن وينبغى للتربية العلمية ان تستخدمها . وصار يظهر فى بلادنا فى السنوات الاخيرة عدد متزايد من المؤلفات الخاصة المكرسة للتربية السلالية .

ثمة امكانات كثيرة للغاية تكمن فى تطبيق الاساليب الاقتصادية والتكنيكية التى اعدتها الثقافات الشعبية . وقد استخدمت فى الاتحاد السوفييتى تجربة التشوكتشيين والاسكيمو فى البعثات القطبية . هذا مع العلم ان القدوة الحسنة الجديدة ليست ، للاسف ، كثيرة بالشكل الذى نريده . ولكن هذا الاتجاه السلالى العملى موجود مع ذلك : فقد نظم ، مثلا ، انتاج صناعى لزحافات الاسكيمو الشهيرة ، وبدىء بانتاج اسكى على غرار ما يستخدمه الصيادون الايفينكيون : عوضا عن جلود الحيوانات تثبت تحت الاسكى لدائن خاصة .

هناك الكثير مما يمكن استخدامه من هذا النوع ، ولكن لا يمكن استخدام كل شيء ، طبعا . لا ينبغى اعتبار ان المساكن والملابس والاطعمة التقليدية لكل شعب ملائمة حتما بكل دقائقها لظروف حياته . فالامر اعقد من ذلك . اذ ان تاريخ كل شعب متنوع ، وليست استنتاجات التجربة العملية هى وحدها التى تخلف طابعها على اسلوب وجوده ، بل كذلك القوالب والاوهام . نحن نعرف ، مثلا ، ان الشعوب الاصلية فى سيبيريا لم تكن تاكل الفطر ، وان الملابس التى يسميها الاثنوغرافيون بالملابس القومية ليست دائما مريحة للعمل وحتى للاستجمام .

ان اهمية الاثنوغرافيا التطبيقية واضحة بشكل خاص حينما يجرى الحديث عن الحرف الشعبية المعاصرة . واليوم عند بعث الاسرار الحرفية القديمة لا يتوجه المنتجون احيانا الى الصناع الضليعين المسنين (فربما لا يكون لهم وجود اذا كان يراد بعث الحرفة بعد انقطاع طويل) ، بل الى مواد ابحاث الاثنوغرافيين القديمة والجديدة .

نشير ايضا الى ان مواد الاثنوغرافيا تستخدم كذلك لدى وضع طقوس جديدة ، اشتراكية ، تنويع استجمام الانسان بما هو ممتع وشيّق .

وباختصار ، ان مجال تطبيق المعارف الاثنوغرافية هو ، حسب قناعتنا العميقة ، واسع جدا وامكاناته غير محدودة . ويقدم الاختصاصيون-الاثنوغرافيون السوفييت توصيات واقعية تماما الى هيئات التخطيط ومسؤولى الانتاج والعاملين فى المؤسسات الادارية والثقافية . وتستخدم توصياتهم الاخرى لتنفيذ الابحاث العلمية فى المواد المتجاورة . ان اثنوغرافيتنا التطبيقية تصعد قدرتها باستمرار ، ولا سيما فى المدة الاخيرة . ولعله يمكن القول من حيث المبدأ انه تترسخ جذور مادة خاصة تستخدم فى الممارسة نتائج ابحاث الاثنوغرافيين العلمية . ويمكن ، ولو على غرار البيونيكا ، ان نسمى هذه المادة بالاثنونيكا .

تدرس الاثنوغرافيا نمط الحياة فى جوانبها المرتبطة بانتماء الانسان الى شعب معين . ثمة فى الارض آلاف الشعوب ، وكل منها كدس على طريقته تجربة عملية خاصة ، وغالبا ما يوجد فى داخل الشعب ، كما سبق ورأينا ، مجموعات سلالية تكونت تاريخيا مع خصائص معيشتها ، ومع ميزات نشاطها الانتاجى احيانا ، اى ان عندنا ما نختاره لتطبيقه على المتطلبات المعاصرة والظروف الملموسة . ونحن ننطلق من ان ابحاثنا يمكن ان تبين ما يستحق بالذات اوسع انتشار من هذه التجربة العالمية ، وما يمكن ان يطبقه الآخرون .

ان ما يسمى بالثقافة العصرية التى انتشرت فى كوكبنا

على نطاق واسع ، والتى تسمى بالثقافة الاوربية احيانا والاوربية-الاميركية احيانا ، وبالثقافة الصناعية او ثقافة المدن احيانا اخرى ، تمسح الى حد بعيد الخصائص السلالية للشعوب التى تقع فى فلكها . ولكن هذا ما يزيد من اهمية درء فقدان معارف ومهارات الثقافات الشعبية . وهذا ما ينطبق سواء على الشعوب الكبيرة ، كالسلافية او العربية ، مثلا ، او على الشعوب الصغيرة كالساموانيين او قبيلة تودا فى الهند . فمن الجميع يمكن ان يتعلم الجيران القريبون والبعيدون . وكانت منجزات كل من الشعوب تدخل على امتداد قرون فى الذخيرة الثقافية المشتركة للبشرية . ولكن كانت تتثبّت هنا قبل كل شيء عناصر ثقافة البلدان التى كانت فى المقدمة من حيث تطورها الصناعى والتكنيكى . وثقافة الاغلبية الساحقة من شعوب الارض ، ولا سيما شعوب البلدان النامية ، ممثلة تمثيلا قليلا لا يتناسب وحجمها فى الذخيرة الاساسية للحضارة المعاصرة . وغالبا ما يبقى خارج «مركبة التقدم» الكثير من المنجزات الروحية والمادية .

ان احدى المهمات الاساسية ، التقليدية للعلم الاثنوغرافى السوفييتى تكمن فى تعميم التجربة الدولية التى كدسها تاريخ الشعوب – الاثنوسات .

الخاتمة . الاتجاهات الاساسية للتاريخ السلالى

مع كل تنوع التاريخ السلالى لشعوب العالم تلازمه – الامر الذى سعينا الى تبيانه فى عرضنا – بعض الاتجاهات المشتركة وقوانين معينة . وهى تتجلى بوضوح خاص فى مجال العمليات السلالية ، اى تغيرات الاثنوسات-الشعوب فى الزمان . والعمليات من هذا النوع هى التى تشكل المضمون الرئيسى لتاريخ البشرية السلالى ، وكما تبين دراسة هذا التاريخ ، فان عمليات التقسيم السلالى هى امر مميز بشكل خاص للمجتمعات ما قبل الطبقية . ومن الاسباب الاساسية لظهورها انقسام القبائل نتيجة ازدياد حجمها وشح المصادر الطبيعية فى نطاق اراضى القبيلة .

وعمليات الانقسام السلالى بالذات تكمن فى اساس انتشار الناس فى ارجاء الارض من منطقة (او مناطق) نشوء الانسان العاقل . وفى التشكيلات ما قبل الراسمالية كانت عمليات الانقسام السلالى والهجرات الجماعية المرتبطة بها بمثابة الاساس لظهور الكثير من الشعوب .

كان انتشار الاوربيين (الاسبان ، الانكليز ، الهولنديين وغيرهم) خارج نطاق اوربا (فى اميركا وافريقيا الجنوبية واستراليا) وما رافق ذلك من ظهور روابط سلالية جديدة نوعا فريدا من عمليات الانقسام السلالى فى العصر الراسمالى المبكر . وفى القرن العشرين صارت عمليات الانقسام السلالى تتجلى بمقاييس اصغر بكثير من السابق .

تغدو عمليات التوحيد السلالى هى السائدة ابتداء من عصر تفكك المجتمع البدائى . وهذه العمليات توصف عادة بصيغة عامة كعمليات تقارب واندماج . وفى الوقت نفسه يمكن تحديد العمليات التوحيدية طبقا لنتائجها النهائية . وفى هذا الصدد يصطلح على فرز ثلاثة انماط للعمليات السلالية ذات الطابع التوحيدى : التلاحم والاندماج والتكامل .

يمكن ان تعزى الى عمليات التلاحم السلالى عمليات اتحاد عدة وحدات سلالية متقاربة من حيث اللغة والثقافة فى رابطة سلالية واحدة . وينبغى فى غضون ذلك تمييز تلاحم الاقوام من قبائل ومجموعات اثنوغرافية متقاربة عن تلاحم الامم من اقوام ومجموعات سلالية واقليات قومية متقاربة من حيث اللغة والثقافة وما شابه ذلك . وكما ان الشعوب المتقاربة ترجع اصلها غالبا الى رابطة سلالية لغوية واحدة فى السابق ، فان تطور عمليات التلاحم هى فى جملة من الحالات بمثابة نفى ديالكتيكى من نوع خاص لعمليات الانقسام السلالى .

ومن المتعارف عليه ان تعزى الى عمليات الاندماج السلالى عمليات ذوبان مجموعات صغيرة لشعب ما (او بعض ممثليه) فى شعب آخر . ويوجد نمطان للاندماج : قسرى وطبيعى ، وكان للاخير منهما دائما ، كما اشار لينين مغزى تقدمى (راجع : لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٤ ، ص ١٢٥) .

ويقصد بالتكامل السلالى تفاعل وحدات سلالية اساسية (قبائل ، اقوام ، امم) تختلف اختلافا جوهريا من حيث مؤشراتها اللغوية الثقافية ، يؤدى الى ظهور بعض الملامح المشتركة للثقافة لديها . وهناك ترابط وثيق بين كل اشكال العمليات السلالية الصرف ذات الطابع التوحيدى . فليس من النادر ، مثلا ، ان يقترن التلاحم السلالى بالاندماج الى هذه الدرجة او تلك . والى جانب ذلك تختلف هذه العمليات من حيث نتائجها . يؤدى التلاحم والاندماج الى تجانس سلالى كامل نسبيا ، اما التكامل فانه يقترن فقط ،

كما سبق القول ، بظهور بعض الخصال المشتركة لثقافة الاثنوسات المتفاعلة .

تتطور العمليات السلالية تحت تاثير عوامل مختلفة بعضها ناجم عن تفاعل الاثنوسات (ولا سيما فى المجال اللغوى الثقافى) ، وبعضها عن اسباب تبدو غير سلالية (اقتصادية ، اقليمية سياسية ، ديموغرافية ، ايديولوجية الخ) .

ان العمليات السلالية التاريخية الصرف ، شان الروابط السلالية ، عبارة عن ظاهرة متدرجة . وبتعبير آخر ، يمكن ان تجرى وكانما على مستويات مختلفة ، بل وفى اتجاهات مختلفة احيانا . وبالنتيجة تصبح مجموعة واحدة من الناس تنتمى الى اثنوس واحد واقعة فى وقت معا سواء فى مجال التطور «الداخلى» لهذا الاثنوس والموجه نحو تدعيمه بمثابة نظام مستقل ، او فى مجال عملية موجهة نحو توحيد هذا الاثنوس مع كيانات اخرى . هذان الاتجاهان المتعارضان بمعنى من المعانى يتغلغلان فى تاريخ البشرية السلالى بأسره . وهكذا ، فان العمليات السلالية الديفيرغينتية (الانقسامية) المميزة للمجتمعات البدائية كانت تقترن عادة بالتراص فى اطار اتحادات القبائل . وفى ظروف التشكيلات الطبقية السابقة للراسمالية كانت عمليات التلاحم فى غاية التعقيد والتناقض .

لقد كان تزايد الاتصالات القبلية مع نمو عدد السكان العام احد العوامل التى ساعدت على تلاحم الروابط السلالية القبلية فى اقوام .

وكانت الدول الطبقية المبكرة عاملا آخر اكثر اهمية فى تشكل الاقوام . وغالبا ما كانت تظهر على قاعدة مجموعات من القبائل المتقاربة . والى جانب قرابة اللغة والثقافة (بمعنى الكلمة الضيق) الموجودة اصلا لدى هذه القبائل كانت الدولة فى هذه الحالات توحد القبائل المتلاحمة من الناحية الاقليمية السياسية وتخلق رابطة معينة من المصالح الاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

والى جانب ذلك لا ينبغى نسيان عدم رسوخ كيانات الدول الطبقية المبكرة ، بما فى ذلك تحرك الحدود السياسية النسبى . ولكن عملية تشكل الاقوام كان يعقدها بشكل خاص تدرج البنية السياسية المميز لاغلبية المجتمعات الطبقية ما قبل الرأسمالية الذى كان يقترن بتناقضات حادة بين الاتجاهات الجاذبة والنابذة . وكان ميزان هذه الاتجاهات بالذات يحدد كثيرا الاطر الملموسة التى كانت عملية تلاحم القوم تجرى فى نطاقها باشد ما يكون .

فى بعض الحالات كانت تتسم باكبر شدة العمليات الجارية داخل حدود الكيانات السياسية المترامية الاطراف التى تشمل مجموعة كاملة من الروابط القبلية . وكانت اشد منها فى حالات اخرى عمليات التلاحم السلالى فى اطار وحدات سياسية صغيرة لا تضم سوى عدة قبائل . ولكن هذين النوعين لعمليات التلاحم كانا ، كقاعدة عامة ، يتعايشان بهذه الدرجة او تلك .

ومن الامثلة على عمليات التلاحم على اساس ضيق نسبيا ظهور القومين الاثينى والاسبرطى وغيرهما من الاقوام اليونانية القديمة التى تشكلت فى اطار بوليسات على حدة . ومما ساعد كثيرا على تنشيط هذه العملية فى دولة اثينا تطبيق التقسيم الادارى الجديد (اصلاح كليسثين) فى القرن السادس قبل الميلاد ، الذى كان قائما على مبدأ اقليمى بحت مدعو الى الحلول مكان التقسيمات العشائرية-القبلية القديمة . ولكن الى جانب الاقوام التى تكونت فى نطاق الدول اليونانية القديمة (البوليسات) ، جرى فى النصف الثانى من الالف الاول قبل الميلاد فى نطاق الاتحادات السياسية لعموم اليونان القديمة تشكل رابطة اوسع ، وهى القوم الهيلينى .

وعلى هذا النحو ، يمكن الحديث عن وجود اقوام من مستويين مختلفين . وفى غضون ذلك فان قوم احد المستويين لا يمكن ان يبرز الا بمثابة رابطة سلالية بحت (اثنيكوس) (وذلك ، كما يقال ، بقوة الاستمرار بعد زوال بنيته الاجتماعية السلالية) ، وقوم المستوى الآخر بمثابة

بنية سلالية اجتماعية تقوم بوظائفها . وهكذا ، فان القوم الالمانى ، الذى بدأ بالتكون مع ظهور المملكة الجرمانية فى القرن التاسع («الامبراطورية الرومانية المقدسة للامة الجرمانية» منذ القرن العاشر) بقى بمثابة اثنيكوس حتى بعد اشتداد التجزئة السياسية فى الفترة من القرن الثانى عشر الى القرن الرابع عشر . والى جانب هذا القوم وفى اطاره وجدت فى الوقت نفسه بمثابة بنى سلالية اجتماعية الاقوام البافارى والسكسونى والشفابى وغيرها من الاقوام التى تكونت نتيجة التجزئة السياسية .

اثرت ايضا فى عمليات تكون الاقوام الهجرات الجماعية المميزة لاواخر المجتمعات غير الطبقية وبداية المجتمعات الطبقية ، والتى كانت تقترن بغزو مجموعات سلالية لاخرى . فى السابق حينما كانت جملة قضايا النسب السلالى تحل بصورة رئيسية على اساس المعطيات اللغوية وتحصر ، من حيث الجوهر ، فى تاريخ اللغات كان يعزى الى الهجرات الدور الحاسم فى تشكل اغلبية اقوام العالم . والآن صارت هذه الجملة من القضايا تعالج بصورة شاملة على نحو متزايد . مع العلم ان الاستخدام المتزايد للمواد الانتروبولوجية الى جانب المواد الارخيولوجية مكن من التشكيك فى التصورات التقليدية التى توحى بان الاغلبية الساحقة من هجرات الشعوب كانت تؤدى الى الابادة الكاملة تقريبا للسكان الاصليين المحليين او ازاحتهم . وينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار اجمالا ان التاريخ البشرى كان دوما تاريخ اتصالات واختلاط بين مجموعات مختلفة من حيث انتماؤها الانتروبولوجى واللغوى والثقافى ، وانه لا يوجد فى العالم اى شعب «نقى» لم يتشرب العديد من العناصر الغريبة .

ان الاقوام كاقسام سلالية اساسية فى المجتمعات الطبقية قبل الرأسمالية تختلف اختلافا جوهريا عن الكيانات المماثلة فى المجتمعات البدائية . ويتجلى هذا قبل كل شىء فى كون القوم يتميّز ببنية اجتماعية مغايرة مبدئيا لبنية القبيلة . اذ لا تعود علاقات الزواج والقربى العامل الاجتماعى

الاساسى الذى برص القوم فى وحدة متماسكة (ولا سيما لدى ظهوره) ، بل القوة السياسية ، اى الدولة بكل صفاتها وعناصرها .

ويختلف القوم عن القبيلة فى مجال الخصائص السلالية ايضا . فمن جهة ، يؤدى وجود الطبقات المتناحرة الى اضعاف معين للتماثل الثقافى فى اطار القوم مقارنة بما لدى القبيلة . ومن الجهة الاخرى ، اذا نظرنا الى المسالة من ناحية المكان ، فان التجانس الثقافى فى الاراضى التى يشغلها القوم هو اعلى مما فى الاراضى نفسها فى التشكيلة البدائية ، حتى وان سكنت هذه الاراضى اسرة واحدة من القبائل . وباختصار ، يجرى اما مجرد زيادة للصلات الاعلامية الثقافية داخل الرابطة السلالية-الاجتماعية (مع تحول اتحاد القبائل او جزء منه الى قوم) ، واما اتساع الاطر المكانية للثقافة المتجانسة (مع تشكل القوم على قاعدة عدة قبائل لا تربطها صلة القربى) . ويضطلع بدور كبير فى هذه العملية حشد جماهير كبيرة من الناس معا لتأدية اعمال اجتماعية او لاغراض حربية ، وانشاء المواصلات من مختلف الانواع داخل الدولة ، ونقل المعلومات التى لها طابع اوامر ، وبشكل خاص تطور الكتابة التى تؤدى فى حال وجود من يتلوها على الناس وظائفها الاعلامية حتى وان كان اغلب السكان من الاميين .

والى جانب ذلك تؤدى احيانا العمليات السلالية فى التشكيلات الطبقية ما قبل الراسمالية الى ظهور اقسام مكروسلالية ، وذلك ، مثلا ، حينما «يتفوق» كيان اجتماعى سياسى كبير (الدولة) على عدة وحدات سلالية مختلفة المنشأ تكونت فى السابق فى اطار بنى اجتماعية منفصلة . وفى نطاق هذه الكيانات تولد احيانا ، الى جانب الاقوام الموجودة فيها ، رابطة سلالية كأنها تقف فوقها مما يجد تعبيره فى ظهور بعض الملامح السلالية المشتركة بالنسبة الى الاقوام جميعا . بيد ان هذه الملامح مقارنة بالخصائص السلالية للاقوام مجرد ملغمة رقيقة ، بالاضافة الى انها ليست موزعة بالتساوى . وكمثال على هذه الرابطة يمكن ان نذكر

الامبرطورية الرومانية المتاخرة بالاتجاه المبيز لها نحو محو الفوارق بين السكان الذى تجلى باوضح ما يكون فى النشر الواسع للجنسية الرومانية وفرض الخصائص الرومانية .

الامة هى القسم الاساسى الذى يلى القوم . وهى من الناحية الاجتماعية السلالية كيان ذو مستوى محدد تماما ، مستوى المجتمعين الراسمالى والاشتراكى .

تختلف الامة عن القوم من الناحية السلالية كاختلاف الاخير عن القبيلة تقريبا . ويتكشف فى غضون ذلك الشكلان نفسهما لعلاقتهما فى المكان . فالامة هى ، فى بعض الحالات ، نتيجة تحول القوم (تحول القوم الهنغارى ، مثلا ، الى الامة الهنغارية) ، والامة فى حالات اخرى محصلة لتلاحم عدة اقوام (الامة الفرنسية ، مثلا ، هى نتيجة اندماج القومين الفرنسى الجنوبى والفرنسى الشمالى) .

ولكن من الجوهرى فى هذا الصدد انه يحدث فى الحالتين الاولى والثانية على حد سواء ازدياد مطرد لتجانس الثقافة ، مما يتجلى بوضوح خاص فى تشكل اللغة الادبية القومية العامة الواحدة ، وفى الزوال التدريجى للفوارق المحلية فى الثقافة العامة . بالمناسبة ، فان الامر لا ينحصر فى ازدياد تجانس الثقافة فقط (احيانا تكون درجة هذا التجانس لدى قوم متكون اكبر مما لدى امة تضم فى المرحلة الاولى عدة اقوام كهذا) . من الاهم بكثير كون الامة ، كقاعدة عامة ، تتفوق على القوم بشدة الصلات الثقافية الاعلامية الداخلية ذات الطابع الافقى (المتزامن) ، مع العلم ان هذا الازدياد لكثافة الشبكة الاعلامية الداخلية يقترن بشبكة اعلامية متعاظمة بين القوميات .

ان عمليات التلاحم السلالى داخل الامم تقترن احيانا باختلاط عرقى . وهذا مميز بشكل خاص للامم الاميركية اللاتينية التى تضم فى بنيتها ممثلى اجناس ثلاثة : الاوروبيين والزنوج والمغول (الهنود ، وجزئيا المتحدرين من بلدان آسيا) . وهكذا ، فنتيجة للزواج العرقى المختلط فى البرازيل فى غضون اقل من ١٠٠ سنة (من عام ١٨١٩ الى

عام ١٩١٠) ازدادت نسبة الاشخاص ذوى الاصل المختلط (ولا سيما الخلاسيين) من ٢٠ الى ٦٠٪ من عدد السكان .

اصطلح على تسمية التغيرات التى تطرأ على الامم بالعمليات القومية التى هى عبارة عن شكل من اشكال العمليات السلالية الاجتماعية .

ان العمليات القومية (شأن اى شكل آخر من العمليات السلالية الاجتماعية) هى ظواهر معقدة للغاية . وهى تشمل مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة غاية الاختلاف : من الاقتصاد الى الوعى الاجتماعى . ولذا لتسهيل تحليل العمليات القومية من هذا النوع اصطلح العلماء السوفييت فى المدة الاخيرة على فرز جانبين مترابطين اساسيين : الاجتماعى البحت والسلالى البحت . ويقصد بالجانب الاجتماعى فى غضون ذلك الظواهر الاجتماعية بمعنى الكلمة الضيق ، اى بالدرجة الاولى علاقات الانتاج والمجال الطبقى المهنى لحياة المجتمع . ويقصد بالجانب السلالى للعمليات القومية التغيرات التى تطرأ على الخصائص السلالية البحت للروابط السلالية الاجتماعية بما فى ذلك الوعى الذاتى السلالى .

ان الدور الحاسم فى العمليات القومية (بمعنى الكلمة الواسع) يعود ، ولا شك ، الى الظواهر الاجتماعية البحت ، ولا سيما الاقتصاد . بيد ان الجانب السلالى لا يمثل الجانب الجوهرى فحسب ، بل ويمثل ، طبعا ، الجانب المكون الثابت لهذه العمليات .

تنقسم الامم ، وفق مؤشراتها الاقتصادية الاجتماعية ، الى برجوازية واشتراكية . تتكون الامم البرجوازية من طبقات متناحرة تشكل البرجوازية والبروليتاريا الطبقتين الاساسيتين بينها . وفى ظل الاشتراكية تتغير البنية الاجتماعية للامة تغيرا جذريا . وبهذا المعنى يمثل ظهور الامم الاشتراكية تحولا جذريا لامم المجتمع البرجوازى . وتتسم الامم فى ظل الاشتراكية بوحدة الطبقتين الصديقتين – العمال والفلاحين . ويعود الى الطبقة العاملة الدور القيادى فى حياة الامة الاشتراكية . واذ تقيم الرأسمالية صلة شاملة وتبعية متبادلة

بين الامم ، تخلق بحكم طبيعتها الاستغلالية اضطهاد امة لاخرى . والصفة المميزة للامم الاشتراكية هى الاممية الاشتراكية والصداقة والتضامن بين الشعوب .

تمارس البنية الاجتماعية للامة تأثيرا جبارا فى تجانسها الثقافى . ان الامة البرجوازية بتناحرها الطبقى تتسم ، كما اشار لينين ، بوجود ثقافتين . فى المرحلة المبكرة لتطور الرأسمالية تضطلع ثقافة الطبقات السائدة فى الغالب بالدور الرئيسى فى الثقافة الروحية للامة . بيد انه فى المرحلة المعاصرة ، على الرغم من سيطرة المضمون البرجوازى فى الثقافة القومية فى البلدان الرأسمالية ، يتزايد مع ذلك بشكل ملحوظ دور العناصر الديمقراطية للثقافة فى الحياة الروحية . ومع الانتقال الى الاشتراكية يحظى هذا الجانب للثقافة القومية بتطور شامل . وفى غضون ذلك لا بد وان يؤدى حلول تجانس الامم الاجتماعى الى اشتداد عمليات التلاحم الثقافى التى تمثل نفيا دياليكتيكيا لطابعها المزدوج الثقافى السابق . وهكذا ، فان الامة الاشتراكية ليست استمرارا للرابطة القومية السابقة ، بل هى كيان مغاير من نواح كثيرة .

ان التزايد الشديد للصلات الاقتصادية فى ظروف ظهور الرأسمالية هو اهم عامل لتشكل الامم البرجوازية . ينبغى التنويه على نحو خاص بالمغزى الذى ينطوى عليه بالنسبة الى عملية التلاحم القومى التبادل المتعاظم فى فترة ولادة الرأسمالية بين المناطق والتداول البضاعى المتزايد بالتدريج واندماج الاسواق المحلية الصغيرة فى سوق قومية واحدة .

يمارس عامل الدولة السياسى تأثيرا كبيرا فى عمليات التلاحم السلالى للامم البرجوازية . فلا بد من اجل الانتصار الكامل للانتاج البضاعى من استيلاء البرجوازية على السوق الداخلية ، ولا بد من تلاحم الاراضى المأهولة بالسكان الذين يتكلمون بلغة واحدة فى اطار الدولة .

فى ظروف الرأسمالية يبرز تدرج العمليات السلالية

بوضوح خاص . وهي تجرى الى جانب الروابط السلالية الاساسية سواء على مستوى الاقسام السلالية الكبرى او الصغرى ، وبالمناسبة ، فان عمليات التكامل السلالى فى العالم الراسمالى تتجاوز احيانا نطاق الحدود السياسية . ومن المميز فى هذا الخصوص ظهور وعى ذاتى سلالى مشترك لهنود اميركا جميعا فى المدة الاخيرة . اما فى خصوص العمليات السلالية على المستويات الصغرى ، فيمكن الاستشهاد فى هذا الصدد بما يلاحظ فى الولايات المتحدة الامريكية ، مثلا ، من نمو الوعى الذاتى لمجموعات سلالية صغيرة نسبيا تتكون من القادمين (او اخلاف القادمين) من اوربا وآسيا (الايطاليين ، البولنديين ، الارمن ، العرب الخ) .

وباختصار ، تتسم الراسمالية منذ لحظة ظهورها بتشابك العمليات السلالية التى تجرى وكانما على مستويات مختلفة وتعكس ، من حيث الجوهر ، التناقض الديالكتيكى للتطور القومى فى هذا العصر . وهذا الظرف بالذات هو ما يكشف عنه مفهوم الاتجاهين فى المسألة القومية الذى وضعه لينين واشرنا اليه فى نصنا هذا .

على امتداد وجود التشكيلة الراسمالية لم تبق العلاقة بين هذين الاتجاهين على حالها . الاول كان ، كما نوه لينين ، هو السائد فى بدايتها ، و«الثانى يميّز الراسمالية الناضجة ، السائرة نحو تحولها الى مجتمع اشتراكى» (لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٥ ، ص ٦٧) .

ينطوى التفاعل بين هذين الاتجاهين فى ظل الراسمالية على طابع متناقض ، تناحرى ، حيث يقترن باقامة وضع متميز او حتى سيطرة مباشرة لامة على اخرى . وفى غضون ذلك ، فان وعى الشغيلة الذاتى القومى الذى يتكون فى خلال النضال من اجل دولتـ«هم» تستخدمه البرجوازية لتسعير النزعة القومية المتطرفة الموضوعة تحت خدمة مطامعها الامبريالية .

ان الثورة العلمية التكنيكية الجارية فى ايامنا تعمق

اكثر واكثر من تناقض العمليات السلالية فى بلدان رأس المال . فمن جهة ، يؤدى تركز الحياة فى المدن والتوحيد القياسى المميزان لها الى تدويل متزايد للثقافة العامة ، ومن الجهة الاخرى ، يساعد تطور وسائل الاعلام على اشتداد الوعى الذاتى السلالى لاوسع فئات السكان . وهو يتسم بحدة خاصة لدى الروابط السلالية التى تعيش فى وضع غير متكافئ فى الدولة لان اتساع الاعلام يجعل انعدام التكافؤ هذا معروفا للجميع ، وبالتالى يجعله امرا لا هوادة فيه لهذا السبب ايضا . وهذا ما يفسر الى حد بعيد المفارقة السلالية الاساسية للعالم الراسمالى المعاصر : على الرغم من التدويل المتزايد لنمط الحياة يجرى فيه احتدام مطرد للعلاقات القومية .

ان المعضلات السلالية المرتبطة فى عالمنا المعقد بتطلع الشعوب المشروع تماما الى الاستقلال والتحرر من الاضطهاد القومى ليس من النادر ان تستخدم فى السياستين الدولية والداخلية لتحقيق الاهداف الطبقية الضيقة وقمع الحركة الديمقراطية .

هذا فى حين ان الشعب نفسه ، اى اغلبيته الكادحة ، هو وحده الذى يملك حق اختيار الطريق الذى ستسير عليه البلاد لدى حل المهمات الاقتصادية الاجتماعية التى تواجهها ولدى تحديد الاهداف الستراتيجية لمستقبلها التاريخى .

جاء «بيان دلهى حول مبادئ العالم الخالى من السلاح النووى ومن العنف» الصادر فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٨٦ : «يجب احترام حق كل شعب فى الاختيار الحر — الاجتماعى ، السياسى ، الايديولوجى» .

ان الجماهير الكادحة وطليعتها الثورية ترفض الايديولوجيا الرجعية لانعدام المساواة القومية وتدعم الشعور القومى للامم المضطهدة بقدر ما يوجد فيها من «مضمون ديمقراطى عام ينتصب ضد الاضطهاد . . .» (لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٥ ، ص ١٦٦) .

تنظر الماركسية الى حركة التحرر الوطنى كمقدمة ضرورية لقيام الشعوب المضطهدة على نطاق واسع بالنضال

من اجل الاشتراكية . والى جانب ذلك من الواضح تماما للماركسيين انه لا يمكن حل المسالة القومية تماما الا بتصفية الطبقات المتناحرة ، الامر الذى يشكل مقدمة جذرية للقضاء على كل اصناف الاضطهاد وانعدام المساواة ، بما فى ذلك فى مجال العلاقات القومية .

ولهذا بالذات فان تاثير مثل الطبقات الكادحة فى العمليات السلالية المعاصرة لا يلقى تعبيره الكامل الا فى ظروف بناء المجتمع الاشتراكى . وهذا ما تشهد عليه بوضوح تجربة اكثر من نصف قرن للبناء القومى فى بلادنا والبلدان الاشتراكية الاخرى .

لدى النظر فى هذه التجربة ينبغى التنويه بان من الخطأ النقل الآلى لتصور الاتجاهات المميزة للعمليات القومية فى ظل الراسمالية الى المجتمع الاشتراكى . اذ ان اساس الامة الاقتصادى وبنيتها الطبقية ومظهرها الروحى ، اى كل ما يسم نمط الحياة الاجتماعى التاريخيى المعين ، تتغير تغيرا جذريا نتيجة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية . والى جانب ذلك ، اذا كانت المواصفات الطبقية الصرف للامة لدى تبدل التشكيلة تتغير تغيرا جذريا ، فان الخصائص السلالية الملازمة لها تبقى الى درجة كبيرة .

وبالتالى يوجد بين الاتجاهين فى المسالة القومية السارين فى ظل الراسمالية وفى ظل الاشتراكية تعاقب وتغيرات نوعية على حد سواء . تطرأ على اتجاه تطور الامم تغيرات فى ظروف الاشتراكية تحت تاثير سنن جديدة للعلاقات القومية ، مثل تاكيد المساواة بين الاجناس والامم واللغات ، وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، والتقريب بين مستويات التطور الاقتصادى والثقافى . وعلى اساس اقتصادى واجتماعى مغاير تجرى ايضا فى ظل الاشتراكية عملية التكامل القومى والتقارب بين الامم .

يتجلى الترابط بين هذين الاتجاهين المعدلين سواء فى الظواهر الاقتصادية الاجتماعية ، او فى الظواهر السلالية «الصرف» ، مع العلم ان الاولى تؤثر مباشرة فى الثانية (ولا

سيما فى الوعى السلالى) ، ويمكن للثانية ، بدورها ، ان تمارس تاثيرا معاكسا ملحوظا فى الظواهر الاقتصادية الاجتماعية .

ان التقدم فى مجال القوى المنتجة المقترن بتغيرات اجتماعية جذرية كان ينطوى ، ولا شك ، على مغزى حاسم بالنسبة الى تطور الاتجاهين المذكورين فى المجال السلالى فى بلادنا . فهذا التقدم ، وقد سبب تقوية الصلات الاقتصادية سواء داخل المناطق على حدة ، او على نطاق البلاد باسرها ، اصبح فى نهاية المطاف المقدمة المادية الاساسية للتلاحم السلالى داخل كل من الامم والتكامل القومى داخل الدولة .

منذ السنوات الاول للسلطة السوفييتية خلقت التحولات الاقتصادية الاجتماعية فى بلادنا ظروفا مؤاتية من اجل التطور العاصف لعمليات التلاحم السلالى . وفى مناطق التخوم من البلاد ، ولا سيما تلك المتخلفة فى تطورها ، تجلت هذه العمليات فى اتحاد المجموعات السلالية المتقاربة من حيث اللغة والثقافة فى اقوام كبيرة وامم .

وفى سنوات السلطة السوفييتية اصبح ايضا الكثير من الامم التى تكونت منذ زمن بعيد اكثر تراصا . وبالنتيجة ظهرت فى الاتحاد السوفييتى ، من جهة ، شعوب كبيرة جديدة ، وتقلص ، من الجهة الاخرى ، تبرقش البلاد السلالى .

تجرى فى بلادنا ، كما فى كل الدول المتعددة القوميات ، عمليات اندماج سلالى ايضا . ولدى الحديث عنها ، ينبغى التنويه على الفور بان الحديث يجرى ، اولا ، عن اندماج طبيعى ، وبان هذه العملية ، ثانيا ، تمس بصورة رئيسية الشعوب المبعثرة اقليميا ومجموعات الناس المقيمة فى اراض تشغلها قومية اخرى .

يشهد باقناع على صفة الاندماج الطبيعية فى بلادنا واقع ان «قناته» الرئيسية هى الزواج المختلط قوميا . ان الاطفال الذين يترعرعون فى اسر كهذه يختارون عند بلوغهم سن الرشد قومية احد الوالدين . وفى حالة تفضيل هؤلاء الاحداث

لقومية واحدة ما ، فان عدد افراد هذه القومية ينمو ، طبعا ، على حساب تلك التى لا يختارونها . ان نمو الاختلاط الاقليمى وضعف الشعور بتفضيل قومية على اخرى اديا الى زيادة الزواج المختلط من الناحية القومية .

ان التكامل السلالى ، لا الاندماج ، هو ما يشكل الخط الرئيسى للعمليات القومية فى بلادنا . وهو يرتبط اوثق ارتباط بالتكامل الاقتصادى ، وبتكون بنية اجتماعية وحيدة النمط لدى كل شعوب بلادنا ، وبظهور الرابطة التاريخية الجديدة ، اى الشعب السوفييتى ، على هذا الاساس . والشعب السوفييتى كيان اممى معقد يشمل الى جانب المجالين الاقتصادى والاجتماعى السياسى لحياة المجتمع الثقافة ايضا .

ادى التكامل السلالى فى السنوات التى مرت منذ لحظة قيام الاتحاد السوفييتى الى ظهور ملامح ثقافية مشتركة للشعب السوفييتى . وتجلى هذا قبل كل شىء فى تكون المضمون الاشتراكى الواحد للثقافة الروحية . وتغدو الاممية البروليتارية وروح الوطنية السوفييتية عنصريها الملازمين . لا يجوز ، بالطبع ، الا ناخذ ايضا فى الاعتبار عملية التوحيد الثقافى المرتبطة بانتشار عناصر الثقافة بين شعوب الاتحاد السوفييتى (ولا سيما الثقافة المادية ، مثل السيارات واجهزة الراديو والبرادات وما شابه ذلك) ، والمماثلة لما لدى سكان الكثير من بلدان العالم ، اى العائدة الى الثقافة الانسانية العامة المتحضرة المعاصرة .

ولكن خلافا للثقافة المادية التى يسيطر عليها الاتجاه نحو التوحيد ، تحافظ الثقافة الروحية لشعوب بلادنا على صبغتها السلالية الى درجة كبيرة . وهذا يرتبط جزئيا بالازدهار الجديد للحرف الفنية وبعث التقاليد الفنية . ولكن ثمة فى هذا الخصوص دور كبير بشكل خاص لتطور الثقافة الفنية المحترفة فى اشكالها القومية . وعلى الرغم من التبادل القومى الحثيث ، نجد حتى الكثير من عناصر الثقافة الفنية ، التى تكتسب طابعا امميا ، لا تفقد مع ذلك القدرة على صيانة

الشكل القومى او التجسد فى صورة قومية معبرة بهذه الدرجة او تلك . وفى الوقت نفسه فان التداخل القومى هو الصفة الابرز لانواع الثقافة المحترفة عموما . وتجرى هذه العملية ايضا على المستوى اليومى العام للثقافة الروحية . وتنشأ تقاليد واعياد ومراسم واحدة للسوفييتيين وحتى اسماء انتروبولوجية مشتركة .

ان اللغة الروسية ، التى تبرز بمثابة لغة للتفاهم بين كل شعوب بلادنا ، هى اهم عامل لتكوين الثقافة السوفييتية المشتركة ، واهم عنصر لها فى الوقت نفسه . ويتكلم اللغة الروسية بطلاقة فى الوقت الحاضر اربعة اخماس سكان الاتحاد السوفييتى على الاقل .

تستمر عملية تكون الثقافة السوفييتية المشتركة . ويؤدى قسطا فى هذه العملية التبادل الثقافى المتسع دوما بين بلدان الاسرة الاشتراكية الذى يضطلع بدور كبير فى تكوين الحضارة الاشتراكية التى يعود اليها المستقبل التاريخى .